جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

اتعاظ الحنفا
بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا

لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي

تحقيق

الدكتور محمد حلمي محمد أحمد
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

الجزء الثالث

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم الـ :
رقم التسجيل : ٥٦/ه ٧١٠

القاهرة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مانحة كل خير ، وتمام كل نعمـــة ،وصلاة البر الرحيم على محمد بن عبد الله أكرم خلقه ، وعلى آله وصحابته وتابعيهم ، هـــداة الطريق ، ومنارات الارشاد ، ومعالم الخبرات والخيرات .

وينتهى — بفضل الله — بظهور هذا الكتاب وضع ما سطره المقريزى عن تاريخ مصر الفاطمية فى السفر الذى اختص به هذه المرحلة الحفـــلة بالأحداث بين يدى القراء ، علماء ودارســـين ، ليفيدوا مما ورد به من معلومات لم ترد بغيره ،أو وردت فى صورة موجزة غير واضحة الألوان ، فيستكملوا بها تصورهم ، ويوثقوا فى ضوئهـــا بحـــوثهم .

ولا ينقص من قدر هذا الكتاب ما يظهر فيه — أحيانا — من متناقضات أو أخطاء تدل على انه كان فى حاجة الى نظرة أخرى — من المقريزى — فاحصة مدققة ، تزيل التناقض وتصحح الخطأ . وقد تكفلت تعليقات التحقيق المقارنة — فى كل حـــال — بوضـــع الأمور فى مواضـــعها الصحيحة ، مقدرة للمقريزى جهده العظيم ،ميسرة عمل القارىء ، موفرة وقته الذى كان سيصرفه فى محاولة البحث عن وجه الحق فى غير « الاتعاظ » من مراجع أولية أو ثانوية ، معاصرة أو تاليـــــة .

ويشمل هذا الجزء — الثالث والأخـــير — تفصيل أحداث واحد وتسعين عاما من العهـــد الفاطمى (٤٨٧ — ٥٦٧ هـ) تولى الخلافة فيها ست من الخلفاء ، تواضعت مكانتهم عمن سبقهم ، تاركين مركز الصدارة للوزراء الذين أصبحوا — منذ تولى بدر الجمـــالى منصب الوزارة أيام المستنصر بالله ، فى زمن سابق — يتحكمون فى الأمور تحكما مستبدا ، يقضى فيها قضاء المتسلط المسيطر ، لا يبالى برأى الخليفـــة ولا يقيم له وزنا ، حتى ليمكن القول أن هذا العصر يعد ، بحق ، عصر نفوذ عظام الوزراء .

ومن صور تدهور مكانة الخلافة ونفوذها فى هذه المرحلة أن المذهب الاسماعيلى تعرض لهزات عنيفة حين قرر الأفضل الجمالى ، مثلا ، تحويل نشاط حركة الدعوة الرسمية الى العناية بمذهب الامامية الاثنى عشرية ، وعندما حـــاول على بن السلار الكردى ، حين تولى الوزارة ، صرف الاهتمام كله الى النظام السنى ، والى مذهب الشافعى بصورة خاصة .

كما أقدم الوزراء ، منذ زمن الأفضل الجمالى ، على ذكر أسمائهم على المنابر فى خطبة الجمعة الى جانب اسم الخليفة ، مصحوبة بألقاب التكريم والتعظيم ، واتخذ بعضهم لنفسه لقب « الملك » ، معززين بذلك مراكزهم ، مؤكدين صدارتهم .

وقد شهد هذا العصر تقدم الصليبيين نحو بلاد الشام والجزيرة العراقية واستقرارهم الناجح فى غفلة ، أو فى تغافل مقصود ، من الحكام المحليين ومن بغداد والقاهرة على السواء.
ثم لم يلبث الرأى العام أن تدخل تدخلا واعيا حاسما ادى — فى تدرج وأناة — الى تطوير الأحداث لغير صالح الصليبيين ، مستقرين ووافدين ، ثم الى ظهور السلطان العادل المجاهد نور الدين محمود بن زنكى ، ونجاحه فى تكوين جبهة متماسكة امتدت من حدود أرمينية الى نهر الأردن .

وفى ضوء هذا الوضع الجديد — عندئذ — تطلعت مصر ، على زمن ابن السلار الكردى وأيام طلائع بن رزيك ، الوزيرين الفاطميين ، الى ضم جهودها الى جهود نور الدين محمود حتى يستكمل تكوين الجبهة التى تستطيع مواجهة الصليبيين تمهيدا لطردهم من البلاد التى كانوا قد احتلوها فى فترة الضعف والتفكك والانحلال .

وفى رعاية نور الدين نشأ صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى قدر له أن يتجه الى مصر مرات ثلاثا مع عمه أسد الدين شيركوه ، قائد جيش نور الدين محمود ، ثم استقر بها فى المرة الثالثة ليتولى وزارتها بعد وفاة عمه ، ثم ليكون الرجل الذى ينهى حكم الفاطميين .

وبنهاية العصر الفاطمى ينتهى « اتعاظ الحنفا » ، ويكتمل الكتاب الذى خصص المقريزى صفحاته لتسجيل تاريخ الفاطميين .

والمرجو أن يكون الجهد الذى بدأه الأستاذ المحقق المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال ، ثم عهدت الى لجنة احياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية — بعد رحيله — باتمامه محققا رغبة المهتمين بالتعرف على تاريخ مصر ، من مصادره الأصيلة ، فى هذه المرحلة الحاسمة .

والحمد لله ، فاتحة كل خير ، وتمام كل نعمة ، ((وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه انيب)).

محمد حلمى محمد احمد

٥ من صفر ١٣٩٣
١٠ من مارس ١٩٧٣

الْمُسْتَعْلِي بِٱللّٰهِ أَبُو ٱلْقَاسِمِ أَحْمَدُ بْنُ الْمُسْتَنْصِرِ بِٱللّٰهِ
أَبِي تَمِيمٍ مَعَدّ بْنِ الظَّاهِرِ لِإِعْزَازِ دِينِ ٱللّٰهِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيّ
ابْنِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللّٰهِ أَبِي عَلِيّ مَنْصُور

[١١١١] ولد فى ثامن عشر المحرّم ، وقيل فى العشرين من المحرّم ، سنة ثمان وستين وأربعمائة[٢] ، وبويع له فى يوم الخميس الثامن عشر من ذى الحجة ، سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، حين مات أبوه المستنصر . وذلك أن الأفضل[٣] شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجْلسهُ ولقّبه بالمسْتَعلى ، وبعث فأحضر إليه نزارًا وعبد الله وإسماعيل ، أولاد المستنصر ؛ فلما حضروا وشاهدوا أخاهم أحمد وكان أصغرهم ، قد جلس على تَخْت الخلافة أنِفُوا من ذلك . فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض وقال لهم :تَقدّموا وقبّلوا الأرض لِله تعالى ولمولانا المسْتعلى بالله وبايعوه ، فهو الذى نَصّ عليه الإمام المستنصر ، قبل وفاته ، للخلافة من بعده . فامتنَعُوا من ذلك ، وقال كلٌّ منهم إنَّ والده وعده بالخلافة ؛ وقال نزار : إن قُطِّعْتُ ما بايعتُ من هو أصغر سنًا منى وخطُّ والدى عندى بـأنِّى ولىُّ عهده وأنا أُحْضِره ؛ وخرج مسرعًا ليُحضر الخَطَّ ، فمضى من حيث لا يشعر به أحد وتوجّه فى خفية إلى الإسكندرية . فلمّا أبْطأ أرسل الأفضل منْ يستعجله بالحضور ، فلم يوجد ، وفُتِّش عليه فى القصر فلم يُوقَفْ له على خبر ولا عُرف كيف توجّه فاضطرب الأفضل لذلك وانزعج انزعاجًا شديدًا .

وقوم يذكرون أن المستنصر كان قد أجلس ابنه أبا المنصور نزارًا ، لأنه أكبر أولاده ، وجعل إليه ولاية العهد من بعده ، فلمّا قرُبت وفاتهُ أراد أن يأخذ له البيعة على رجال الدولة ،

---

(١) يتقابل النص هنا مع نهاية صفحة (١١٠ ب) من المخطوط .

(٢) فى النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٢ رواية أخرى تقول إن مولده كان فى سنة سبع وستين وأربعمائة . ويؤيد النويرى فى نهاية الأرب صاحب النجوم الزاهرة . قارن أيضا معجم الأنساب ١ : ١٤٥ .

(٣) يقول المقريزى : ولما أجلس ابن بدر أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلى صار يقال له الأفضل ، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب به أيضا . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٤٠ .

فتقاعد له الأفضل ودافع حتى مات ؛ وذلك أنه كانت بينه وبين نزار مباينةٌ ، وكان فى نفس كلّ منهما مباينة من الآخر لأُمور ، منها أن نزارًا خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب ، فصاح به : « انزل يا أرمنى يا نجس » ؛ فحقدها الأفضل عليه ، وظهرت كراهة أحدهما الآخر . ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارًا فى أموره أيام حياة أبيه ويردُّ شفاعاته ويضع من قدره ، ولا يرفع رأسًا لأحد من غلمانه وحاشيته ، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضّرر . فلما عَزَم المستنصر على أخذ البيعة لنزار اجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشيّة وخوّفهم من نزار ، وحذّرهم من مبايعته ، وأشار عليهم بولاية أخيه أحمد فإنه صغير لا يُخاف منه ، ويُؤمن جانبه ؛ فَرَضُوا بذلك وتقرّر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكّى ، من قرية يقال لها لُكّ[1] برقة ، فإنه لم يوافق لأنه كان قد وعده نزار بأن يوليه الوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل ؛ فلما اطّلع على ما قرّره الأفضل من ولاية أبى القاسم أحمد مع الأمراء وأنهم قدوافقوه على تَرْك مبايعة نزار طالعه بجميع ذلك .

وبادر الأفضل فأجلس أبا القاسم ولُقّب بالمستعلى بالله . وأصبح فى بُكرة يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من ذى الحجة فأخرجه إلى الإيوان ، وأجلسه على سرير الملك ، وجلس هو على دكة الوزارة ؛ وحضر قاضى القضاة المؤيد بنصر الإمام على بن نافع بن الكحال[2] ، والشهود ، فأخذ البيعة على مقدّمى الدولة وأمرائها ورؤسائها وجميع الأعيان ؛ ثم مضى إلى عبد الله وإسماعيل وَلَدَىْ المستنصر ، وكانا فى مسجد من مساجد القصر وقد وكل بهما الأفضل جماعةً يحفظونهما ، فقال لهما : إن البيعة قد تمّت لمولانا المستعلى بالله ، وهو يُقْرِئكما السّلام ويقول لكما تبايعانى أم لا ؟ فقالا : السمع والطاعة ، إنّ الله اختاره علينا ؛ ووقفا قائِميْن على أرْجُلهما وبايعاه ؛ وكُتب كتابْ البيعة وأُخرج ، فقرأه الشريف

---

(١) لك بضم اللام وتشديد الكاف ، يذكر ياقوت فى التعريف بها أنها بين الاسكندرية وطرابلس الغرب ، ولم أجدها فى غيره . وفى المغرب للبكرى ذكر مدينة لكاى بالقرب من المهدية . ويعرفها النويرى والدكتور حسن إبراهيم حسن بأنها قرية قريبة من برقة . أنظر معجم البلدان : ٧ : ٣٣٧ ؛ المغرب : ١٢٦ ؛ الفاطميون فى مصر : ٢٩٥ ؛ والنويرى :٢٨ (وهو تحت الطبع على مطابع المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، بتحقيق محقق هذا الكتاب) .

(٢) قاضى القضاة المؤيد بنصر الإمام، أبوالحسن على بن نافع بن الكحال.النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٣ ، النويرى٢٨ .

سناءُ الملك محمد بن محمد الحسينى الكاتب بديوان الإنشاء ، على عادة الأمراء وجميع أهل الدولة .

وكانت الدّعاة عندما بلغهم موت المستنصر اختلفوا فيمن يبايعونه من بعده ، فدعا بركات ، وهو أمين الدعاة ، لعبد الله بن المستنصر ونعته بالموفّق ؛ فقبض الأفضل عليه وقتله هو وابن الكحّال . ووصل الخبر بلحاق نزار ومعه محمود بن مصال اللكّى بنصر الدّولة ، وأن نصر الدّولة[1] أفتكين التركى ، أحد مماليك أمير الجيوش[2] وكان على ولاية الإسكندرية ، قد بايعه ، والقاضى [١١١ ب] أبو عبد الله محمد بن عمّار[3] ، وأهلُ الإسكندرية ، وأنه تلقب بالمصطفى لدين الله . فأهَمّ الأفضل ذلك وأخذ فى التأهب لمحاربتهم .

وفيها توفى أبو عبد الحسين بن سديد الدولة ، ذى الكفايتين ، محمد الماسكى ؛ وكان ممن وزر للمستنصر فى سنة أربع وخمسين ، فلما صُرف عن الوزارة سار إلى مدينة صُور من الشام فأقام بها عدة سنين ؛ ثم إنّه رجع إلى مصر وخدم مشارفا[4] بالإسكندرية بعد الوزارة ، ثم صُرف عن المُشارَفة . وكان من أماثل الكتاب وأحد الأدباء الفضلاء . ومن شعره :

توصَّلْ إلى ردّ كيد العدوّ ... تَوصُّل ذى الحيلة الحـازم
وصانِعْ ببعض الذى حُزْتَه ... تعشْ عيشة الآمن الغـانم
ودعْ ما نعمت به فى القديـ ... ـم ، واعمَلْ لذا الزّمَن القادم
لعلّك تَسْلمُ ممّا تخَـافُ ... ولستَ ، إخالُك ، بالسـالم

وله عدّة مصنفات ورسائل .

---

(١) فى النجوم الزاهرة ناصر الدولة ، وهو كذلك فى النويرى .

(٢) يقصد أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد لقب كثير ممن تولى الوزارة بعده ، ومنهم الأفضل بن بدر الجمالى ، بهذا اللقب .

(٣) المقصود جلال الدولة على بن أحمد بن عمار ، أبو القاسم . وقد وقع فى سجن الأفضل الذى نجح فى القضاء على ثورة نزار ، كما سيجئ ذكر ذلك ، فأرسل إلى الأفضل من سجنه ورقة يقول فيها :

هل أنت منقذ شلوى من يدى زمن ... أضحى يقد أديمى قد منتهس
دعوتك الدعوة الأولى وبى رمق ... وهذه دعوة والدهر مفترسى

فوصلت الورقة الأفضل بعد قتل ابن عمار ، فقال : والله لو وقفت عليها قبل ذلك ما قتلته . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٤ .

(٤) المشارف من يقوم بالإشراف على أعمال متولى الديوان كالناظر ، ويزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج (المالى) تحت حوطته فى مودعه (فى خزانته) بعد أن يكون مختوما عليه . قوانين الدواوين : ٣٠٢ . عن المودع انظر الجزء الأول من هذا الكتاب : ١٤٨ : حاشية : ١ .

سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (١) :

فى آخر المحرم خرج الأفضل بعساكره من القاهرة فسار إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين ، فخرجا إليه فى عدّة كبيرة وحارباه ؛ فكانت بينهما عدّة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمنْ معه منهزما يريد القاهرة ؛ فنهب نزارٌ بمَنْ معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحرى .

ووصل الأفضل إلى القاهرة ، وشرع يتجهّز ثانياً لمسيره . ودَسّ إلى أكابر من انتمى إلى نزار من العرب يدعوهم إلى التخلّى عنه ، واستمالَهُم بما حملهُ إليهم من الأموال وما وعدهم به من الإقطاعات وغيرها . وخرج وقد أعدّ واستَعدّ . فسار إلى الإسكندرية وقد برزوا إليه ؛ فكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة نزار والتجائه إلى المدينة ؛ فنزل الأفضل عليها، وحاصرها ، ونصب عليها المجانيق وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة .

فلما كان فى ذى القعدة وقد اشتد الأمر على منْ بالإسكندرية جمع ابن مصال ماله وفرّ إلى جهة المغرب فى ثلاثين قطعة ، يريد بلده لكّ برقة من أجل رؤيا رآها ، وهى أنه رأى فى منامه كأنه قد ركب فرسًا وسار والأفضل يمشى فى ركابه ؛ فقصّ هذه الرؤيا على عابر له فَطَانةٌ وتمكُّن فى علم التعبير ، فقال له الماشى على الأرض أَمْلَكُ لها من الراكب وهذا يدُلّ على أنّ الأفضل يملك البلاد .

وكانت الأنفس قد ملّت طول الحصار . فلمّا فَرّ ابنُ مصال ضَعُفَت نفسُ نزار وأفتكين وتخوّفا ممن حولهما ؛ فبعثا إلى الأفضل يسألان الأمان ، فأمّنهما ، وتمكن من البلد . وقبض على نزار وأفتكين ، وسيّر بهما إلى مصر ؛ فيُقال إنه سلم نزارًا لأهل القصر من أصحاب المستعلى ، وأنه بُنِى عليه حائط ومات ؛ وقيل إنّه قُتل بالإسكندرية ؛ والأول أصحّ(٢) .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من يناير سنة ١٠٩٥ .

(٢) يقول النويرى : وقيل إنه جعله بين حائطين فمات . ويضيف صاحب النجوم الزاهرة إلى هذا قولا آخر : ثم قبض على نزار وأفتكين وبعث بهما إلى مصر ، وكان ذلك آخر العهد بنزار . النويرى : ٢٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٥ .

وكان مولده يوم الخميس العاشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة والاسماعيلية وملاحدة العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته وتزعم أنّ المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدّينار والطُّرز ، وأن المستنصر قال للحسن بن صباح إنّه الخليفة من بعده .

وكان للمستنصر أولاد فرُّوا إلى المغرب ، منهم محمد وإسماعيل وطاهر ، وعاد منهم فى خلافة الحافظ واحدٌ إلى مصر ولا عقب له[1] .

وأما أفتكين فإنه قُتِل بعد قدوم الأفضل إلى مصر . أما ابن مصال فإنه وصل لُكّ ولقيه أهلُها ، وكان قد خرج منها صبيًّا فقيرًا ، فأقام عندهم أياماً . واتفق أن رأى عجوزًا عرفته ، فقالت له : كبرت يا محمود ! فقال لها : نعم . فقالت له : لعلّك جئت مع صاحب هذه المراكب . فقال : أنا صاحبها . فقالت : ماذا يعمل عدم الرّجال . ولم يزل يبعث إليه الأفضل بالأمان حتى قدم عليه ، فلزم داره مدّة ، ثم رضى عنه الأفضل وأكرمه .

وكان الأفضل لمّا قبض على نزار وتمكّن من الإسكندرية تتبّع جميع من كان معه ومن مَالأَه أو أعانه ، فقبض على كثير من وجوه البلد ، منهم قاضى الثغر أبو عبد الله محمد بن عمّار واعتقله مدة ثم قتله ؛ وكان حسنة من حسنات الدهر ونخبة من نخب العقد ؛ وحظى عنده بنو حارثة ، وكانوا من عُدول البلد ، لأنهم لم يبايعوا نزارًا ولم يدخلوا فى شئ من ذلك ، وكانوا يُهَادُونَ [١١٢ ا] الأفضل سرًّا . وولّى قضاء الإسكندرية عوضا عنه القاضى أبا الحسن زيد بن الحسن بن حديد ، وبالغ فى إكرامه وإكرام أهل بيته .

وكان الأفضل وهو على حصار الإسكندرية يخرج أمه فتطوف فى كل يوم ، وهى متنكرة ، بالأسواق ، وتدخل يوم الجمعة إلى الجوامع وتزور المشاهد والمساجد والرُّبُط تستعلم خبر ولدها وتعرف من يحبّه ومن يبغضه ؛ فدخلت يوما إلى مسجد أبى طاهر وجاءت إلى ابن سعد الإطفيحى وقالت له : يا سيدى ، ولدى فى العسكر مع الأفضل ، الله تعالى يأخذ

---

(١) لم أعثر على اسم هذا الأمير . وفى أحداث سنة ٥٢٦ من هذا الكتاب خبر نصه : « وفيها خرج أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر ، وكان قد توجه إلى المغرب مستخفيا وجمع هناك جموعا كثيرة وعاد ، فبعث الحافظ إلى مقدمى عسكره يستميلهم ، فلما وصل دير الزجاج والحمام اغتالوه وقتلوه ، فانفض جمعه » .

لى منه الحقّ ، ما فعل خيرًا ، وأنا ما أنَامُ خوفًا على ابنى ، ادْعُ الله أن يَسْلَمَ ولدى . فقال لها : يا أمة الله ، أما تستَحين ، تدعين على سلطان الله فى أرضه ، المجاهد عن دين الله تعالى ، الله ينصرُه ويُظْفرُه ويسلمه ويسلم ولدك ، ماهو إن شاء الله تعالى إلاّ معه وهو مؤيّد مظفّر ، كأنَّك به وقد فتح الإسكندرية وأسر أعداءه ، وأتى على أحسن قضيّة وأجمل طوّية ، فلا يُشْغَل لك سرٌّ ، فما يكون إلاّالخير إن شاء الله . ثم اجتازت بالفار الصّيْرفى بالسّرّاجين[1] من القاهرة ، فوقفت عليه تصرف منه دينارا – وكان إسماعيليا متغاليا – فقالت له : ولدى مع الأفضل وما أدرى ماخبرُه . فقال لها : لعن الله المذكور الأرمنى الكلبَ العبدَ السّوء بن العبد السوء، مضى يقاتل مولانا ومولى الخلق ؟ كأنك والله ياعجوز برأسه جائزاً من هنا على رمح قُدَّام مولانا نزار ومولاى ناصر الدولة إن شاء الله تعالى ، والله يَلطف بولدك ؛ من قال لك تخلّينه يمضى مع هذا الكلب المنافق . ثم وقفت يوما آخر على ابن بابان الحلبى ، وكان بزّازًا[2] بسوق القاهرة ، تشترى منه شيئا – وكان نزاريًّا – فقالت له كقولها للفار الصيرفى ، فقال لها كما قال أيضا ، وبالغ فى لعن الأفضل وسبّه .

فلمّا أخذ الأفضل نزار وناصر الدولة ، وفتح الإسكندرية ، وقدم إلى القاهرة فى يوم[3] حدثته أمّه الحديث بنصّه . فلمّا خُلع عليه فى القصر بين يدى الخليفة المستعلى فى يوم[3] وعاد إلى مصر اجتاز بالبزّازين وهو بالخلع ، ونظر إلى ابن بابان الحلبى وقال : أنْزلوا هذا . فنزلوا به ، فضُربت عنقه تحت دكّانه ، ثم قال لعبد علىّ ، أحد مقدّمى ركابه ، قف هنا لا يضيعْ له شىءٌ من دُكّانه إلى أن يأتى أهلُه فيتسلّموا قماشه . ثم وصل إلى السّراجين ، فلما تجاوز دُكان الفار الصيْرفى التفت إلى جهته وقال : انزلوا بهذا . فنزلوا به ؛ فقال : رأسه . فضُربت عنقه ، وقال ليوسف الأصفر أحد مقدمّى الركاب : احْتَطْ على حانوته

(١) سوق السراجين ، وكان يعرف على زمن المقريزى بسوق الشوايين ، وهو الآن جزء من شارع المعز لدين الله الذى يقطع القاهرة من الجنوب إلى الشمال . ويبدأ سوق السراجين أو الشوايين القديم من عند جامع الظافر المعروف باسم جامع الفكاهين ، ويعرف حاليا باسم جامع الفاكهانى ، المشرف على أول شارع خوش قدم ، ويمتد إلى أول شارع الكحكيين . راجع المواعظ والاعتبار : ١ : ٣٧٣ . والفار الصيرفى المذكور ولد الأمير عبد الكريم الآمرى صاحب السيف ، الذى ولى مصر (الفسطاط) أيام الحافظ ، وكان قبل ذلك له وجاهة عظيمة فى أيام الآمر ، نفس المصدر : ٢ : ٤٥٢ .

(٢) البزار من يشتغل بتجارة البز أى الثياب .

(٣) فى هذين الموضعين بياض بالأصل يتسع لكلمة واحدة فى كل منهما .

إلى أن يأتى أهله ويتسلَّمُوا موجُوده ، وإيّاك ماله وصُندوقه ، وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه ؛ كان لنا خصمًا أخذنَاهُ وفعلنا به ما نردع به غيره عن فعله ، ومَالَنا فى ماله ولا فى فقر أهله حاجة . ثم أتى إلى الشيخ أبى طاهر الإطفيحى وقرَّبه وتخصص به ، وأطلعه على أغراضه وأكثر من التردّد إليه ، وأجرى الماء إلى مسجده ، وبنى له فيه حمّامًا وبستانا وغير ذلك من المبانى . فعظُم قدرُ الإطفيحى به ، وكثر غشيان الناس مسجده ، وطار ذكره ، وشاع خبره ، وكثرت حاشيته ، وصار المشار إليه بالديّار المصرية حتى مات .

وفيها قام ببغداد تاجر يعرف بحامد الأصفهانى فتكلم بأن نسب الخلفاء الفاطميين صحيح ، فقبض عليه واعتُقل حتى مات .

وخرج الأمر بجمْع الناس إلى بيت النوبة ببغداد ، فجُمعوا فى تاسع ربيع الآخر ، وحضر بنو هاشم وغيرهم إلى الديوان ؛ وقرئ توقيع أوّله خطبة تشتمل على حَمْد الله تعالى والثناء عليه ، وتذكر طاعة الأئمة وفضل العبّاس وما جاء فيه من الأخبار ، ثم قال : « أما بعد ، فإنّه لم يخلُ وقت ولا زمان من مارقٍ على الدين ، وشاع تفرق كلمة المسلمين لِيَبلُوَ الله المجاهدين فيهم والصابرين ، ويَصْلى أكثر العاكفين نار جهنم التى أعدت للكافرين . وهذه الطائفة المارقة من الباطنية الملحدين ، والكفرة المستسلمين ، انتهكوا المحارم ، واسْتَحَلُّوا الكبائر ، وأراقوا الدماء ، وكذَّبوا بالذكر ، وأنكروا الآخرة ، وجحدُوا الحسنات والجزاء ، وفَصلُوا أعضاء المسلمين ، وسَمَلُوا أعْيُن الموحّدين ؛ فكادوا الدين وفقهاءه ، [١١٢ ب] وأعلنوا بالشرك ونداءه » . ثم رماهم بالفسوق والإهمال والانحلال ؛ وقال : شاعرهم يقول :

حَلّ برقّادة[١] المسيح حلّ بها آدم ونــوح[٢]

---

(١) بينها وبين القيروان أربعة أميال ، وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع ، وأكثرها بساتين ، بناها سنة ٢٦٣ ﻫ إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١ – ٢٨٩) فأصبحت عاصمة الأغالبة حتى فر منها زيادة الله الثالث (٢٩٠ – ٢٩٦) ، ثم أصبحت عاصمة عبيد الله المهدى ، أول الفاطميين ، إلى أن انتقل إلى المهدية سنة ٣٠٨ . معجم البلدان : ٤ : ٢٦٧ – ٢٦٨ ؛ وانظر كذلك : Mohammadan Dynasties .

(٢) يلى هذا البيت بيت آخر يساعد على اكتمال صورة المبالغة فى المدح ، يقول :

حــل بهــا الله ذو المعــالى وكــل شىء ســـواه ريح

سنة تسع وثمانين واربعمائة [1] :

فيها خرج خلف بن ملاعب[2] من عند الأفضل لولاية فامية[3] ، فسار إليها وتسلمها. وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا إسماعيلية ، فقدموا إلى القاهرة وسألوا أن يُجهّز إليهم من يلِي أمرهم ، فوقع الإختيار على خلف بن ملاعب ، وكان قد ولِي مدينة حمص وساءت سيرته فى أهلها ، فبعث إليه السلطان ملك شاه من العراق من قبض عليه وحمله إليه بأصفهان ، فاعتقله بها إلى أن مات ، فأُطْلِق وسار إلى مصر فأقام بها حتى خرج إلى فامية .

---

(۱) ويوافق أول المحرم منها الحادى والثلاثين من ديسمبر سنة ١٠٩٥ .

(۲) كان يتولى حمص وتقلبت أحواله بها بسبب المنازعات بين الأمراء المحليين بالشام حتى اضطر إلى تسليمها إلى تاج الدولة تتش السلجوقى فى سنة ٤٨٣ هـ ، ورحل إلى مصر فأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الشام فى السنة التالية وتملك أفامية ولم يلبث أن طرد منها ، وأرسل معتقلا إلى أصفهان حتى توفى السلطان ملكشاه السلجوق ٤٨٩ ، فعاد إلى مصر ، ثم رجع إلى أفامية واليا عليها بتولية الأفضل وزير الفاطميين . انظر ذيل تاريخ دمشق فى أماكن متفرقة .

(۳) وأفامية أيضا : مدينة وكورة بمنطقة الساحل الشامى ، وكانت من أعمال حمص . معجم البلدان : ۱ : ۲۹۸ ، ٦ : ٣٣٤ - ٣٣٥ .

سنة تسعين وأربعمائة (1) :

فيها وقع بمصر غلاء ومجاعة .

فى سادس عشر صفر قدم على الأفضل رسول فخر الدولة رضوان بن تُتُش صاحب حلب وأنطاكية وهم[2] بن الهلال[2] بن[2] كاتب عز الدولة ابن منقذ[3] ، صُحْبة رسول الأفضل الشريف شجاع الدولة ابن صارم الدولة ابن أبى[2] وقدم معهم شرف الدولة الباهلى الشاعر ، وكان قد قدم مصر ومدح أمير الجيوش بدر الجمالى، ثم فى نوبة أفتكين ؛ وهو يبذل الطاعة فى إقامة الخطبة للإمام المستعلى بالله فى بلاد الشام ، فَأُجيب بالشكر والثناء[4] وخطب بها للمستعلى بالله فى يوم الجمعة سابع عشر رمضان . وكان سبب هذا الفعل من رضوان أنه قصد أن يستعين بعساكر مصر على أخذ دمشق من أخيه دقاق . فاتفق أن الأمير سكمان بن أرتق[5] أنكر على رضوان ذلك ، فقطع خطبة المستعلى ، وأعاد الخطبة لبنى العباس ، فكان مدة الخطبة للمستعلى أربعة أشهر .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٠٩٦ .

(٢) بياض بالأصل فى هذه المواضع الأربعة ، ولم أهتد إلى ما يكمل الفراغ .

(٣) عز الدولة نصر أبو المرهف بن أبى الحسن على سديد الملك بن مقلد بن نصر بن منقذ ، من أسرة بنى منقذ الذين حكموا شيزر من سنة ٤٧٤ (١٠٨١) حتى حدثت الزلزلة الكبرى بالشام سنة ٥٥٢ (١١٥٧) فخربت معظمها وأهلكت أهلها . وشيزر على مسافة يوم من حماة يمر نهر الأردن بوسطها ، وكانت تعد من أعمال حمص . وكان سديد الملك قد أرسل ابنه عز الدولة إلى حلب لخدمة تاج الدولة تتش ، صاحبها ، فاعتقله بها ، ولكنه استطاع الفرار من محبسه بمساعدة خادم له قدم إليه من شيزر . انظر معجم الأنساب : ٤٠ - ٤١ ، ١٦٥ ؛ وفيات الأعيان : ١ : ٣٦٨ - ٣٦٩ ؛ معجم البلدان : ٥ : ٣٢٤ - ٣٢٥ . وانظر كذلك كتاب الاعتبار ، لأسامة بن منقذ ، فى مواضع متفرقة .

(٤) وكان هذا نتيجة لرسالة من الأفضل طلب فيها من رضوان الدخول فى طاعة المستعلى فوافق هذا رغبة رضوان فى التعاون مع الأفضل ضد دمشق . ذيل تاريخ دمشق : ١٣٣ .

(٥) كان يتولى القدس مع أخيه إيلغازى بعد وفاة والدهما سنة ٤٨٤ (١٠٩١) وبقيا فيها حتى سنة ٤٨٩ (١٠٩٥) عندما سقطت فى أيدى الفاطميين . وكان يصحب سقمان فى هذه الزيارة لحلب الأمير ياغيسيان صاحب أنطاكية . وكانت الخطبة للمستعلى فى جميع الأعمال التابعة لإمارة حلب ، عدا المدينة نفسها ، وأنطاكية ومعرة النعمان . ويعتبر هذان الأخوان مؤسسى الدولة الأرتقية الأتابكية بحصن كيفا التى استمرت بين سنتى ٤٩٥ - ٦٢٩ (١١٠١ - ١٢٣١) ، وفى خرتبرت بين سنتى ٥٨١ - ٦٦٠ (١١٨٥ - ١٢٦١) ، وفى ماردين بين سنتى ٥٠٠ - ٨٠٩ (١١٠٦ - ١٤٠٦) . الكامل : ١٠ : ٩٣ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ١٣٣ ؛ معجم الأنساب ٣٤٤ - ٣٤٧ ؛ Mohommadan Dynasies; p. 166

وفى ربيع الأول جهز الأفضل عسكرا فى عدة وافرة لأخذ صور[1] فسار إليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذت بالسيف ، فدخلها العسكر وقتلوا منها بالسيف خلقا كثيرا ؛ وقبض على واليها وحُمل إلى الأفضل فقتله لأنه كان قد خرج عن الطاعة وعصى على الأفضل .

وفيها[2] كان ابتداء خروج الإفرنج[3] من بلاد القسطنطينية لأخذ بلاد الساحل من أيدى المسلمين[4] ، فوصلوا إلى مدينة أنطاكية ونازلوها حتى ملكوها . ومنها دبُّوا إلى بلاد الساحل .

وفيها تجمّع الرّعاع والعامة فى يوم عاشوراء بمشهد السيدة نفيسة[5] وجهروا بسب

(١) وكانت مع كتيلة نائب الفاطميين بها، لكنه أظهر العصيان فقرر الأفضل طرده منها وعين مكانه شخصا يلقب افتخار الدولة سيره مع هذه الحملة العسكرية . الكامل : ١٠ : ٩١ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ١٣٣ — ١٣٤ ؛ النويرى : ٢٨.

(٢) بهذا المكان من الأصل طيارة لا تتضح السطور الأولى منها ، وفيها بعد ذلك : « ... يافث ، واستقروا فى شمالى البحر الرومى من بلاد رومة إلى ما وراءه غربا وشمالا . وكانوا أولا تحت أيدى اليونان والروم ، ثم استقلوا بعدهم بملكهم ، وافترقوا، فكان منهم القوط والجلالقة بالأندلس حتى أخلاها منهم المسلمون ، وكان منهم المانيون بجزيرة إنكلطره بالبحر المحيط الغربى الشمالى وما يقابله وما يحاذيه ، وكان منهم إفرنسه ، وهم إفرنجه ، فلكوا ما وراء خليج رومة غربا إلى الثنايا التى تفضى إلى الأندلس فى الجبل المحيط بها من شرقيها وتسمى هذه الثنايا بالشارات ؛ وعظمت دولتهم بعد الروم فى أثناء الاسلام وعرفوا بالإفرنسيس ، وتغلبوا على جزائر البحر الرومى فى آخر المائة الخامسة ، وكان ملكهم حينئذ اسمه بردويل ، فبعث أجار إلى صقلية وملكها من المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة ؛ ثم ساروا فى البر على قسطنطينية وعبروا من الخليج سنة تسعين وأربعمائة حتى نزلوا عواصم الروم وحاربوا قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق ، ملك قونية ، فأخذوا منه أنطاكية ، وهم خمسة ملوك : بردويل ، وصنجيل ، وكندفرى ، والقمص ، وبيمند وهو مقدمهم ، فولوه أنطاكية . ثم ملكوا معرة النعمان ونازلوا حمص ثم عكا ، ثم حصروا القدس حتى أخذوه ، كما سيأتى إن شاء الله » ا هـ .

(٣) وكان هذا بدء التحرك الصليبى فى الحملة الأولى،وكانت القسطنطيفية مركز التجمع والامبراطور عندئذ Alexius I (٤٧٤ — ٥١٢ هـ / ١٠٨١ — ١١١٨ م) .

(٤) وصاحبها عندئذ ياغى سيان . وقد تمكن الصليبيون من تملكها بعد حصار استمر تسعة أشهر ، وساعدهم على تملكها تعاون أحد حفظة أبراجها معهم بسبب مازعمه بعضهم من سوء سياسة ياغى سيان فيها وفى أهلها . وقد فر ياغى سيان منها، وندم على فراره وحاول جاهدا أن يعود إليها ليستنقذها ، ولكنه سقط عن فرسه مرتين فى أثناء فراره وعوده ، فمر به أرمنى فقطع رأسه وحملها إلى الصليبيين . وكان تملك الفرنج لها فى رجب سنة ٤٩١ (يونيو سنة ١٠٩٧) وتولاها بوهمند الأول Bohemond I ، وهو عندئذ أحد قادة الحملة الصليبية الأربعة الكبار . انظر : النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٧ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ١٣٤ — ١٣٥ ؛ الكامل : ١٠ : ٩٤ — ٩٥ ، وكذلك : Mahammadan Dynasties; p. 155 .

(٥) وهى بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ؛ تزوجت إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق فأنجبا أبا القاسم وأم كلثوم ، وهما لم يعقبا ، لقيها الإمام الشافعى — من وراء حجاب — ويقال إنها صلت عليه عند وفاته ، وقد توفيت بعده بأربع سنين ، سنة ٢٠٨ ، ودفنت بمنزلها الذى يعد من مزارات القاهرة المباركة . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٤٠ — ٤٤١ ؛ الخطط التوفيقية : ٢ : ٦١ — ٦٢ .

الصحابة ، وهدموا عدة قبور ؛ فسيّر الأفضل إليهم ومنعهم من ذلك ؛ وأدّب ذخيرة الملك ابن علوان ، والى القاهرة ، جماعة وضربهم .

وفيها حرّر الأفضل فى المحرّم عيار الدّينار[1] وزاد فيه .

---

(١) عقد المرحوم على باشا مبارك فصلا تحدث فيه عن تحرير وزن المثقال والدينار والدرهم فى كتاب الخطط التوفيقية وتعرض لمناقشة التناسب بينهما ، وأتبع هذا الفصل بدراسات عن النقود وأوزانها فى العصور الإسلامية وأقاليمها . أنظر : الخطط التوفيقية : ٢٠ ؛ وبه فصل تحرير وزن المثقال والدينار والدرهم : ٢٨ — ٣٥ . انظر أيضا : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين : ٣٠٠ — ٣١١ ؛ قوانين الدواوين : ٣٣١ — ٣٣٣ .

سنة احدى وتسعين وأربعمائة [1] :

فيها خرج الأفضل فى عساكر جمة ، ورحل من القاهرة فى شعبان ، وسار يريد أخذ بيت المقدس من الأمير سكمان وإيلغازى ، ابنَى أرتق[2] ، وكانا به فى كثير من أصحابهما ؛ فبعث إليهما يلتمس منهما أن يسلماه البلد ولا يُحْوِجاه إلى الحرب ، فأبَيا عليه ، فنزل على البلد ونصب عليها من المجانيق نيّفا وأربعين منجنيقا ، وأقام عليها يحاصرها نيّفا وأربعين يوما حتى هدم جانبًا من السّور ، ولم يبق إلا أخذُها ، فسيَّر إليه مَن بها ومكّناه من البلد . فخلع على ولدى أرتق[3] وأكرمهما ، وأخلى عنهما ، فمضيا بمن معهما . وملك البلد فى شهر رمضان لخمس بقين منه ، وولىّ فيه من قِبَلِه ، ثم رحل عنه إلى عسقلان ؛ وكان فيها مكان قد دفِن فيه رأس الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، فأخرجه وعطّره وحمله فى سفط إلى أجلّ دار بها ، وعمر مشهداً مليح البناء . فلمّا تكامل حمل الرأس فى صدره وسعى به ماشيا من الموضع الذى كان فيه إلى أن أحلّه فى مقرّه . ويقال إن أمير الجيوش هو الذى أنشأ المشهد على الرأس بثغر عسقلان ، وأن ابنه الأفضل شاهنشاه كمله . ثم حمل هذا الرأس إلى القاهرة ، فوصل إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

وفيها حدثت بمصر ظلمة عظيمة عشَّت أبصار الناس حتى لم يبق أحدٌ يعرف أين يتوجّه ، ثم هبت ريحٌ سوداء شديدة ، فظنّ الناس أنّ السّاعة قد قامت . واستمرت الريح سبع ساعات وانجلت الظلمة قليلا قليلا وسكنت الريح . ولم يُصَلّ فى ذلك اليوم أحد صلاةَ الظُّهر ولا العصر ، ولا أُذِّن فى القاهرة ولا مصر .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع من ديسمبر سنة ١٠٩٧ .
(٢) انظر حاشية : (٥) فى صفحة : (٩) .
(٣) فى الأصل : أولاد ابن أرتق .

[١١٣ ا] سنة اثنين وتسعين وأربعمائة[1] :

فيها سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدى المسلمين ، فملكوا مدينة أنطاكية وساروا إلى المعرّة[2] فملكوها ، ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به ، ووصلوا عرقة[3] فحاصروها أربعة أشهر فلم يقدروا عليها . ونزلوا على حمص ، فهادنهم جناح الدولة جسين[4] ، وخرجوا على طريق النواقير[5] إلى عكا . ثم أخذوا الرملة فى ربيع الآخر وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة ، وبلغ ذلك الأفضل فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم ، فجدّ الفرنج عندما بلغهم مسيره إليها فى حصار المدينة ، وكان نزولهم عليها فى شهر ربيع الآخر ، حتى ملكوها يوم الجمعة الثانى والعشرين من شعبان بعد أربعين يومًا . وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام ، وقتلوا عامّة من كان فى البلد ، وكان فيه من العُبّاد والصلحاء والعلماء والقرّاء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر ، فوضعوا السيف فيهم وأفنوهم عن آخرهم ، ولم يفلت منهم إلا اليسير . وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام فحاصرهم الفرنج نيّفًا وأربعين يومًا حتى تسلموه بالأمان فى يوم الجمعة ثانى عشريه . وأحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب ، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات ، وكان مبلغًا عظيمًا[6] . ويقال إنه قُتل فى المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا ، وأنهم لحقوا مَنْ فرّ من المسلمين مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من نوفبر سنة ١٠٩٨ .

(٢) هى معرة النعمان بين حماة وحلب ، وكانت تعد من أعمال حمص ، تستقى بماء العيون وبها كثير من أشجار الزيتون . معجم البلدان : ٨ : ٩٦ — ٩٧ .

(٣) عرقة بكسر العين وسكون الراء ، تقع على أربعة فراسخ من طرابلس من الشمال الشرق فى سفح جبل ، بينها وبين البحر نحو ميل . معجم البلدان : ٦ : ١٥٥ — ١٥٧ ؛ انظر كذلك : A History of the Crusades ; Vol. I; map p. 306 ؛ وكتاب : The Damascus chronicle of the Crusades .

(٤) صاحب حمص ، من رجال تاج الدولة تتش ، وكان قد ولاه الوصاية على ابنه رضوان الذى خلفه فى حلب . الكامل : ١٠ . وثب عليه ثلاثة من الباطنية فى يوم جمعة من سنة ٤٩٦ عندما دخل مصلاه بعد نزوله من القلعة فقتلوه وقتلوا جماعة معه . ذيل تاريخ دمشق : ١٤٢ .

(٥) فرجة فى الجبل بين عكا وصور . معجم البلدان : ٨ : ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٦) وتولى بيت المقدس Godfrey بعد نزاع قصير حول هذه الولاية إذ برزت فكرة تعيين نائب البابا يمثله فيها لقداستها . ومات جودفرى — وتكتبه المصادر العربية كندفرى — فى سنة ٤٩٤ .

ووصل الأفضل إلى عسقلان فى الرابع عشر من شهر رمضان ، فبعث إلى الفرنج فوبّخهم على ما كان منهم ؛ فردّوا إليه الجواب ، وركبوا فى إثر الرسل فصدفوه على غرّة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيراً . وانهزم منهم بمن خفّ معه فتحصّن بعسقلان وتعلق أكثر أصحابه هنالك فى شجر الجميز ، فأضرموا فيها النار حتى احترقت بمن تعلق فيها ، فهلك خلق كثير[1] وحاز الفرنج من أموال المسلمين ما جلّ قدره ، ولا يمكن لكثرته حصره .

ونازلوا عسقلان ، وحصروا الأفضل فيها حتى كادوا يأخذونه ، إلا أن الله سبحانه أوقع فيهم الخُلف[2] فاضطُرّوا إلى الرحيل عن عسقلان ؛ فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر وقد ساءت حاله ، وذهبت أمواله ، وقُتلت رجاله ، وسار إلى القاهرة . ولم يعُدْ بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه فى حرب ألبتّة .

وكان ملك الفرنج بالقدس كند فرى .

وفيها توفى أبو الحسن على بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلى الحنفى المحدث[3]، فى ثامن عشر ذى الحجة .

---

(١) وكانت عدة الصليبيين المهاجمين نحو عشرة آلاف بينما كان عدد المسلمين المدافعين ضعف هذا العدد ، وكانت هزيمة المسلمين رغم هذا العدد الكبير بسبب سرعة الفرنج ومباغتتهم المسلمين قبل أن يستكملوا استعدادهم . انظر كتاب : The Crusaders in the East; p. 35. ويقول النويرى إن أهل عسقلان صالحوا الفرنج على عشرة آلاف دينار ، وقيل عشرين ألفا ، فرحلوا عنها إلى القدس .

(٢) نشب الخلف بين جودفرى صاحب بيت المقدس وريموند الأول الذى تولى طرابلس : نفس المصدر : p. 35 .

(٣) القاضى الموصلى الأصل المصرى الفقيه الشافعى (فى الأصل : الحنفى) المعروف بالخلعى . ولد بمصر فى أول سنة خمس وأربعمائة ؛ وسمع الحديث ورواه ؛ وكان مسند الديار المصرية فى وقته . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٦٤ .

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة (١) :

فيها (رحل)[٢] عالَم لا يحصى عددهم من البلاد الشامية فرارًا من الفرنج والغلاء .

وفيها عمّ الغلاء أكثر البلاد ، ومات من أهل مصر خلق كثير[٣] .

وفيها مات قاضى القضاة أبو الطاهر محمد بن رجاء ، وتولى بعده أبو الفرج محمد ابن جوهر بن ذكا النابلسى .

ومات على بن محمد بن على الصُّليحى ، قتله سعد بن نجاح الأحول ، وقتل أخاه عبد الله وجميع بنى الصُّليحى بمكة فى ذى القعدة[٤] .

وولى الحسن بن على بن أحمد الكرخى الحكم شهرًا واحدًا وثلاثة أيام ، وصرف وصُودِرَ من أجْل أنّه أخذ عصابة من القصر فى أيام الشدة لها قيمة فظهرت عليه .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من نوفبر سنة ١٠٩٩ .

(٢) السياق يقتضى هذه الإضافة أو ما يشبهها .

(٣) وفى بلاد الشام أيضا غارت الآبار فى عدة جهات من أعمال الشمال والمنابع فى أكثر المعاقل وارتفعت الأسعار . ذيل تاريخ دمشق : ١٣٨ .

(٤) سبق فى أخبار سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، أن سعيد بن نجاح الأحول قتل على بن محمد الصليحى ، فذكر هذا النبأ هنا لا مبرر له . وقد تولى أحمد بن على الصليحى زعامة اليمن بعد مقتل أبيه سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ولقب بالملك المكرم ، ونجح فى تخليص والدته الملكة الحرة من أسر الأحول الذى هرب أمام جيوش المكرم . قارن تاريخ اليمن لعمارة اليمنى : ١٤ — ٣١ . انظر أيضا نبأ مقتل على الصليحى فى النجوم الزاهرة : ٥ : ١١٢ .

سنة اربع وتسعين واربعمائة (١) :

فى شعبان جهّز الأفضل عسكرًا كثيفًا لغزو الفرنج ؛ فساروا إلى عسقلان ، ووصلوا إليها فى أول رمضان ، فأقاموا بها إلى ذى الحجة ؛ فنهض إليهم من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل ؛ فخرج إليهم المسلمون وحاربوهم . فكانت بين الفريقين عدة وقائع آلت إلى كسر الميمنة والميسرة وثبات سعد الدّولة الطّوَاشِى ، مقدم العسكر ، فى القلب ، وقاتل قتالًا شديدًا ؛ فتراجع المسلمون عند ثبات المذكور وقاتلوا الفرنج حتّى هزموهم إلى يافا ، وقتلوا منهم عدة وأسروا كثيرًا[٢] . وقتل كند فرى ملك الفرنج بالقدس[٣] ، فجاء أخوه بغدوين[٤] من القدس وملك بعده ، وسار بالفرنج إلى أرسوف .

وفيها مات [١١٣ ب] القمص رجار بن تنقرد[٥] ، صاحب جزيرة صقلية ، فقام من بعده ابنه رجار بن رجار .

وفيها نزل الفرنج على حيفا وقتلوا أهلها ؛ وتسلّموا أرسوف[٦] بالأمان ؛ وملكوا قيسارية[٧] عنوة فى آخر شهر رجب وقتلوا مَنْ بها ؛ وملكوا مع ذلك يافا ، مع ما بأيديهم من أعمال الأردن وفلسطين .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس من نوفمبر سنة ١١٠٠ .

(٢) يذكر ابن الأثير أنه كان يعرف بالطواشى . الكامل : ١٠ : ١٢٧ . ويقول صاحب النجوم الزاهرة : ٥ : ١٥٢ : « وكبا الفرس بسعد الدولة فقتل » ، ويذكر أن هذه الحملة خرجت فى سنة ثلاث وتسعين . ويذكرها ابن القلانسى فى أحداث سنة ٤٩٤ أيضا كما يذكر أن جواد سعد الدولة كبا به فاستشهد . ذيل تاريخ دمشق : ١٤٠ .

(٣) أصابه سهم وهو يحاصر عكا ؛ طبقا للنويرى : ٢٨ . أو فى الطريق إلى مهاجمة عكا : The Crusaders in the East; pp. 42-43 .

(٤) واسمه Baldwin I صاحب الرها ؛ وكان أخوه عينه قبل وفاته ليخلفه فيها ، وقد تولاها بعد نزاع كان لنائب البابا دور فيه ؛ وأصبح أول ملك لبيت المقدس التى تحولت إلى مملكة لاتينية . نفس المصدر : p. 43 ، انظر كذلك الحروب الصليبية : ٤٦ – ٤٧ تأليف إرنست باركر وترجمة المرحوم الدكتور السيد الباز العرينى .

(٥) وهو روجر الأول وكان قد قام بجهود متواصلة استغرقت ثلاثين سنة قبل أن يتمكن من السيطرة على جميع أنحاء الجزيرة . وكان نجاحه هذا بدءا العهد النورمانى بالجزيرة ، وتولاها بعده ابنه روجر الثانى Roger II . انظر دائرة المعارف البريطانية .

(٦) من مدن الساحل ، بين قيسارية ويافا . معجم البلدان : ١ : ١٩٢ .

(٧) وهى أيضا من مدن الساحل بينها وبين طبرية مسيرة ثلاثة أيام . انظر معجم البلدان : ٧ : ١٩٥ – ١٩٦ (وتقدير المسافات بالأيام له أهمية فى تصور الأحداث فى مثل هذه المرحلة الزمنية وبخاصة فى تتبع تحركات الجيوش) .

سنة خمس وتسعين وأربعمائة (١) :

فيها مات الخليفة أبو القاسم أحمد المستعلى بالله بن المستنصر فى ليلة السابع عشر من صفر ، وعمره سبع وعشرون سنة وشهر واحد وتسعة وعشرون يومًا ؛ ومدة خلافته سبع سنين وشهر واحد وعشرون يومًا(٢) .

نقش خاتمه الإمام المستعلى بالله .

وفى أيّامه اختلّت دولتهم وضعُف أمرهم ، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم ؛ وأنقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج ؛ فإنّهم ، خذلهم الله ، دخلوا بلاد الشام ، ونزلوا على أنطاكية فى ذى القعدة سنة تسعين وأربعمائة وتسلّموها فى سادس عشر رجب سنة إحدى وتسعين ؛ وأخذ وامعرّة النعمان فى سنة اثنتين وتسعين ، وأخذوا الرّملة ثم بيت المقدس فى شعبان ؛ ثم استولوا على كثير من بلاد الساحل ، فملكوا قيسارية فى سنة أربع (وتسعين) بعْدَ ما ملكوا عدّة بلاد .

وفى أيّامه أيضاً افترقت الإسماعيليّة فصاروا فرقتين : نزاريّة ، تعتقد إمامة نزار وتطعن فى إمامة المستعلى ، وترى أن وَلَدَ نزار هُم الأئمة مِنْ بعده يتوارثونها بالنّص ؛ والفرقة المُسْتَعْلويّة ، ويرَون صحّة إمامة المستعلى ومَنْ قام بعده من الخلفاء بمصر . وبسبب ذلك حدثت فِتَن وقُتل الأفضل فيما يقال وقُتل الآمر ، كما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

ولم يكن للمستعلى سيرةٌ فتُذكر ، فإنّ الأفضل كان يدبّر أمر الدّولة تدبير سَلْطَنة وملك لا تدبير وزارة .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١١٠١ م.

(٢) يتفق النويرى وأبو المحاسن مع المقريزى فى تاريخ بيعته بالخلافة ، ويختلفون جميعا فيما عدا هذا . فيقول المقريزى إن ولادته كانت ثامن عشر المحرم سنة ٤٦٨ ، ويذكر النويرى أنه ولد لعشر بقين منه ، ولا يحدد أبو المحاسن ، فى رواية ، يوم المولد وإن ذكر أنه فى المحرم أيضا ، ويوافق النويرى فى رواية أخرى . أما تاريخ الوفاة فيذكره المقريزى هنا فى ليلة السابع عشر من صفر من هذه السنة (٤٩٥) ، ويوافقه النويرى ، ويرجح أبو المحاسن أنه فى التاسع من صفر ومدة خلافته عند أبى المحاسن سبع سنين وشهران وأيام ، وعند النويرى سبع سنين وشهر واحد وثمانية وعشرون يوما ، وعند المقريزى هنا سبع سنين وشهر واحد وعشرون يوما . النويرى ؛ ٢٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٢ ، ١٥٣

وخلف المستعلى من الأولاد ثلاثة ، هم الأمير أبو على المنصور ، والأمير جعفر ، والأمير عبد الصّمد .

وكانت قضاة مصر فى خلافته أبو الحسن ابن الكحال ، ثم عُزِل بابن عبد الحاكم المليجي ، ثم وَلِي أبو الطاهر محمد بن رجاء ، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا ، ومات المستعلى وهو قاض .

وقيل إن المستعلى مات مَسْمُومًا ، وقيل بل قُتِل سرًّا .

وكان المستنصر قد عقد نكاحه على ست الملك ابنة أمير الجيوش بدر ، فمات قبل أن يبنى عليها ، وكان أمير الجيوش قد جهّزها جهازًا عظيما وأكثر من شراء الجواهر العظيمة القدر لها ، فلما مات انتهب أولاده ذلك وتفرقوه .

وفيها أخذ صنجيل[1] ، أحد ملوك الفرنج ، طرابلس ، فصار للفرنج القدس وفلسطين إلّا عسقلان ؛ ولهم من بلاد الشام يافا ، وأرسوف ، وقيسارية ، وحيفا ، وطبريّة ، والأُردنّ ، ولاذقيّة ، وأنطاكية ؛ ولهم من الجزيرة الرّها ، وسَرُوج[2] . ثم ملكوا جُبَيل[3] ، ومدينة عكّا ، وأفامية ، وسَرْمين[4] من أعمال حلب ؛ وبيروت ، وصَيْدا ، وبانياس ، وحصن الأثارب[5] ،[6]

---

(١) هو Le Comte Raymond descendant .... de Saint-Angilles من أقطاب الصليبين الأوائل . انظر : السلوك : ١ : ٩٥ حاشية : ٢ .

(٢) من بلاد الجزيرة بالقرب من حران . معجم البلدان : ٥ : ٧٧ .

(٣) على بعد ثمانية فراسخ من بيروت ، فى شرقيها . نفس المصدر : ٣ : ٥٩ .

(٤) من أعمال حلب بالقرب من تل السلطان التى تبعد عن حلب مرحلة واحدة ، واسمها القديم سدوم ، وأهلها زمن ياقوت من الشيعة الإسماعيلية . نفس المصدر : ٥ : ٧٥ .

(٥) بين حلب وأنطاكية على مسافة ثلاثة فراسخ من حلب . نفس المصدر : ١ : ١٠٥ — ١٠٦ .

(٦) بهامش الأصل هنا نجد العبارة الآتية : بياض نحو أربعة أسطر . (يعنى من نسخة الأصل ؛ إذ كان المؤلف يترك مثل هذا الفراغ لإضافة مايزمع إضافته من معلومات ، وإن لم يتمكن من ذلك فى كثير من الأحوال)

الآمِرُ بأحْكَامِ اللهِ أبُو عَلِي المنْصُوْر بْن المُسْتَعلي بآللهِ
أبي آلقاسِم أحْمَدَ بْن المِسْتَنْصِر بالله أبِي تَمِيم مَعَدّ

وُلد ضُحى يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرّم سنة تسعين وأربعمائة ، وبُويع له بالخلافة في اليوم الذى مات فيه أبوه وهو طفلٌ له من العمر خمس سنين وشهر وأيام ، في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين[1] . أحضره الأفضل وبايع له ، ونصبهُ مكان أبيه ، ونعته بالآمر بأحكام الله .

وكتب ابن الصيرفى سجلاً عظيما ، أبدع فيه ما شاء ، بانتقال الإمام المستعلى إلى رحمة الله وولاية ابنه الآمر ، وقُرِئ على رءوس الكافَّة من الأمراء والأجناد وغيرهم .

وأنشد ابن مؤمن الشاعر قصيدة طنّانة يمدح الآمر . وركب الأفضل فرسًا وجعل في السّرج شيئًا أركب الآمر عليه (لينمو شخص الآمر وصار ظهره فى حجر الأفضل[2]) .

---

(١) ويقولُ أبو المحاسن : ولد الآمر فى أول سنة تسعين وأربعمائة ، واستخلف وله خمس سنين . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٧١ .

(٢) بياض بالأصل يتسع لبضع كلمات . والتكملة من المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٩٠ .

سنة ست وتسعين وأربعمائة (١) :

فيها ندب الأفضل مملوك أبيه سعد الدّولة (ويعرف)(٢) بالطّواشِى على عسكر لقتال [١١٤ ا] الفرنج ، فلقيهم بغدوين على تُبْنا(٣) ، فكُسِرت عساكر الأفضل وتَقَنْطَر سعدُ الدولة فمات ، وأخذ الفرنج خِيَمه فانهزم أصحابه(٤) . وبلغ (الأفضل(٥)) ذلك فجرّد فى أول شهر رمضان عسكرًا قدّم عليه ابنه شرف المعالى سماه الملك حسينًا ، وسيّر الأسطول فى البحر ، فاجتمعت العساكر بيازُور(٦) ، من بلاد الرملة ؛ وخرج إليهم الفرنج ، فكانت بينهما حروب هزمهم الله فيها بعد مقتلة عظيمة . ونزل شرف المعالى على قصر كان قد بَنَاهُ الفرنج قريباً من الرّملة وسبعمائة قومص من وجوه الفرنج ، فقاتلوه خمسة عشر يومًا ، فملكهم وضرب رقاب أربعمائة وبعث إلى القاهرة ثلثمائة .

وكان أصحاب شرف المعالى قد رأى بعضهم أن يمضُوا إلى يافا ويملكوها ، ورأى بعضهم أن يسيروا إلى القدس . فبيْنا هُم فى ذلك وصل مركب من الفرنج لزيارة قُمَامَة ، فَنَدبَهُم بغدوين للغزو معه ؛ فساروا إلى عسقلان وقد نزلها شرف المعالى وامتنع بها ، وكانت حصينة ؛ فتركها الفرنج ومضوا إلى يافا . وعاد شرف المعالى إلى القاهرة بعد ما كتب إلى شمس الملوك دُقاق ، صاحب دمشق ، يستنجده لقتال الفرنج ، فتقاعد عن المسير واعتذر.

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من أكتوبر سنة ١١٠٢ .

(٢) بياض بالأصل يتسع لكلمة واحدة . والتكلة من الكامل : ١٠ : ١٢٧ . وهناك يذكر ابن الأثير أن المنجمين كانوا يقولون له إنه سيموت مترديا ، فكان يحذر من ركوب الخيل حتى إنه ولى بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفا أن تزلق فرسه أو يعثر ، فلما كانت هذه الوقعة انهزم وتردى به فرسه فسقط ميتا .

(٣) ويكتبها ياقوت تبنى بضم التاء وسكون الباء : بلدة بحوران من أعمال دمشق ، وينقل عن ابن حبيب أنها قرية من أرض البثنية لغسان . معجم البلدان : ٢ : ٣٦٤ .

(٤) سبق ذكر هذه الجملة فى أحداث سنة ٤٩٤ ، وقد علق عليها هناك بمقارنتها بما ورد فى النجوم الزاهرة وفى ذيل تاريخ دمشق .

(٥) زيد ما بين القوسين لأن السياق يقتضيه .

(٦) ومنها الوزير أبو محمد الحسين بن على بن عبد الرحمن اليازورى الذى تولى الوزارة للمستنصر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ثم قتله المستنصر سنة خمسين وأربعمائة . انظر تفصيل الحديث عن وزارة اليازورى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

فجرّد الأفضل أربعة آلاف فارس وعليهم تاج العجم[1]   بمن معه عسقلان ، ونزل ابن قادوس على يافا ؛ وبعث يستدعى تاج العجم ليتّفقا على الحرب ، فلم يجبه ، وتنافرًا . فلمّا بلغ ذلك الأفْضَل بعث يقبض على تاج العجم وولّى تاج الملك رضوان تقدمة العسكر وسيّره إلى عسقلان ، فأقام عليها إلى آخر سنة سبع وتسعين حتّى قدم شرف المعالى بعساكر مصر .

وفيها مات تنكرى[2] ملك الفرنج بالسّاحل ، فقام بعده سرجار[3] ابن أخيه .

(١) بياض بالأصل لم أهتد إلى ما يكمله . لكن ابن القلانسي يذكر أن الجيش والأسطول خرجا فى هذه الحملة بقيادة شرف ولد الأفضل . ذيل تاريخ دمشق : ١٤٢ – ١٤٣ . ويذكر ابن الأثير أن ولد الأفضل عاد إلى مصر فسير تاج العجم فى البر والقاضى ابن قادوس بحرا . الكامل : ١٠ : ١٢٧ .

(٢) وهو Tancred الأمير الصليبى صاحب أنطاكية بين سنتى ٤٩٨ – ٥٠٦ (١١٠٤ – ١١١٢) .

(٣) الأمير Roger, Son of Richard ابن أخى تنكرد ، وقد خلف Tancred فى أنطاكية فى المدة بين سنتى ٥٠٦ – ٥١٣ (١١١٢ – ١١١٩) . ومن هذه الحاشية والتى قبلها يتبين أن الأمير تنكرد لم يمت فى هذه السنة كما ذكر المقريزى ، وأن روجر ، بالتالى ، لم يخلفه فى هذا التاريخ . راجع : The Crusaders in the East

سنة سبع وتسعين وأربعمائة (١) :

فيها نازل بغدوين ، ملك الفرنج وصاحب القدس ، ثغر عكا وحاصر أهله وألحّ عليهم حتّى ملكه . وكان فيه من قِبَل الأفضل يومئذ زهر الدّولة بنا الجيوشى ، ففرّ إلى دمشق[٢] ؛ وصار إلى ظهير الدّين[٣] أتابك ، فأكرمه وأحسن إليه ، ثم جهّزه إلى الأفضل فأنكر عليه وهدّده على تضييع الثغر . ولم تَعُدْ بعدها عكّا إلى المسلمين .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس من أكتوبر سنة ١١٠٣ .

(٢) وقد استعان بلدوين فى هذه المعركة بالجنويين وأسطولهم ، برا وبحرا ، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا ثغر جبيل فى نيف وتسعين مركبا . ولشدة الهجوم وكثرة عدد المهاجمين من البر والبحر وليأس زهر الدولة من وصول المدد والمعونة خرج من البلد منهزما ولجأ إلى دمشق . ذيل تاريخ دمشق : ١٤٤ .

(٣) فى الأصل ظهير الدولة ، وهو خطأ . والمقصود به ظهير الدين طغتكين أتابك الملك دقاق بن تتش صاحب دمشق ، ثم مؤسس الدولة البورية فيما بعد .

سنة ثمان وتسعين واربعمائة (١) :

فيها جمع الأفضل جموعًا كثيرة من العربان وأنفق فيهم أموالا عظيمة ، وجهّزهم صُحبة العساكر مع ابنه شرف المعالى ؛ وكتب لظهير الدّين أتابك ، صاحب دمشق ، بمعاونته ومعاضدته على محاربة الفرنج ؛ فاعتذر عن حضوره بما هو مشغول به من مضايقة بُصرى ، فإن أرتاش بن تاج الدولة[٢] صاحب بُصرى كاتَب الفرنج وأغْرَاهُم بقتال المسلمين وأطمعهم فى البلاد . فسار أتابك من دمشق وحاصَرَ بُصرى ؛ وجهّز عسكرًا إلى شرف المعالى تقْويةً له على الفرنج ، وقدّم عليه إصبهبذ صبا وجهارتكين ، وعدّته ألف وثلثمائة فارس من الأتراك ، وعدة عسكر مصر خمسة آلاف فارس .

وأتَاهُم بغدوين فى ألف وثلثمائة فارس وثمانية آلاف راجل . فاجتمعت عساكر المسلمين بظاهر عسقلان ، ودارت بينهم وبين الفرنج حروب كان ابتداؤها فى الرابع عشر من ذى الحجة فيا بين عسقلان ويافا ؛ فانكسرت عساكر المسلمين واستشهد فوق الألف من المسلمين منهم جمال الملك صنيع الإسلام والى عسقلان ، وأخذ الفرنج رايته ؛ وأسر الفرنج زهر الدولة بنا الجيوشى . وقتل ألف ومائتان من الفرنج ، ورجعوا وقد كانت الكرّة لهم على المسلمين . وعاد عسكر دمشق إلى أتابك وهو على بُصرى .

وفيها مات كنز الدّولة[٣] محمد فى ثامن شعبان ، وقام من بعده أخوه فخر العرب هبة الله .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١١٠٤ .

(٢) هو أرتاش بن تاج الدولة تتش ؛ وكان فى دمشق حتى وفاة دقاق بن تتش صاحبها ، فزين له ظهير الدين طغتكين التقدم إلى الرحبة ، فملكها وعاد فنعه طغتكين من دخول دمشق ؛ وهذا سبب نفوره من طغتكين وتحالفه مع الفرنج . وقد حدث هذا كله فى سنة ٤٩٧ . ونشبت الحرب بين الرجلين فى هذه السنة ، ٤٩٨ ، عند بصرى ونجح طغتكين فى تملكها سنة ٤٩٩ . انظر ذيل تاريخ دمشق : ١٤٨ — ١٥٠ ؛ الكامل : ١٠ : ١٣١ ، ١٤٢ حيث يسمى ابن الأثير صاحب بصرى باسم بكتاش .

(٣) لقب منحه الفاطميون لحكام النوبة منذ نجح زعيمهم أبو المكارم هبة الله أمير ربيعة فى القبض على أبى ركوة الثائر على زمن الحاكم بأمر الله ؛ وأصبح هذا اللقب حقا يتوارثه أمراء هذه المنطقة منذ ذلك العهد . انظر الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى : ١٣٤ — ١٣٥ .

سنة تسع وتسعين واربعمائة (١) :

فى سادس عشر رجب قُتِل خلف بن ملاعب صاحب فامية ، قتله طائفة من الباطنية(٢)

ومَلَكَ الفرنج عكا عنوةً فى سلخ شعبان من زهو الدولة بنا الجيوشى فسار إلى دمشق ثم قدم مصر .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من سبتمبر سنة ١١٠٥ .

(٢) تجد تفصيل هذا فى ذيل تاريخ دمشق : ١٤٩ — ١٥٠ .

سنة خمسمائة (١) :

أهلّت والخليفة بمصر الآمر بأحكام الله ، ومدبّر سلطنة مصر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وليس للآمر معه حل ولا ربط ، وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة [١١٤ ب] ، والذى فى مملكته ديار مصر وغزة وعسقلان وصور وطرابلس لا غير .

وفيها بنى الأفضل دار الملك بشاطئ النيل من لَدُن مصر(٢)

وفيها سار مُتولّى صور فأوقع بالفرنج على تبنين(٣) ، فقتل واسر جماعة ، وعاد إلى صور ؛ فسار بغدوين إليه من طبريّة ؛ فركب طغتكين من دمشق ، وأخذ للفرنج حصنًا بالقرب من طبرية وأسَرَ مَنْ كان فيه منهم .

وفيها ملك قلج بن أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق ، صاحب قونية ، الموصل فى شهر رجب ، فقتل فى ذى القعدة منها(٤) ، وقام بعده بقونية وأقصرا ابنه مسعود(٥)

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى من سبتبر سنة ١١٠٦ .

(٢) كانت من مناظر الفاطميين . بدأ الأفضل بناءها سنة إحدى وخمسمائة ، ولما كلت انتقل إليها وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر وجعل فيها الأسمطة واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا . فلما قتل الأفضل صارت الدار من جملة متنزهات الفاطميين ، وظلت كذلك حتى حولها الملك الكامل الأيوبى إلى المتجر الرسمى للدولة . وكانت آخر مكان يصل إليه موكب الخليفة إذا خرج إلى الجامع العتيق بمصر القديمة الحالية فى موكب أول العام . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٣–٤٨٤ .

(٣) بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس فى طريق دمشق – صور . معجم البلدان : ٢ : ٣٦٤ .

(٤) مات قلج أرسلان فى حربه ضد جاولى سقاوه الذى تحالف مع رضوان صاحب حلب ضده ، وكانت وفاته غرقا فى نهر الخابور إذ ألقى بنفسه به ليحمى نفسه من النشاب ، فانحدر به فرسه إلى ماء عميق فغرق وظهرت جثته بعد أيام . الكامل : ١٠ : ١٥٠ – ١٥١ .

(٥) كان قلج أرسلان قد استخلف ابنه ملكشاه عندما خرج فى اتجاه الرها والموصل ونصيبين فى الحرب التى انتهت بغرقه فى نهر الخابور ، وكان عمره إحدى عشرة سنة . وبهذا يظهر أن مسعودا ركن الدين (أوعز الدين) لم يخلف قلج أرسلان ، ذلك أن مسعودا تولى سلطنة قونية وأقصرا فى سنة ٥١٠ . نفس المصدر . انظر أيضا معجم الأنساب .

سنة احدى وخمسمائة (١) :

فيها نزل بغدوين على ثغر صور وعمر حصنًا مقابل حصن صور على تلّ المعشوقة . وكان على ولاية صور من قبل الأفضل سعد الملك كمشتكين ، أحد المماليك الأفضلية ، فصانع بغدوين على سبعة آلاف دينار وخرج من صور .

وفيها أحضر إلى القاهرة أهل فخر الدولة أبي على عمّار بن محمّد بن عمّار من طرابلس وكثير من أمواله وذخائره . وذلك أن فخر الدولة حاصرهُ الفرنج وأطالوا منازلته حتى ضاق ذرعُه وعجز عن مقاومتهم ، فخرج من طرابلس فى سنة خمسمائة ومعه هدايا جليلة ؛ فلقى ظهير الدين طغتكين أتابك بدمشق ، فأكرمه ووافقه على السير معه إلى بغداد ليستنجد بالسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه[٢] ؛ فَسَارَا . ثم إن أتابك تركه وعاد إلى دمشق ، فثار فى هذه المدة أبو المناقب ابن عمار عَلَى ابن عمه فخر الدولة ، ونادى بشعار الأفضل ، وأرسل يطلب منه من يتسلّم منه طرابلس . فبعث إليه الأفضل بالأمير مشير الدّولة[٣] ابن أبى الطّيّب ، فدخل إلى طرابلس ونقل منها حريم فخر الدولة وأمواله ؛ ففتّ ذلك فى عضد فخر الدولة .

وفيها اتصل أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبى شجاع فاتك بن الأمير مجد الدولة أبى الحسن مختاربن الأمير أمين الدولة أبى على حسن بن تمام المستنصرى الأحول الإمامى الشيعى المعروف بالمأمون ابن البطائحى ، بخدمة الأفضل أبى القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر المستنصرى . وسبب ذلك تغيُّر الأفضل على تاج المعالى مختار الذى كان اصطنعه وفخّم أمره وسلّم إليه خزائن أمواله وكسواته ، فسلّم لأخويه مايتولاه واستعان بهما فيه ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١١٠٧ .

(٢) غياث الدين أبو شجاع ، سادس السلاجقة العظام ، وعاصمة سلطنته أصبهان . حكم بين سنتى ٤٩٨ – ٥١١ (١١٠٥ – ١١١٨) . معجم الأنساب : ٣٣٣ .

(٣) يلقبه ابن القلانسى شرف الدولة ، وكذلك يفعل النويرى . انظر ذيل تاريخ دمشق : ١٦١ ؛ نهاية الأرب ٢٨

فحصل لهم من الإذلال على الأفضل ما حملهم على مدّ أيديهم إلى أمواله وذخائره ، وشاع أمرهم وكُتب إلى الأفضل بسببهم ، فتغير عليهم ، وأخرج مختاراً إلى الولاية الغربية وخلع عليه . فلما انحدروا إليها سيّر صاحب بابه سيف الملك خطلخ ، ويعرف بالبغل ، وكان من غِلمان أبيه ، فقبض عليه وعلى إخوته من العشارى[1]، وكُبِّل بالحديد ورُمى بالاعتقال؛ وأشيع أنّ مختاراً كاتب الفرنج ؛ وجُعِل هذا هو العذر فى القبض عليه ، وأنّه كان أراد قَتْل الأفضل .

فلمّا جرى لمختار وإخوته ما جرى ألزم الأفضل أبا عبد الله بن فاتك يتسلّم ما كان بيد مختار من الخدمة ، فتصرّف فيها . وقرّر له الأفضل ما كان باسم مختار من العَيْن خاصّةً دون الإقطاع ، وهو مائة دينار فى كل شهر وثلاثون ديناراً عن جارى الخزائن ، مضافا إلى الأصناف الراتبة مياومة ومُشَاهرة ومُسَانَهَةً ، وحسن عند الأفضل موقع خدمته ، فسلّم له جميع أموره ، وصرفه فى كلّ أحواله . ولما كثر الشغل عليه استعان بأَخَوَيْهِ ، أبى تراب حيدرة وأبى الفضل جعفر ؛ فأطلق لهما الأفضل ما وسّع به عليهما ؛ ونَعَت الأفضل أبا محمد ابن فاتك بالقائد .

فيها فُتح ديوان سُمّى بديوان التحقيق[2] ، تولاه أبو البركات يوحنا بن أبى الليث النّصرانى . وكان يتولّى ديوان المجلس رجل يعرف بابن الأسقف ، وكان قد كبر وضعف [١١١٥] فتحدّث ابن أبى الليث مع القائد أبى عبد الله فى الدّواوين والأموال والمصالح ، وفاوض فى ذلك الأفضل . واتفق موت ابن الأسقف ، فتسلّم ابن أبى الليث الدواوين واستمر فيها حتى قُتل فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة .

---

(١) نوع من السفن . انظر الجزء الأول من هذا الكتاب : ٢٨٢ حاشية : ١ .

(٢) وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير وله الخلع والمرتبة والحاجب ، ويلحق برأس الديوان يعنى متولى النظر ، ويفتقر إليه فى أكثر الأوقات . وقد عرض ابن أبى الليث أموالا كثيرة ، جمعها بعد أن تولى هذا الديوان ، على الأفضل فقال له : تفرحنى بالمال ! وتربة أمير الجيوش إن بلغنى أن بئرا معطلة أو بلدا خرابا أو أرضا بائرة لأضربن عنقك . فقال وحق نعمتك لقد حاشا الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة أو أرض بور . واستمر هذا الديوان إلى نهاية عصر الفاطميين ثم بطل ، وأعاده الملك الكامل الأيوبى سنة ٦٢٤ وعطله بعد سنتين ، ثم أعاده السلطان المعز أيبك صفى الدين ، واستخدمه فى مقابلة الدواوين ، وهو نوع منه . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠١ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٩ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ . ولعل هذا يقابل ما يعرف الآن بديوان المحاسبات .

وفيها تحدّث ابن أبي الليث فى نقل السنة الشَّمْسية إلى العربية[١]، وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين ، فأجاب الأفضل إليه ، وخرج أمره إلى الشيخ أبي القاسم ابن الصيرفى بإنشاء سجل به ، ثم رأى اختلال أحوال الرّجال العسكرية والمُقْطَعين ، وتضررهم من حسبة ارتفاع إقطاعاتهم وسُوء حالهم ، لقلّة المتحصل منها ، ولأنّ إقطاعات الأُمراء قد تضاعف ارتفاعُها وزادت عن غيرها ؛ وصار فى كل ناحية للدّيوان جملة تُجْبَى بالعَسْف وتتردّد الرّسل بين الديوان بسببها . فحمُلت الإقطاعات كلّها على أملاك البلاد ، وأمر ضعفاء الجند بالزيادة فى الإقطاعات التى للأقوياء ؛ فتزايدوا إلى أن انتهت الزّيادة ، فكُتبت السّجلات بأنها باقية فى أيديهم مدة ثلاثين سنة ما يقبل منهم فيها زائد . وأمر الأقوياء أن يبذلوا فى الإقطاعات التى كانت بيد الأجناد ما تحتمله كلّ ناحية ، فتزايدوا فيها حتى بلغت إلى الحدّ الّذى رغب كلٌّ منهم فيه فكُتبت لهم السّجلات على الحكم المتقدّم ؛ فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم ، وحصل للديوان بلاد مفردة بما كان مفرّقا فى الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار .

وفيها فرغ بناء دار الملك[٢] ؛ وكان الأفضل يسكن القاهرة فتحوّل إلى مصر ، وسكن دار الملك على النيل واستقرّ بها ، فقال الشعراء فيها عدّة قصائد .

وفيها بانت كراهة الأفضل لأولاده واحتجب عنهم أكثر الأوقات ، فانقطعوا عنه واستقروا بالقاهرة فى دار القباب التى كانت سكن أبيهم الأفضل ، وهى الدار التى عرفت بدار الوزارة ؛ ولم يَبْقَ من أولاده من يتردّد إليه سوى سماء الملك فإنّه كان يؤثرهُ ويَميلُ إليه.

وأفرد الأفضل للقائد أبي عبد الله بن فاتك الموضع المعروف باللؤلؤة[٣] .

---

(١) راجع السبب فى اتخاذ مثل هذه الخطوة أصلا فى صبح الأعشى : ١٣ : ٥٤ — ٦٠ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٢٧٣— ٢٨٥ .

(٢) وهى دار الوزارة الكبرى ، بجوار القصر الكبير الشرقى تجاه رحبة باب العيد ، ويقال لها أيضا الدار الأفضلية والدار السلطانية ، وأصبحت منذ إنشائها سكن الوزراء إلى أن انتقل الأمر إلى بنى أيوب فسكنها صلاح الدين ومن جاء بعده حتى انتقل منها الكامل إلى قلعة الجبل . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣٨ — ٤٣٩ .

(٣) كان للفاطميين منظرة تعرف بمنظرة اللؤلؤة وقصر اللؤلؤة على الخليج ، وكانت تشرف من شرقيها على البستان الكافورى ومن غربيها على الخليج ، ولم يكن فى غربى النيل مقابلها شىء من المبانى وإنما كان هناك بساتين عظيمة ؛ وكانت المنظرة تطل على جميع أرض الطبالة وأرض اللوق . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٧ — ٤٦٩ .

وفيها وردت الأخبار بأن متملّك النوبة قد تجهّز برًّا وبحرًا وعوّل على قصد البلاد القبلية ؛ فسيّر الأفضل عسكرًا إلى قُوص ، وتقدّم إلى والى قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة ؛ فورد الخبر بُوثُوب أخى الملك عليه وقَتْله . واشتدت الفتنة بينهم حتى بَادَ أهل بيت المملكة وأُجْلِس صبىٌّ فى الملك ، فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل وتسأله ألّا يسيّر إليهم من يغزُوهم . فكتب لِوَالى الصعيد الأعلى بأن يسيّر عسكرًا إلى أطراف بلاد النّوبة ويبعث إليهم رسولًا يجدّد عليهم القطيعة الجارى بها العادة ، وهى كلّ سنة ثلثمائة وستّو ن رأسًا رقيقًا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم فى السنين المتقدمة . فلمّا دخلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة ، وكتبوا المواضَعَات ، وسألوا فى الإعفاء عمّا يخصُّ السنين ، وحملوا ما تيسّر لهم ؛ وعادت العساكر كاسبة .

وفيها كثُر خوْضُ الناس فى القرآن ، هل هو محدث أو قديم ، وتفاقم الأمر ؛ فعرف الأفضل[1] ، فأمر بإنشاء سجلّ بالتّحذير من الخَوْضِ فى ذلك؛ وركب بنفسه إلى الجامع بمصر ، وجلس فى المحراب بجوار المنبر ، وصعد الخطيب أربع درجات منه وقرأ السّجلَّ على الناس .

وفيها مات مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان صاحب قونية وأقصرا ، فقام بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، وقسم أعماله بين أولاده[2] .

---

(١) فى الأصل : الفضل .

(٢) فى هذا النبأ شئ غير قليل من الأضطراب . ذلك أن قليج أرسلان الأول ، جد مسعود توفى سنة خمسمائة (١١٠٦) فخلفه ابنه ملكشاه الأول الذى توفى سنة عشر وخمسمائة (١١١٦) ، وتولى بعده أخوه ركن الدين مسعود الأول الذى بقى فى السلطنة حتى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة (١١٥٦) ثم وزعها بين أولاده وإن ظل على قيد الحياة حتى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . أنظر معجم الأنساب ؛ Mohammadan Dynasties ؛ والكامل فى الجزءين العاشر والحادى عشر .

سنة اثنتين وخمسمائة (١) :

فى رمضان ورد الخبر بأن أهل مدينة طرابلس الشام نادوا بشعار الدّولة عند خروج فخر الملك أبى على عمار بن محمّد بن الحسين بن قندس بن عبدالله بن إدريس بن أبى يوسف الطائى منها وقَصْدِه بغداد لطلب النجدة لما اشتد حصار الفرنج لها ، وغلا السّعر بها . وكان سماء الملك حسين بن الأفضل عند ما كان بالشام فى السنة التى كُسِر الفرنج فيها قد سَامَ ابنَ عمّار تسليمها إليه ، فامتنع وغلق الباب فى وجهه ؛ وأقام سماء الملك عليها مُدّةً بالعساكر إلى أن نازلها الفرنج ورَحّلُوه عنها إلى عسقلان . فلمّا سمع الأفضل أنّ أهل [١١٥ ب] الثغر نادوا بشعاره سيّر إليهم (شرف الدّولة ابن أبى الطيب[٢]) ومقدّم الأسطول ، وأمره بأخذ المراكب التى على دمياط وعسقلان وصُور معه إلى الثغر المذكور نُصرةً للمسلمين[٣] .

فلمّا وصل إليه وجد الفرنج قد ملكوا الجوسق[٤] وأمهلوا المسلمين ، فأنفذ من كان بها وحمل فى المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم ، وفيهم صالح بن علاق الطائر بعد هروبه من الأفضل ، وحمل من دار ابن عمّارٍ ذخائره ومصاغه ، وكان بقيمة كبيرة .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من أغسطس سنة ١١٠٨ .

(٢) ما بين القوسين من ذيل تاريخ دمشق : ١٦١ ومن نهاية الأرب : ٢٨ ، وفى الأصل : إليهم أمير بن . . .

(٣) ولمـا علم ابن عمار أن ابن عمه نادى بشعار الأفضل بن أمير الجيوش كتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه . ويعلق أبو المحاسن على تأخر الأسطول المصرى ثم على وصوله وعدم صموده أمام الفرنج بكلام كثير جاء فيه : « ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه . . . لضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد » . ويتعرض ابن القلانسى لتأخر الأسطول قائلا إن أهل البلد « ذلت نفوسهم لاشتمال اليأس من تأخر وصول الأسطول المصرى فى البحر والميرة والنجدة ، وقد كانت علة الأسطول أزيحت وسير الريح ترده لمـا يريد الله تعالى من نفاذ الأمر المقضى » . ويتحدث كذلك عن استعداد الأسطول فى هذه المناسبة : « ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمـال » . قارن النجوم الزاهرة : ٥ : ١٧٩ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ١٦٠ — ١٦١ ؛ ١٦٣ — ١٦٤ : نهاية الأرب : ٢٨ . وسيرد فى المتن شبيه لمـا ذكره ابن القلانسى بشأن الأسطول .

(٤) الجوسق معرب الكلمة الفارسية كوسك ، ومعناها القصر ، والجمع جواسق ، ويجئ فى الشعر مجموعا على جواسيق أيضاً . السلوك : ١ : ٥٩٩ حاشية : ١

وحمل أخا ابن عمّار المعروف بفخر الدّولة وأهله إلى مصر ، فأكرمهم الأفضل ، واعتقل صالح بن علاق بخزانة البنود .

وفى العشرين من شوال كانت ريح سوداء من صلاة العصر إلى المغرب .

وفيها جدّد حفر خليج القاهرة ، فإن المراكب كانت لا تدخل فيه إلا بمشقة ، وجُعل حفره بأبقار البساتين التى عليه ، فيحفر بأبقار كلّ بستان ما يحاذيه ، فإذا أنتهى أمر البساتين عُمل فى البلاد كذلك ؛ وأُقيم لهُ وَالٍ مُفرد بجامكية[1] ؛ ومُنع الناس أن يطرحوا فيه شيئًا .

ولما تكاثرت الأموال عند ابن أبى الليث صاحب الديوان ، وحدث أن تبجّح على الأفضل بخدمته ، وكان سبعمائة ألف دينار ، خارجًا عما أنفق فى الرجال ، فجعل فى صناديق بمجلس الجلوس . فلمّا شاهد الأفضل المال قال : يا شيخ تفرحنى بالمال وتريد أمير الجيوش أن يلقى بئرا معطّلة أو أرضًا بائرةً أو بلدًا خرابًا ، لأضربَنّ رقبتك . فقال : وحقّ نعمتك لقد حاشا الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة . فتوسّط القائد له بخلع ؛ فقال : لا والله حتى أكشف عمّا ذكر .

وفيها وصل بغدوين إلى صيدا[2] ونصب عليها البرج الخشب ؛ فوصل الأسطول من مصر للدّفع عنهم ، وقاتلوا الفرنج ، فظهروا فى مراكب الجنويّة ، فبلغهم أنّ عسكر دمشق خارج فى نجدة صيدا ، فرحل الأسطول عائداً إلى مصر .

وفى شعبان منها نزل الفرنج على طرابُلُس وقاتلوا أهلها من أول شعبان إلى حادى عشر ذى الحجة ، ومقدّمهم ريمند بن صنجيل[3] ؛ وأسندوا أبراجهم إلى السُّور ؛ فضعُفَت نفوس

---

(١) هى الراتب بصفة عامة نقدا أو غلة ونحوها . انظر : Dozy; Supp. Dict. ar.

(٢) بالقصر والمد ، على بعد ستة فراسخ شرقى صور . معجم البلدان : ٥ : ٤٠٣ — ٤٠٥ .

(٣) فى الواقع ابن ريموند الصنجيلى وليس ريموند بن صنجيل كما جاء فى المتن وفى نهاية الأرب وغيرهما . واسمه : Bertram, a son of Raymond of Toulouse. وكان قد قدم بحرا مطالبا بميراثه فى إمارة والده . ويذكر Stevenson أن التعاون ظهر واضحا بين أمراء الفرنج فى هذه المعركة حتى تميز هذا العام بهذه الوحدة : "The year is made notable by this union of forces" : انظر The Crusaders in the Ea:57 ·dıs

المسلمين لتأخُّر أسطول مصر عنهم ، فكان قد سار من مصر إليها بالميرة والنجدة فردّته الرّيح لأمرٍ قدّره الله . فشد الفرنج فى قتالهم وهجموا من الأبراج ، فملكوها بالسيف فى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ذى الحجّة ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ؛ فحازوا من الأمتعة والذخائر ودفاتر دار العلم وما كان فى خزائن أربابها مالا يُحَدّ عدده ولا يُحْصى فيُذكر . وسلّم الوالى لها فى جماعة من جندها كانوا قد طلبوا الأمان قبل ذلك ؛ وعُوقِب أهلُها واستُصْفِيت أموالهم واستُقْهِرَت ذخائرهم ، ونزل بهم أشد العذاب . وتقرّر بين الفرنج والجَنَوِيّين الثلث من البلد وما نُهِب منه للجنويّين والثُّلُثان لريمند ابن صنجيل ؛ وأفْرَدُوا للملك بغدوين ما رضى به .

ثم وصل أسطول مصر ولم يكن خرج فيما تقدم معه كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس فأرْسَى على صور فى اليوم الثامن من أخْذ طرابُلُس وقد فات الأمر فيها ، فأقام مدّة ، وفُرّقت الغلّة فى جهاتها . وتمسّك أهل صور وصيدا وبيروت به لضعفهم عن مقاومة الفرنج ، فلم تمكنه الإقامة ، وعاد إلى مصر .

سنة ثلاث وخمسمائة (١) :

فيها سار الفرنج نحو بيروت ، وعملوا عليها برجًا من الخشب ، وزحفوا ، فكسره أهل بيروت . وقدم الخبر بذلك على الأفضل ، فجهّز تسعة عشر مركبًا حربيّة ، فوصلت سالمةً إلى بيروت وقَويت على مراكب الفرنج ، وغَنيمت، ودخلت إلى بيروت بالميرة والنّجدة ، فقوِىَ أهلُها بذلك . وبلغ بغدوين الخبر ، فاستنجد بالجنَويّة ، فأتاهم منهم أربعون مركبًا مشحونة بالمقاتلة ؛ فزحف على بيروت فى البّر والبحر ، ونصب عليها برجين، وقاتل أهلها فى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شوّال؛ فعظُمت الحرب ، وقتِل مقدّم الأسطول وكثير من المسلمين ؛ ولم يُرَ للفرنج فيما تقدّم أشدّ من حرب هذا اليوم . فانْخَذَل المسلمون فى البلد ، وهجم الفرنج من آخر النهار فملكوه بالسيف قهرًا ؛ وخرج مُتولّى بيروت فى أصحابه وحمل فى الفرنج ، فقُتِل من كان [١١٦ ا] معه ، وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد ، وسَبْوا من فيه وأسرُوا ، واستصفوا الأموال والذخائر . فوصل عقب ذلك من مصر نجدة فيها ثلثمائة فارس إلى الأردنّ تريد بيروت ، فخرج عليها طائفة من الفرنج ، فانهزموا إلى الجبال ، فهلك منهم جماعة(٢) .

وفيها سار الأسطول من مصر إلى صور ليقيم بها(٣) ، فاتّفق وصول ابن كند ملك الفرنج فى عدّة مراكب لزيارة القدس والجهاد فى المسلمين ؛ فزار القدس ، وسار هو وبغدوين إلى صيدا ، فنازَلاها بجمعهما وعملا عليها برجًا من خشب(٤) ، وزحفا عليها ؛ فلم يتمكن الأسطول من الوصول إليها(٥) .

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والثلاثين من يوليو سنة ١١٠٩ .

(٢) وكان قد وصل إلى بيروت قبل ذلك تسعة عشر مركبا حربيا من الأسطول المصرى تمكنت من دخول بيروت محملة بالميرة فقويت بها نفوس أهلها . ذيل تاريخ دمشق : ١٦٨ .

(٣) يذكر أبو المحاسن أن الأسطول قد وصل بعد أن أخذت البلاد فعاد إلى مصر . بينما يذكر النويرى أن الأسطول الذى وصل ، وكان فى الأصل مرسلا لنجدة طرابلس ، وصل بعد أخذ البلد – طرابلس – بأيام وفيه ما يكفى البلد من الرجال والميرة مدة سنة ، ففرق أحماله على الجهات المجاورة لها : صيدا وصور وبيروت . ولعل نصيب بيروت هو المراكب التسعة عشر التى سبقت الإشارة إليها . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٨٠ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

(٤) اشترك فى هذا الهجوم أسطول من النرويج وآخر من البندقية : The Crusaders in the East; pp. 59-60.

(٥) بهامش الأصل هنا عبارة تقول : بياض نحو ربع صفحة.

سنة اربع وخمسمائة (١) :

فى ثالث ربيع الآخر اشتد الحصار على أهل صيدا ويَئِسُوا من النجدة ، فبعثوا قاضى البلد فى عدة من شيوخها إلى بغدوين يطلبون الأمان ، فأجابهم وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ، وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق ، وحلف على ذلك . فخرج الوالى والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من الناس ، وتوجهوا إلى دمشق ، لعشر بقين من جمادى الآخرة . وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يومًا(٢) .

وفيها خرج جماعة من التجار والمسافرين من تنّيس ودمياط ومصر وأقلعُوا فى البحر ، فأخذهم الفرنج وغنموا منهم ما يزيد على مائة ألف دينار ، وعاقبوهم حتّى افتدوا أنفسهم بما بقى لهم من الذخائر فى دمشق وغيرها .

وفيها أغار بغدوين بعد عَوْدِه من صَيْدا على عسقلان ، فراسَلَه أميرُها شمس الخلافة أسد حتى استقرّ الحال على مالٍ يحملهُ إليه ويرحل عنه(٣) . وقرّر على أهل صور سبعة آلاف دينار تُحمل إليه فى مدّة سنة وثلاثة أشهر . فقدم الخبر بذلك فى شوّال على الأفضل ، فأنكر ذلك وكتمه عن كلّ أحد ، وجهّز عسكرًا كثيفًا إلى عسقلان ، وقدّم إليه عز الملك الأعزّ ليكون مكان شمس الخلافة ، وندب معه مؤيد الملك رزّيق ، وأظهر أن هذا العسكر سار بدلًا . فسار إلى قريب عسقلان ، وبلغ ذلك شمس الخلافة فأظهر الخلاف على الأفضل وكتب إلى بغدوين يطلب منه أن يُمدّه بالرّجال ويَعِدُه بتسليم عسقلان وأن يعوّضه عنها . فبلغ ذلك الأفضل . فكتب إليه يُطيّب قلبه ويُغالِطُه ، وأقطعه عسقلان ، وأقرّ عليه إقطاعه

---

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من يوليو سنة ١١١٠ .

(٢) يقدر ستيفنسون عدد المهاجرين من أهل البلد بنحو خمسة آلاف : The Crusaders in the East;p 60. ويذكر كذلك أن الحصار استمر سبعة وأربعين يوما .

(٣) يقول ابن القلانسى : وكان شمس الخلافة أرغب فى التجارة من المحاربة ، ومال إلى الموادعة والمسالمة ، وإيمان السابلة . ذيل تاريخ دمشق : ١٧٢ .

بمصر ، وأزال الإعتراض عمّا لهُ بمصر من خيل وتجارة وأثاث . فخاف شمس الخلافة على نفسه ولم يطمئن إلى أهل البلد ، واستدعى جماعة من الأرمن وأقرّهم عنده[1] .

وفى يوم الأحد العشرين من شوّال حدثت ريح حمراء بالقاهرة .

وفيها أمر أمير المؤمنين الآمر بأحكام الله أن يُبعَث جليسُه أبو الفتح عبد الجبار ابن إسماعيل ، المعروف بابن عبد القوى لعماد الدّولة زيادة على إخوته .

وفيها هبّت بمصر وأعمالها فى هذه الأيام رّيح سوداء مظلمة ، وطلع سحاب أسود أظلمت منه الدينا حتى لم يُبْصر أحد يده ، وسفّت رمادًا حتى ظنّ الناس أنها القيامة ، ويئسُوا من الحياة وأيقنوا بالبوار لِهَوْل ما عاينُوه ؛ ولم يزل ذلك من وقت العصر إلى غروب الشمس. ثم انْجَلَى ذلك السّواد وعاد إلى الصُّفرة والرّيح بحالها ؛ ثم انْجلت الصُّفرة ، وظهرت الكواكب وقد خرج الناس من الأسواق والدّور إلى الصحراء . ثم ركدت الرّيح وأقلع السّحاب ، فعاد الناس إلى منازلهم .

---

(١) واستمرت الحال على ذلك إلى آخر السنة ، فأنكر أمره أهل البلد ووثب عليه قوم من كتامة فجرحوه وهو راكب ، فانهزم إلى داره ، فتبعوه وقتلوه وأرسلت رأسه بعد ذلك إلى الأفضل بمصر . نفس المصدر : ١٧٢ .

سنة خمس وخمسمائة (١) :

فى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر نزل بغدوين على صور وبها عزّ الملك أنوشتكين الأفضلى وبنى عليها أبْرِجَة خشب ، طول البرج سبعون ذراعاً[٢] ، يسع كلّ بُرج ألف رجل ، وهو موضوع على شىء يسمّى اسقلوس وهو فخذان مُلْقَيان على الأرض ، وفى كلّ برج من أسفله عشرون فرنجيًا يصيحُ أحدهم بالفرنجية : « صَنْد مَاريّا » ، فيصيح الباقون كذلك ، ويدفعونه بأجمعهم ، فيسبح على ألواح عظيمة تُجْعَل بين يديه ؛ وكانت ستائر[٣] كل برج ومناجيقُه كأنها بلدٌ يزحف .

فخرج من أهل صُور ألف رجل وحملوا على البرج وطرحوا فيه النار ، فعلقت بالخشب ، فلم يتمكن الفرنج من إطفائه وهربوا منه ، واحترق ؛ فتناول المسلمون بالكلاليب ما قدروا عليه من سلاحهم ، فوصل [١١٦ ب] إليهم ثلثمائة درع . وكان هذا البرج كبشا من حديد وزنة رأسه مائة وخمسون رطلًا[٤] ؛ فظفر به المسلمون . وكانت الرّيح على المسلمين ثم صارت معهم ، وملأوا جِرارًا بالعُذرة ورموها على الفرنج[٥] ، فصاحُوا وذلُّوا ورحلوا ، فعاثوا ؛ ثم عادوا وقد قطعوا النّخل أنَابيب ورَموا بها فى الخندق[٦] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها العاشر من يوليو سنة ١١١١ .

(٢) يذكر ابن القلانسى أن الفرنج أعدوا برجين اثنين : صغير بطول نيف وأربعين ذراعا ، وكبير يزيد على الخمسين ذراعا ، أقيما فى نحو خمسة وسبعين يوما . ويذكر النويرى أن الأبراج ثلاثة علو البرج سبعون ذراعا . ذيل تاريخ دمشق : ١٧٩ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

(٣) جمع ستارة ، وتتخذ من الجلود واللبود المبللة بالخل والشب والنطرون لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية من قدائف النفط أو لحماية الحصون والقلاع . انظر مفرج الكروب : ٢ : ٣٠٣ : حاشية : ٥ .

(٤) الكبش وجمعه كباش وكبوش وأكبش : آلة تتصل بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان ، تدفع نحو الأسوار لهدمها . السلوك : ١ : ٥٦ حاشية : ٨ .

(٥) يذكر النويرى أن قائد النفاطين خاف أن يشتغل الفرنج الذين فى الأبراج بإطفاء النار فرماهم بجرار مملوءة بالعذرة ليشغلهم برائحتها الكريهة .

(٦) فى ذيل تاريخ دمشق : ١٧٩ — ١٨١ وصف تفصيلى للنضال بين المهاجمين والمدافعين .

وسار طغتكين من دمشق لإعانة أهل صور ، فنزل على يوم منهم لجولة بانياس ، وأنفذ إليهم مائتى غلام تُركى عليهم جليلٌ من الأتراك ؛ فقاتَل الفرنج وقتل منهم ألفًا وخمسمائة ، وأكثر النكاية فيهم . وأغار طغتكين على بلاد الفرنج ، فأخذ لهم موضعاً ، فرجعوا عن صور بغير شيء . وخرج أهل صور إلى أصحاب طغتكين ، فخلعوا عليهم وأعادوهم إليه فى أحسن زىٍّ ، وأخذ أهل صور فى رمّ ماشعّثه الفرنج فى البلد .

وفيها حدث بمصر وباء مفرط ، هلك به تقدير ستّين ألف نفس .

سنة ست وخمسمائة (١) :

فيها حُفِر البحر المعروف ببحر أبي المنجا ، فابتُدِئ فى حفره فى يوم الثلاثاء السادس من شعبان ، وأقام الحفر فيه سنتين . وكان أبو المنجا يهوديا وكان يشارف الأعمال الشرقية ؛ فلما عرض على الأفضل ما أنفقه فيه استَعْظَمه وقال : غَرِمْنا هذا المال جميعه والاسم لأبي المنجا . فغُير اسمه ودُعِى بالبحر الأفضلىّ ، فلم يتمّ ذلك ولا عرف إلّا بأبى المنجا (٢) .

وفيها أغلَن شمس الخلافة أسد ، والى عسقلان ، بالخلاف ، فعهد إلى صاحب الترتيب والقاضى فأخرجهما على أنه يرسلهما إلى الباب فى خدمة عرضت له ؛ وإلى العسكر الذى كان يخاف شوكته ؛ فأوهمهم أنّه يسيّرهم إلى بلاد العدوّ . فلمّا حصلوا خارج الثّغر أمرهم بالمسير إلى باب سُلطانهم ؛ وكان قد سيّر قبل ذلك العسكر من الباب على جهة البدل . فلمّا علم أسد المذكور بوصولهم إلى مدينة الفرما أنفذ إليهم يخيفهم ويشعرهم أن العدوّ قد تعدّاهم ، فامتنعوا من التوجّه إلى عسقلان .

فلمّا بلغ الأفضل ذلك عزم على أن يسير بنفسه إليه . ثم رأى أنّ إعْمال الحيلة أنجع ؛ فخادعه وأنْفَذ الكتب إليه يُطَمْئنُه ويصوّب رأيه فيما فعله فى صاحب التّرتيب والبدل ، ولم يغيّر مكاتبته عن حالها ، ولا تعرّض لإقطاعاته ورسُومه وأصحابه ؛ وسيّر فى الباطن من يستَفْسِد الكنانيّة والرّجال المذكورة ويبذل لهم الأموال فى أخذه . ولم يزل يدبّر عليه حتى اقْتنَصَت المنيّةِ مهجته ؛ وذلك أن أهل بيروت أنكروا أمره ، فوثب عليه طائفة وهو راكب ، فجرحوه ، وانهزم إلى داره فَتبعُوه وأجْهزوا عليه ، ونَهبُوا دارهَ وماله ، وتخطّفُوا

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من يونيو سنة ١١١٢ .

(٢) وسبب حفره أن البلاد الشرقية كانت جارية فى ديوان الخلافة وكان معظمها لا تصله مياه الرى فى أغلب السنين ولما عرف الأفضل جملة ما أنفق فيه استعظمه وقال : غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبى المنجا ، فغير اسمه ودعاه بالبحر الأفضلى فلم يتم ذلك ولم يعرف إلا بأبى المنجا . ولما تولى المأمون البطائحى الوزارة بعد مقتل الأفضل اتخذ لفتحه يوما كفتح خليج القاهرة ، وبنى عند سده منظرة متسعة ينزل فيها عند فتحه . وكان السد يفتح فى عيد الصليب فى سابع عشر توت ، ثم استقر الحال فيما بعد على أن يقطع يوم النوروز فى أول يوم من توت حرصا على رى البلاد . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٧ — ٤٨٨ ، صبح الأعشى : ٣ : ٣٠١ — ٣٠٢ .

بعض دُورِ الشّهود والعامّة . فبادر صاحب السّيارة إلى البلد وملكه ، وبعث برأس شمس الخلافة إلى الأفضل ، فسُرَّ بذلك وأحسن إلى القادمين به .

وكان قدوم الرأس فى يوم الأربعاء رابع المحرم ، صُحْبة ثلاثة من الكنانيّة ، فخلع عليهم ؛ وَطِيفَ بالرأس ، وزُيِّنت البلد سبعة أيام .

وفيه خُلع على ولده مختار ولُقّب شمس الخلافة ، وأنعم عليه بجميع مال أبيه . وسيّر بدله مؤيد الملك خطلخ ، المعروف برزيق ، واليًا على الثغْر .

وفيها وصل يانس الناسخ من الشام ، فاستُخْدِم فى خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير فى الشهر وثلاث رزم كسوة فى السنة ، والهبات والرّسُوم .

وفيها كتب إلى عسقلان بمطالبة مَنْ نَهب دار شمس الخلافة ومالَه بما أخذه ، فقُبض على جماعة وحُملوا إلى مصر فاعتقلوا بها .

وفيها تسلَّم نوّاب طغتكين صُور من عزّ الملك أنوشتكين الأفضلى خوفًا من بغدوين أن يأخذها ، وقام بأمرها مسعود ؛ فاستقرّت بيد الأتراك وأقرُّوا بها الدّعوة المصريّة والسّكّة على حالها . وكتب طغتكين إلى الأفضل بأن بغدوين قد جَمَع لينزل على صُور ، وأنَّ أهلها استَنْجَدُونى ، فبادرتُ لحمايتها ، ومتى وصل من مصر أحد سلَّمتُها إليه[1] . فكتب يشكرهُ على ما فعل . وتقدّم بتجهيز الأسطول إلى صُور بالغلَّة معونة لها .

(١) تجد اقتباسا من كتاب طغتكين إلى الأفضل فى ذيل تاريخ دمشق : ١٨٢ .

سنة سبع وخمسمائة (١) :

فى أوّلها خرج الأُسطول من مصر بالغلّات والرجال إلى صُور ، وعليه شرف الدولة (بدر[٢]) بن أَبى الطيِّب الدّمشقى (وكان[٣]) متولّى طرابلس عند أخذ الفرنج لها ، فوصل إلى صُور سالماً ؛ ورخصت بها الأسعار ، واستقام أمرُها . وأنْفَذ معه [١١٧ ا] بخلع جليلة إلى ظهير الدّين طغتكين وولده تاج الملوك وخواصّه ، ولمسعود متولّى صور . ثم أقلع فى آخر شهر ربيع الأَول . فبعث بغدوين يطلب المهادنة من مسعود ، فأَجابه ، وانْعَقد الأَمر بينهما .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن عشر من يونيو سنة ١١١٣ .

(٢) بياض بالأصل استكمل من ذيل تاريخ دمشق : ١٨٨ .

(٣) زيد ما بين القوسين للتوضيح استعانة بما جاء فى ذيل تاريخ دمشق : ١٨٨ .

سنة تسع وخمسمائة (١) :

فى ذى القعدة قُفز على الأفضل عند باب الزُّهومة[٢] من دُكان صيرفىّ يعرف بالغار وسَلِم ، فأُخرجت الصدقات بسبب سلامته وقتل الصَّيرفى وصُلِب على دُكانه .

ووَرَد الخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى الفرما ، فسيّر الرّاجل من العطوفيّة[٣] ، وسيّر إلى والى الشرقية بأن يسيّر المركزية والمُقْطَعين إليها ، ويتقدّم إلى العُرْبان بأسرهم أن يكونوا فى الطَّوالع ويطاردُوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر ، وأن يَسيرَ بنفسه ؛ فاعتد ذلك ؛ ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشى . فوصلت العربان والعساكر فطاردوا الفرنج ؛ فخاف بغدوين من يلاحق العساكر ، فنهب الفرما وأخْرَبها وألقى فيها النِّيران ، وهدم المساجد ، وعزم على الرجوع ، فأدركته المنيّة ومات . فأخفى أصحابه موته ، وساروا وقد شقّوا بطنَه وحَشَوه ملحًا[٤] . وشنّت العساكر الإسلاميّة الغارات على بلاد العدوّ ، وخيّموا على ظاهر عسقلان ثم عادوا .

وكانت الكتب قد نفذت من الأفضل إلى الأمير ظهير الدين طغتكين ، صاحب دمشق ، يعتبه ويقول له : « لا فِى حق الإسلام ولا فى حق الدّولة التى ترغب فى خدمتها والانحياز

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من مايو سنة ١١١٥ . ويلاحظ أن المؤلف ترك أحداث سنة ٥٠٨ ؛ وسيتكرر مثل هذا ، كما سبق أن رأينا مثله فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(٢) من الأبواب الغربية للقصر الفاطمى الكبير ، سمى بذلك لأن المواد التموينية ، ومنها اللحوم وحوائج المطبخ ، كانت تعبره إلى القصر ، وكان فى آخر ركن القصر . والزهومة الزفر يعنى هو باب الزفر . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣٥ .

(٣) لعل هذه التسمية نسبة إلى الأستاذ – الخادم – عطوف أحد خدام القصر من أتباع أم ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمى أخت الحاكم . وإلى هذه الجماعة تنسب حارة العطوف بالقرب من باب النصر ، وكانت من أجمل مساكن القاهرة وفيها من الدور العظيمة والمساجد والحمامات ما لا يدخل تحت حصر . وقد خربت كلها وبيعت أنقاضها . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٣ – ١٤ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٥٠ .

(٤) يقول أبو المحاسن : فشق أصحابه بطنه وصبروه ورموا حشوته هناك فهى ترجم إلى اليوم ، بالسبخة ، ودفنوه بقمامة . وسبخة بردويل ، ويقال لها بحيرة البردويل ، تقع على شاطئ البحر المتوسط على بعد تسعين كيلومترا شرق بورسعيد ، بين محطتى بئر العبد والمزار . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٧١ ، فى المتن والتعليقات . وسيرد ذكر هذه الوفاة فى موضعها الصحيح ضمن أحداث سنة ٥١١ .

إليها أن يتوجه الفرنج بجملتها إلى الدّيار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم ، ولو كان وراءهم م ل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد » . فلمّا وصل إليه الكتاب سار بعسكره إلى عسقلان ، فتلقّاه المقدّمون ، ونزل أعظم منزل ، وحُملت إليه الضّيافات . وحُمل إليه من مصر الخيام وعدّة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام ، وسيف ذهب ، ومنطقة ذهب ، وطوق ذهب، وبدنة طميم ، وخيمة كبيرة معلمة ، ومرتبة ملوكية ، وفرشها وجميع آلاتها وسائر ما تحتاج إليه من آلات الفضّة . وجُهّز لشمس الخواص ، وهو مقدّم كبير كان معه على عدّة كثيرة من العسكر ، خلعه مذهبة ومنطقة ذهب وسيف ذهب ؛ وجُهّز برسم المتميّزين من الواصلين خِلَع مذهبة وحريريّة ، وسيوف مغموسة بالذهب . فتواصلت الغارات على بلاد العدوّ ، وقُتل منهم وأُسِر عدد كبير .

فلمّا دخل الشتاء وتفرّق العسكر والعُربان ،استأذن ظهير الدين على الإنصراف ، فأُذن له ، وسُيّرت إليه وإلى مَنْ معه الخلع ثانيًا ؛ فحصل لشمس الخواصّ خاصة فى هذه السّفرة ما مقدارُه عشرة آلاف دينار ؛ وتسلّم الأمير ظهير الدّين الخيمة الكبيرة بفُرُشها وجميع آلاتها ؛ وكان مقدار ما حصل له ولأصحابه ثلاثين ألف دينار . وذكر أن المُنْفَق فى هذه الحركة على ركاب بغدوين مائة ألف دينار .

ورُعِشت يد الأفضل ، وصَعُب عليه إمساك القلم والعلامة[1] على الكتب ، فأقرّ أخاه أبا محمّد جعفر المظفر فى العلامة ، وجعل له خمسمائة دينار فى الشهر مُضَافًا إلى رسمه ، فعلّم عنه .

واستُهلّ شهر رمضان ، فجرى الأمر فى نيابة الأجَلّ سماء الملك ، ولد الأفضل ، عنه فى جلوسه بمحلّ الشباك ، وقرّر له على هذه النّيابة فى هذا الشهر خمسمائة دينار ، وبذلة مذهّبة ، ورزمة كسوة فيها شقق حرير وغيرها . ولم يزل هذا الرّسم مستقرًّا إلى أن أخذه

---

(١) عن العلامة يقول المقريزى إن العادة جرت على أن السلطان يكتب « خطه » على كل ما يأمر به ، فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع فإنه يكتب عليه « علامته » . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢١١ ؛ السلوك : ١ : ٣٤٤ .

عباس بن تميم[1] فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند توليته حجبة بابه[2] . والبذلة وحدها تساوى خمسمائة دينار .

وفيها استخدم ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة والحسبة ، فَظَلَم وعَسف ، وبنى مسجدًا عرف بمسجد لَا باللهِ[3] .

---

(١) أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، تزوجت أمه من العادل بن السلار وأقامت معه ردحا من الزمن ، وأرسله ابن السلار ، أيام وزارته ، إلى الشام لحرب الصليبيين ، فتآمر قرب بلبيس على قتل ابن السلار ، وحضر ابنه نصر المؤامرة وتولى تنفيذها ، ثم تولى عباس بعد ذلك الوزارة للفاطميين . انظر : الفاطميون فى مصر : ٢٩٦ وما بعدها .

(٢) هكذا فى الأصل والأولى أن تكون : حجبة الباب ، لأن عباسا لم يتول الحجبة ، ثم الوزارة ، إلا فى أيام الخليفة الظافر بالله ، كما سيرد تفصيل ذلك فى موضعه .

(٣) و « سبب تسميته بذلك أنه كان يقبض الناس من الطريق ويسفهم ، فيقولون له : لا بالله ، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة . ولم يعمل فيه صانع إلا وهو مكره مقيد فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة ، ولما مات تجنب الناس الصلاة عليه وتشييعه » . نهاية الأرب : ٢٨ .

سنة عشر وخمسمائة (١) :

سنة احدى عشرة وخمسمائة (٢) :

فى ذى الحجّة خرج أمر الآمر بأحكام الله بَنَفْى بنى عبد القوى ، فنُفُوا إلى الأندلس بأهاليهم .

وفيها وصل بغدوين إلى الفرما وأحرق جامعها وأبواب المدينة ومساجدها ، وقتل بها رجلا مقعدا وابنةً له ذبحها على صَدْره ، ورحل وهو مُثْخن مرضا ، فمات قبل العريش ، فشُق بطنُه ورُمِى ما فيه هناك ، فهو يُرْجم [١١٧ ب] إلى اليوم ، ويعرف مكانهُ بسبخة بَرْدويل ؛ ودُفنت رِمّته بقُمامة من القدس(٣) .

وقام من بعده بملك القدس القمص صاحب الرّها(٤) بعَهْده إليه .

ونزل الفرنج حوران(٥) ، وملكوا من أعمال حلب بزاعة وخرتبرت ؛ وملكوا مدينة صُور .

وفيها خرج محمد بن تُومَرت(٦) من مصر فى زِى الفقهاء ومضى إلى بجاية(٧)

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من مايو سنة ١١١٦ . وبهامش الأصل عند هذا الموضع العبارة : « بياض نحو ثلث صفحة » . ولا شىء عن أحداث هذه السنة .

(٢) ويوافق أول المحرم منها الخامس من مايو سنة ١١١٧ .

(٣) سبق الحديث عن وفاة بلدوين هذا فى أحداث سنة ٥٠٩ ؛ ويوافق أبو المحاسن المؤلف فى ذكر هذه الوفاة فى سنة ٥٠٩ . والواقع أن الوفاة حدثت فى سنة ٥١١ كما ورد هنا وفى نهاية الأرب للنويرى وفى الكامل وفى المصادر الأوربية . قارن النجوم الزاهرة : ٥ : ١٧١ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ ؛ الكامل : ١٠ : ١٩١ ؛ الحروب الصليبية تأليف ارنست باركر ؛ The Crusaders in the East فى مواضع متفرقة .

(٤) وهو Baldwin II, de Burgh أمير الرها بين سنتى ٤٩٤ – ٥١١ (١١٠٠ – ١١١٨) ، ثم ملك بيت المقدس ٥١٢ – ٥٢٧ (١١١٨ – ١١٣١) .

(٥) كورة واسعة من أعمال دمشق تتبعها قرى كثيرة ومزارع وحرار . معجم البلدان : ٣ : ٣٦٠ – ٣٦١ .

(٦) بربرى من قبيلة مصمودة ، دعا إلى التوحيد فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وتلقب بالمهدى ، وتوفى سنة ٥٢٢ تاركا زعامة قومه لقائد جيوشه وصديقه عبد المؤمن بن على الذى بدأ حكم أسرة الموحدين بعد أن واصل فتوحه فى ما يعرف الآن بالجزائر والمغرب ، فأسقط دولة المرابطين سنة ٥٤١ (١١٤٦) . كتاب الروضتين : جـ ١ : ٣٢٢ (تحقيق محمد حلمى محمد أحمد) ؛ معجم الأنساب ؛ Mohammadan Dynasties

(٧) وهى باغاية . انظر الجزء الأول من هذا الكتاب : ٧٥ : حاشية : ٢ ، وهى بين مجانة وقسنطينة . معجم البلدان : ٢ : ٤١ ؛ المغرب : ٨٢ .

سنة اثنتى عشرة وخمسمائة (١) :

فيها مات الأمير نور الدّولة أبو شجاع فاتك (٢)، والد القائد أبي عبد الله بن فاتك ، فأخرج له الأفضل من ثيابه بذلة حريرية وقارورة كافور وشقفا مزيدى دبيقى(٣) ونصافى ، وطيباً وبُخُورا وشمعاً ، وحُمل له من القصر أضعاف ذلك . وخرج الأفضل والأمراء ، وجميع حاشية القصر ، إلى الإيوان ، فخرج الخليفة وصلّى عليه ؛ ثم أُخرج فدفن . وتردّد الناس إلى التربة . وفرّقت الصّدقات إلى تمام الشهر .

وكان بيد نورالدين زمر الضّاحكيّة والفراشين(٤)وصبيان الركاب(٥)والسّلاح الخاص بجارٍ ثقيل ورسوم كثيرة . وهؤلاء الضاحكية (كانوا) يعرفون بهذه الرّسوم قديماً عند وصولهم مع المعزّ إلى مصر ، وهم يلبسون المناديل ويُرْخُون العَذب ويلبسُون الثِّياب بالأكمام الواسعة ، وفى أرجلهم الصّاجات ، وفى الأعياد يشدّون أوساطهم بالعراضى الدبيقى ، ولا يتقدّمهم أحد إلى الخليفة على ما جرت به عادتهم فى المغرب .

وفيها قُفِز على الأفضل ثانيا ، وخرج عليه ثلاثة نفر بالسّكاكين ، فقتلوا ، وعادَ سالما ؛ فاتّهم أولادَه ، وصَرّح بالقول فيهم ، وأخذ دوابّهم ، وأبْعَد حواشِيهَم ، ومنعهُم من التصرّف ؛ وبالغ فى الاحتراز والتّحفُّظ .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع والعشرين من ابريل سنة ١١١٨ .

(٢) يلقبه النويرى ثقة الدولة أبا شجاع بن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى .

(٣) الدبيقى نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التى كانت تصنع فى دبيق ، على بحيرة المنزلة قرب تنيس . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨١ حاشية : ٣ .

(٤) الفراشون من خدم القصور لتنظيفها داخلا وخارجا ، ونصب الستائر المحتاج إليها والمناظر الخارجة عن القصر . صبح الأعشى : ٣ : ٥٢٢ .

(٥) صبيان الركاب ، الركابية ، الركابدارية : الذين يحملون الغاشية بين يدى الخليفة أو السلطان فى المواكب ، ويتبعون بيت الركاب الذى تكون به السروج والجم . والغاشية سروج مذهبة تبدو كأنها كلها من الذهب . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٢ ، ٤ : ١٢٠٧ .

وفيها وردت التجار من عيذاب[1] ذاكرين أنه خُرِج عليهم فى مراكب شَنَّها قاسم بن أبى هاشم ، صاحب مكة ، فقُطِعت عليهم الطريق وأُخِذ جميع ما كان معهم . فغضب الأفضل وقال : صاحب مكّة يأخذ تجّاراً من بلادى ، أنا أسيرُ إليه بنفسى بأُسطول أوله عيذاب وآخره جدّة . ثم تقرر الحال على مكاتبة الأشراف بمكة وإعلامهم ما فعله أمير مكة ، وأقسم فيه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدّولة تاجر ولا حاجّ إلى أن يقوم بجميع ما أخذه من أموال التجّار . وكتب إلى والى قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه ، إلى عيذاب ، ومهما وصل من جدة من الجلاب لا يمكّن أحداً من الركوب فيها ، وأن يتشوّف ما يدخل عيذاب من الشوانى[2] والحراريق[3] ، فمهما كان يحتاج إلى إصلاح ومرمّة ينجز الأمر فيه ؛ ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازيّة . وتقدّم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز .

فلمّا وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ولم يَصِلْ إليها أحد اشتدَّ الأمر عندهم وتحرّك السعر ، فبعثوا رسولا من أميرهم ، فلمّا وصل ساحل مصر لم يُؤْبَهْ له ولا أُجرِى عليه ضيافة ، وقيل له : ما يُقرأ لك الكتاب ولا يُسْمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم . وشاهد مع ذلك الجدَّ والاهتمامَ بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه ، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار ، وسأل التوقُّف قبل الإسراع بما عُوّل عليه من قصد صاحبه ؛ وأجّل لعَوْده أجلا قريباً . فأُجيب إلى ذلك ، وسار . فلم ينْقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع

---

(١) أول سواحل مصر على البحر الأحمر (القلزم) . « وكان أكثر السواحل واصلا لرغبة رؤساء المراكب فى التعدية من جدة إليه ، وإن كانت باحته متسعة لغزارة المـاء وأمن الحاق بالشعب الذى ينبت فى قعر هذا البحر . ومن هذا الساحل يتوصل إلى قوص بالبضائع » . صبح الأعشى : ٣ : ٤٦٤ .

(٢) الشينى ، ويسمى الغراب أيضا ، مركب حربية لها مائة وأربعون مجدافا فيها المقاتلة والمجدفون ، ويقابلها بالفرنسية galère . قوانين الدواوين : ٣٣٩ — ٣٤٠ ؛ Dozy; Supp. Dict. ar.

(٣) الحراريق والحراقات جمع حراقة : ضرب من السفن الحربية فيها أجهزة لرمى النيران على الأعداء فى البحر . قوانين الدواوين : ٤٥٣ — ٤٥٤ ؛ Dozy; Supp. Dict. ar.

ما أُخذ من التجار من البضائع والأموال ؛ فحُمِلت إلى الجامع العتيق بمصر بمحضر من الرَّعَايَا ، وهم يعلنون بالشكر والدعاء . واحتاط متولّى الحكم عليه إلى أن تحضُر جماعة التجار ويجرى الأمر على ما توجبُه الشريعة . وخلِع على الرسول وأُحسن إليه ووُصِل .

ومرض الأفضل بحمّى حادّة ثم عوفى ، فدفع للطبيب ثلثمائة دينار[1]

---

(١) بهامش الأصل عبارة تقول : بياض نحو ورقة . ولعل المؤلف كان قد ترك هذا الفراغ ليتحدث عن السنتين ٥١٣ — ٥١٤ إذ نجده يتحدث بعد هذا الفراغ عن أحداث سنة ٥١٥ .

سنة خمس عشرة وخمسمائة (١) :

فيها قُتل الأفضل بن أمير الجيوش يومَ الأحد سلخ شهر رمضان وعمره سبع وخمسون سنة ، لأنَّ مولده بعكا سنة ثمان وخمسين وأربعمائة . وكان سبب ذلك أنه لمّا كان ليلة عيد الفطر جهَّز ماجرت العادة بتجهيزه من الدّوابّ والآلات لركوب الخليفة(٢) ، وجلس بين يديه إلى أن عرضت الطبول [١١١٨] على العادة كل سنة والدواب والسلاح ؛ ثم عاد وأدّى مايجب من سلام الخليفة فتقدّم إلى القائد أبي عبد الله بن فاتك بأن يأمر صاحب السّير أن يصفّ العساكر إلى صوب باب الخوخة(٣) . وركب الأفضل من مكانه والناسُ على طبقاتهم ، وخرج من باب الخوخة قاصداً دار الذهب (٤)، فلما حصل بها وقع التعجّب من الناس فى نزوله ليلة الموسم ، ولم يعلم أحد ماقصد ؛ وكان قصده أن يكمّل تعليق المجلس الذى يجلس فيه . فصلّى بدار الذهب الظهر ، فلما قرُب العصر ركب منها وقد انصرف أكثر المستخدمين ظنًّا منهم أنه يبيت فيها . فسار إلى الزهرى فإذا الأُمراء والأجناد والمستخدمون والرهجية قد اتجهوا لخدمته ، وكان قد ضَجِر وتغيّر خلقه ولاسيّما فى الصيام . فلما رأى اجتماع الناس وكثرتهم أبعدهم ، فتقدّموا ووقفوا عند باب السّاحل ، فأنفذ أيضا يخرج من أبعدهم ، وبقى فى عدّة يسيرة ، وأبعد صبيان السلاح من ورائه ؛ فوثب عليه من دكان دقّاق بالملاحين أربعة نفر متتابعين كلّما اشتغل مِنْ حوله واحد خرج

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى والعشرين من مارس سنة ١١٢١ . وأمام هذا التاريخ بهامش الأصل عبارة تقول : بياض نحو صفحة .

(٢) انظر كتاب صبح الأعشى : ٣ : ٥٠٨–٥١٢ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٤–٩٧ لمعرفة وصف موكب الخليفة فى الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى .

(٣) بالقرب من قنطرة الموسكى على ما ذكره القلقشندى . وموقعه مما يلى الخليج فى حد القاهرة البحرى ويخرج منه إلى الخليج الكبير . وكان هذا الباب يعرف أولا بخوخة ميمون دبه ، ويكنى بأبى سعيد ، أحد خدام العزيز بالله . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٥ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٠ .

(٤) قصر الذهب ، أو قاعة الذهب ، هو إحدى قاعات القصر الكبير . وبنى قصر الذهب هذا فى عهد العزيز بالله ، وكان يدخل إليه من باب الذهب ، وكان الخلفاء يجلسون فى هذا القصر أيام المواكب وبه كان يعمل سماط شهر رمضان وسماط العيدين للأمراء ، وبه كان سرير الملك . المواعظ والاعتبار : ٤ : ٣٨٥ .

غيره ؛ فرُمِي من الفرس إلى الأرض ، وضربوه ثمان ضربات . وكان القائد[1] بعيدا منه لأخْذ رقاع الناس وسماع تظلمهم وتفريق الصدقات على الفقراء بالطّريق ؛ فلمّا سمع الضوضاء أسرع إليه ورمى نفسه إلى الأرض عليه ، فوجده قد قضى نحبه . وحُمِل على أيْدى مقدّمى ركابه والقائد راجل ، وهم يبشرون الناس بالسّلامة . وقُتِل من الذين خرجوا عليه ثلاثة وقطعوا وأحرقوا ، وسَلِم الرّابع ، وكان اسمه سالمًا ، ولم يُعْلم به إلّا لمّا ظُفِر به مع غيره بعد مدة .

ولم يزل الأفضل محمولا ولا يُمكَّن أحدٌ من الوصول إليه إلى أن دُخِل به على مرتبته التى كان يجلس عليها أو يُمَطّى . وقال (القائد)[2] للخليفة أدركنى وتسلّم ملكك لئلا أغلب عليه . وصار أىّ مَن لقيه يهنّئهُ بسلامة السلطان ويوهم أهله أن الطبيب عنده ، ويأمرهم بتهيئة الفراريج والفواكه . وعاد إلى قاعة الجلوس فوجدها قد غُصت بالناس ، فرَدّ عليهم السلام وهنأهم ، وأظهر قوّة عزم ؛ ثم عاد إلى القاعة الكبيرة وقد حضر إليه مُتَولىّ المائدة الأفضليّة واستأذنه على السّماط المختصّ بالعيد فقال له اذبح ووسّع ، فالسّلطان بكلّ نِعْمة وهو الذى يجلس على السماط فى غد ؛ ومع ذلك فكان فى قلق وخوف شديد من أن يبلغ أولاد الأفضل فيجرى عنهم ما لا يُسْتَدرك وتُنهب الدّار .

فلمّا أصبح الصّباح وركب الخَليفة ودخل إلى الدّهليز الذى كان يركب منه الأفضل ومعه الأستاذون المحنَّكُون قال القائد أبو عبد الله للخليفة : عن إذن مولانا أفتح الباب ؛ وكان قد منع من الدُّخول إلى الدّار ؛ فقال الخليفة : نعم ففتح (على)[3] الأفضل وقال له القائد: الله يطيل عمر أمير المؤمنين ويفسح فى مدّته ويورثه أعمار مماليكه ؛ هذا وزيرُه قد صار إلى الله تعالى ، وهذا ملكه يتسلّمه . ثم ضربت للوقت المقرمة[4] على الأفضل ؛ وأمر الخليفة بإحضار من بالقاعة من الأمراء والأجناد ، فدخل النّاس على غير طبقاتهم إلى أن مثلوا بين

(١) وهو أبو عبد الله محمد بن ثقة الدولة أبى شجاع المعروف بالمأمون البطائحى .

(٢) زيد ما بين القوسين للتوضيح استعانة بما جاء فى نهاية الأرب : « والقائد وإخوته لا يمكنون أحدا من الدنو منه . . وأنفذ المأمون أخاه حيدرة الى الآمر يقول له : أدركنى وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه أنا وأنت . وأوصاه أن ينهى من وجده بسلامة الأفضل ، ففعل حيدرة ذلك » . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٣) زيد ما بين القوسين لاحتياج السياق إليه .

(٤) القرام والمقرم والمقرمة ستار فيه رقم ونقوش .

يدى الخليفة وهو قاعد على الحصير عند المقرمة ، فقال الخليفة للأُمراء : هذا وزيرى قد صار إلى الله تعالى ، ومنكم إلىّ ومنى إليكم ، وقد كان القائد واسطته إليكم وهو اليوم واسطتى إليكم . فشكر الحاضرون ذلك ؛ هذا والقائد وولده مَشْدُودُو الأَوساط بالمناطق وصاحب الباب على ما كانوا عليه . وتقدّم إلى الشيخ أبى الحسن بن أبى أُسامة أن يكتب إلى الأَعمال بذلك ، وأَمر الأُمراء بالانصراف .

ثم قال القائد : يامولانا ؛ الأَموال والجواهر على اختلافها فى الخزائن الكبار عنده ، وهى مُقْفَلة ومفاتيحها عندى ، وختم عليها وهى فى بيت المال المصون ؛ وكذلك المفَضَّض التى عند المستخدمين برسم الاستعمال والميناء الذهب المرصّعة والتى بغير ترصيع ، والبلّور التى برسم استعماله ؛ جميع ذلك مثبت عند متولّى دفتر المجلس إلا خزانة الكسوة التى برسم ملبوسه ما عندى منها خبر . فأَمَر من يدخل ويختم عليها . فأَمر متولّى [١١٨ب] الخزائن الخاص ، وكان سيف الأُستاذين ، ومتولّى بيت المال ومتولّى الدفتر ، وهم كبار الأُستاذين المحنّكين بأَن يدخلوا ويجتمعوا ، ولا يُعترضَ غيرها لا لولده ولا لجهته ولا لبناته ولا لأَحد من عياله .

فتوجّهوا وقرعوا الباب . فلما شاهدهم النِّساء تحقّقوا الوفاة ، وقام الصِّراخ من جميع جوانب المواضع ؛ وكانت ساعة أَزعجت كلّ مَنْ بمصر والجيزة والجزيرة ؛ ثم أَسكتوا . وأُنفذت الرُّسُل لختم الخزائن التى بمصر . فبينما هُم على ذلك فى الليل إذ وصل إلى الخليفة رقعتَان على يد أُستاذ من القاهرة ، من رجلين من جملة الحاشية ، يذكران فيها أَن أَولاد الأَفضل قد جمعوا عدّة وشنَّعتْ حاشِيتُهم أَنَّ فى بكرة هذه الليلة يستنصرون بالبساطية والأَرمَن ويثورون فى طلب الوزارة لأَخيهم الأَكبر. فامتعض الخليفة لذلك ، وهمّ بالإِرْسال إليهم وقتلهم ؛ ثم تقرّر الأَمر على أَن يُودَعُوا الخزانة[1] من غير إهانة ولا قيود ؛ فتوجّه إليهم ، فإذا جميعُ حاشيتهم وغيرها عندهم ، والخيل قد شُدَّت ، فأَودعُوا الخزانة .

---

(١) المقصود بها خزانة البنود وكانت فى الأَصل خزانة للسلاح وللأَعلام ، واستعملت فى حالات كثيرة معتقلا لكبار القوم إذا غضب عليهم الخليفة ، وفيها كانوا يقتلون ويدفنون . وفى أيام الناصر محمد بن قلاون أصبحت سجنا للأسرى من الفرنج . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٢٣ — ٤٢٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٤٧ ؛ والجزء الثانى من هذا الكتاب فى مواضع متفرقة ؛ وصبح الأعشى : ٣ : ٣٥٤ .

فلمّا أصبح الصباح كان قد حُمِل من القصر فى الليل طوافير[1] فيها عدّة موائد للفطر فى يوم العيد ، وحُمل برسم فطر الخليفة الصّوانى الذهب وعليها اللّفائف الشّرب المذهبة . وكان قد هيّئ للخليفة من اللّيل موضع للمبيت بحيث يبعد عن الأفضل ، وعيّن مَن وقع الاختيار عليه لقراءة القرآن عند الأفضل .

فلمّا كان السَّحَر من عيد الفطر جئ بين يدى الخليفة بما أُحْضِر من قصوره فى مواعينه الذهب المرصّعة ، وعليها المناديل المذهّبة من التّمر المحشو والجوارشيات بأنواع الطيب وغير ذلك ؛ فاستدعى الخليفة القائد وأمره بالمضىّ إلى باب الحرم لإحضار الأجلّ المرتضى ابن الأفضل ؛ فمضى لذلك ، فأبت أمّه مِنْ تمكّنِهم منه ؛ فما زال بها حتّى أسلمته إليه بعد جهد . فأتى به الخليفة فسلم به ، وضمّه الخليفة إليه وقبّله بين عينيه ، وأجلسه عن يمينه والقائد عن شماله ، وبقية الخواصّ على مراتبهم .

ثم كبرْ مؤذنو القصر ، فسمّى الخليفة وأخذ تمرة وأكل بعضها وناولها للقائد ، ثم ناول الثانية لولد الأفضل ؛ فقام كلٌّ منهما وقبّل الأرض ولم يجلس . وتقدّم كلٌّ من الحاضرين فأخذ من يد الخليفة من التّمر ووقف . فاستدعى القائد الفراش الذى معه الصينيتان النحاس ، وأمر فرّاشى الأسمطة بنقل ما فى الأوانى التى بين يدى الخليفة فى الصّوانى لتُفرّق فى الأُمراء الذين بالقاعة والدّهاليز ، فنقلت إليها وحُمِلت إلى المقرمة التى الأفضل وراءها وختم المقرئون .

ثم أظْهر الخليفةُ الحزن على فَقْد وزيره ، فتَلَثّم وتلَثّم جميع المحنّكين والحاشية ، وجلس الخليفة على المخدة عند المقرمة ، وأمر حسام الملك ، حاجب الباب ، بإحضار القاضى والدّاعى والأُمراء ، فدخل الناس على طبقاتهم . فلمّا رأَوا زِىّ الخليفة اشتد البكاء والعويل ، وخرّق كلٌّ أحدما عليه ، ورُميت المناديل ، يعنى العمائم ، إلى الأرض ، وبكى الخليفة وحاشيته ساعة . ثم سأل القائد الخليفة أن يفطر على تمرة بحيث يشاهده جميعُ مَنْ حضر ، ففعل ذلك .

ثم أشار الخليفة إلى القائد أن يكلّم الناس عنه : فقال : أمير المؤمنين يردّ السلام

---

(١) جمع طيفور ، إناء كبير كالصينية يستخدم لحمل الأطعمة والحلوى ، يحملها الفراشون على رؤسهم فى شدة . النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٣ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٥٢٥ .

عليكم ، وقد شاهدتم فعله وكونه لم يشْغَله مصابُه بوزيره ومُدبِّر دولته ودولة آبائه عن قضاء فَرْض هذا اليوم ، وقد أفطر بمشاهدتكم ، وأمركم بالإفطار . فمسح الخليفة بيده على الصّوانى ، وتقدّم القائد إلى الخليفة وصار يناوله من الصّوانى بيده ؛ فأول ما مدّ إلى القاضى ثم الدّاعى ، ونزل الناس للأكل . ورفعت الصوانى ؛ فأخذ القائد يد الداعى وقرّبه من الخليفة ، فناوله الخليفة الخطبة ، وكانت على يساره ملفوفة فى منديل شرب بياض مذهب ، فقبّلها الداعى وجعلها على رأسه ، وضمّها إلى صدره . وتقدّم القائد لحسام الملك بأن يأخذ الأُمراء جميعهم ويطلعون إلى المصلّى بالقاهرة لقضاء الصّلاة ، فتوجّهوا فى زىّ الحزن والمؤذنون بين أيديهم . فصلّى الداعى بالناس ، ثم صعد المنبر فوقف على الدّرجة الثالثة منه ، وخطب . وكانت الخطبة مبيّتة فيها الدعاء [١١٩ ا] للأفضل والترحّم عليه(١)

وعندما توجه الناس إلى المصَلّى أمر ولد الأفضل بالمضىّ إلى أمه وإخوته وجهات أبيه ليرُدّ عليهم السّلام من أمير المؤمنين ويفطرهم .

وخلا الخليفة بالقائد وأمره بإخراج جميع الجواهر ؛ فقام إلى خزانة كانت قد بنيت برسم الأفضل ، فوجد بها خيمة ، ففتحها وأخرج قمطرين عليهما حلية ذهب مملوءين جواهر ما بين عقود مفصلة بياقوت وزمرد وسبح ؛ وقمطرا فيه إحدى عشرة شرابة طول كلّ شرابة شبران بجواهر ما يقع عليها نظر ؛ وصناديق فضة مملوءة مضافات ما بين عصائب وتيجان ذهب مُرصّعة بجواهر نفيسة . ففتحت كلها ، فشاهد الخليفة منها ما لا يُوصف ؛ فسُرّ بذلك سرورا كبيرا ،وشكر القائد وقال : « والله إنّك المأمون حقًّا مالَكَ فى هذا النّعت شريك » . فقبّل الأرض ويديه.

ولهذا النّعت قضيّة . وذلك أنه لمّا كان فى الأيام المستنصريّة ، وعُمْر القائد يومئذ اثنتا عشرة سنة ، وكان من جملة خاصّة المستنصر يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة فى مُهمّاته ، فيجد منه النهضة والأمانة ، فيقول هذا المأمون دُون الجماعة . ودرجت

(١) يقول النويرى : ونال الناس بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف ما لا يعبر عنه ، فجاء الناس إلى باب الآمر واستغاثوا ، ولعنوا الأفضل وسبوه أقبح سب ، فخرج إليهم الخدم وقالوا : مولانا يسلم عليكم ويقول لكم ما السبب فى سب الأفضل وقد كان أحسن إليكم وعدل فيكم ؟ فقالوا : إنه عدل وتصدق وحسنت آثاره ، ففارقنا بلادنا حبا لأيامه وأقنا فى بلده ، فحصل بعده هذا الجور ، فهو السبب فى خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده . نهاية الأرب : ٢٨ .

السّنون ، فذكرها الخليفة الآمر فى ذلك الوقت فقال له : أنت المأمون على الحقيقة لأجل ذلك[1] .

ثم عاد حسام الملك أفتكين صاحب الباب ، والداعى وجميع الأمراء من المصلّى ، ومثلوا بين يدى الخليفة . ووقع حينئذ الاهتمام بتجهيز الأفضل ؛ وتقدّم إلى زمام القُصور بإخراج ما قد مازجه عرف الأئمة ، وتقدّم إلى ريحان متولّى بيت المال بإخراج ما يجب إخراجه برسم المأتم ؛ فمضَيَا . وتقدّم إلى حسام الملك بإعلام الأمراء والاجناد والشّهود والقضاة والمتصدّرين والمقرّبين وبنى الجوهرىّ الوعاظ وغيرهم لحضور الجنازة وتلاوة القرآن . فعاد زمام القصور ومتولّى بيت المال ومعهُما عشرون صينية ملفوفة فى عراض دبيقى بياض مملوءة صندلا مطحونا ، ومسكا وكافورا وحنوطا وقطنا ، وفى صدر الآخر منديل ديباج فيه ما رسم بإحضاره من ملابس الخلفاء وطَيَالِسهِم . ووصلت أيضا الموائد على رءوس الفراشين ، وهى مائة شدة ، صحبة متولى المائدة الآمريّة ؛ فمدّ السّماط بين يدى الخليفة ، ومُدّ سماطان ، أحدهما بالقاعة وهو برسم الأمراء ، والآخر برسم القاضى والدّاعى والشهود والمقرّبين والوُعّاظ والمؤمنين ، وحُمِل إلى الجهات الأفضليات شئ كثير .

فلمّا انقضى الأكل عاد الجميع بالقاعة ، وذكر أنه ختم على الأفضل فى هاتين الليلتين واليوم نيّف وخمسون ختمة . فلمّا انقضى معظم الليلة ، الثانى من شوال ، تقدم الخليفة بإحضار داعى الدعاة ، ولىّ الدولة ابن عبد الحقيق ، وأمره بغسل الأفضل على ما يقتضيه مذهبه ، وكفّن بما حضر من القصر ، وأخرج للداعى بذلتان مكملتان ، مذهبة وحرير ، عوضا عمّا كان على الأفضل من ثياب الدّم ، فإنها لم تُنْزع عنه ، وعند كمال غسله دفع للدّاعى ألف دينار .

فلمّا كان فى الثالثة من نهار يوم الثلاثاء ثانى شوال خرج التّابوت بالجمع الذى لا يُحْصى ،

---

(١) وعندما مثل الشاعر القاضى أبو الفتح ابن قادوس بين يدى المـأمون البطائحى للتهنئة أشار إلى هذه النعوت بقوله :

قالوا : أتـاه النعت . وهـو السيد الـ — مأمـون حقا ، والأجـل الأشرف
ومغيث أمـة أحمـد ، ومجيرهـا — مازادنـا شـيئا على ما نعـرف

المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٤١ . راجع ترجمة هذا الشاعر فى خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢٦ — ٢٣٤ . وسيرد هذان البيتان فى المتن بعد صفحات .

والناس بأجمعهم رَجَّالة ، وليس وراءهم راكب إلاّ الخليفة بمفرده وهو ملثّم . فلمّا خرج التابوت من بلد مصر أمر الخليفة بركوب القائد والمرتضى ولد الأفضل . وذكر أن الشيخ أبا الحسن بن أبي أسامة ركب حمارًا ، فلمّا وصلت الجنازة إلى باب زويلة ترجّل القائد والمرتضى ومشيا ؛ وبعث الخليفة خواصّه إلى أخويه أبي الفضل جعفر وأبي القاسم عبد الصمد ، وأمرهُمَا إذا وصل التّابوت إلى باب الزّهومة[1] (أن)[2] يخرجا بغير مناديل ، بعمائم صغار وطيالس ؛ فإذا قضيا[3] ما يجب من حقّ سلام الخليفة سلمّا على القائد أبي عبد الله بمثل ما كانا يسلّمان على الأفضل ، ويمشيان معه وراء التابوت . فاعتمدا ذلك. فاستعظم النّاس هذه الحالة والمكارمة ؛ ولم يزالا مع النّاس وراء التّابوت إلى أن دخل من باب العيد[4] .

---

(١) كان فى آخر ركن القصر مقابل خزانة الدرق التى أصبحت فى أيام المقريزى تعرف بخان مسرور ، وأمامه درب السلسلة ، وهو من الأبواب الغربية للقصر . والزهومة : الزفر ، وسمى بذلك لأن حوائج المطبخ كانت تنقل إليه منه . وموضعه اليوم بأول شارع خان الخليلى من جهة شارع بين القصرين . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٣٦ .

(٢) أضيف ما بين القوسين لأن السياق يقتضيه . (٣) فى الأصل قضوا .

(٤) من الأبواب الشرقية للقصر الكبير بخط رحبة العيد داخل درب السلامى . سمى بذلك لأن الخلفاء كانوا يخرجون منه فى يومى العيد إلى المصلى بظاهر باب النصر . وموقعه الآن بحوش وكالة عبده بشارع قصر الشوق : المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٣٥ .

مقابل هذا بالأصل طيارة جاء فيها بعد سطرين غير واضحين مطلقا : « . . . كل مسمار مائتا مثقال على كل مسمار عمامة لون ، وخلف عشرة صناديق فيها من نفيس الجوهر ومن القضب الزمرد التى لا يوجد مثلها ، وخلف خمسمائة صندوق من دق تنيس ودمياط . . . وخلف من الزبادى الصينى والبلور والمحكم . . . وثلاثة آلاف ملعقة ذهبا ، وعشرة آلاف زبدية فضية كبار وصغار ، وأربع قدور ذهب وزن كل قدر مائة رطل بالمصرى ، وستة آلاف خريطة ديباج ، وثلاثة آلاف وسبعمائة خاتم ذهب بفصوص ياقوت وزمرد وألف خريطة مملوءة دراهم — خارجا عن الأرادب — فى كل خريطة عشرة آلاف درهم . ومن الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال والسروج المحلاة ومن حلى النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى . وأقام الآمر بدار الملك طول شهر ويحمل فى كل يوم على مائتى جمل إلى القاهرة من دار الملك دفعتين فى النهار ودفعة فى الليل طول الشهر ، مائتى جمل كل يوم . وخلف ألف حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة فضة وألف صدر ذهب وألفى صدر فضة منقوشة ، وثلاثمائة ثور ذهب وأربعة آلاف ثور فضة وألف بوق كبير من ذهب ، وخلف من المراكب ، يعنى السروج ، المرصعة مائة مركب ، ومن الآلات والبسط الأرمنية والأندلسية والطبرستانية ما ملئ به خزائن الإيوان . وداخل قصر الزمرد من الجاموس وبقر الخيس والأغنام ما يباع لبنه فى كل سنة بضمان أبى الحسين بن يزيد بثلاثين ألف دينار ، وفى حاصل الأهراء والمناخات ما لا يحصى كثرة ولا يعرف مقداره » .

ثم ورد فى نفس الطيارة بعد هذا مباشرة : « وعند قوله والأفضل هو الذى أنشأ بستان البعل ما مثاله بخط المؤلف : وحمل الأفضل فى داره . . . واقترح على الشعراء النظم فيها (وأنشد) لنفسه :

نزهة عين الغساب والناظر ... ومجلس للملك الناصر
كأنما الأفضل فى أفقها ... شمس الضحى فى الفلك الدائر

فلمّا صار التابوت فى وسط الإيوان همّ الخليفة بأن يترجل، فسارع إليه القائد والمرتضى، وصاح الناس بأجمعهم : العفو يا أمير المؤمنين . عدّة مِرَارٍ . فترجّل الخليفة على الكرسىّ، وصلّى عليه، ورُفع التابوت [١١٩ ب] فمشى وراءه، وركب الخليفة الفرس على ما كان عليه؛ ونزل التربة ظاهر باب النّصر ووقفَ على شفير القبر إلى أن حضر التابوت. واستفتح ابن القارح المغربى وقرأ : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ»[1] الآية . فوقعت من الناس موقعا عظيما[2]، وبكوا، وبكى الخليفة، وهمّ بنزول القبر ليُلْحِده بيده؛ ثم أمر الدّاعى فنَزَل وألْحدَه والخليفةُ قائمٌ إلى أن كملت مُوَارَاتُه، ثم ركب من التُّربة والنَّاس بأجمعهم بين يديه إلى قصره.

وأُخرج من قاعة الفِضَّة بالقصر ثلاثون حسكة، وثلاثون بخورا مكمّلة، وخمسون مثقال ندّ وعود، وشمع كثير، فأُشعلت الشموع إلى أن صلىّ الصّبح وأُطلق البخور، واستقرّ جلوس النّاس؛ فصلّى القاضى بالنّاس، وفُتح باب مجلس الأفضل المعلّق بالسُّتور الفرقوبى الذى لم يكن حظّه منه إلا جوازُه عليه قتيلا . ورفعت السّتور، وجلس الخليفة على المخادّ الطَّرِيّة التى عُمِلت فى وسطه؛ وسلّم النّاس على منازلهم، وتُلِى القرآن العظيم. وتقدّمت الشعراء فى رثائه إلى أن استحقّ الختمُ فَخُتم . ثم خرج القائد والأمراءُ إلى التُّربة فكان بها مثل ما كان بالدّار من الآلات والبخور . وعُمِل فى اليوم الثانى كذلك.

وكان عمرُ الأفضل يوم مات سبعًا وخمسين سنة، ومدّةُ ولايته ثمانية وعشرون عامًا.

= ونزع السعر فى أيامه بمصر، فأمر مشارف الأهراء بفتح المخازن وبيع القمح بثلاثين دينارا لكل مائة إردب . فقال ياسيدى : القمح كل إردب بدينار تبيع أنت بثلاثين دينارا المائة . فانتهره وقال: يا شيخ، تريد أن يسمع عن أيامى شدة تعرف بشدة ابن عرس — وكان هذا المشارف يعرف بابن عرس — بع كما أمرتك فعندى من البذر ما يقوم بالناس عشر سنين لاسيما القمح . فامتثل ذلك وباع بثلاثين دينارا كل مائة إردب، وكان الناس يشترون ويبيعون على باب المخزن كل إرب بدينار، فحصل لهم من هذا المتجر مال عظيم وحسنت أحوالهم، وكثرت الأموال فى أيدى الرعية مدة أيامه . وكان لا يولى عملا من الأعمال إلا لمن هو كفء له، ويضع الأشياء فى مواضعها، مع كثرة موافاته بما يعمله الولاة . . . للرعية وتبسطه للعدل، فكان الولاة فى أيامه لا تمد يد واحد منهم إلى مظلمة خوفا منه فإنه كان إذا بلغه عن أحد منهم ميل عن سيرة العدل نكل به، فاستقامت لذلك الأمور وحسنت الأحوال، ومات وأمور الدولة قد أسندها إلى عدة من رؤساء أصحابه، فأسند أمور العساكر جميعا وإمارة الباب إلى الأمير حسام الدين أفتكين، ورد أمور الرعية وشكاواهم وظلاماتهم والأخذ والعطاء والمجلس إلى القائد أبى عبد الله ابن فاتك، ورد أمور الدواوين والأموال والعمال إلى ابن أبى الليث، ورد أمور الأجر والصناعات إلى ابن أبى البيان، ورد ديوان المكاتبات والنظر فى الأحكام والأعمال وما يخص الشريعة إلى الشيخ أبى الحسن بن أبى عثمان . . . » .

(١) سورة الأنعام : آية : ٩٤ . (٢) فى الأصل موقع عظيم .

ويقال إنّ الآمر وافق المأمونَ على قتله ، فرتّب له من قتله .

ثم أمر أن يكتب سجلٌ بتعزية الكافة فى الأفضل والثّناء على خصائصه ومساعيه ، وإشعارِهم بصرف العناية إليهم ومدّ رِوَاق العدل عليهم ؛ وتفريقه على نسخ تتلى على رُءُوس الأشهاد وبسائر البلاد . فكُتب ما مثالُه :

« هذا كتاب من عبد الله ووليّه المنصور أبى علىّ ، الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بما رآه وأمر به من تلاوةٍ على كافّة مَن بمدينة مصر — حرسها الله تعالى — من الأشراف والأمراء ورجال العساكر المؤيدة على اختلاف طبقاتهم ، فارسهم ومترجّلهم وراجلهم ، والقُضاة والشهود والأماثل ، وجميع الرّعايا ، بأنكم قد علمتم ما أحدثته الأيّام بتصاريفها ، وجرت به الأقدار على عادتها ومألوفها مِنْ فقد السيّد الأجلّ الأفضل ونعوته — قدّس الله رُوحه ، ونوّر ضريحه ، وحشره مع مَوَاليه الطّاهرين الذين جعلهم أعلام الهدى ومصابيحه — الذى كان عماد دولة أمير المؤمنين وحمّال أثقالها ، وعلى يديه وحسن سيرته اعتمادها ومعوّلها ، وتخطّى الحمامِ إليه ، واخترام المنيّة إيّاه وتسلُّطها عليه ؛ وما تدارَكَ اللهُ الدّولة به من حِفْظ نظامِها ، واستتار أمورها بعد هذا الفادح العظيم والتئامها ؛ وما رآه أمير المؤمنين من تهذيبه الأمور بنظره السّعيد ، ومباشرته إيّاها بعزمه الشّديد ورأيه السّديد ، واهتمامه بمصالح الكافة ، وإسباغ ظلّ الإحسان عليهم والرأفة ، حتى أصبحت الدّولة الفاطمية بذلك ظَليلَة المناكب ، منيرة الكواكب ، محروسة الأرجاء والجوانب » .

« ولما كانت همّة أمير المؤمنين مصروفة إلى الاهتمام بكم ، والنظر فى مصالحكم ، والإحسان إليكم ، وتأمين سَرْبكم ، وإعْذاب شَرْبكم ، ومدّ رواق العدل عليكم ، وإنصاف مظلومكم من ظالمكم ، وضعيفكم من قويّكم ، ومشروفكم من شريفكم ، وكفّ عوادى المضارّ بأسْرها عنكم ، وتمكينكم من التصرف فى أديانكم على ما يعتقدُه كلٌّ منكم ، جارين على رسْمكم وعادتكم ، من غير اعتراضٍ عليكم — رأى ما خرج به عَالِى أمره من كتْب هذا السّجل وتلاوته على جميعكم ، لتثِقوا به ، وتسكنوا إليه ، وتتحقّقُوا جميل رأى أمير المؤمنين فيكم ؛ وأنه لا يشغله عن مصالح الكافّة شاغل ، وأنّ باب رحمته مفتوحٌ لمن قصده، وإحسانه عميم شامل ، وله إلى تأمّل أحوال الصّغير والكبير منكم عينٌ ناظرة ،

وفى إحسان سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة . والله تعالى يمده بحسن الإرشاد ، ويبلغه المراد فى مصالح العباد والبلاد ، بمنّه وعَوْنه . فاعلمُوا هذا من أمير المؤمنين ورسمه ، وانتهوا إلى موجبه وحكمه وليعتمد الأمير متولىّ المعونة بمصر تلاوته على منبر الجامع العتيق [١٢٠ ا] بمصر ليعيه كلّ من سمعه ، ويصلَ علمُ مضمونه إلى من لم يحضُر قراءته ، ليتحقّقوا ما ذكر فيه وأُودِعَه ؛ وليُحْمل النّاسُ على ما أمرتهم فيه ، وليُحْذَر من مجاوزته وتعدّيه . وليُقْرأ بالجامع المذكورليقعالتّصفّح والتأمل فى اليوم وما يليه إن شاء الله تعالى » .

ثمّ أمر الخليفة بإنشاء منشور يُتْلى ، مضمونه :

« خرج أمْر أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، بإنشاء هذا المنشور بأن يُعتمد فى ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدّولة ، قاصيها ودانيها ، قريبها ونائيها ، إمضاءُ ما كان السّيّد الأجلّ الأفضل قرّره ، وخرجت به توقيعاته الثابتة عليها علامته فى الأحكام والأموال بتصاريف الأحوال ، إذ أمْرُ أمير المؤمنين راضٍ بأفعاله ، محقّق لأقواله ، حامدٌ لمقاصده ، مُمْضٍ لأحكامه ، عارفٌ بسداد رأيه فى نَقْضه وإبرامه ، على أوضاعها وأحكامها ، وتقريراته فى كلّ منها . فليحذَر كافّة الأمراء وسائر الولاة ــ نصرهم الله وأظفرهم ــ وجميع النّواب والمستخدمين ، والكتّاب والمتصرّفين بجميع الأعمال من تأوّلٍ فيه ، أو تعقيد بغيرّ شيئا من أحكامها على ما قرّره وأمر به . وليُجلّدْ هذا المنشور فى ديوان التحقيق والمجلس بعدثبوته فى جميع الدّواوين ، وليصدر الإعلان به إلى كافة الجهات بهذا المرسوم ، تثبيتا لهذا الأمر المذكور المحتوم ، إن شاء الله تعالى »

وفى السّادس والعشرين من شوّال عمل تمام الشهر على تربة الأفضل ، كما عملت الصّبحة والثالث . فلمّا انقضى الختم وانصرف الناس ركب الخليفة بموكبه . ونزل إلى التّربة ، وترحّم عليه وعاد . ذكر هذا جمال الملك موسى بن المأمون البطائحى فى تاريخه .

وقال ابن ميسّر : وأقام الخليفة فى دور الأفضل ، وفى دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما مدة أربعين يوما ، والكُتّاب بين يديه يكتبون ما يُنقل إلى القصور ؛ فوُجِد لَهُ من الذخائر النفيسة ما لا يحصى .

فمِمّا وجد له ستة آلاف ألف دينار عينا ، وفى بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار وفى البيت البرّانى ثلاثة آلاف ألف ألف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار[1]؛ ومائتين وخمسين إردبًّا دراهم ورِقًا ؛ وثلاثين راحلة من الذّهب العراقى المغزول برسم الرقم ؛ وعشرة بيوت فى كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليها العمائم المختلفة الألوان؛ وتسعمائة ثوب ديباج ملوّنة ؛ وخمسمائة صندوق من دقّ دمياط وتنّيس برسم كسوة بدنه ؛ ولعبة من عنبر على قدر جسده برسم ما يُعمل عليها من ثيابه لتكتسب الرائحة ؛ ومن الطِّيب والآلات ما لا يُحصى عدده ؛ ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه ونتاجه فى سنة نحو أربعين ألف دينار ؛ ودواية يكتب منها مرصّعة بالجواهر ، قُوّم جوهرها باثنى عشر ألف دينار؛ وخمسمائة ألف مجلّدة من الكتب العلمية .

قال : وأخذ الآمر فى نقل ما بِدار الأفضل إلى القصر ، وهو يرتب ما يُحمل بنفسه ، هو وأصحابه ؛ واستمرّ ذلك مدّة شهرين وأيّام ، والأموال تُحمل على بغالٍ وجمالٍ إلى القصر ، والآمر يطلع إلى القصر ويعودُ كلَّ غداةٍ ويقيم حتى يرتفع النّهار ويرتّب ما يفعل .

وذكر متولى الخزانة بالقصر أن مما وجد فى دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار ؛ ووَرِقٌ قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار ؛ وسبعمائة طوق ما بين ذهب وفضة[2] ؛ ومن الأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادى[3] الذهب والفضّة المختلفة الأجناس ما لا يُحصى كثرة ؛ ومن برانى[4] الصينى الكبار المملوء بالجواهر التى بعضُها منظوم كالسُّبح وبعضها منثور شيء كثير .

وكان الأفضل فى أوقات الشرب يصُفّ فى مجلسه صوانى الذهب وبينها البرانى المملوءة بالجواهر ، فإذا أحب فرغب البرنيّة فى الصينيّة فتكون ملئها .

ووُجد له من أصناف الدّيباج وما يجرى مجراه من عتابى ونحوه تسعون ألف ثوب وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلُّها دبيقى وشرب[5] عمل [١٢٠ ب] تنّيس ودمياط،

(١) فى نهاية الأرب : وفى البيت البرانى ثلاثة آلاف ومائتان وخمسون دينارا . انظر نهاية الأرب : ٢٨ .

(٢) فى نهاية الأرب : ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق . نفس المصدر .

(٣) جمع زبدية وهى وعاء يشرب به .

(٤) جمع برنية وهى إناء من الخزف اللامع أو من الصينى .

(٥) نوع من الحرير خاص .

على كلِّ صندوق شرح ما فيه وجنسه . وخزانة الطِّيب مملوءة أسفاطا ، فيها العُودُ وغيره ، مكتوب على كل سفط وزنه وجنسه ؛ وبرانى بها المسك والكافور وشىء كثير من العنبر . ووُجد مجلس يجلس فيه للشرب فيه ثمان جوارٍ متقابلات ، أربعٌ منهن بيضٌ من كافور وأربعٌ سُودٌ من عنبر ، قيام فى المجلس ، عليهنّ أفخر الثياب وأثمن الحلى ، بأيْديهنّ مذابٌّ من أعظم الجوهر ؛ فإذا دخل من باب المجلس ووَطِئ العتبة نكَّسْنَ رُءوسَهُنّ خدمة له بحركات قد أُحْكِمت ؛ فإذا جلس فى صدر المجلس استَوَيْن قائمات .

ووُجد له من المقاطع والسُّتور والفرش والمطارح والمخادّ والمساند الدّيباج والدّبيقى الحرِيرى والذهب على اختلاف الأجناس أربع حُجَر ، كلّ حُجرة مملوءة من هذا الجنس . ووُجد له عدّة صناديق ملء خزانة فيها أحقاق ذهب عراقى برسم الاستعمال . ووجد له منقلات عدة تزيد على المائة ، ملبّسة بالذّهب والفضة ، مرصعة بالجوهر ؛ وثمانمائة جارية منها خمسة وستون حظيّةٍ لكلّ واحدة حجرة وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات الذهب والفضة من كل صنف .

وكان فى مخازنه تحت يد عمّاله والجباة وضمان النّواحى من المال والغلال والحبوب والقطن والكتّان والشّمع والحديد والخشب وغير ذلك ما يتعب شرحه .

وحُمِل من داره أربعة آلاف بساط ، وستون حملا طنافس ، وخمسمائة قطعة بلّور ، وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل ، وألف عِدْل من متاع اليمن والمغرب ، وتسعة آلاف سرج .

قال ابن ميسر : وكان الأفضل من العدل وحسن السّيرة فى الرّعية والتّجار على صفة جميلة تجاوز ما سُمِع به قديمًا وشُوهِد أخيرا ، ولم يُعْرف أحدٌ صُودِر ولا ضبط عليه . ولمّا حصر الاسكندرية كان بها يهودىّ يبالغ فى سبّه وشتمه ولعْنه ، فلمّا دخل الأفضل البلد قبض عليه وقدّمه للقتل وقد عدّد عليه ذنوبه ، فقال اليهودى : إنّ معى خمسة آلاف دينار ، خُذْها منىّ وأعتقنى واعفُ عنىّ . فقال : والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتَلْتُك ؛ وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئا . وكان إذا غضب على أحد اعتقله ولم يقْتُله ، فلمّا مات أُطْلِق من سجنه عشرة آلاف إنسان ، فإنه كان إذا اعتقل أحدًا نسيه ولايرى بإخراجه.

وكانت محاسنهُ كثيرة . وهو أوّل من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة ، وأمر بحفظها لأربابها ، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره فى الحال بإطلاق ما ثبت له . واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث التى تنتظر وصول مستحقّها من شرق الدّنيا وغربها مائة ألف وثلاثون ألف دينار ، فرفع إليه قاضى القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن على الرأس عينى[1] لما وَلِى أن « قد اعتبرت ما فى مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار ، ورَفْعُها إلى بيت المال أولى من تَرْكِها فى المودع ، فإن لها السّيرة الطويلة لم يُطلب شىءٌ منها » . فوقَّع رُقْعتِه : « إنما قلدّناك الحكم ولا رأى لنا فيا لا نستحقّه ، فاتركْه على حاله لمستحقّيه ولا تراجع فيه » . فأخذها هذا القاضى غرقًا .

وبلغ ارتفاع خراج مصر فى أيامه لسنةٍ خمسة آلاف ألف دينار ، ومتحصّل الأهراء[2] ألف ألف إردب . وبنى فى أيّامه من المساجد والجوامع جامع الفيلة[3] بالجرف المعروف بالرَّصد والمسجد المعروف بالجيوشى على سطح الجبل . وبنى مِئذنة جامع عمرو بمصر الكبيرة والمئذنة السعيدة به أيضا والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة[4] . وعمل خيمة الفرح التى سُمّيت بالقاتول[5] ، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع من الثياب ، وقائم ارتفاع

---

(١) وسيرد أيضا برسم الرسعنى ، وقد ورد كذلك فى نهاية الأرب ، وهو منسوب إلى مدينة رأس العين من المدن الكبيرة بإقليم الجزيرة ، ببلاد ما بين النهرين ، بين حران ونصيبين ودليسر على مسافة خمسة عشر فرسخا من نصيبين ، تجتمع بها عدة عيون لتكون منبع نهر الخابور . معجم البلدان : ٤ : ٢٠٥ — ٢٠٧ .

(٢) الأهراء مخازن يحمل إليها ما ورد من الغلات السلطانية ، وكانت ترد من منفلوط والحبس الجيوشى ، وينفق منها ما يوقع به عليها من أمور الدولة ومن المرتبات . قوانين الدواوين : ٣٥٠ .

(٣) جامع الفيلة . كان يطل على بركة الحبش ، ولم يكمله الأفضل فى وزارته وكان قد بدأ بناءه سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فأكمله المأمون البطائحى وأمر أن يحضر جميع وجوه الدولة والرؤساء فى أول جمعة فحضروا . وقيل له جامع الفيلة لأنه كان فى قبلته تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة . نهاية الأرب : ٢٨ ؛ المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٨٩ — ٢٩٠ . وهناك مسجد آخر يعرف بمسجد الرصد بناه الأفضل أيضا بالرصد بعد بنائه جامع الفيلة لرصد الكواكب بالآلة التى كان يطلق عليها ذات الحلق . ويعده المقريزى من مساجد القرافة . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٤٥ .

(٤) فى المواعظ والاعتبار حديث عن جامع الجيزة الذى بنى سنة ٣٥٠ زمن على بن عبد الله بن الإخشيد ، ولا ذكر لدور الأفضل فيه . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٣٢٠ .

(٥) وسميت بالقاتول لأنها كانت إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين رجل أو رجلان ، وطول عمودها سبعون ذراعا بأعلاه سفرة فضة تسع راوية ماء ، وسعة هذه الخيمة ما يزيد على فدانين فى التدوير . يقول القلقشندى : ولعمرى إن هذه لأثرة —

العمود الذى لها خمسون ذراعا بذراع العمل[1] ، وبلغت النفقة عليها عشرة آلاف ألف دينار . وللشعراء فيها عدة مدائح .

وكان الأفضل يقول الشعر . فمِن شعره فى غلامه تاج المعالى :

أقضيبٌ يَمِيسُ ، أم هو قدّ   أو شقيق يَلُوح ، أو هو خدّ
[١١٢١] أنا مثل الهلال خوفًا عليه   وهو كالبدْر حين وافاهُ سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه . اطّلع من سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق ، فأمر بضَرْب عنقها . فلما وُضِعت الرأس بين يديه أنشد :

نظرت إليها وهى تنظر ظلّها   فنزّهت نفسى عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها   ... ومن مسك[2] لها فى الذّوائب
ولى غيرةٌ لو كان للبدر مثلها   لما كان يرضى باجتماع الكواكب

قال : وكان عدّة الوُعّاظ والقراء والمنشدين فى عِزاء الأفضل أربعمائة وعشرين شخصًا ، فخرج أمر الخليفة أن يُعطى كلّ واحد منهم ثمانين دينارا ، الصغير مثل الكبير ؛ فقال ابن أبى قيراط : يا مولانا ، هذا مال كثير . فقال : إنفاذُ أمرنا هذا مِنْ بعض حقّه علينا . فجاء مبلغ ما دُفِع نَحْوًا من أربعة وثلاثين ألف دينار .

= عظيمة تدل على عظيم مملكة وقوة قدرة ، وأنى يتأتى مثل هذه الخيمة لملك من الملوك وإن جل قدره وعظم شأنه . وممن ذكر هذه الخيمة فى مناسبة مدح الأفضل أبو جعفر محمد بن هبة الله الطرابلسى ، فقال :

ضربت خيمة عز فى مقر علا   أوفت على عذبات الطود ذى القنن
جاءت مدى الطرف ، حتى خلت ذروتها   تأوى من الفلك الأعلى إلى سكن
زينت بأروع ، لا تحصى فضائله   ماض من المجد والعلياء فى سنن
وعد على السعد أن النصر يضربها   بالصين ، بعد فتوح الهند واليمن

كما ذكرها أبو على حسن بن زيد الأنصارى من كتاب ديوان الإنشاء ، فقال :

أخيمة ما نصبت اليوم أم فلك ؟   ويقظة ما نراه منك أم حلم ؟
ما كان يخطر فى الأفكار قبلك أن   تسمو علوا على أفق النهى الخيم
إن الدليل على تكوينها فلكا   أن احتوتك ، وأنت الناس كلهم

انظر : نهاية الأرب : ٢٨ ؛ صبح الأعشى : ٢ : ١٣٨ ، ٣ : ٤٧١ .

(١) وطوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، يقول القلقشندى : ولعله الذراع الذى كان يقاس به أرض السواد بالعراق . صبح الأعشى : ٣ : ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٢) يبدأ هذا الشطر قبل هاتين الكلمتين ببياض فى الأصل يتسع لكلمة واحدة لم أهتد إليها فيما بين يدى من مراجع لم أجد هذه الأبيات الثلاثة فيها .

قال : والأفضل هو الذى أنشأ بستان البعْل[1] ، والمنتزه المعروف بالتّاج[2] ، والخمس وجوه[3] ، والبستان الكبير ، والبستان الخاص بقليوب[4] ؛ وجدّد بستان الأمير تميم ببركة الحبش ، وأنشأ الرّوضة بحرىّ الجزيرة ، وكان يمضى إليها فى العشاريات الموكبيّة ؛ رحمه الله .

فى مستهل ذى القعدة خُلِع على القائد أبى عبد الله بن فاتك بذلة مذهّبة بشدّة الخليفة الدّاعية ، وحلّت المنطقة من وسطه ؛ وخلع على ولده بذلة مذهبة وحلّت منطقته أيضا ؛ وعلى جميع إخوته بمثل ذلك .

واستمر يُنْفِذ الأمور لا يخرج شىء عن نظره إلى مُستهلّ ذى الحجة ؛ ففى يوم الجمعة ثانيه خُلِع عليه من ملابس الخاصّ الشريفة فى فرد كمّ[5] مجلس العيد ، وطوّق بطوق ذهب مرصّع ، وسيف ذهب مرصّع ؛ وسلّم على الخليفة ، فأمر الخليفة الأمراء وكافّة الأستاذين المحنّكين[6] بالخروج بين يديه ، وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل يركب منه .

---

(١) البعل الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر إلا مرة واحدة فى السنة ، وقيل كل شجر أو زرع لا يسق . وأرض البعل هذه المعروفة ببستان البعل كانت بجانب الخليج متصلة بأرض الطبالة ، أنشأ بها الأفضل منظرة وأحاطها بسور . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٢٩ ؛ الخطط التوفيقية : ٢ : ٤ .

(٢) من المناظر التى كان الفاطميون ينزلونها للنزهة ، وكان لها فرش معد للشتاء وآخر للصيف ، يقول المقريزى إنها خربت وتحولت إلى كوم تحته حجارة كبيرة وأصبحت الأرض المحيطة بها مزارع من جملة أراضى منية السيرج . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨١ .

(٣) منظرة أخرى كسابقتها يقول المقريزى إنها بنيت على بئر متسعة كان بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل المساء لسق البستان ، كما بنيت عندها فى أيام النيل البشنين ، فإذا انحسر النيل زرعت الأرض كتانا . نفس المصدر : ١ : ٤٨١ .

(٤) يذكر المقريزى أنه كان للفاطميين بساتين عدة يتنزهون فيها منها البساتين الجيوشية وهى اثنان أحدهما يمتد من خارج باب الفتوح إلى المطرية والآخر يمتد من خارج باب القنطرة إلى الخندق ، ومن شدة غرام الأفضل بالبستان المجاور لأرض البعل أنه عمل له سورا كسور القاهرة وعمل فيه بحرا كبيرا فى وسطه منظرة محمولة على أربعة عمد من أحسن الرخام وحفها بشجر النارنج ، وسلط على هذا البحر أربع سواق وجعل له معبرا من نحاس مخروط وجلب إليه أنواعا من الطيور وأقام به أبراج الحمام ، وكانت قيمة ما يباع سنويا من زهر البستانين وثمرهما نيف وثلاثون ألف دينار . وكان الحاصل بالبستان الكبير إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ثمانمائة وأحد عشر رأسا من البقر ومائة وثلاثة رءوس من الجمال ، وبه من العمال ألف عامل ، وسور البستانين من شجر السنط والإثل والجميز . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٧ .

(٥) وردت هكذا أيضا فى المواعظ والاعتبار ولعل نص العبارة التى وردت هناك يفيد فى فهم مدلولها . يقول المقريزى فى مناسبة تولى المأمون البطائحى الوزارة إن الخليفة اشترط ألا تجبى الأموال إلا بالقصر ولا تصل الكسوات إلا إليه ولا تفرق إلا منه وتكون أسمطة الأعياد فيه « وزيادة رسم منديل الكم » فوافق المأمون وأقر أن يكون الرسم فى كل يوم مائة دينار بدلا من ثلاثين دينارا ، رسمه السابق . نفس المصدر : ١ : ٤٤١ ؛ الخطط التوفيقية : ٤ : ٥ .

(٦) الأستاذون : الخدام والطواشية ومنهم أرباب وظائف القصر ، وأجلهم المحنكون الذين يديرون عمائمهم حول أحناكهم . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٧ .

ومشى في ركابه القوّاد على عادة مَنْ تقدّمه ، وخرج بتشريف الوزارة ، ودخل من باب العيد راكبًا ، ووصل إلى داره ، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات .

وفى خامسه اجتمع الأمراء واستدعى الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، فحضر بالسجلّ فى لفافة خاصّ مذهبة فسلّمه الخليفة إلى الأجل المأمون من يده ، فقبّله وسلّمه لزمام القصر ، وأمر الخليفةُ المأمونَ فجلس عن يمينه ، وقُرِئَ السِّجلّ على باب المجلس ؛ وهو أول سجل قرئ بهذا المكان ، وكانت سجلّات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان. ورسم للشيخ أبى الحسن أن ينقل نسبة الأمراء والمحنَّكين والناس جميعهم من الآمرى إلى المأمونى ، ولم يكن أحد قبل ذلك ينتسب للأفضل ولا لأمير الجيوش . وقُدّمت للمأمون الدّواة فعلّم فى مجلس الخليفة ؛ وتقدم للأمراء والأجناد فقبّلوا الأرض وشكروا هذا الإحسان . وأحضرت الخلع ؛ فخلع على حاجب الحجاب حسام الملك وطُوّق بطوق ذهب وسيف ذهب ومنطقة ذهب ؛ وخلع على الشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست ، وعلى الشيخ أبى البركات بن أبى اللّيث ، وعلى أبى الرّضا سالم بن الشيخ أبى الحسن ، وعلى أبى المكارم أخيه ، وعلى أبى محمّد أخيهما ، وعلى أبى الفضل يحيى بن سعيد المَيْمَذى[1] ووُصل بدنانير كثيرة بحكم أنه قرأ السِّجِلّ . وخُلع على أبى الفضائل بن أبى الليث صاحب مغفر المجلس . ثم استدعى غذى الملك سعيد ابن عمّار الضيف متولى أمور الضيافات والرسل الواصلين الحضرة من جميع الجهات وأخذ أقلامه على التوقيعات فخلع عليه . وفى الأيام الأفضلية لم يكن أحد يدخل مجلسه ولا يصل لعتَبَته لاَ مِنَ الحُجّاب ولا غيرهم سوى غذى الملك هذا فإنه كان يقف من داخل العتبة ؛ وكانت هذه الخدمة إذْ ذَاك من أجلّ الخدم وأكبرها .

وَقَال أبو الفتح ابن قادوس[2] [١٢١ب] فى مدح المأمون ، وقد زيد فى نعُوته :

قالوا أتاه النّعت ، وهو السيد الـ   مَأمون حقًّا ، والأجلّ الأشرف

---

(١) بهامش الأصل حاشية تقول : « وبخطه : الميمذى نسبة إلى ميمذ بفتح الميمين بينهما ياء ، آخر الحروف ، وفى آخرها ذال معجمة ، وهى كورة من كور آذربيجان . قال الدمياطى : وكان لأبى الفضل أن ينشئ ما يصدر عن ديوان المكاتبات ، ويحرر ما يؤمر به من المهمات » . اهـ .

(٢) القاضى أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الفهرى ، وأصله من دمياط . ذكر القاضى الفاضل أنه توفى سنة ٥٥١ . خريدة القصر : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢٦ — ٢٣٤ .

ومغيث أمة أحمد ، ومُجيرُها ما زادنا شيئا على ما نعرف

وذلك أنه نُعِت فى سجلّه المقروء على الكافة بالأَجلّ المأمون ، تاج الخلافة ، وجيه الملك ، فخر الصنائع ، ذخر أمير المؤمنين . ثم تجدّد له فى نُعوته بعد ذلك الأَجلّ المأمون ، تاج الخلافة ، عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين والدنيا . ثم نُعِت بما كان يُنعت به الأفضل ، وهو السيد الأَجلّ المأمون ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين[1] .

ولما استمرّ نظر المأمون للدّولة بالغ الخليفة فى شكره ، فقال له المأمون : ثمّ كلامٌ يحتاج إلى خلوة . فأمر بخلوّ المجلس . فقال : يا مولانا امتثال الأمر متعب ، ومخالفته أصعب ؛ وما تتسع خلافة قدّام آمر الدولة وهو فى دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده ، وما فى قُواىَ ما يَرومُه ، ويكفينى هذا المقدار ، وهيهات أن أقوم به والأمر كبير . فتغيّر الخليفة وأقسم : إن كان لى وزير غيرك ! فقال المأمون : لى شروط ؛ وقد كنت مع الأفضل وكان اجتهد فى النعوت وحلّ المنطقة فلم أفعل ؛ وكان أولاده يكتبون إليه بكونى قد خُنتُه فى المال والأهل ، وما كان والله العظيم ذلك منى يوما قط ، ومع ذلك معاداةُ الأهل جميعهم ، والأجناد ، وأرباب الطَّيَالِس والأقلام ، وهو يعطينى كلّ ورقة تصلُ إليه منهم وما يسمع كلامهم . فقال الخليفة : فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته ، إيش يكون فِعْلى أنا ؟ فقال : يُعرّفنى المولى ما يأمر به فأَمْتَثِلُه بشرط ألاّ يكون عليه زائدًا . فأوّل ما ابتدأ به أن قال : أريد الأموال لا تبقى إلاّ بالقصر ولا تصِل الكسوات من الطراز[2]

---

(١) من الطريف أن لنقل هنا عن النويرى طريقة السلام (البروتوكول) كما ذكرها فى مناسبة الحديث عن وزارة المأمون : « . . فدخل المأمون إلى المكان الذى هيئ له ودعى لمجلس الوزارة . وبقى الأمراء بالدهليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون ؛ واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده وإخوته ، ثم دخل الأمراء وسلموا على طبقاتهم ، ثم الأشراف وديوان المكاتبات والإنشاء ، ثم قاضى القضاة ، والشهود ، والداعى ، ثم مقدمو الركاب ومتولى ديوان المملكة ، ثم دخل الأجناد من باب البحر ، ثم دخل والى القاهرة ووالى مصر ، ثم البطرك والنصارى والكتاب منهم ، وكذلك رئيس اليهود . . وكانت هذه عادة السلام على ملوك هذه الدولة . وإنما أوردنا ذلك ليعلم منه كيف كانت عادتهم » ا هـ . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٢) المقصود به دار الطراز ويتولاها الأعيان من المستخدمين من أرباب الأقلام ، ومقامه بدمياط وتنيس ، ومن عنده تحمل إلى خزائن الكسوة بالقاهرة . والطراز أصلا كلمة معربة عن الفارسية تعنى التدبيج ، ثم أطلقت على الرداء إذا حلى بأشرطة من الكتابة ، ثم أصبحت تطلق على الدار التى يصنع بها الطراز ، وهو المقصود هنا . راجع صبح الأعشى : ٣ : ٤٩٠ ؛ والجزء الأول من هذا الكتاب : ٢٦٢ حاشية : ٢ ؛ والمواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٩ — ٤٧٠ .

والثغور إلاّ إليه ولا تُفرَّق إلاّ منه ، وتكون أسْمِطة الأعياد فيه ؛ وتوسّع فى رواتب القصور من كلّ صنف ؛ وزيادة رسم منديل الكمّ . فقال المأمون : سمعا وطاعة ؛ أما الكسوات والجبايات والأسْمِطة فما تكون إلاّ بالقصور ، وأمّا توسعة الرّواتب فما ثَمّ من يخالف الأمر ، وأما منديل الكم فقد كان الرّسم فى كل يوم ثلاثين دينارا يكون فى كل يوم مائة دينار ؛ ومولانا ، سلام الله عليه ، يشاهد ما يعمل بعد ذلك فى الرُّكُوبات وأسمطة الأعياد وغيرها . ففرح الخليفة . وقال المأمون : أريد بهذا مَسْطورًا بخطّ أمير المؤمنين ، ويُقسم لى فيه ألاّ يلتفت لحاسدٍ ولا ينقبض ؛ ومهما ذُكر عنىّ يطلعُنى عليه ، ولا يأمر فىّ بأمرٍ سرًّا ولا جهرًا يكون فيه ذهاب نفسى وانحطاط قدرى ، وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاتى ، فإذا تُوفّيت تكون لأولادى ولمن أخلفه بعْدى .

فحضرت الدّواة ، وكُتِب ذلك جميعه ، وأشهد الله فى آخرها على نفسه . فعندما حصل الخطّ بيد المأمون وقف وقبّل الأرض وجعله على رأسه ، وكان الخطّ نسختين ، فلمّا قُبض على المـأمون فى رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة ، كما سيأتى إن شاء الله ، أنفذ الخليفة طلب الأمان ، فأنفذ إليه[1] نسخة منهما فحرقها وبقيت النسخة الأخرى فأعدمت[1] .

وفيها أنشأ المأمون الجامع الأقمر بالقاهرة[2] ، وكان مكانه دكاكين علافين .

فى هذه السنة هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام ، فأهلكت شيئا كثيرا من الناس والحيوان[3] .

---

(١) فى الأصل : فنفذ ، فعدمت .

(٢) يقول القلقشندى : بناه الآمر الفاطمى بوساطة وزيره المـأمون بن البطائحى ، وكمل بناؤه فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وذكر اسم الآمر والمـأمون عليه . ويقع هذا الجامع بشارع المعز لدين الله فى القسم الذى كان يعرف باسم شارع النحاسين . انظر صبح الأعشى : ٣ : ٣٦١ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٧٣ ؛ المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٩٠ ؛ الخطط التوفيقية : ٢ : ١٢ - ١٣ .

(٣) يقابل هذا بالهـامش : بياض نحو نصف صفحة .

سنة ست عشرة وخمسمائة[1]

فى المحرّم كان المولد الآمرى[2] . وتقرّر السّلام على الخليفة فى يومى الاثنين والخميس فأمّا فى يومى السبت والثلاثاء فيركب الوزير بالرهجيّة إلى القصر ويركب الخليفة إلى ضواحى القاهرة للنزهة ؛ وأما الأحـــد والأربعاء فيجلس الوزير المأمون فى داره على سبيل الراحة .

فى صفر سب أحد صبيان الخاصّ الآمرى [١٢٢ ا] صاحب الشرع وشُهِد عليه ، فضُرِبت عُنُقه وصُلِب .

فيه وصل فخر الملك أبو على عمّار بن محمدّ بن عـمّار ، صاحب طرابلس . وكانت الدولة ، قد حَوّلت الثغر فى أيديهم على سبيل الولاية ، فلمّا جاءت الشدائد تغلّبوا عليه[3] ؛ ثم جاءت الدولة الجيوشِيّة فخافوا ممّا قدّموه فلم يرموا أيديهم فى يدها ولا وثقوا بما بُذِل لهم من الصّفح عن وُلاتهم . ومضى ذلك السّلف ، وخَلَفهم القاضى فخر الملك هذا فى الأيام الأفضليّة فجرى على تلك الوتيرة ، ودفع إلى محاصرة الفرنج (له)[4] مدة سبع سنين ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى عشر من مارس سنة ١١٢٢ .

(٢) سبق أن الآمر ولد فى المحرم سنة ٤٩٠ .

(٣) أصل بنى عمار من المغاربة الذين قدموا مع المعز لدين الله إلى القاهرة . وفى عهد الحاكم تولى أبو محمد الحسن بن عمار الوساطة – الوزارة – سنة ٣٨٦ ، وتلقب بأمين الدولة ، بعد أن تزعم ثورة الكتاميين طالبوا فيها بعزل ابن نسطورس عن الوزارة ، فأساء ابن عمار السيرة وثار الأتراك ضده فهرب إلى الصحراء ، وحل مكانه برجوان ، وأقام فى رعاية الحاكم ثلاث سنين وشهرا وأياما ، ثم قتل . وعند وفاة الحاكم وولاية الظاهر كان رئيس الرؤساء خطير الملك أبو الحسين عمار بن محمد وزيرا ، وقد اشترك فى حركة بيعة الظاهر ، وتولى ديوان الإنشاء وزمام المشارقة ، ثم تولى الوساطة سنة اثنتى عشرة وأربعمائة وقتل فى الحج . أما القاضى الأجل أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن عمار فقد توفى بطرابلس الشام فى سنة أربع وستين وأربعمائة فخلفه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن ابن عمار فضبط البلد أحسن ضبط ولم يظهر أثر لفقد عمه ، وقد أصبحت طرابلس شبه ولاية خاصة لأسرة بنى عمار هؤلاء يتوارثونها وتعتمد الخلافة بالقاهرة هذا التوارث وتصدر به المراسيم فى مناسباتها .

(٤) زيد ما بين الحاصرتين للتصحيح استعانة بما تقدم فى مواضع متفرقة ، وبما جاء فى ذيل تاريخ دمشق ، ونهاية الأرب فى نفس الموضوع . ذلك أن ابن عمار اضطر إلى احتمال حصار الفرنج لطرابلس ذلك الحصار الذى هيأ الفرنج أنفسهم له بالحصن الذى بنوه قريبا من المدينة وضايقوها به برغم مقاومتها المستمرة وبرغم نجاح ابن عمار فى إحراق بعض هذا الحصن فى أثنـــاء الحصار .

فضاق خناقه ، وأيس ؛ فخرج من طرابلس إلى العراق مستنجداً فلم يجد ناصرًا . واختلّت أحواله ، وعاد إلى دمشق وقد ملك الفرنج طرابلس فسار إلى مصر . وقال فى : كتابه والمملوك لم يَصِلْ إلى هذه الوجهة إلاَّ وقد علم أن له من الذنوب السالفة ما يستحقّ به القتل ، وقتْلُه بسيوف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف ، وفخر يكفرّ عنه بعض ذنوبه من كُفْر نعمتها ؛ فإن خرج الأمر بذلك فمِنّة كريمة ، وإنْ خُفّف عنه فتخليدُه فى السجن أحبُّ إليه من رجوعه إلى تأميل غير هذه الدّوله .

فلمّا عرض هذا بالحضرة أدركته الرأفة بعد أن استفظع كلٌّ من الحاضرين أمره وأشير بإيقاع الحوطة عليه وإيداعه خزانة البنود . فقال المأمون للخليفة : قد أَجَلَّ الله عواطف مولانا ورحمتَه من أن يهاجر أحد إلى أبوابه ويلجأ إلى عفوه فيخيب أمله ويؤاخذ بذنبه ؛ وما بعد استسلامه إلا الشكر لله والعفو عن جرمه ، فإن العفو زكاة القدرة عليه ؛ ويشمله ما شمل أمثاله . فأعجب الخليفة الآمر ذلك ، وخرج الأمْر بأن تعدّد على ابن عمّار ذنوبه وذنوب أسلافه ويقال له : قد أذهبت مهاجرتك ما كان يجب من عقوبتك . فإذا اعترف بذنوبه وذنوب أسلافه يقال له : قد غُفِر ذنبك وأنت مخير بين أمرين ؛ إمّا أن تعود فيصل إليك من الإنعام ما يُبلغك إلى حيث تريد ويَصْحبك مَنْ يوصلك إلى مأمنك ، وإمّاأنْ تُؤثر الإقامةبفناء الدّولة فتقيم على أنك تلزم ما يَعْنيك وتقنع بما يُنعم به عليك وتُقبل على شأنك وتترك التعرّض للمخالطات وتتجنب جميع المكروهات .

فلمّا خوطب بذلك قبّل الأرض وأبَىَ أنْ يرفع رأسه ووجهه ، وكلمّا خوطب فى رفعه قال لست أرفعه حتى أتلقى كلمات العفو عن إمام زمانى وتمتلئْ مسامعى بألفاظ مغفرته . فبلّغته الحضرة النبوية ما تمنّاه ، وحصل له الأمن ؛ وأمر به إلى دار أُعِدّت له وجُعل فيها شهوات السّمع والبصر ، وحُمِلت إليه الضيافات الكثيرة ، وجُرّد برسم خدمته حاجب معه عدّة مستخدمين . فأقام أيّاما يسيرة ثم حُمِلت إليه الكسوات التى لا نظير لها ، ووصله من المواهب ما أرْبى على أمله . وقُرّر له ، راتبا فى كل شهر ، ستون دينارا مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان . وصار يتعهد ما يُفتقد به أعيان الضّيوف من بواكير الفاكهة المستغربة وأنواع التّحف المستظرفة ورسوم المواسم ، ورفع عنه الحاجب والمستخدمون ، وجُعِل له

فى المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميزه عن أمثاله . ولزم طريقة حُمِدت منه ، فاستمرّ إليه الإحسان ؛ وصار يركب فى يومى الركوب ويومى السلام وغيرها .

وفيه أفرج عن الأمير عَضْب الدّولة عزّ الملك أبى منصور بنا ، وكان له فى الاعتقال ثلاث عشرة سنة ، لأنه كان وَالِىَ عكّا وسلّمها إلى الفرنج ، فلمّا وصل رماه الأفضل فى الاعتقال ، فلمّا أُفرج عنه أُعيد عليه نظيرُ ما كان قُبِض عنه للاصطبلات والخزائن ، ووُلّى البحيرة .

وأُفرج عن جماعة أمراء كانوا معتقلين ؛ منهم أبو المصطفى جوهر ، ودخل السجن وهو شاب فخرج منه وهو شيخ ، وكانت مدّة اعتقاله خمس عشرة سنة .

فيه وصل رسول الشريف قاسم أمير مكة ، الذى حضر فى الأيام الأفضلية بسبب أموال التّجار ، ومعه كتاب بتهنئة المأمون ، فجهّز إلى الأعمال القوصيّة بالاهتمام بالجناب الدّيوانيّة وترميم ما يحتاج إلى المرمّة ، وتجديد عوض ما تلف ؛ وأطلق له ثمانية [١٢٢ ب] آلاف وتسعمائة وأربعون إردبًّا برسم مكّة وتخوت ثياب وخلع ومال وبخور .

وفيه غلا الزيت الطيب والسيرج ؛ فكتب المستخدمون فى الخزائن ومشارفة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود وفى المشاهد عوضًا عن الزّيت الطّيّب الزّيت الحارّ ، فخرج الجواب بالتّحذير من ذلك وبألاّ يطلق إلاّ الزيت الطيّب ، ولا يلتفت إلى غلوّ السعر فى الخدم التى هى من حق الله تعالى فلا يجب الرّخصة فيه ولا يُنقص من المطلق شئ . وبلغ المأمون أنّ مشارف الجوامع والمساجد اشترى من ماله صبرًا وخلطه بالزيت لمنع القَوَمَة من التعرّض لشئ منه ، فأنكر ذلك وأمر بإحضاره وأن يُقوّم من ماله بثمن الزيت الذى فيه الصّبر ، ويطلق الزيت المستقرّ إطلاقُه على تمامه . وقيل له : قومة الكنائس والمقيمون بها والطارقون لها لا يقتاتون إلاّ من فضلات وقُود كنائسهم ، ونحن نبيح لهؤلاء الأكل ونحرّم عليهم البيع .

وتقدم الأمر بعمل حساب الدّولة من الهلالىّ والخراجىّ على جملتين ، إحداهما إلى سنة عشر وخمسمائة والثانية إلى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة ؛ فانعقدت على جملة كثيرة من عين وأصناف ، وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها . فلما حضرت أمر بكتابة سجلّ

بالمسامحة إلى آخر سنة عشر وخمسمائة ؛ ومبلغ ما سُومح به من البواقى ألفا ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون دينَارا ، ومن الوَرِق سبعة وستون ألفا وخمسة دراهم ، ومن الغلّة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون إردبّا ، ومن الأرز والكتان وحرق الصباغ وزريعة الوسمة والصباغ والفوة والحديد والزفت والقطران والثياب والمآزر والغرادلى شيء كثير ؛ ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفا وثلثمائة وخمسة رءوس ؛ ومن البسر والنخيل والجريد والسّلب والأطراف والملح والأشنان والرّمان وعسل النّحل والشمع وعسل القصب شيءٌ كثير ؛ ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفا ومائة وأربعة وستون رأسا ؛ ومن الدّواب والسّمن والجبن والصّوف والشعر شيء كثير .

وقد تقدم ذكر نسخة هذا السّجلّ عند ذكر الخراج من هذا الكتاب .

وقرئ منشورٌ بالجامع الأزهر وجامع عمرو بمصر بالمنع ممّا يُعتمد فى الدّواوين من قبول الزيادة وفسخ عقود الضمانات وإعفاء الكافّة من المعاملين والضُّمناء من قبول الزّيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم .

فيه تحوّل الخليفة الآمر إلى اللؤلؤة[1] وأقام فيها مدّة النيل على الحكم الأوّل وأزال ما أحدث من البناء بالقرب منها ، وتحوّل معه الوزير المأمون بن البطائحى والشيخ أبو الحسن ابن أبى أسامة كاتب الدّست وحاجب الحجاب حسام الملك ، ورتّبت الرّهجيّة والحرس ، وأطلق لهم ما يقوم بهم . وصار الخليفة يمضى فى السراديب من اللؤلؤة إلى القصر فى يومى السلام ، فلا يراه أحد سوى الأستاذين والخواصّ ، ويحضر الوزير على عادته ويحمل الأسمطة ويحضر الناس على العادة ، ويركب فى يومى الثلاثاء والسبت إلى المتنزهات .

فيه تقدّم الوزير بتجديد المشاهد التسعة[2] التى بين القرافة والجبل .

---

(١) قصر اللؤلؤة أو منظرة اللؤلؤة كان موقعها على الخليج بالقرب من باب القنطرة ، وكانت أحد متنزهات الدنيا أشرفت من شرقيها على البستان الكافورى ومن غربيها على الخليج وهو إذ ذاك بساتين عظيمة ليس فيها من المبانى شيء ، وبالبساتين بركة عرفت باسم بطن البقرة ، والجالس فى اللؤلؤة كان يرى أرض الطبالة واللوق وما هو من قبليها والنيل من وراء البساتين . وقد بناها العزيز بالله وسكنها برجوان زمن الحاكم فلما قتل نهبت وهدمت ، وأعاد المأمون البطائحى تأسيسها وأحلى ما حولها . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٧ — ٤٦٩ .

(٢) يقصد بها المشاهد التى كان الناس — ولا يزالون — يتبركون بزيارتها ومنها مشاهد السيدة نفيسة ، وزين العابدين ، والقاضى بكار بن قتيبة ، والقاضى المفضل بن فضالة ، وأبى الفيض ذى النون المصرى . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٦٠ — ٤٦٣ .

وكانت العادة جارية من الأيام الأفضليّة فى آخر جمادى الآخرة من كل سنة أن تُغلق جميع قاعات الخمّارين بالقاهرة ومصر وتختم ، ويحذّر من بيع الخمر ؛ فرأى الوزير أن يكون ذلك فى سائر الأعمال ، فكتب إلى ولاة الأعمال وأن يُنادى بأن مَنْ تعرّض لبيع شيء من هذين الصّنفين[1] أو لشرائهما سِرا وجهرًا فقد عرّض نفسه لتلافها وبرئت الذمّة من هلاكها .

لما كان مستهلّ رجب عملت الأسمطة على العادة ، فقال الخليفة الآمر لوزيره المأمون : قد أعدت لدولتى بهجتها ، وقد أخذت الأيّام نصيبها من ذلك ، وبقيت الليالى وقد كان بها مواسم وقد زال حكمها ؛ وهى ليالى الوقود الأربع[2] . فامتثل الأمر ، وعُمِلت .

واستجدّ فى كل ليلة على الاستمرار برسم الخاصّيْن الآمرى والمأمونى قنطار سكر ومثقالاً مسك وديناران برسم المؤن ليعمل خشكنان[3] ، وتشدّ [١٢٣ ا] فى قعاب وسلال صفصاف ، وكان يسمى بالقعبة ، ويحمل ثلثا ذلك إلى القصر والثلث إلى دار المأمون .

ووصلت كسوة الشتاء ، فكانت أربعة آلاف قطعة وثلثمائة وخمس قطع . ووصلت

---

(١) هكذا فى الأصل . ولم يسبق ذكر لأى شئ يمكن الإشارة إليه بهذين الصنفين ، وإنما هو منع بيع الخمر فى سائر الأعمال . وفى المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٩١ « وأن ينادى بأنه من تعرض لبيع شئ من المسكرات أو لشرائها سرا أو جهرا . . »

(٢) وهى ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه . وكانت تقام فيها احتفالات عظيمة ، ويركب فيها الخليفة فى موكب خاص . ومن مظاهر الاحتفال بليلة أول رجب – مثلا – أن الخليفة كان يجلس فى منظرة عالية – عند باب الزمرد من أبواب القصر وبين يديه شمع يوقد فى العلو زنة الواحدة سدس قنطار . ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشمع المحمول إليه من خزانة الخليفة ، موقودا ، من كل جانب ثلاثون شمعه ، وبين الصفين مؤذنو الجوامع يعلنون بذكر الله تعالى ويدعون للخليفة والوزير ، بترتيب مقرر محفوظ . ويحيط به ثلاثة من نواب الباب ، وعشرة من حجاب الخليفة ، وحجاب الحكم المستقرون وهم خمسة أمراء ، والشهود وراءه على ترتيب جلوسهم بمجلس الحكم وحول كل منهم ثلاث شمعات أو شمعتان أو شمعة واحدة . وعند باب الزمرد يجلسون فى رحبة تحت المنظرة فتفتح إحدى طاقاتها فيظهر منها رأس الخليفة ووجهه وحوله الأستاذون المحنكون وغيرهم ، ويفتح أستاذ طاقة أخرى يخرج منها رأسه ويده اليمنى ويشير بكمه قائلا : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » . . . ثم يتقدم خطيب الجامع الأنور فيخطب كما يخطب فوق المنبر وينبه على فضيلة ذلك الشهر وأن ذلك الركوب علامته ، ثم يختم كلمته بالدعاء للخليفة . . . ثم يتحرك الموكب إلى دار الوزير ، ومعه والى القاهرة ، ثم إلى الجامع الطولونى ويخرج منه ووالى مصر فى خدمته ، ثم إلى الجامع العتيق وهناك يوقد التنور الفضة الذى بالجامع وفيه نحو ألف وخمسمائة براقة وبأسفله نحو مائة قنديل . ثم يخرج القاضي إلى منزله . صبح الأعشى : ٣ : ٤٩٧ – ٤٩٨ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٥ – ٤٦٧ ، ٤٩١ .

(٣) نوع من الحلوى يصنع من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يملأ وسطها باللوز أو بالفستق ، يقول القلقشندى : ويعرف فى مصر بالخشتنان . صبح الأعشى : ٣ : ٥١٠ .

كسوة عيد الفطر وتشتمل على نحو عشرين ألف دينار ، وكان عندهم الموسم الكبير ، ويسمى بعيد الحُلل لأنّ الحلل فيه تعم الجميع وفى غيره للأعيان خاصّة .

وعُمل الختم فى آخر شهر رمضان بالقصر ، وعُبِّئَ سماطُ الفطرة فى مجلس الملك بقاعة الذّهب من القصر ، فكان سماطًا جميعُه من حلاوة الموْسم . وصلَّى الخليفة الآمر بالنَّاس صلاة العيد فى المصلَّى ظاهر باب النصر وخطب ، وكان ذلك قد بطل فى الأيام الجيوشيّة والأفضلية .

وكان الذى أُنفق فى أسمطة شهر رمضان عن تسعٍ وعشرين ليلة ، خارجًا عن التوسعة المطلقة أصنافًا برسم الخليفة وجهاته ، وخارجا عن العطيّة ، وخارجًا عن رسم القرّاء والمُسَحِّرين وخارجًا عن الأشربة والحلاوات من ألعاب ، ستة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وثلاثين دينارا . وجُملة ما قُدّر على المُنفَق فى شهر رمضان ، بما تقدّم شرحه ، والتوسعة والصّدقات والفطرة[1] وكسوة الغرّة والعيد ، مائة ألف دينار عينا . وضُرب فى خميس العدس ألف دينار عملت عشرين ألف خرّوبة[2] ، وكانت العادة أن يُضرب فى كلّ سنة خمسمائة دينار .

وفى شوّال هذا وصل شاور من أسر الفرنج ، وكان مأسورًا من الأيّام الأفضليّة وطالت مدّة أسره ، وبذلَت عشيرته فى افتكاكه جُملةً كبيرة ، فلم يُقبل منهم ، وطُلِب فيه أسيرٌ من الفرنج ، فلم يُجِبهُم الأفضل إليه لأنّه كان لا يُطلق أسيرا أبدًا . فلمّا وَلِىَ المأمون الوزارة ومّيز رُدَيْنى ، مقدّم العربان الجذاميّين ، وقبيلتَه ـ وشاور من بنى سعد ، فخذٌ من جذام ـ وقف مجير ، أخو شاور ، وإخوتُه للمأمون ، ومازالوا به حتى أطْلق الأسير فأطْلقَ الفرنج شاورًا فى شوّال ، وأُثبت فى الطّائفة المأمونية ؛ وكان هذا ابتداء حديث شاور .

(١) الفطرة حلوى عيد الفطر ، ويستخدم فيها الجوز واللوز والبندق والفستق والزبيب . وكان مصروفها فى كل سنة عشرة آلاف دينار . وهناك دار خاصة بها عرفت بدار الفطرة كانت خارج القصر قبالة مشهد الحسين ، رضى الله عنه . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٦ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٢٥ ـ ٤٢٧ .

(٢) جرت العادة فى أيام الأفضل أن تضرب خمسمائة دينار خراريب يحمل الأفضل منها إلى الخليفة مائتى دينار ، ثم جعلت أيام المأمون البطائحى ألف دينار أمر الخليفة بضربها عشرين ألف خروبة وحملت إليه ، فسلم منها إلى المأمون ثلثمائة دينار . وجرت العادة بذلك طوال عهد المأمون . وفى عهد الحافظ الفاطمى ضربت مرة واحدة ونسى أمرها وبطل حكمها . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٥٠ .

وفيه تنبّه ذكر الطائفة النزاريّة ، وقرّر بين يدى الخليفة بأن يُسيّر رسولاً إلى صاحب ألمُوت بعد أن جُمعتْ فقهاء الإسماعيليّة والإماميّة ، وهم ولىّ الدّولة أبو البركات بن عبدالحقيق داعى الدعاة ، وجميع دعاة الإسماعيليّة ، وأبو محمّد بن آدم متولّى دار العلم[1] ، وأبو الثّريّا ابن مختار فقيه الإسماعيليّة ، ورفيقه أبو الفخر ، والشريف ابن عقيل ، وشيوخ الشرفاء ، وقاضى القضاة ، وأولاد المستنصر ، وجماعة من بنى عمّ الخليفة ، وأبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدّست ، وجماعة من الأُمراء ؛ وقال لهم المأمون : ما لكم من الحجّة فى الرّدّ على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية . فقال كلٌّ منهم : لم يكن لنزارٍ إمامة ، ومَنْ اعتقد هذا خرج عن المذهب وحلّ ووجب قتله ؛ وإن كان والده المستنصر نَعتَه وَلِيّ عهد المسلمين ونعت إخوته ، منهم أبو القاسم أحمد بولىّ عهد المؤمنين ، وكل مؤمن مسلم وما كل مسلم مؤمن ، وقد نطق بذلك الكتاب العزيز[2] .

وذكر حسين بن محمّد الموصلى أن اليازورى[3] لم يزل يسأل المستنصر إلى أن كتب اسمه على الدينار وهو ما مثاله :

ضربت فى دولة آل الهدى ... من آل طه وآل ياسين
مستنصرا بالله جل اسمه ... وعبده الناصر للدّين

فى سنة كذا ؛ ولم يَقُم بعد ذلك إلا دُون الشّهر ، فاستعيدت وأُمِر ألا تسطّر .

ودليل يعضّد ذلك أنه لمّا جرت تلك الشدائد على الإمام المستنصر وسيّر أولاده ،وهم : الأمير عبد الله إلى عكا إلى أمير الجيوش ، ثم أتْبَعه بالأمير أبى على والأمير أبى القاسم ، والد الحافظ ،

---

(١) دار العلم ، بجوار القصر الغربى من الناحية البحرية ،وكان داعى الشيعة يجلس فيها ويجتمع إليه من التلامذة من يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم ، وجعل الحاكم لها جزءا من أوقافه التى وقفها على الجامع الأزهر وجامعى المقس وراشدة . ثم أبطل الأفضل أمير الجيوش هذه الدار لاجتماع الناس فيها وخوضهم فى المذاهب خوفا من اجتماع النزاوية به ، وأعادها الآمر ، بعد مقتل الأفضل ، بوساطة خدام القصر بشرط أن يكون الداعى هو الناظر فيها ، وأقام بها متصدرين لقراءة القرآن وسميت بدار العلم الجديدة ويذكر المقريزى أن وسائل التعليم يسرت فى دار العلم لكل من أراد ذلك من أقلام وأوراق وكتب ، وعين لها الفقهاء والعلماء ، وكان الحاكم الفاطمى يحضرهم إليه للمناظرة . صبح الأعشى : ٣ : ٣٦٢ . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٤٥ ، ٤٥٨ – ٤٦٠ .

(٢) يقصد قول الله تعالى فى سورة الحجرات : آية : ١٤ : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

(٣) من وزراء المستنصر بالله . وقد تقدمت أخباره وتقلب أحواله فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . توفى مقتولا بأمر الخليفة سنة خمسين وأربعمائة ، فى المحرم .

إلى عسقلان ، وسيّرنزارًا إلى ثغر دمياطِ سيّر الأعلى إلى[1] ، ولم يسمح بسفر الإمام المستعلى ولا خروجه من القصر لما أهّله له من الخلافة ، ولا أبْعَده خوفًا من حضور المنيّة ، فلمّا وصل أمير الجيوش إلى البلاد بعد تهيئتها وتأمينها ورغب الإمام المستنصر فى عقد نكاح ولده الإمام المستعلى [١٢٣ب] على ابنته ، أخت الأفضل ، وعقد النكاح بنفسه ، سمّاه فى كتاب الصَّدَاق مَوْلَى عهد أمير المؤمنين ؛ وعلَّم عليه بخطّه . ثم عند وفاة المستنصر بايع نزار الإمامَ المستعلى بما شاهده كلّ حاضر ، وبما ذكرتْهُ السيدة ابنةُ الإمام الظّاهر شقيقةُ الإمَام المستنصر فى صحة إمامته. فكُتِب الكتاب بجميع ذلك إلى صاحب اَلمَوت مُضمّنًا بشهادة الجماعة بذلك .

ثمّ وصل فى أثناء ذلك كتبٌ من خواصّ الدّولة تتضمن أنّ القوم قد قويت شوكتُهم واشتدت فى البلاد طَمْعَتُهم ، وأنهم يُسيّرون المال مع التّجّار إلى قوم يخبرون أسماءهم ، وأنهم سَيّروا لهم الآن ثلاثة آلاف دينار برسم النَّجوَى[2] وبرسم المؤمنين الذين ينزل الرُّسُل عندهم ويختفُون فى محلهم ، فتقدم المأمون بالفَحص عنهم والاحتراز التام على الآمر فى ركوبه ومُتنزّهاته ، وحفظ الدّور غيرها .

ولم يزل البحث التام فى طلبهم إلى أن وُجدوا عند قوم من أهل البلد ، فاعترفوا بأنّ خمسة منهم هم الرّسُل الواصلون بالمال من البلاد المشرقيّة ، فراموا قتلَهُم ، فأشار المأمون بتركهم . وأحْضِر الشيخ أبو القاسم بنُ الصيّرفى ، وأمِر بكَتْب سجلّ يقرأ على رءوس الأشهاد وتفرّغ منه النسخ إلى البلاد بمعنى ما ذكر من نَفْى نزار عن الإمامة وشُهّر الجماعة المقبوض عليهم وصُلبوا ، وامتنع الآمر مِنْ قبض الألْفى دينار الواصلة للنّجوى وأمر بحملها إلى بيت المال ، وأن تُنْفَق فى السّودان عبيد الشراء خاصة . وأمر بأن يُحضَر من بيت المال نظير المبلغ، وتَقدم بأن يصاغ قنديلين ذهباً وقنديلين فضة، وأن يُحْمَلَ قنديلان ، ذهبا وفضة ، إلى مشهد الحسين بعسقلان ، وقنديلان كذلك إلى التربة . وأطلق

---

(١) كلمة غير واضحة لم أستطع قراءتها ، ولم أجدها فى غيره من المراجع التى بين يدى .

(٢) الأصل فى رسم النجوى أن الداعى الذى كان يدعو الناس إلى المذهب الفاطمى فى المجلس الخاص بذلك ، ويسمى مجلس الحكمة ، كان يقبض فى كل مجلس ما يتحصل من « النجوى » ممن كل من يدفع شيئا من ذلك عينا وورقا من الرجال والنساء ، ويكتب أسماء من يدفع شيئا على ما يدفعه ، ويرفع ذلك إلى بيت المـــال . المواعظ والاعتبار ١ : ٣٩١

المـأمون من ماله ألْنى دينار ، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسمه على قياس أحْضر من عسقلان ، وأن يصاغ على المصحف الذى بخط علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بمصر من فوق الفضة ذهب .

وأُطْلق من حاصل الصّناديق التى تشتمل على مال النجارى برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرّق فى الجوامع الثلاثة : الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وجامع القرافة[1] ، وعلى فقراء المؤمنين وعلى أرباب القصور . وأُطلق من الأهراء ألفا إردب قمحاً وتصدّق عدّة من الجهات بجُملةٍ كثيرة . واشتُريت عدّة جوارٍ من الحجر[2] وكُتِب عِتْقهنّ وأُطْلِق سراحُهنّ .

قال ابن ميسر ، وقد ذكر هـذا المجلس : وقد كانت أخت نزار فى قاعة بجانب الإيوان من القصر ، وعلى الباب ستر ، وعلى السّتر إخوتُها وبنو عمّها وكبار الأُستاذين . فلمّا جرىٰ هذا الفصل قام المـأمون من مكانه ووقف بإزاء السّتر وقال : مَنْ وراء هذا الستر ؟ فعرّف بها إخوتُها وبنُو عمّها ، وأنه ليس غيرها وراء السّتر . فلمّا تحقق الحاضرون ذلك قالت : اشهدوا علىّ يا جماعة الحاضرينْ ، وبلغوا عنّى جماعة المسلمين بأن أخى شقيقى نزاراً لم يكن له إمامة ، وأننى بريئة من إمامته جاحدةٌ لها لاعنة لمن يعتقدها ، لما علمتُه من والدى وسمعته من والدى ، لمّا أمر المستنصر بمُضِيّها هى والجهة المعظمة والدة عبد الله أخى إلى المنظرتين اللّتين على القناطر المعروفتيْن بالحرارة والبرياصة (؟) للنزهة أيّام النيل جرى بينهما مشاجرة فى ولديهما ، فأحضرهما المسْتَنْصر بين يَديْه وأنكر عليهما ، وقال : ما يصِلُ أحد من ولديكما إلى الأمر ، صاحبُه معروف فى وقته . وشاهدت والدى المستنصر فى مرضته التى توُفى فيها وقد أحضر المستعلى وأخذه معهُ فى فراشه ، وقبّل بين عينيه ، وأسَرّ إليه طويلاً وقَدْ دَمَعت عيناه ؛ وفى اليوم الذى انتقل والدى فى ليلته استدعى عمّتى بنت الظّاهر فأَسَرّ إليها من بيننا ، ومدّ يده إليها فقبلها وعاهدها ، وأَشْهَدَ الله تعالى معلناً ومُظْهِراً . فلمّا انتقل فى تلك

(١) وعرف على زمن المقريزى باسم جامع الأولياء ، بنى فى الأرض التى كانت تعرف بخطة المغافر ، بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله سنة ست وستين وثلثمائة ، كان بابه الأكبر ، الأوسط ، مصفحا بالحديد ، وله مقصورة بها أربعة عشر بابا قدام كل باب قنطرة قوس على عمودى رخام وقد زوقت سقفه كلها وحناياه وعقوده التى تعلو الأعمدة بأنواع الأصباغ. المواعظ والاعتبار : ٢ : ٣١٨ – ٣٢٠ .

(٢) كان بجوار الوزارة مكان كبير يعرف بالحجر – جمع حجرة – يقيم فيه الغلمان المختصون بالخلفاء . نفس المصدر ١ : ٤٤٣ – ٤٤٤ . (ولم أجد ذكرا لحجر خصصت للجوارى) .

الليلة حضر صبيحتها الأفضل ومعه الدّاعى والأمراء والأجناد ، ووقف بظاهر المقرمة ، ثم جلس وكلُّهم قيام ، وأخذ فى التّعزية ، ثم قال : يا مولاتنا من ارتضاهُ للخلافة ؟ فقالت : هى أمانة قد عاهدنى عليها ، وأوصانى بأنَّ الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد . فحضر وبايعتْهُ عمّتى ، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله [١١٢٤] فأشار الأفضل إلى نزار لبايعه ، وأمَرَ بالتّوكيل على نزار وتأخيره ، فأخر إلى مكان لا يصلح له . واستدعى الأفضل الدّاعى وأمره بأخْذ البيعة من نَفْسه ومن الموالى والأسْتاذِين . وسألت عمّتى الأفْضَلَ فى نزار فرفع عنه التّوكيل عليه بعد أن كلَّمه بكلام فيه غِلْظة ؛ ووالله ما مضى أخى نزار إلى ناصر الدّولة أفتكين بالإسكندرية لطلب إمامة ولاَ لِادّعاء حق ، ولكن طالب بالزوال للأفضل وإبطال أمْره لِمَا فَعل معه . واللهُ يلعنُ من يُخالف ظاهرُه باطنه . فشكرها الناس على ذلك .

وكان سبب حضور أُخت نزار فى هذا المجلس أنَّ المأمون قال للآمر : قد كشفتُ الغطاء وفعلتُ مالاَ يقدر أحد على فعله ، وأمّا القصر فما لى فيه حيلة . ولوّح أن أُخت نزار وأولادها لا يمكننى كشفُ أمرهم . فلمّا بلغ أُختَ نزارٍ ذلك حضرت إلى الخليفة الآمر لتبرّئ نفسها ، ورغبت أن تخرج للنّاس لتقول ما سمعته مِنْ والدها وشاهدته ليكون قولُها حجّة على من يدّعى لأخيها ما ليس له . فاستحسن الآمر ذلك منها ؛ وأحْضَر المأمون وأخاه شَقيقهُ أبا الفضل جعفر بن المستعلى ، واتّفقُوا على يوم يجتمعون فيه. فلمّا كان فى شوّال عُمِل المجلس المذكور .

وأما النزاريّة فإنها تقول إن المستنصر مات والأفضل صاحب الأمر والمستحوذ على المملكة والجند جنده ، وغلمان أبيه لا يعرفُون سواه ؛ وكان نزار ، لِمَا يَرَى من غلبة الأفضل على الدّولة ، يتكلّم بما بلغه ، فينكره ، فلمّا مات المستنصر والأفضل متخوّف من شرّ نزار أقام أحمَد ابْنه[1] ، المستعلى ، لأنّه زوج أخته ولأنه صغير .

وفيها أراد الآمر أن يحضر إلى دار الملك فى يوم النّورُوز الكائن فى جمادى الآخرة ويركب إليها فى المراكب على ما كان عليه الأفضل ، فمنعه المأمون من ذلك ، وقال :

(١) فى الأصل : أقام أحمد بن المستعلى . وهو خطأ من الناسخ .

يامولانا ، الأفضل لايجرى مجرى أمير المؤمنين . وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم جهاته ماله قيمة جليلة[1] .

وفى شوّال بلغ المأمون أن جزيرة قويسنا ومنية زفتى ليس فيهما جامع ، فتقدّم إلى بعض خواصّه وخلع عليه ، فسار وبنى جامعا على شاطئ النيل بمنية زفتى ، وقرّر فيه خطيباً وإماماً ومؤذنين ، وفُرش ، وأُطلق برسمه نظيرُ ماللجوامع .

وفيه وصل الفقيه أبو بكر محمّد بن محمد الفهرى الطرطوشى[2] من الإسكندرية بالكتاب الذى حمله : « سراج الملوك » ، فأكرمه وأمر بإنزاله فى المجلس المهيّأ للإخوة ، وتقدّم برفع أدوية[3] الكُتّاب وأوطئة الحُسّاب وسلام الأُمراء ، وعمل السّماط ، وسارع إلى البادهنج[4] ، واستدعى بالفقيه . فلمّا شاهده وقف ، ونزل عن المرتبة ، وجلس بين يديه ؛ ثم انصرف ، ومعه أخو المأمون ، إلى مكانٍ أُعِدّ له ، وحُمِل إليه مايحتاج له وأمر مشارف الجوالى[5] أن يحمل له فى كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له فى الأيّام الأفضلية . وصار المأمون يستدعيه فى يَوْمَىْ راحته ، ويبالغ فى كرامته ، ويقضى شفاعاته .

وكان السبب فى حضوره أنه تكلّم فى الأيّام الأفضليّة فى أمور المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتـــام ، وهو ربع العشر ، وأمر توريث الابنـة النصف ،

---

(١) بهامش الأصل : بياض ثلث صفحة .

(٢) هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهرى الأندلسى الطرطوشى الفقيه المالكى المعروف بابن أبى رندقة . ولد بمدينة طرطوشة بالأندلس سنة ٤٥١ ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ ، وحج ، ودخل بغداد والبصرة ، وسكن الشام مدة ودرس بها ، وانتقل إلى مصر وأقام بالقاهرة ثم بالإسكندرية وبها توفى سنة ٥٢٠ . وطرطوشة ، بضم الطائين ، على ساحل البحر شرقى الأندلس ، ورندقة بفتح الراء وسكون النون وفتح الدال المهملة كلمة فرنجية — كما يقول ابن خلكان — وله من المؤلفات سراج الملوك — المذكور فى المتن — وسراج الهدى ، وكتاب بر الوالدين ، وكتاب الفتن . وفيات الأعيان : ١ : ٤٧٩ — ٤٨٠ .

(٣) لعلها جمع دواة .

(٤) البادهنج منفذ للتهوية فى البيوت ، وتسمى الفتحة فى المنبر أيضا بادهنج والجمع بادهنجات . السلوك : ٢ : ٢٢٢ .

(٥) الجوالى من الأموال المشروعة ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة فى كل سنة . يقول ابن مماتى : وكانت الجزية على ثلاث طبقات : عليا ، أربعة دنانير وسدس كل سنة ، ووسطى ، ديناران وقيراطان ، وسفلى ، دينار واحد وثلث وربع وحبتان من دينار . صبح الأعشى ٣ : ٤٥٨ ؛ قوانين الدواوين : ٣١٧ — ٣١٩ .

فلم يقبل ذلك ، ففاوض المأمون فيه وقال :هذه قضيّة وجدتها وما أحدثتها وهى تسمّى بالمذهب الدارج ، ويقال إنَّ أمير الجيوش بدر هو الذى استجدها ، وهى أنَّ كلّ من مات يُعمل فى ميراثه على حكم مذهبه ، وقد مرّ على ذلك سِنُون وصار أمراً مشروعا ، فكيف يجوز تغييره . فقال له الفقيه : إذا علمت ما يخلّصك من الله غيرها فلَكَ أجرُها . فقال أنا نائب الخليفة ، ومذهبُه ومذهبُ جميــع الشيعة من الزّيدى ، والإمامى والإسماعيــلى أن الإرث جميعه للابنة خاصّة بِلاَ عَصَبة ولا بيت مال ، ويتمسّكون بأنه من كتاب الله كما يتمسك غيرهم ، وأبو حنيفة ، رحمه الله ، يوافقهُم فى القضيّة . فقال الفقيه : أنا مع وجود العصبة فلابدّ من عدّتها[1] . فقال المأمون أنا [١٢٤ ب] لا أقدر أن أردّ على الجماعة مذهبهم ، والخليفة لا يرى به ويَنْقُضُه على من أمر به ؛ بل أرى بشفاعة الفقيه أن أرُدّ الجميع على رأى الدّولة فيرجع كلّ أحد على حكم رأيه فى مذهبه فيما يخلصه من الله ، ويبطل حكم بيت المال الذى لم يذكُره الله فى كتابه ولا أمَر به الرّسُول عليه السّلام . فأجاب إلى ذلك . وأمر الوزير أن يُكْتَب به وأن يُكْتَب بتَعْويض أمناء الحكم عمّا يقْتضُونه من ربع العشر بتقرير جارٍ لهم فى كل شهر من مال الدّيوان على المواريث الحشرية[2] .

وأخَذَ الفقيه فى ذِكْر بقيّة حوائج أصحابه ، وكتب منه توقيع فُرّغَت منه نسخ منها ما سُيّر إلى الثّغور وكبار الأعمال ، وشملته العلامة الآمريّة وبعدها العلامة المأمونية . ونسخته بعد البسملة : « خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السّيد الأجلّ المأمون أمير الجيوش – ونعوته والدعاء – وهو الخالصة أفعالهُ فى حِيَاطة المسلمين وذو المقاصد المصروفة إلى النظر فى مصالح الدّنيا والدّين ، والهمّة الموقوفة على التّرقّى إلى درجات المتّقين ، والعزائم الكافلة بتشديد أحوال الكافّة أجمعين ؛ شيمةٌ خصّه الله بفضيلتها جبلّة أسعد بجلالها وشريف مزيّتها . والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة ، وأنحاء

---

(١) أى لابد من إدخالها فى الاعتبار .

(٢) المواريث الحشرية : مال من يموت ولا وارث له بقرابة أو نكاح أوولاء ، والباق بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق فرضه جميع المـــال ولا عاصب له . وما كان بحاضرة مصر من هذه المواريث يحمل إلى بيت المـــال ، وكان كاتبه يكتب فى كل يوم تعريفا بمن يموت بمصر والقاهرة من حشرى أو أهل ويكتب منه نسخا لديوان الوزارة ولنظر الدواوين ولمستوفى الدولة ، ويسدد من وقت العصر فن أطلق بعد العصر يضاف إلى اليوم التالى . وما كان خارج العاصمة يحصله مباشرون ويحملونه إلى دار السلطان . صبح الأعشى : ٣-٤٦٠ ؛ قوانين الدواوين : ٣١٩ – ٣٢٤ .

الميَامِن كافلةً ضامنة ، من أمْرِ المواريث وما أجراها عليه الحكام الدَّارجُون بتَغَايُر نظرهم ، وقرّرُوه من تغييرٍ عمّا كان يعهد بتغلّب آرائهم، وما دخل عليها منهُم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد ؛ وهو أن لكلّ دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمّل ما يترك من مَوْجُودِه على حكم مذهبه فى حياته والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته ؛ فيخلُص لحرم ذوى التشيُّع الوارثات جميعُ مُوْرُوثهم ؛ وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه : « وأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »(١). ويُحمل مَنْ سواهنّ على مذهب مخلِّفيهنّ ، ويشركهم بيت مال المسلمين فى مَوْجُودِهم ، ويُحْمل إليه جزء من أموالهم التى أحلّها الله لهنّ بعدهم ، عُدُولاً عن محجّة الدّولة ، وخروجًا عما جاء به العباد من الأئمة الذين نزل فى بيتهم الكتاب والحكمة، فهم قراء القرآن ، ومُوضحُو غوامِضِه ومُشْكلاته بأوْضح البيان ، وإليهم سلَّم المؤمنون ، وعلى هديهم وإرشادهم يُعوِّل الموقنون ؛ فلم يَرْضَ أميرُ المؤمنين الاستمرار فى ذلك على قاعدة واهية الأصول ، بعيدة من التّحقيق خالية من المحصُول، ولم يَرَ إلاَّ العَوْد فيه إلى عادة آبائه المطهَّرين ، وأسلافه العلماء المهديِّين ، صلوات الله عليهم أجمعين . وخرج أمره إلى السّيد الأجلّ المأمون بالإيعاز إلى القاضى ثقة الملك النَّائب فى الحكم عنه، بتحذيره، والأمْرِ له بتحذير جميع النواب فى الأحكام بالمعِزِّيّة القاهرة ومصر وسائر الأعمال ، دانيها وقاصيها ، قريبها ونائيها ، من الاستمرار على تلك السنَّة المتجدّدة ، ورفض تلك القوانين التى كانت معتمدة واستئناف العمل فى ذلك بما يراه الأئمة المطهرّة ، وأسلافه الكرام الْبَرَرَة ، وإعادة جميع مواريث النَّاس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأى الدّولة فيها ، والإفراج عنها برمّتها لمستحقّيها ، من غير اعتراضٍ عليهم فى قليلها ولا كثيرها ؛ وأن يَضْرِبوا عمّا تقدّم صفحا ، ويَطْوُوا دونه كَشْحا ، منذ تاريخ هذا التوقيع ، وفيما يأتى بعده مستمرًا غير مستدرك لما فات ومضى ، ولا متعقب لما ذهب وانقضى » .

« وليوف الأجلّ المأمون ، عَضَّد الله به الدّين ، بامتثال هذا المأمور ، والاعتماد على مضمون هذا المسطور ؛ وليحذّر كلاًّ من القضاة والنُوَّاب ، والمستخدمين فى الباب ، وسائر

(١) سورة الأنفال : آية : ٧٥ .

الأعمال ، من اعتراض مَوْجُودِ أحدٍ ممّن يسقط بالوفاة وله وارث بالغ رشيد ، حاضر أو غائب ، ذكرا كان أو أنثى ، من سائر الناس على اختلاف الأديان بشىء من التأولات أو تعقُّب ورثته بنوع من أنواع التعقُّبات ، إلا ما أوجَبَتْه بينهم المحاكمات والقوانين الشّرعيات الواجبات ، [١٢٥ ا] نظراً إلى مصالح الكافّة ، ومدًّا لجناح العاطفة عليهم والرأفة ، ومضاعفة للأنام وإبانَةً عن شريف القصد إليهم والاهتمام ».

« فَأَمَّا من يموت حشريًّا ولا وارثَ لهحاضر ولا غائب ، فموجُودُه لبيت المال بأجمعه على الأوضاع السّليمة ، والقوانين المعلومة القويمة ، إلا ما يستحقه خَرْجٌ[1] إنْ كان له أو دين عليه يثبت فى جهته . وإنْ سقط مُتَوفًّى وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطًا حكميًّا ، وقانونا شرعيًّا مصونًا من الاصْطلاَم[2] ، محروسًا من التفريط والاخترام ؛ فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك فى مجلس الحكم بالباب ، على الأوضاع الشرعيّة الخالصة من الشُّبَه والارتياب ، طُولِع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقبضه عليه .

« وكذلك نُمِى إلى حضرة أمير المؤمنين أنَّ شهود الحكم بالباب وجميع الأعمال إذا شارف أحدٌ منهم بيع شىء ممّا يجرى فى المواريث من الترك التى يتولاها الحكّام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع ، فيعود ذلك بالنَّقِيصَة فى أموال الأيتام ، والتّعرُّض إلى الممنوع الحرام ، اصطلاحًا استمرُّوا على فعله ، واعتمادًا لم يَجْرِ الأمرفيه على حكمه ؛ فكره ذلك وأنكره ، واستَفْظَعَه[3] وأكبره ، واقتضى حسن نظره فى الفريقين ، ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام ، وتعويض مَنْ يباشر ذلك من الشُّهود جاريًا يُقام لكلٍّ منهم من الإنعام ؛ وأمر بوضع هذا الرَّسْم وتَعْفِيته ، وإبْطالِه وحَسْم مادَّته . فلْيَعْتمِد القاضى ثقة الملك ذلك بالباب ، وليصدر الإعْلام إلى سائر النُّوَّاب ، سُلوكًا لمحجَّة الدّين ، وعملاً بأعمال الفائزين السعداء المتّقين ، بعد تلاوة هذا التوقيع فى المسجدين الجامعين بالمعِزِّيَّة القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رءوس الأشهاد ، ليتساوى فى معرفة مضمونه كلّ

(١) المقصود به المـــال الذى يستحق لإحدى الجهات الحكومية ، من ضريبة أو نحوها .

(٢) الصلم بتشديد الصاد المفتوحة وسكون اللام ، كالتصليم ، القطع ، والفعل كضرب ؛ واصطلمه استأصله . القاموس المحيـــط .

(٣) فى الأصل : استفضعه .

قريب وبعيد وحاضر وباد ؛ ولتفرّغ منه النُّسخ إلى جميع النوّاب عنه فى الأعمال ، وليجلَّد فى مجلس الحكم بعد ثُبُوته فى ديوانى المجلس والخاصّ الآمرى ، وحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى حجة مودعة فى اليوم وما بعده . وكُتِب لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة » .

ثم حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير(١) ، وعرّفه ماعزم عليه من إنشاء مسجد بظاهر الثّغر على البحر ، فكتب إلى ابن حديد بموافقة الفقيه على موضع يتخيرّه ، وأن يبالغ فى إتقانه وسُرْعة إنجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة . وتوجّه فبنى المسجد المذكور على باب البحر . وأما المسجد الذى بالمحجّة فإن المؤتمن عند مقامه بالثّغر بناه .

وذكر للمأمون أيضا أن واحات البهنسا(٢) ليس بها جُمعة تقام ، فأمر ببناء جامع بها ، ففُرِغ منه وأُقيم فيه خطيب وإمام وقَوَمَةٌ ومؤذّنون ، وأُطْلِق لهم ما هى عادة أمثالهم .

وقيل إنّ الذى أنشأه المأمون فى وزارته وفى أيام الأفضل أحد وأربعون مسجدًا ، مع ما أمر بتجديده ، بعد وزارته ، بالقاهرة ومصر وأعمالهما ما يناهز مائتى مسجد .

فيه بنيت دار ضرب بالقاهرة(٣) ودار وكالة(٤) .

---

(١) فى إحدى زيارات الفقيه للوزير بسط مئزراً كان معه وجلس عليه ، وكان إلى جانب الأفضل رجل نصرانى ، فوعظ الفقيه الأفضل حتى بكى ، ثم أنشد :

يـاذا الذى طاعتــه قربـة   وحقــه مفترض واجب

إن الذى شرفت من أجــله   يزعم هــذا أنه كاذب

وأشار إلى النصرانى ، فأقامه الأفضل من موضعه . وفيات الأعيان : ١ : ٥٧٩ .

(٢) يقول ياقوت إنها مدينة بالصعيد الأدنى غربى النيل ، وتضاف إليها كورة كبيرة ، وليست على ضفة النيل ، وبظاهرها مشهد يزار يزعم الناس أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين . وهى اليوم فى محافظة المنيا على الشاطئ الغربى لبحر يوسف . وإليها كان يجلب الشب من الواحات ، وفيها كانت تعمل الستور البهنسية وينسج المطرز والمقاطع السلطانية ، وكان طول الستر الواحد ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج منه مائتى مثقال من الذهب . المواعظ والاعتبار : ١ ٢٣٧ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٩٣ ؛ معجم البلدان : ٢ : ٣١٦ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٩٧ ؛ قوانين الدواوين : ٨١ ، ٣٢٨ ، ٣٤٤ – ٣٤٥ .

(٣) بحى القشاشين الذى أصبح يعرف أيام المقريزى بحى الخراطين ، قبالة البيمارستان . بناها الآمر واستخدم فيها العدول ، وصار دينارها أعلى عيارا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار . وكانت دار الضرب تصدر فى المواسم دنانير خاصة بها للتفرقة على أمراء الدولة وأعيانها ، ومن هذه الدنانير الخاصة : دينار الغرة – غرة العام – ودينار خميس العدس. وكان يتولى الإشراف المباشر على دور الضرب قاضى القضاة لاهتمام الفاطميين بضبط العملة. المواعظ والاعتبار: ١: ٤٤٥ .

(٤) أنشأها المـأمون البطائحى – بجوار دار الضرب – لمن يصل من العراقيين والشاميين وغيرهم من التجار ، ولم يسبق إلى ذلك . نفس المصدر : ١ : ٤٥٠ – ٤٥١ .

وفى ذى القعدة مات الأمير السعيد محمود بن ظفر ، والى قوص . وركب المأمون إلى الجامع الأزهر ، فلمّا كان وقت صلاة الصبح تقدم قاضى القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن على الرّاسعينى وصلّى ؛ فلمّا قرأ الفاتحة لحقه زَمَعٌ[1] شديد وارتعد ، فلحن فى الفاتحة ؛ وقرأ : « والشّمْسِ وَضُحَاهَا » ، فلمّا قال : « نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا » أُرْتج عليه ، فردّ المؤتمن حيدرة ، أخو المأمون ، عليه ، فاشتدّ زمعه ، فكرّر عليه الرّدّ ، فلم يَهْتدِ وقال : « وسقناها » بالنون : فقرأ المأمون بقيّة السّورة وسجد النّاس . وقام فى الرّكعة الثانية وقد دُهِش فلم يُفْتح عليه بشىء ؛ فقرأ المأمون الفاتحة « وقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ »، وقَنَت وهو معه يلقّنه . فلمّا انقضت الصّلاة اشتدّ غضب المأمون وأمر متولّى الباب بأن يختم المقرئون. وتخيل [١٢٥ ب] المقام وخرج من الجامع ، فوكل بالقاضى مَنْ يمضى به إلى داره ويأمُره بالمقام بها من غير تصرّف حتى يحفظ القرآن ؛ وقرّر له راتبًا فيما بعد ؛ ولزم داره .

وأنفذ للوقت إلى القاضى أبى الحجّاج يوسف بن أيّوب المغربى ، من قضاة الغربية ، فأحضره وخلع عليه فى القصر بذلة مذهبة ، وسلّم به على الخليفة ، وسلّم إليه السّجلّ فى لفافة مذهبة بنيابته فى الحكم العزيز والخطابة والصّلاة وديوان الأحباس[2] ودُور الضّرب بسائر أعمال المملكة ؛ ونُعت فيه بالقاضى جلال الملك تاج الأحكام ؛ فقبّله ووضعه على رأسه . وتُلِى على منابر القاهرة ومصر .

وكان يحضر فى يومى الاثنين والخميس إلى مجلس المظالم بين يدى المأمون ، ويستعرض القصص ويناقش فيها ، ويُبَاحِث مُباحَثَة الفقهاء العلماء ، فزاد المأمون فى إكرامه ، وردّ إليه وكالة الخليفة ؛ وكُتِبت له الوكالة ، وشُرِّف بالخلع .

وتولّى قوص الأمير مؤيّد الملك وخُلع عليه ؛ وأمر أن يبنى بقوص دار ضرب ، وجَهّز معه مهندسين وضرّابين وسكك العَيْن والوَرِق ، وعشرين ألف دينار وعشرين ألف درهم

---

(١) الزمع شبه الرعدة تأخذ الإنسان ، والدهش ، والخوف ، وفعله كفرح . القاموس المحيط .

(٢) ديوان الأحباس المقصود به ديوان الأوقاف وكان لا يخدم فيه إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين ، وفيه عدة مديرين وكاتبان معينان لنظم الاستيمارات ، ويسجل فى استيمارة كل ما فى الرقاع والرواتب ، وما يجبى له من جهات كل من الوجهين القبلى والبحرى . والشهود المعدلون طبقة من طبقات أصحاب الوظائف الدينية تسند إليها مهمات محددة مثل وكالة بيت المال والحسبةوحضور مجلس الحكم (القضاء) ، ولا يعدل أحد الشهادة إلا بأمر الخليفة . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٢ — ٤٨٣ ، ٤٩٠ .

فضة ؛ فضربت هناك دنانير ودراهم ؛ وصار كل ما يصل من اليمن والحجاز من الدنانير العَدَنية وغيرها يضرب بها .

وصار ما يُضْرب باسم الآمر فى ستة مواضع : القاهرة ، ومصر ، وقوص ، وعسقلان ، وصور ، والإسكندرية .

وقُرِّر للشيخ أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه بن يوسف ، الإسرائيلى الأصل ، لمّا قَدِم من الأندلس وصار ضيف الدّولة ، جارٍ وكُسْوة شتوية وعيديّة ورسوم[1] ، وأُقْطِع داراً بالقاهرة ، وكتب له منشور نسخته بعد البسملة .

« ولمّا كان من أشرف ما طرّزت السّيرة بقدره ، وأنْفَس ما وشّحت الدول بجميل أثره ، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها ، وإظهارُ المعارف وإيضاح سرّها ، لاسيمّا صناعة الطّبّ التى هى غاية الجدوى والنفع ، ووُرُود الخبر بأنها قرينة إلى الشرع . لقوله صلى الله عليه وسلم : «العلم علمان علم الأديان وعلم الأبْدان » خَرَج أمرُ سيدّنا ومولانا لِمَا يُؤثره بعُلُوّ همّته من إنْماء العلوم وإشهارها ، واختصاص الدّولة الفاطميّة بإحْياء الفضائل وتجديد آثارها ، ليبقى جمالُ ذلك شاهداً لها على مرّ الأيّام ، متّسِقًا بما أفشاه لها من المآثر الجمّة والمفاخر الجسام ، لشيخنا أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه ، أيده الله ، لصرف رعايته إلى شرح كُتُب أبقراط التى هى أشرف كتب الطّبّ وأوفاها ، وأكثرها إغماضا وأبقاها ، وإلى التّصنيف فى غير ذلك من أنحاء العلوم ، ممّا يكون منسوبًا إلى الأوامر العالية ، ورسم التّوفُّر على ذلك والانتصاب له ، وحَمْل ما يكمل أوّلاً أوّلاً إلى خزائن الكُتُب ، وإقراء جميع مَنْ يحضر إليه من أهل هذه الصِّنَاعة ، وعرض من يدّعيها واستِشْفَافِه فيما يُعَانيه ؛ فمن كملت عنده صناعته فَلْيُجْره على رسمه ، ومن كان مقصّراً فلْيَسْتَنْهِضْه . واعتمدنا عليه فى ذلك لكونه مُميزًا فى البراعة فى العُلوم متصرّفًا فى فنونها ، مُقدَّمًا فى بَسْطها وإظهار مكنُونِها ، ولأنّه يبلغ الغرض المقصود فى شرح هذه الكتب ويُوفى عليه ، ويَسْلُك أوضح السُّبل وأسَدّها إليه ، وفى جميع ما شرع له . فليشرع فى ذلك مستعينًا بالله ، مُنْفَسِح الأمل

(١) بهامش الأصل : « وبخطه . أبو جعفر بوسف بن أحمد بن حسديه الإسرائيلى الأندلسى أحد أعلام فضلاء اليهود الأطباء ، أسلم فى القاهرة واختص بالمأمون ، وترجم بعض كتب أبقراط وصنف كتابا فى المنطق ، ومات فى حدود الثمانين . وكان فيه دعابة » . اهـ .

بإنْهاضِنا له ، وجميل رأينا فيه ، بعد ثبوته فى الدّواوين إن شاء الله تعالى . وكتب فى ذى القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة » .

فانْتَصَبَ لِطَالبى علم الطبّ وأقبل أطبّاء البلدين إليه ، واجتمع فى أيدى الناس من أماليه كثير ، وجعل له يومين فى الجمعة يشتغل فيهما ، ويتوفّر فى بقيّة الأسبوع على التّصنيف ، وحمل ذلك إلى الخزائن ؛ واستخدم كاتبين لِتبْييض ما يؤلّفه .

ولمّا أهل ذو الحجّة جرى الحال فى الهناء ومدائح الشّعراء فى القصر بَيْن يدى الخليفة وبالدّار المأمونية على الحال المستقرّة ،واستقبله المأمون بالصّيام ، وأخرج من ماله ما زاد عن المستقرّ فى كلّ عام ، برسم [١٢٦ ا] الأطفال من الفقراء والأيتام ، من أهل البلدين وغيرهم ؛ ولم يتعرّض لطلب ذلك من المميّزين بحكْمِ ما يعَمَلُونه من السّنين المتقادمة . وممّا ابتكره ولم يسبقه إليه أحدٌ أنْ استعمل ميقاط حرير فيه ثلاث جلاجل ، وفتح باب طاقة فى الرّوْشَن من سُور داره ؛ فصار إذا مضى شطر الليّل وانقطع المشىُ طرحت السّلسلة ودُلّى الميقاط من الطّاق ، وعلى هذا المكان جماعة مُبَيّتُون بحقه من المغاربة ؛ فمن حضر من الرّجال والنّساء بتظلّمه سدد قصّة فى الميقاط بيده ويحرّكه بعد أن يقف مَنْ حَضرَهُ على مضْمُونِ الرُّقعة ؛ فإن كانت مرافعَةً لم يمكّنوه من رفعها ، وإن كانت ظُلَامةً مكّنوه من ذلك ويعوّق صاحبها إلى أن يخرج الجواب .

وكان القصدُ بعمل ذلك أنّه مَنْ حدث به ضررٌ من أهل السّتر ، أو كانت امرأة من غير ذات البروز ولا تحبّ أن تظهر ، أو كانت مظلمة فى الليل تتعجّل مضرّتها قبل النهار فلتأت لهذا الميقاط .

وحضرت كسوة عيد النحر ، وفُرقت الرسُوم على من جرت عادته بها ، خارجًا عمّا أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته ، فكان منها سبعة عشر ألفا وستمائة دينار برسم القصور جميعها ،وجملة ما نَحَر وذَبح الخليفة خاصة ، دون الوزير ، فى ثلاثة أيام النحر ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسًا ؛ منها نوقٌ مائة وثلاثة عشر ، وبقر ثمانية عشر رأسا ، وجاموس خمسة عشر ، والبقية كباش ، ومبلغ المصروف على أسمطة الثلاثة

أيام[1] ، خارجًا عن أسمطة الوزير ، ألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا ، ومن السُّكَّر ثمانية وأربعون دينارا .

وعمل عيد الغدير[2] على رسمه . وركب الخليفة إلى قليوب ، ونزل بالبستان العزيزى لمشاهدة قصر الورد[3] ، على العادة المستقرّة والسنة المتقدمةِ ، وفُرّقت الصّدقات فى مسافة الطريق ، وضُربت الخيم ، وقُدّمت الأَسمطة . ثم عاد فى آخر النهار إلى قصره .

وفى هذه السنة سَيّر المأمون وحشيّ بن طلائع إلى صُور ، فقبض على مسعود بن سلار ، واليها لمخالفته ، وأحضره .

وفيها تجهّز الأسطول وسارت المراكب ، فيها خمسة عشر ألف أردب قمحا وأقوات كثيرة ، إلى صور . فلمّا وصل خرج إليه سيف الدولة مسعود واليها من جهة طغتكين ، فلمّا سلّم عليهم سألوه النّزول إليهم ؛ فلمّا حصل فى المركب اعْتُقل ، وأقلع الأُسْطُول به إلى مصر ، فأُكرِم وأُنْزِل فى دار ، وأُطلق له ما يحتاج إليه وسبب القبض عليه كَثْرةُ شكوى أهل صور منه[4] .

وفيها وصل البدل من ثغر عسقلان على العادة .

---

(١) ذكر المقريزى فى المواعظ والاعتبار : أنه كان يقام لعيد الفطر سماطان ولعيد النحر سماط واحد ، ويصف السماط وأنواع الأطعمة المحمولة إليه ، وترتيب الطعام (بروتوكول المـــائدة) وصفا دقيقا . المواعظ والاعتبار : ١ : ٣٨٧ — ٣٨٨ ؛ انظر أيضاً : النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٧ — ٩٨ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٢) استحدثه معز الدولة على بن بويه سنة ٣٥٢ وأصبح منذ ئذ عيدا للشيعة . ويذكرون فى سببه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمسك بيد على بن أبى طالب عند غدير خم — على مسافة ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق — وقال كلاما منه : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . ويحتفل بهذا العيد فى الثامن عشر من ذى الحجة ، يحيون ليلته بالصلاة ، ويصلون صبيحته ركعتين قبل الزوال ، ويلبسون الجديد ويعتقون الرقاب ويقدمون الذبائح ، وأصبح هذا العيد موسما عظيما يحتفل به احتفالا رائعا فى مصر الفاطمية ، وقد أبطله الحاكم بأمر الله مدة ، ثم عاد الاحتفال به إلى روعته وبهائه . المواعظ والاعتبار : ١ : ٣٨٨ — ٣٩٠ ، ٤٩٢ .

(٣) قصر الورد بناحية الخاقانية ، قرية من قرى قليوب كانت من خاص الخليفة وبها جنان كثيرة وعدة دويرات يزرع فيها الورد فيسير إليها الخليفة يوما ويصنع له فيها قصر عظيم من الورد ويخدم بضيافة عظيمة . المـــواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٨ .

(٤) يقول ابن القلانسى : والسبب كان فى هذا التدبير أن شكاوى أهل صور تتابعت إلى الآمر بأحكام الله والأفضل بما يعتمده مسعود مع الرعية من الأضرار لهم والمخالفة للعادة الموافقة لهم ، فاقتضت الآراء التدبير عليه وإزالة ما كان من الولاية إليه ، وكانت عاقبة خروجه منها وسوء التدبير فيها خروجها إلى الفرنج وحصولها فى ملكهم . ذيل تاريخ دمشق : ٢٠٧ والمعروف أن مسعودا كان يتولاها بتعيين ظهير الدين طغتكين — صاحب دمشق — فيها تعيينا موقتا حتى يتمكن الفاطميون من إحكام سيطرتهم عليها وتوفير الحماية لها ضد الفرنج ، وقد أقر الفاطميون هذا التعيين حتى حدث ما حدث فى هذا العام .

سنة سبع عشرة وخمسمائة[1]

فى غُرّتها عمل برسم أول العام[2] ، ثم حزن عاشوراء[3] ، فالمولد الآمرى على ما جرى به الرّسم . وخُلِع على المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبى تراب حيدرة ، أخى الوزير المأمون، ببدلة مذهبة خاصّ من لباس الخليفة ، وطوق ذهب ، وسيف ذهب بغير منطقة ، وشُرِّف بتقبيل يد الخليفة فى مجلسه ، وسُلِّم إليه تقليد فى لفافة مذهبة بولاية الإسكندرية والأعمال البحرّية ، وشُدَّت له الأعلام القصب والفضة والعمّاريات[4] ، وحمل بين يديه الأكْيَاس برسم التفرقة . وحجبه الأمراء والأستاذون ، وقبّل أبواب القصر ، ومضى إلى داره ، وأُطْلق له من ارتفاع ثغر الإسكندرية على الولايتين فى الشهر خمسمائة دينار .

وثار اللّواتيُّون وغيرهم بالصّعيد الأدنى ، وقتلوا زين الدّولة علىّ بن تُراب الوالى ، وعاثوا فى البلاد وأفسدوا . فخرج إليهم المؤتمن أخو الوزير وتاج الدّولة بهرام زنان[5] الأرْمن فى عدّة وافرة ، فانهزموا بين يديه ، وأحاط بما خلّفوه من المواشى .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها أول شهر مارس سنة ١١٢٣ .

(٢) كان الفاطميون يحتفلون بأول العام الهجرى احتفالا رائقا تمد فيه الأسمطة الحفلة بأنواع المطعومات والمشروبات والحلوى ، وتوزع فيه على أمراء الدولة ورجالها المنح المحددة لكل منهم طبقا لترتيب خاص ، ويخرج الخلفاء فى هذه المناسبة فى مواكب رسمية بنظام بالغ الروعة يشترك فيه الجيش والشرطة والقضاة والدعاة ورجال القصر وموظفو الدواوين . وتجد وصفا تفصيليا لهذا فى : صبح الأعشى : ٣ : ٤٩٩ — ٥٠٥ ، النجوم الزاهرة : ٤ : ٧٩ — ٩٤ .

(٣) كان الفاطميون – كبقية الشيعة – يجعلون من العاشر من المحرم يوم حزن وبكاء وعويل ، إذ أنه يوافق اليوم الذى استشهد فيه الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وفى هذه الذكرى يحتجب الخليفة الفاطمى عن الناس ويلبس الدعاة والقضاء ورجال الدولة ملابس الحزن ويحضرون المـأتم الذى كان يعمل أولا بالجامع الأزهر ثم صار يقام بالمشهد الحسينى ، وينتقل الوزير والمحتفلون إلى القصر فيجدون الدهاليز قد فرشت بالحصر والبسط ، ويفرش وسط قاعة الذهب بالحصر المقلوبة. وتقدم أطعمة الحزن ومنها العدس والملوحات والمخللات والعسل والخبز المغير لونه قصداً لأجل الحزن . ويظل النوح قائما فى جميع شوارع القاهرة وحاراتها ؛ وأزقتها . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣١ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٥٣ — ١٥٤ .

(٤) العماريات بتشديد الميم بعد العين المهملة المفتوحة نوع من الهوادج ، النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٠ ، وكذلك : Doszy; Supp. Dict. Ar.

(٥) الزنان أو الزمام . يقول القلقشندى : الزنان دار المعبر عنه بالزمام دار لقب الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام الخصيان . وهو مركب من لفظين فارسيين : زنان بفتح الزاى بمعنى النساء ، ودار بمعنى ممسك إلا أن العامة والخاصة قلبوا النونين ميمين ظنا منهم أن الدار بمعناها العربى ولعل المقصود هنا : القيم على شئون الأرمن أى مقدمهم . انظر صبح الأعشى : ٥ : ٤٥٩ — ٤٦٠ .

وبلغه نزول مراكب الرّوم والبنادقة ، وهى بضعٌ وعشرون مركبا ، على الإسكندرية ، فبادر إليها (المؤتمن)[1]؛ فلمّاشاهده العدوّ أقلع، فأخذ منهمعدة قطع. وقدِم على المؤتمنمشايخ الّلواتيِّين والتزموا بحمل ثلاثين ألف دينار فى نظير جنايتهم ، وأن يعفى عنهم ؛ فأجابهم الوزير إلى ذلك ؛ وحمل المال مع الرهائن .

وكان المؤتمن لمّا قدم إلى الثّغر خيّم بظاهره ، وقبل من القاضى مكين الدّولة أبى طالب أحمد [١٢٦ ب] بن الحسن بن حديد بن أحمد بن محمّد بن حمدون ، المعروف بابن حديد ، متولىّ الأحكام والإشراف بها ، ما حمله إليه على حكم الضيافة ثلاثة أيّام ، ثم أمره بإنفاقها بعد ذلك إلا ما يقتضيه رسمه خاصّة . وأظهر كتاب أخيه الوزير بأنّ الغلال بالثغر وأعمال البحيرة كثيرة ، وكذلك الأغنام مع قطيعة العربان ؛ فمهما دعت الحاجة إليه برسم أسمطة العساكر يُحمَل ويُسَاق ، وتُكْتَب به الوُصُول على ما جرت به العادة . وأمره ألا يقبل من أحدٍ من التجار ضيافة ولا هدّية.

وأظهر كتابًا آخر إلى مكين الدّولة بأن يُطْلق فى كلّ يوم من ارتفاع الثغر من العين ما يُبْتاع به جميع ما يُحتاج إليه من الأصناف برسم الأسمطة للعساكر . وكان يستخدم عليها من يراه من الشهود .

وكان تُجار الثغر قد حملوا ثلاثة آلاف دينار فأبى المؤتمن قبولها[2] ، وأمر بإعادتها إلى أربابها ؛ فأخذ مكين الدّولة يتلطّف فى أن يكون عوض ذلك طُرَفًا وطيبا ؛ فأقسم أنه لا يقبل منهم شيئا . واستمرت الأسمطة فى كل يوم ؛ ولم يقبل لأحد هديّة .

واتّفق أنّ المؤتمن وصَف له الطبيب دهْنَ شمع والقاضى مكين الدّولة حاضر ، فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضىّ إلى داره ليُحضر الدّهن المذكور ، فلم يكن أكثر من مسافة الطريق حتّى أحضر صرًّا مختومًا فلكّ عنه ، فوُجد فيه منديلٌ لطيف مجاوم مذهب على مداف[3] بلّلور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قتد ذهب مشبكة مرصّعة بياقوت وجوهر؛

(١) زيد ما بين الحاصرتين للتوضيح . ذلك أن المؤتمن رحل إلى الإسكندرية عقب فراغه من معركة اللواتيين .

(٢) فى الأصل : فأبى المؤتمن من قبولها .

(٣) داف الدواء وغيره يدوفه بله بماء أو غيره فهو مدوف ومدووف ، ومسك مدوف أى مبلول وقيل مسحوق . مختار الصحاح .

بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بغير طيب ، ولم يكن فيه شئ مصنوع لوقته . فلمّا رآه المؤتمن والحاضرون (عجبوا)[1] من علوّ قيمة القاضى وجليل رئاسته وسعة نفسه ؛ وحلف (القاضى)[2] الحزام إن عاد إلى ملكه . فقال المؤتمن ؛ قد قبلتُه منك ليس لحاجةٍ إليه ، ولا نظرٍ فى قيمته ، بل لإظهار هذه الهمّة وإذاعتها . وذكر أن قيمة المدّاف المذكور خمسمائة دينار .

وخلع المؤتمن على القاضى بذلة مذهبة بطيلسان مقور وثياب حرير ، وقدّم له دابّة بمركب حلى ثقيل ؛ ثم خَلَع عليه فى اليوم الثانى والثالث كذلك . وخَلَع على أخيه حلّتين مكلّلتين مُذَهبتين ورزمة فيها شقق حريريّة ممّا يختصّ بالنساء . وأنعم على كلّ من حواشيه وأصحابه .

وعاد إلى القاهرة ، فمدحه عدّة من الشعراء .

وورد رُسُل ظهير الدّين طغتكين ، صاحب دمشق ، وآق سنقر ، صاحب حلب[3] ، بالحثّ على غزو الفرنج ، وكبيرهم علىّ بن حامد ، الحاجب . فلمّا وصلا باب الفتوح ترجّلاَ وقبّلاه ، ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك ؛ وأُوقِفا عند باب البحر[4]

---

(١) زيد مابين القوسين لأن السياق يقتضيه أو نحوه .

(٢) زيد مابين القوسين للتوضيح .

(٣) كان صاحب حلب فى هذه السنة بلك بن بهرام بن أرتق ، تملكها بعد أن حاصرها وبها ابن عمه بدر الدولة سليمان بن أرتق الذى سلمها إلى الأمير بلك بعد أن طال حصارها وتبين عجز بدر الدولة عن حمايتها . وقد بقى بها بلك ابن بهرام حتى قتل فى سنة ٥١٨ ليتولاها ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق . وبهذا يتبين أن آق سنقر ، المذكور فى المتن، لم يكن صاحب حلب والواقع أنه كان يتولى الموصل وما يقرب منها من بلاد الجزيرة وكانت واسط من إقطاعه أيضا ، ومن رجاله الذين كان يعتمد عليهم عماد الدين زنكى بن آق سنقر الذى كان يتولى حلب وقتل صبرا فى حرب ضد تاج الدولة تتش سنة ٤٨٧ . ويتضح من هذا أيضا أن آق سنقر صاحب الموصل فى هذه السنة ، ٥١٧ ، والذى قتل سنة ٥٢٠ بالموصل بهجوم جماعة من الباطنية عليه لم يكن هو صاحب الرسالة إلى القاهرة . ويقول ابن القلانسى ، تأكيدا لهذا « وفى شهر رمضان من السنة توجه الحاجب على بن حامد إلى مصر رسولا عن ظهير الدين أتابك » . وقد تقدم آق سنقر نحو حلب فى السنة التالية عندما حضرها الفرنج فرحلوا عنها فأصلح أحوالها وأمن أحوالها . الكامل : ١٠ : ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ؛ الباهر : ٢٤ ، ٢٧ ، ٣١ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ .

(٤) من أبواب القصر الغربية ، وهو من بناء الحاكم ، سمى بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه عندما يقصد التوجه إلى شاطئ النيل عند المقس . وموضعه اليوم تجاه المدرسة الكاملية بمدخل حارة بيت القاضى بشارع بين القصرين . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣٣ — ٤٣٤ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٣٥ حاشية : ٦ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٤٦ .

قَبْرَ ما جلس الخليفة . فجهزّ عسكرٌ فى البرّ مقدّمه حسام الملك النرسى،وسار الأسطول فى أربعين شِينِيًّا فوصلوا إلى عسقلان، وخرجت الغارات وعادت بالغنيمة .

فاجتمعت طوائف الفرنج ، وكُتِب إلى حسام الملك أن يقيم بالثغر ، ويَلْق الفرنج عليه ولا يتعدّاه ، فخالف ذلك ، وتوجّه مُخِفًّا بغير ثقل ونزل على يافا فَقَتَل وأسر ..فعندما قصده الفرنج رحل وهم يتبعونه حتى وافى تُبْنَى[1] فلقيهم هناك ، فانهزم العسكر من غير قتال ، وقُتِل الرّاجل بأسره ، وعاد من بقى مهزوما إلى عسقلان .

ووصل الخبر بذلك فأَهَمَّ الآمر والمأمون ، واشتد الحنق على حسام الملك لسوء تدبيره ؛ فآل أمره بعد أمور إلى أن قتل .

فيها خرج أمر المأمون إلى الوالِيَيْنِ بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيّشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلاً ونهارًا . ولذلك أُلزِم أصحاب القرب وتقرّر أن يبيتوا على باب المعونة ومعهم عدّةٌ من الفعلة بالطّوارى والمساحى ، وأن يقوما لهم بالعشاء من أمْوالهما[2] .

وعمل بعض التجّار لابنته فرحا فى إحدى الآدر المعروفة بالأفراح ، فتسوّر مُلاّك الدّار على النّساء وأشرفُوا عليهن والعروس فى المجلى ، فأُنكر عليهم ذلك ، فأساءوا وأفسدوا على الرّجل ما صنعه ؛ فخرج مستغيثا ، فخشوا عاقبة فِعْلهم ؛ فما زالوا به حتى كفّ عن شكواهم . فلما حضر[3] والِى مصر بالمطالعة فى الصباح إلى الوزير على عادته ، قيل له : لِمَ لا ذَكَرْتَ فى مطالعتك ما جرى للتّاجر الذى عمل فرح [١٢٧ ا] ابنته؟فاعتذر بأنّ المرسُومَ له ألا يذكر ما يخرج عن السّلامة والعافية ولم يتّصل به ما جرى فى الفرح . فأسمعه ما أمضّه ، وبيّن عجزه وتقصيره ، وقال له ، والسّلامة والعافية أن يُخرج بالرّجل ويُهان وتُنتهك حُرْمتُه ولا يجد ناصرًا !! .

---

(١) بالضم ثم السكون فالفتح ، مقصورة : بلدة بحوْران من أعمال دمشق . معجم البلدان : ٢ : ٣٦٤ .

(٢) القائمان بالعشاء المذكوران والِيا القاهرة ومصر . وسيتبين بعد أسطر أن الواليين استخدما السقائين سخرة بغير أجرة ، فقرر المأمون لهم أجرا محددا .

(٣) فى الأصل : حضروا . والمثبت هنا أولى . أو لعل المقصود : فلما أحضروا ، فسقطت الألف المهموزة من الناسخ .

فرسم بإحضار شاهدين ومهندسين ، وتوجّهوا إلى سائر الدُّور المختصّة بالأفراح وإحضار مُلاّكها ، فمن رغب فى استمرار ملكه على حاله فَلْيزل التطرُّق إليه ويُكْتَبِ عليه حجّة بالقسامة بذلك . ومن لم يرغب فلتؤخذ عليه الحجة بألا يوجد ملكه للأفراح ويتصرف فيه على ما يريد . فامتثل ذلك .

وجرى الرسم فى عمل المولد الكريم النبوىّ فى ربيع الأوّل على العادة .

وكتب لجميع الأعمال ، خَلاَ قوص وصور وعسقلان ، بمطالعة كلِّ والٍ منهم فى مستهلّ كلّ شهر بمن حَواهُ السّجن والموجب لاعتقاله ، ويبيّن كلٌّ منهم ذلك ويعتمد فيه الحقّ . وسبب ذلك أنّه رُفع إلى المأمون أنّ بعض الولاة يعتقل من لا يجب عليه اعتقال ، لطلب رشوة ، فتطول مدّته .

وفيه قُررّ برسم رَش ما بين البلدين ، مصر والقاهرة ، فى كلّ يوم من اليومين اللّذيْن يركب فيهما الخليفة ممّا يصرف للسّقائين دينار واحد ؛ فاستمرّ ذلك يُطلق لهم إلى الأيام الحافظيّة . وكان سبب إطلاق هذا القدر أنه رُفع للوزير المأمون أنّ وَالِيَ القاهرة ومصر يأخذان جميع السّقّائين أرباب الجِمَال والدّوابّ لِرَش ما بين البلدين سُخْرةً بغير أجرة .

وفى جمادى الآخرة أعيد ثغرُ صور إلى ظهير الدّين طغتكين ، صاحب دمشق ، وكُتِب له بذلك ، وفُخِّم فيه وعُظِّم ، ونُعِت بسيف أمير المؤمنين[1] ؛ وجهّزت إليه الخلعة ، وهى بدلة طميم منديلها[2] طوله مائة ذراع شرب ، فيه ثمانية وعشرون ذراعا مرقومة بذهب عراقى ، وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقى ، سلف المنديل والثوب ألف دينار ، وثوب دبيقى وسطانى ،

---

(١) يذكر ابن القلانسى أن والى صور اللى أرسله الفاطميون ليخرج منها مسعودا ممثل ظهير الدين طغتكين ، النائب بها ، عجز بعد إخراج مسعود عن حمايتها ، فكاتب طغتكين وكاتب الخليفة الآمر الذى أعادها إلى طغتكين ، فندب هذا جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهم ولا شهامة ، ففسد أمرها وتمكن الفرنج من حصارها ، واضطر طغتكين إلى تسليمها بحيث يؤمن كل من بها . فخرج كافة العسكرية والرعية ، ولم يبق إلا ضعيف لا يطيق الخروج ، وذلك فى اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى فى هذه السنة : ٥١٨ . ذيل تاريخ دمشق : ٢١١ .

(٢) يجعل المنديل — عادة — فى المنطقة المشدودة فى الوسط . وجرى العرف واصطلاح الملوك على البعث به فى الأمانات ، كالخاتم سواء بسواء . ولم يكن المنديل من آلات الخلافة . ويقال إنه كان للأفضل الجمالى مائة بدلة معلقة على أوتاد من ذهب على كل بدلة منها منديل من لونها . صبح الأعشى : ٢ : ١٣٢ .

وثوب سقلاطون[1] دارى ، وثوب عتابى ، وشاشية دبيقى ، ولفافة ؛ وجميع ذلك فى تخت مُبَطَّن عليه لفافة دبيقى ؛ وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه . وجهّز لأمين الدولة جمشتكين ، صاحب صلخد[2] ، بذلة مذهبة ومنديلها ، وعدّة ثياب ، وغيرها .

فى شعبان وصلت الأساطيل بمن فيها سالمين ، وقد غنموا بشينيين من شوانى الفرنج وبطشة كبرى[3] ، وعدة من النساء والرّجال[4] . وذُكِر للمأمون أنّ الأسرى المذكورين يُؤخذ منهم فى الفداء ما يزيد عن عشرين ألف دينار عينا ؛ فقال : والله لا أُبقى منهم أحدا ؛ قد قُتِل لنا خمسمائة رجل يساوون مائة ألف ، وقد أظفر الله بما يكونُ ديةً عنهم ؛ لا يشاع عنا أنّا بعْنا الفرنج وربحنا أثمانهم عوضا عن رجالنا .

وركب الخليفة بما جرت به العادة ، واصطفت العساكر بالعدد والأسلحة ؛ وعاد ، وخلع على الأمراء وعلى زمام الأسطول والرّؤساء .

وحضرت الحجّاب ، المندوبين لقتل الفرنج ، بأنهم لمّا شاهدوا الحال بذلوا فى خَلَاص أنفُسهم ثلاثين ألف دينار ، وأنه يُرْجى منهم أكثرُ من ذلك ؛ فكتب الجواب بالإنكار وإمضاء السّيف فيهم ؛ فقُتِل الرجال بأسْرِهم وقد اجتمع الناس وضجّوا بالتّهْليل والتكبير عند قتلهم ، فكان أمرًا مَهُولاً . وقد ذكر هذا اليوم عدّة من الشعراء .

وجرى الرسم فى أسمطة شهر رمضان ، والرّكوب إلى الجمع ، وفى كسوة غرّة شهر رمضان على العادة .

---

(١) السقلاطون الملابس الحريرية الفاخرة الملونة بالألوان القرمزية وغيرها . وهو اسم بلد بأرض الروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٠ : حاشية : ٦ . وكان هذا النوع من الملابس يصنع أيضا بتبريز وبغداد . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٢ .

(٢) المقصود بها مدينة صرخد التى تلاصق بلد حوران ، من أعمال دمشق . معجم البلدان : ٥ : ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٣) البطشة سفينة حربية كبيرة كانت تستخدم فى نقل مهمات الحرب وذخائرها وميرة الجنود ، وقد تحمل من ٣٠٠ إلى ٧٠٠ مقاتل . مفرج الكروب : ٢ : ٧٧ : حاشية : ١ . والشينى ، ويسمى الغراب مركب حربى له مائة وأربعون مجدافا وفيه المقاتلة والجدافون . قوانين الدواوين : ٣٤٠ . وفى أنواع سفن الأسطول انظر قوانين الدواوين : ٣٣٩—٣٤٠ ، ٤٥٣ — ٤٥٤ ، ٤٥٦ ؛ وصبح الأعشى : ٣ : ٥١٩ — ٥٢٠ .

(٤) يذكر ابن القلانسى فى حوادث هذه السنة التقاء أسطول مصرى بأسطول البنادقة ونشوب حرب بين الجانبين انتهت بانتصار البنادقة وأسر عدة قطع من الأسطول المصرى . ويروى ابن الأثير هذه الحادثة بنفس الصورة . ذيل تاريخ دمشق : ٢٠٩ ؛ الكامل : ١٠ : ٢٢٠ .

وفيه سيّر هلالَ الدّولة سوارًا رسولاً إلى حُرّة اليمن[1] وصُحْبَته برسمها من التشريف مما لبسه الخليفة ومَا زَج عَرَقَهُ من الحلل المذهبات والملاءات الشرب المذهبة والشقق النَّفُوسى والمغربى المقصور والإسكندرانى المطرّز جملة كثيرة فى تُخوتٍ مدهونة مُبَطّنة ، وسلالٍ مملوءة من لحم النّاقة التى نحرت بالمصلّ ، واثنى عشر مجلسًا من المساطير[2] التى تُقرأ كلّ خميس وعليها علامة الخليفة ، وكثير من النحاس القضيب والمرجان . وكتب إليها كتابا فى قطع الثُّلُثَين[3] أوله :

« من عبد الله [١٢٧ ب] ووليّه المنصور أبى على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ، ابن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين ، صلى الله عليهما ، إلى الحرّة الملكة السّيدة الرَّضِية ، الطاهرة الزّكيّة ، وحيدة الزّمن ، سيِّدة ملوك اليمن ، عُدّة الإسلام ، خالصة الإمام ، نصيرة الدّين ، عِصمة المسترشدين ، كهف المستجيرين ، وَليّة أمير المؤمنين وكافية أوليائه الميامين ، أدام الله تمكينها ونعمتها ، وأحْسَن توفيقها ومعونتها » .

وفى آخره : « وأمير المؤمنين متطلع إلى علم أخبارك ، ومعرفة أنبائك ، فَتَواصَلِى بإنهاء المتجدّد منها إن شاء الله . والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته » . ويطوى مدوّرًا ويختم بحرير وأشرطة ذهب وعنبر ويجعل فى خريطة .

فيه قرئ بالجامع العتيق منشور ، نسخته بعد التّصدير :

---

(١) واسمها سيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى ، مولدها سنة أربعين وأربعمائة . كانت كاملة المحاسن قارئة كاتبة تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ ، تزوجت المكرم أحمد بن على الصليحى الذى استروح إلى السماع والشراب ففوض الأمر إلى زوجته ، الحرة ، التى استبدت بالأمر ، وكان لها نشاط كبير فى البلاد اليمنية . لقبها المستنصر : « السيدة الرضية الذكية ، وحيدة الزمن ، سيدة مأوى الزمان ، عمدة الإسلام ، ذخيرة الدين ، عصمة المسترشدين ، كهف المستجيرين ، ولية أمير المؤمنين ، كافلة أوليائه الميامين » . وهذا يتفق مع الألقاب التى وردت بالمتن فى كتاب الخليفة الآمر إليها مع بعض الاختلاف . راجع أخبارها فى تاريخ اليمن للفقيه الشاعر عمارة اليمنى .

(٢) المجلس اصطلاح فاطمى يطلق على الكراسة التى تكتب فيها دروس الدعوة لتلقى على المريدين المؤمنين بالمذهب الفاطمى وكان داعى الدعاة يعد هذه المجالس ويوقع عليها الخليفة لاعتمادها ، ثم تدفع إلى الدعاة لتلاوتها فى الأيام المحددة لذلك . وكانت المجالس تتفاوت فى محتوياتها تبعا لتفاوت من تكتب لهم رجالا أو نساء ، مؤمنين من القدماء أو مريدين من المستجدين . انظر فى ذلك : المواعظ والاعتبار ؛ الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ؛ وغيرهما .

(٣) قطع الثلثين من الورق المصرى ، والمراد به ثلثا الطومار . وعرض درجه ثلثا ذراع بذراع القماش المصرى أيضا . ويستعمل فى العادة فى كتابة منشورات الأمراء المقدمين وتقاليد الوزراء والنواب الكبار وأكابر القضاة ومن فى معناهم . والطومار المشار إليه هو قلم الطومار ، قدر الكتاب مساحة عرضه بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون . صبح الأعشى : ٣ : ٥٣ — ٥٤ ، ٦ : ١٩٠ .

« بأنّنا لم نَزَلْ منذ ناطت بنا الحضرة المطهرة ، صلوات الله عليها ، الأمور ، وعَوَّلت على كفايتنا فى سياسة الجمهور ، وردّت إلينا النظر فيا وراء سرير خلافتها ، وفوّضت إلى إيالتنا من مصالح دولتها ، وعبيدها ورَعيّتها ، فى محاسنِ الأفعال ناظرين ، وعلى بَسْط العدل والإحسان على الكافّة مُتَوفّرين ، وبحُسْن توفيق الله تعالى لنا واثقين ، وبمراشده الهادية مُسْترشدين ، فلا نَدعُ وجهًا من دعوة البرّ إلاّ قصدناه ، ولا بابًا من أبواب الخير إلاّ ولجناه ، ولا نعلم أمرًا فيه قُرْبى إلى الله سبحانه إلا وتقع المرتبة إلاّ أتيناه ، ولا شيئًا يعودُ بثواب الله وحُسْن الأحدوثة إلاّ اعتمدناه ؛ شيمة خصّنا الله تعالى بميزتها ، وسجيّة أسبغ علينا جلاليب أمنها وسعادتها ؛ وعملاً فى ذلك بشريف آراء الحضرة المطهرّة ، صلوات الله عليها ، وجميل سيرتها ، واستمرارًا على منهج الدولة الزاهرة ، خلّد الله ملكها ، وكريم عادتها ، وذهابًا فى ذلك مع سجيّتها الحسنى ، ونشرًا لأرج ذكرها فى الأبعد والأدنى . والله تعالى المسئول أن يعيننا على مصالح الدنيا والدّين ، ويقضى لنا بالفوز المبين ، ويصلح لنا وبنا كلّ فاسد ، وينظم لنا عقود السُّعود والمحامد بمنّه . ولمّا كان أحسن ما تُطرّز به محاسنُ السّير ، وتتناقل ذكره ألسنة البَدْوِ والحضر ، وتجنى ثمرته فى الدّنيا والآخرة ، وتُحمد مغبّته فى العاجلة والآجلة ، التقرّب إلى الله تعالى فى كلّ أوان ، وابتغاء ثوابه فى كلّ زمان ، لا سيمّا شهر رمضان ، الذى تَزْكُو فيه أفعال البرّ والصّلاح ، وتتضاعف فيه الحسنات فى الغُدوّ والرّواح ؛ رأينا ما خرج به أمرنا من كَتْب هذا المنشور بمسامحة كافّة سكان الرّباع السلطانيّة[1] بالقاهرة ومصر من الأدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والأَخْوِنَة والطواحين والعرس ، وجميع ما يجرى فى الرّباع خارجًا من ريع الأَحْبَاس وريع المواريث المنصرف مستخرج ارتفاعها فيا يجرى هذا المجرى من وجوه البرّ ، بأجرة شهر رمضان من كلّ سنة ، لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وما بعدها ، إحسانا يسير ذكره كلّ مسير ، وتعظيمًا لحرمة هذا الشهر العظيم الخطير ، الذى فضله الله على جميع الشهور ، وأنزل فيه قرآنه المجيد ، وفرض صيامه على أهل التوحيد ؛ وحضّهم فيه على الأفعال المزلفة لديه ،

(١) الرباع منها ما ألشىء من مال الديوان السلطانى قديما وهى الرباع السلطانية ، ومنها ما قبض عمن يوجبه عليه حق السلطان ، ومنها ما قبض عن الأجناد . وقد تخصص أكثرها وقفا على السور والخانقاه والبيمارستان والبيع ونحوها . وسنتها المالية هلالية ، اثنا عشر شهرا . قوانين الدواوين ؛ ٣٤١ .

ووَعَد مَنْ عمل فيه خيرًا بمضاعفة الجزاء عليه . فليُعْتَمد العمل بما تضمّنته هذا المنشور ، وحطيطة أمره شهر رمضان عن جميع سَكان الربع المذكور لاستقبال التاريخ المقدّم منسُوبًا ذلك إلى القُرَب الصّالحة والتّجارة الرّابحة ، ويفسح فى جميع الدّواوين حجّة بمودعه ، وليُجلَّدْ بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر ، منعًا لمن يروم المُطُول فيه ، أو يَفُضّ شيئا من وصفه ، إن شاء الله » .

فلمّا قرئ هذا المنشور ضجّ العامّة بالدعاء ونظم فيه عدّة من الشعراء

وجرى الرّسم فى وصول كسوة العيد ، وهى العدّة الكثيرة ، وتفريقها على العادة . وعُمِل الختم فى آخر الشهر بالقصر والجوامع والمساجد، وحصل الاهتمام بالعيد، وركب الخليفة إلى المصلّ على العادة ، وصلّ بالناس صلاة العيد ، وخطب ، وحضر السّماط .

وجرى الحال فى يوم عاشوراء ، وفى المولد الآمرى ، على المألوف .

فيه كان المولد العيسوى ، ففرّق ما جرت به [١٢٨ ا] العادة من الجامات القاهرية والجامات السّميذ ، وقرابات الجلاب وطيافير الزّلابية، والبورى ، على أصحاب الرسوم . وعُمِل فى شهر ربيع الأول المولد الكريم ، وفرّق المال على الرّسم .

وفيها وصل رسول الأمير تاج الخلافة أبى منصور حسن بن على بن يحيى بن تميم بن معز ابن باديس[١] ، صاحب المهدية ، يخبر بانحيازه للدولة ، وأنّ رُجَار بن رُجَار[٢]، صاحب صقلية تواصلت أذيّته وقد استعدّ لمحاربته ؛ وسأل أن يسير لرجّار بمنعه من ذلك . فسيّر إليه مصطنع الدّولة على بن أحمد بن زين الخد ، فأصلح بينهما .

وفيها نقل المأمون الرّصَد من الجبل المطلّ على راشدة إلى علو باب النّصر بالقاهرة .

وفيها تُوفى ولىّ الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعى الدّعاة، فاستقرّ عوضه أبو محمدّ

---

(١) يلقبه زامباور بأبى يحيى ؛ ثامن أمراء بنى زيرى الذين شمل نفوذهم صنهاجة والمغرب الأوسط واتخذوا القيروان حاضرة لهم ، وأصبحت المهدية العاصمة الفاطمية التى أنشأها عبيد الله المهدى داخلة فى نطاق أعمالهم . تولى أبو يحيى هذا سلطاته سنة ٥١٥ (١١٢١) ، وعندما نجح الموحدون تحول أبو يحيى هذا إلى النيابة عنهم فى المهدية من سنة ٥٥٥ (١١٦٠) . معجم الأنساب : ١٠٩ — ١١١ .

(٢) روجر الثانى المعروف بروجر العظيم Roger the Great . تولى صقلية بين سنتى ٥٠٧ — ٥٢٤ (١١١٣ — ١١٢٩) . دائرة المعارف البريطانية .

حسن بن آدم ، وكان يدعى بالقاضى لأبوته وسنّه واشتهاره بالعلم. فبعث الآمر بأحكام الله إلى الوزير المأمون أن يستخدم أبا الفخر صالحاً، فذكر المأمون أن أكثر المجالس التى كانت تعمل فى أيام النّعمان بخط أبيه، وأنّ أبا الفخر حدث السّنّ ولا يماثل المذكور فى العلم، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع قراءته الكتب .

وورد الخبر بأنّ الفرنج افتدوا بغدوين رويس الملك بثمانين ألف دينار وثلاثين أسيراً من المسلمين . وكان صاحب حلب قد أسره فى وقعة له مع الفرنج[1] .

وعُمِل ما جرى به الرسم فى مواسم السنة .

وفيها جرت عمارة سور الإسكندرية .

وفيها حُمِل إلى عسقلان ثلاثة وعشرون ألفا وستمائة وأحد وثلاثون إردبا من الغلال .

(١) صاحب حلب فى هذه المناسبة بلك بن بهرام بن أرتق . وقد نجح فى أسر بلدوين ملك القدس وجوسلين صاحب الرها وجماعة من أمراء الفرنج ومقدميهم عندما حاولوا مهاجمة حلب فى غيبة الأمير بلك صاحبها واعتقلهم بقلعة خرتبرت . وقد فر بلدوين من الأسر – كما يقول ابن القلانسى وابن الأثير – باستمالة بعض الجند الذين يسروا له امتلاك القلعة ثم الفرار منها . ذيل تاريخ دمشق : ٢٠٩ – ٢١٠ ؛ الكامل : ١٠ : ٢١٨ . وهذا يختلف عما ورد بالمتن من أن الفرنج افتدوا بلدوين بالمبلغ المذكور .

سنة ثمان عشرة وخمسمائة (١)

فيها ملك الفرنج مدينة صور ، واستمرّت بأيديهم حتى زالت الدولة الفاطميّة . وكان أخذُهم إياها بعد محاصرتها مدة ، وتقاصر المأمون عن نجدتهم ، وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ، ووصل إلى بانياس وراسل الفرنج ؛ فاستقرّ الأمر على أن الفرنج تستولى عليها بالأمان ، فخرج أهلها بما خَفّ حملُه ، وتفرقوا فى البلاد . وكان تملّكُهم لها فى يوم الاثنين ثالث عِشْرِى جمادى الآخرة(٢) .

وفيها أمر ببناء دارٍ واسعة ليتفرّج النّاس فيها عند كَسْرِ خليج القاهرة بالكِراء . وذلك أنّ الناس عند كسر الخليج(٣) كانوا يصنعون أخشابًا مُتراكبَةً بعضها على بعض ، يجلسون فوقها للتفرُّج يوم كسر الخليج ، ولم يكن هناك غيرُ دار الأمير أبى عبد الله محمد بن المستنصر ودار ابن معشر . ولم تزل هذه الأُدر الثلاثة إلى أن احترقت فى نوبة شاور(٤) .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع عشر من فبراير سنة ١١٢٤ .

(٢) « ووقف أتابك بعسكره بإزاء الفرنج ، وفتح الباب ، وأذن للناس فى الخروج ، فحمل كل منهم ما خف عليه وأطاق حمله وترك ما ثقل عليه ، وهم يخرجون بين الصفين وليس أحد من الفرنج يعرض لأحد منهم بحيث خرج كافة العسكرية والرعية ولم يبق منهم إلا ضعيف لا يطيق الخروج فوصل بعضهم إلى دمشق وتفرقوا فى البلاد » . ذيل تاريخ دمشق : ٢١١ .

(٣) يحتفل بكسر الخليج فى اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق . ومما يحدث فى يوم التخليق أن يسير العشارى الذى يركبه الخليفة فى النيل من المنظرة المعروفة بزواق الملك إلى باب المقياس العالى على الدرج ، فيطلع من العشارى ويدخل إلى الفسقية التى فيها المقياس ، والوزير والأستاذون المحنكون بين يديه ، ويصلى هو والوزير ركعتين كل منهما بمفرده ، ثم يؤتى بالزعفران والمسك فيتناوله صاحب بيت المال ويعطيه لابن أبى الرداد ، فيلقى بنفسه فى الفسقية بثيابه ، فيتعلق بالعمود برجليه ويده اليسرى ويخلقه (يطيبه) بيده اليمنى والقراء يقرءون القرآن . ثم يخرج الخليفة إلى العشارى فيركبه إلى دار الملك ومنها يركب إلى القاهرة . وفى كسر الخليج — بعد ثلاثة أيام أو أربعة تنصب الخيمة الكبيرة المعروفة بالقاتول للخليفة فى البر الغربى عند منظرة السكرة وحولها الخيام المختلفة الأحجام على قدر مراتب الأمراء والمتفرجين . ثم يركب الخليفة فى موكبه العظيم الكامل الأبهة والمراسم حتى ينتهى بعد زيارات متتابعة إلى منظرة السكرة بقرب الخيام المنصوبة . . . ويطل أستاذ محنك فيشير بيده بفتح السد فيفتح بالمعاول وتضرب الطبول والأبواق من البرين . ثم ينصب السماط ، ثم تتهادى العشاريات اللطاف ووراءها العشاريات الكبار فى الخليج بعد اعتدال الماء فيه . . . ثم يعود الخليفة بعد صلاة العصر إلى قصره بالموكب المعتاد . صبح الأعشى : ٣ : ٥١٢ — ٥١٧ .

(٤) وذلك عند إحراق الفسطاط فى سنة ٥٦٤ لمواجهة هجوم الفرنجة بقيادة أملريك الأول ، ملك بيت المقدس ، فى النوبة التى انتهت بمقتل شاور ووزارة شيركوه ، عم صلاح الدين الأيوبى .

فيها مات بألموت الحسن بن صباح كبير الإسماعيلية . وقد تقدّم أنه ورد مصر فى أيّام المستنصر وسار إلى المشرق بدعوته ، واستولى على قلعة ألموت واعتقد إمامه نزار بن المستنصر ، وأنْكَرَ إمامة المستعلى وإمامة الآمر . وانتدب عدّة لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش فلمّا تقلّد المأمون البطائحى وزارة الآمر بعد قتل الأفضل بلغه أنّ ابن صباح والباطنيّة فرحوا بموت الأفضل ، وأنهم تطاولُوا لِقَتل الآمر والمأمون ، وأنّهم بعثوا طائفةً لأصحابهم بمصر بأموال . فتقدّم المأمون إلى والى عسقلان بِصَرْفه وإقامة غيره ، وأمره بعَرضِ أرباب الخدَم بها ، وألا يترك فيها إلاّ مَنْ هو معروف من أهل البلاد ؛ وأكّد عليه فى الاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التُّجّار وغيرهم ، وأنّه لا يثقُ بما يذكرونه من أسمائهم وكُنَاهُم وبلادهم ، بل يكشف من بعضهم عن بعض ويفرّق بينهم ويبالغ فى الاستقصاء . ومَنْ يصل مِمَّن لم تَجْرِ عادته بالمجئ إلى البلاد فلْيعوقه بالثغر ويطالع بحاله وما معه من البضائع ، ولا يمكن جمّالاً من دخول مصر إلاّ أن يكون معروفا متردّدًا إلى البلاد ؛ ولا يسير قافلة إلا بعد أنْ يتقدّم كتابه إلى الدّيوان بعدّة من فيها وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمّالين وذِكرْ أصناف البضائع ، ليُقَابَل بها فى مدينة بلبيس وعند وصولهم إلى الباب ، وأنه يكرّم التجّار ويكفّ الأذى والضّرر عنهم .

ثم تقدّم [١٢٨ ب] المأمون إلى وَالى مصر ووَالِى القاهرة بأن يصقعا البلدين شارعًا شارعًا وحارةً حارةً وزُقاقًا زُقاقًا وخُطًّا خُطًّا ، ويكتبا أسماء سكّانها ، ولا يمكّنا أحدًا من النُّقلة من منزل الى منزل حتّى يستأذناه ويخرج أمرُه ، بما يعتمد فى ذلك . فَمضَيَا لذلك ، وحرّرَا الأوراق بأسماء جميع سُكّان القاهرة ومصر وذكر خططهما ، والتّعريف بكُنْية كلّ واحد وشُهرته وصناعته وبلده ، ومَنْ يصل إلى كلّ خط وحارة من الغرباء .

فلمّا عرف ذلك المأمون انتدب نساء من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنيّة ومطالعته بجميع ما يشاهِدْنَه فيها ؛ فكانت أحوال كافّة الناس على اختلاف طبقاتهم وتبايُن أجناسهم من ساكنى مصر والقاهرة تعرض عليه ، ولا يكاد يَخْفَى عنه منها شئ ألْبَتّة . فامتنع لذلك الباطنيّة مما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بالآمر وبالمأمون لكفّهم عن دخول البلد .

ثم إنه مع ذلك أرْكَبَ العسكرية وفرقهم فى جهات البلدين ، وأمرهم بالقبض على جماعةٍ عَيَّنَهم ، فقبض على جماعة كثيرة ، منهم رجل كان يُقْرِئُ أولاد الخليفة الآمر ، ومنهم رسل كان ابن صباح قد سيّرهم بمالٍ لينفق على من بمصر مِمّن يرى رأيهم . فكان هذا معدودًا من عظيم الحزم ، وقوّة التدبير . ومع ذلك كان له القُصّاد والجواسيس وأصحاب الخبر فى كلّ قُطْر ، فإذا خرج الباطنىّ من قلاع ألموت لا تزال أخْبارُه تَرِدُ عليه شيئًا بعد شىْء منذ يخرج من مكانه حتّى يرد بلبيس ، فيسيرّ إليه من ينَقض عليه فى مكانه الذى نزل فيه ويأتيه به فيقتله . وصار مِنْ أجل ذلك وبسببه يَرِدُ عليه أخبار كلّ جليل وحقير من سائر مملكته ، حتّى كان يرى ويسمع كل ما يتفق فى ليل أو نهار . وامتنع من الباطنية إلى أن مات رئيسهم الحسن بن صباح بعد ما مَلَك من الشام جبل عاملة[1] ، وحصن العليق ، والكهف ، ومصيات[2] ، والخوابى[3] ، وحصن الأكمة[4] ، وقلعة العيدين ؛ ثم امتدّت مملكته بعد موته إلى حدّ شرق آذربيجان وبحر طبرستان وجرجان .

---

(١) يقع عند ملتقى الطرق بين صفد وتبنين وبانياس The Damascus Chronicle of the Crusades; p.334 ذيل تاريخ دمشق : ١٧٨ ، ١٨٤ .

(٢) وهى أيضاً مصياف ومصياب ، من حصون الإسماعيلية قرب طرابلس . معجم البلدان : ٨ : ٧٩ .

(٣) وهى أيضاً من أعمال طرابلس وأصبحت من قلاع الإسماعيلية . ذيل تاريخ دمشق : ١٦٠ – ١٦١ .

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ١٦٢ .

سنة تسع عشرة وخمسمائة(1)

فيها قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون فى ليلة السبت لأربعٍ خلَوْن من شهر رمضان ، وقبض على إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلاً من أهله وخواصّه ، واعتقله . فوُجِد له سبعون سرجا من ذهب مرصع ومائتَا صندوق مملوءة كسوة بدنه . ووُجد لأخيه المؤتمن أربعون سرجا بحلى ذهب وثلثمائة صندوق فيها كسوة بدنه ، ومائتا سلة ما بين بلّور محكم وصينى لا يقدر على مثلها ، ومائة برنية مملوءة كافور قنصورى ؛ ومائة سفط مملوءة عوداً ؛ ومن ملابس النساء ما لا يحدّ. حُمِل جميع ذلك إلى القصر ، وصلبه مع إخوته فى سنة اثنتين وعشرين .

ويقال إنَّ سبب القبض عليه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلى ، أخى الآمر ، يغَرِّيه بقتل أخيه الخليفة ووعده أنه يعتمد مكانه فى الخلافة ؛ فلما تعذر ذلك بينهما بلغ الشيخ الأجلّ ، أبا الحسن على بن أبى أسامة ، كاتب الدست ، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه ، وكان المأمون يؤذيه كثيرا . فبلغ الخليفة الحال ، وبلغه أيضا أنه بلغ نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن(2) وأمره أن يضرب السّكة ويكتب عليها : الإمام المختار محمدّ بن نزار .

ويقال إنه سمّ مِبْضَعًا ودفعه لفصّاد الخليفة ، فأُعلِم الفصّاد الخليفة بالمبضع .

ومولده فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وقيل فى سنة تسع . وكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدّول ، كريما ، واسع الصدر ، سفّاكا للدّماء ، شديد التحرّز ، كثير التطلّع إلى أحوال النّاس من الجند والعامّة ؛ فكثُر الواشون والسّعاة بالناس فى أيامه

---

(1) ويوافق أول المحرم منها السابع من فبراير سنة ١١٢٥ .

(2) هو الموفق نجيب الدولة أبو الحسن على بن إبراهيم ، الأمير المنتخب عز الخلافة فخر الدولة . كان من رجال الأفضل ابن بدر الجمالى ، بدأ خدمته بإشرافه على خزانة الكتب الأفضلية ، وذهب إلى اليمن سنة ٥١٣ فى أيام الأفضل وقام بتحركات حربية تأييداً للملكة الحرة ، وزاد المأمون البطائحى الوزير من تأييده – بعد مقتل الأفضل – وتقلبت به الأحوال فى اليمن بسبب تعقد الأحوال بها واشتعال الحروب الأهلية المحلية . راجع تفصيل هذا فى تاريخ اليمن للفقيه عمارة اليمنى : ٤٢ – ٤٧ .

ويقال إنّ أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق ، وأنه مات ولم يخلّف شيئا ، فتزوّجت أمه وتركته فقيرا ، فاتصّل بإنسانٍ يعلّم البناء بمصر ، ثم صار يحمل الأمتعة بالسّوق بمصر ، وأنه دخل مع الحمّالين يوما إلى دار الأفضل فرآه خفيفًا رشيقًا حسن الحركة حُلْوَ الكلام ، فأعجب به ، فاستخدمه مع الفراشين بعد ما عرف [١٢٩ ا] بأنه ابن فلان ، فلم يزل يتقدّم عنده حتى كبرت منزلته ، وعلت درجته(١) .

وهذا ليس بصحيح فإنّه من أجناد المشارقة ، وقد تقدّم أن أباه مات فى زمن الأفضل بعد ما ترقّت أحوال ولده ، وأنه كان مِمّن يعدّ من أماثل أهل الدولة . ورُثِى بعدّة قصائد . وتقدّم أن المأمون كان مِمّن يخدم المستنصر وأنه الذى لقّبه بالمأمون . على أن المشارقة زادوا فى التشنيع وذكروا أنّه كان يَرُشّ الماء بين القصرين(٢) ، وكل ذلك غير صحيح .

وكان المأمون شديد المهابة فى النفوس وعنده فطنة تامة وتحرّز وبحث عن أخبار النّاس وأحوالهم ، حتى إنه لا يتحدث أحد من سُكّان القاهرة ومصر بحديث فى ليل أو نهار إلا ويَبيتُ خبرُه عند المأمون ، ولا سيمّا أخبار الولاة وعمالهم . ومشت فى أيامه أحوال البلاد وعمرت ، وسَاسَ الرّعايا والأجناد وأحسن سياسته ، إلاّ أنه اتُّهم بأنه هو أقام أولئك الذين قتلوا الأفضل وأعدّهم له وأمرهم بقتله ليجعل له بذلك يدًا عند الخليفة الآمر ، ولأنه كان يخاف أن يموت الأفضل فيلقى من الآمر ما يكرهه لأنّه كان أكبر الناس منزلةً عند الأفضل ومتحكما فى جميع أموره . وكان مع ذلك محبّبًا إلى الناس لكثرة ما يقضيه من حوائجهم ويتقرّب به من الإحسان إليهم ، ويأخذ نفسه بالتدّبير الجيد والسّيرة الحسنة ، بحيث لو قدّر موته لزار النّاس قبره تبرّكًا به .

واتُّهِم أيضا بأنه هو الذى قتل أولاد الأفضل وأولاد أخيه الأوحد وأولاد أخيه المظفر ، وكانوا نحو مائة ذكر ما بين كبير وصغير ، فقُتلوا بأجمعهم ، ولم يبق منهم سوى صغير

---

(١) ورد هذا الكلام فى كتاب الكامل لابن الأثير : ١٠ : ٢٢٤ . ونقله النويرى فى نهاية الأرب كما فعل المقريزى هنا ثم نفاه كل منهما ، ويستند النويرى فى نفيه إلى ابن جلب راغب ، محمد بن على بن يوسف ، الذى قال : إن ابن الأثير وهم فى وفاة والد المأمون ، إذ أنه مات فى سنة ٥١٣ ه والمأمون إذ ذاك مدبر دولة الأفضل . . ثم يضيف إلى ذلك : « وأكثر الناس يذكرون ما ذكره ابن الأثير » . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٢) قائل هذا عماد الدين صاحب « البستان الجامع لتواريخ الزمان » ، كما ذكر النويرى . وقد نشر C. Cahen هذا الكتاب ملخصاً فى مجلة : Bull. et. Or. Inst. Damas, 1938 .

نحيف يسمى أحمد أبا علىّ ويلقب بكتيفات ، فيقال إنّه احتقره لما كان يرى فيه من العىّ والانقطاع ؛ فكان منه ما يأتى خبره إن شاء الله تعالى .

واتُّهِم أيضًا بقتل الأمير حسام الملك أفتكين ، صاحب الباب ، فى أيام الأفضل لتخوفه منه ؛ وذلك أن حسام الملك دخل مرّة على الآمر للسلام ، فلمّا خرج قال الآمر: والله إنك لأمير حسن ؛ فانه كان جميلا تام القامة وفيه عُجْب وتيه . فبلغ ذلك المأمون فقامت قيامتُه وأخذ فى العمل عليه حتّى أخرجه فى العساكر التى يقال إنّ عدّتها عشرون ألفًا ، فكان من خبره على عسقلان مع الفرنج ما كان ، وقتل من أصحابه يومئذ ما يزيد على عشرة آلاف ، وعاد حسام الملك فبعثه إلى الإسكندرية ودسّ عليه من قتله .

قال ابن الطوير : ولمّا دفن الأفضل استعمل الآمر هذا الرجل ، وكان يخاطَبُ بالقائد من خدمة الأفضل فى الوساطة دون الوزارة ، ونعته بجلال الإسلام . واستمرّ على ذلك ، ثم كمّل له الوزارة وخلع عليه خلعة الوزارة إلا الطيلسان المقوّر ، فباشرها ، وكان متيقظًا قد حذق الأمور ودربها من صحبة الأفضل وطُولِ خدمته إيّاه . وكان بالدّار التى بالسيُوفيّين بالقاهرة ، وهى اليوم مدرسة للحنفيّة[1] ، وأخذ يصبّ على تَغلُّب الأفضل مع الآمر ، فصار يتغلّبُ على الآمر فى واحدة بعد واحدة من الجفاء والإقدام ، والآمر يُمْلى له ويحتمله ، حتّى استوحش كل منهما من الآخر .

وكان له أخ يُنْعَت بالمؤتمن أبى تراب حيدرة ، فرأى من الرأى أن يولى أخاه جانبًا عظيما من ديار مصر ويجعل معه عسكر النَّجْدة ردءًا إذا قصده الخليفة بضرر ، فإنه ما دام أخوه يكون حاميا له ، فيكون هو من داخل وأخوه من خارج . وجرّد معه مائة فارس من شدة الأجناد وكبرائهم ، وأضاف إليهم أمثالهم ، مثل على بن السّلار وتاج الملوك قايماز وسيف الملك الجمل ودرى الحرون وحسام الملك بسيل ، وكلّ واحد من هؤلاء جيش بمفرده ؛ والخليفة يعلم ذلك ولا يرده عليه . وزاد فى معناه حتّى قيل إنّ الخليفة اطّلع على أنه ادّعى الخلافة وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهى حامل عندما خرج نزار

---

(١) أنشأها صلاح الدين الأيوبى فى جزء من دار الوزير المأمون وخصصها للدراسة الفقهية على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان فى سنة ٥٧٢ ، وهى أول مدرسة وقفت على الحنفية فى مصر – وكان صلاح الدين شافعى المذهب – وعرفت بالسيوفية من إجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٣٦٥ – ٣٦٦ .

إلى الإسكندرية فانزعج الخليفة لذلك . ثم إنّه سيّر إلى اليمن الموفّق عليّ بن نجيب الدّولة[1] ، وكان من أهل الأدب فصيحًا داهية ، ليحقّق لنسبه هناك ويدعو الناس إلى بيعته ، فلمّا [١٢٩ ب] قيل للآمر هَذَا ، ما شَكّ فيه ، وأخذ يتحيّل فى الإيقاع به بعد عَوْدِ أخيه من ولايات الإسكندرية والغربيّة والبحيرة والجزيرتين[2] والدّقهلية والمرتاحيّة[3] ؛ فاختلق الآمر قضية يلتمسُها من الإسكندرية وهو مقيم بها ، فسيرّ أستاذًا[4] من ثِقاته ، ظاهرهُ فيما نَدَبه إليه وباطنه فى العمل على المأمون وأخيه ، وقال له : « أحْرِض على اجتماعك بعليّ ابن السّلار فى المسايرة وسلّم عليه عنّا ، وقل له إنّنا ما زلنا نَلتفتُ إليه ونَدّخرُه لمهمّاتنا ونتحقّق فيه الموافاة لنا ، وإنّا بحمد الله قادرُون على المكافأة بالخير أكثر من غيرنا ، وقد تلوّنت أحوال المأمون وبالَغَ فى عقوقنا بأشياء لا يتسع لها ذِكْرنَا . ومقْصُودنا أن تكتُم عنّا ما نقول لك » .

فلما بَلّغه الأستاذ ذلك عن الآمر قال : السّمع والطاعة لمولانا ، وأنا مملوكه وأُذِلّ نفسي فى خدمته . فقال الأستاذ : هكذا والله قال عنك . قال ابن السّلار : فما يأمر به ؟ قال : تحدث رجالك بأجمعهم فى الانفصال عن المؤتمن ، أنت ومن تثق به .

فلمّا تقرر ذلك اتّفق عليّ بن السّلار هو وقايماز ودرى الحرون ، وكانوا أمراء الجماعة فتفرّقوا عنه وتبعهم الباقون ، فانفَرد المؤتمن واستَوْحَش وكاتب أخاه المأمون بذلك ؛

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أن الأفضل الجمالى هو الذى سير نجيبَ الدولة هذا إلى اليمن ، فى سنة ٥١٣ ، تأييداً للملكة الحرة ملكة زبيد ، وأن المأمون أيد نجيب الدولة فى المهمة التى أرسله الأفضل من أجلها .

(٢) يذكر ابن مماتى ضمن بلاد ولاية القوصية الجزيرتين المعروفتين بالقلمين . قوانين الدواوين : ١٠٨ — ١٠٩ ، وهما غير الجزيرتين المقصودتين هنا ، ذلك أن نشاط المؤتمن حيدرة كان متركزاً فى الوجه البحرى . ويذكر القلقشندى الجزيرتين بين فرقى النيل الشرقية والغربية (يعنى بالفرقتين فرعى النيل) ويقول إن الجزيرة الأولى تشمل عملين : المنوفية والغربية ، والجزيرة الثانية تمتد ما بين بحر أبيار والفرقة الغربية للنيل وتعرف بجزيرة بنى نصر . صبح الأعشى : ٣ : ٤٠٥— ٤٠٦ .

(٣) يقول القلقشندى : الدقهلية والمرتاحية مصاقبة لعمل الشرقية من جهة الشمال وينتهى أواخرها إلى السباخ وإلى بحيرة تنيس المتصلة بالطينة من طريق الشام . صبح الأعشى : ٣ : ٤٠١ — ٤٠٢ . انظر أيضاً قوانين الدواوين : ٨٨ — ٨٩ وفى مواضع أخرى متفرقة .

(٤) الأستاذون من خواص خدم الخليفة ، وأجلهم المحنكون وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما يفعل بعض العرب والمغاربة ، وكانت عدتهم تزيد على الألف . وكان من طريقتهم أنه متى ترشح أستاذ منهم لمحنك حمل إليه كل أستاذ من المحنكين بدلة كاملة من ثيابه وفرساً وسيفاً فيصبح لاحقاً بهم . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٧ .

فما اتسع له أن يتتبّع الأمراء ولا ينكر عليهم ليرجعوا إلى أخيه ، لعِلْمِه بتغيُّر الخليفة عليه ، مخافَة أن يفسُد أمرُه ظاهرا وباطنا . فحضر إلى الخليفة يومَ سلامٍ ، على عادة الوزراء ، وتقدّم وقال : « يا مولانا ، صلوات الله عليك ، وصل كتاب أخي يتذمّم من طول مقامه خارج القاهرة وأسَفه على ما يفوته من خدمة مولانا بالمباشرة ، ويسأل الفُسْحَة له فى العَوْد إلى بابه الكريم » فقال : « مرحبا وأهلا ، وهذا كان رأينا ، ونحن مشتاقون إليه ، وإنما قصدنا رضاك فيا رتَّبته له . يقدم على بركة الله » . فكوتب عن الخليفة بالعَوْد وأن يُرتَّب فى ولاياته من يرضاه . فامتثل ذلك .

ودخل القاهرة ؛ فجلس الخليفة له فى غير وقت الجلوس ، فمثل بن يديه ، وأكرمه وأدناه ، وخلع عليه بالتشريف المفخّم .

فلمّا دخل شهر رمضان ، وفيه السماط كل ليلة بقاعة الذهب ، ويحضر الوزير وإخوته وأصحابه ؛ فحضر المأمون وأخوه المؤتمن السّماط أوّل ليلة ، فأكرمهما الآمر بما أخرجه لهما ممّا كانت يدُه فيه ، وأرسل رسالة إلى المؤتمن ليستأنس بحضوره السّماط مع أخيه ؛ فلم يتّسع لهما مع هذه المُكارمَة الانقطاع .

وحضرا ثانى ليلة فزاد فى إكرامهما ، ثم أمر بأن يدخل المأمون لمؤاكلته خاصّة دُون أخيه ، فدخل إليه ؛ ولم يتقدّمه أحدٌ من الوزراء بمثل ذلك ، يعنى بهذه المنزلة . وخرج هو وأخوه وأكد عليهما ألا ينقطعا ، وخلع عليهما من داخل الدار من الثياب الدّاريّة . ثم حضرا ثالث ليلة ، فاستُدْعِى المأمون إلى الخليفة ، فلمّا جلَس مَعَهُ على المائدة قال قد جَفَوْنا المؤتمن ، واستدعاه ، فدخل ، وصارا فى قبضته . وكان قد رتب لهما من يأخذهما ؛ فعند خروجهما للمُضِىّ قبض عليهما واعتقلهما عنده فى خزانة ، وسيّر بالحُوطة على دورهما. ثم أمر بإحضار الشيخ الأَجَلّ أبى الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدّست ، لينشئ شيئًا فى شأنهما يقرؤه على المنبر غدًا ، فوجد الشّيخ أبو الحسن بمصر لعيادة مريض ؛ فتقدّم إلى وَالِى القاهرة فى الّليل بأن يمضىَ إلى مِصْر لإحضاره . فظنّ والى القاهرة أنه طُلِب لغير ذلك ، وكان يقال له سعد الدّولة الأحدب ، فمضى إليه وأزعجه من مكانه ، وسبّه أقبح سَبّ ، وأراد إحضاره إلى القاهرة ماشيًا . فأحضره إلى الخليفة وهو ميّت لا حراك به ،

فقال له ما هذا ؟ فأخبره بقضيتّه مع الوالى ، فغضب على الوالى وأمر بخَلْع أخفافه من رجْلَيْه وصَفْعِهِ بهما ، حتى تقطّعَا عْلى قفاه ، وصرفه من الولاية . وأطلع الشيخ أبا الحسن على قضية المأمون وأخيه ، فقال يا مولانا : هما نَشْوُ أيّامِك ومماليك دولتك . فقال لبعض الأستاذين خذ هذا الشّيخ وصَوّبه إلى المذكورين لينظرهما فى اعتقالهما وينقطع رجاؤه منهما . فأدخله إليهما ، فرآهما مكبّلَيْن فى الحديد، وعليهما احتياطٌ عظيم ، فأنشأ للوقت سِجلاًّ كان من استفتاحه :

« أمّا بعد؛ فإن محمد بن فاتك [١٣٠ ا] استنجح فما نجح ، واستُصْلِح فما صلح ؛ وجهل رفع قدره فغدا لِهُبوط ، وقابل الإحسان إليه بدواعى الّنُنوط » . وكلّ ذلك فى تلك الليلة .

فلمّا أصبح الصّباح جلس الخليفة فى الشباك بالإيوان ، ونُصب كرسىّ الدعوة أمامه ، وطلع قاضى القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرُّتب والعوامّ ؛ فلم ينتطح فيها عنزان .

ويقال إن الخليفة كان يقول : أعظم ذنوبه عندى ما جرى منه فى حق صُور وإخراجها من يد الإسلام إلى الكفر .

وبقيا فى الاعتقال ، هما وأميران اتُّهما ، فى خزانة البنود . وسيّر لإحْضار الذى كان أنفذه المأمون إلى اليمن ليقتلهم جميعا . وتفرّغَ الآمر لنفسه ، ولم يبق له فعل ولا مزاج ، وبقى بغير وزير .

وأقيم صاحبا ديوان الاستخراج[1] بما يجب من زكاة ومقس[2] أحدهما مسلم يُقال له

---

(١) المقصود به استخراج المال وقبضه ، وكتب الوصولات به . وعلى متولى الاستخراج ، ويلقب بالجهبذ ، عمل المخازيم والرزنامجات والختمات ، ويطالب بما يقبضه ويخرج ما يرفعه من الحساب اللازم له من الأموال الديوانية . قوانين الدواوين : ٣٠٤ .

(٢) يعدد القلقشندى وجوه الأموال الديوانية ويقسمها إلى ضربين رئيسيين وتحت كل منهما أنواع . أما الضرب الأول فهو الشرعى ، وهو على سبعة أنواع منها الزكاة . أما الضرب الثانى فهو غير الشرعى وهو المكوس التى تتركز فى نوعين : ما يختص بالديوان السلطانى مثل المكوس التى تؤخذ عند السواحل: عيذاب ، والقصير ، والطور، والسويس ، وما يؤخذ بحاضرة مصر : الفسطاط والقاهرة، وتكاد تصل إلى اثنين وسبعين مكساً . أما النوع الثانى من المكوس فهو مالا اختصاص له بالديوان السلطانى وهو ما يتبع إقطاع ديوان أوأمير أو نحوهما . صبح الأعشى : ٣ : ٤٤٨ — ٤٦٧ .

جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامريّ يقال له أبو يعقوب إبراهيم ، وأقيم معهما مستوفٍ[1] لهاتَيْن المُعَامَلَتَيْن وكان راهبا ؛ فكانوا يستخرجون ذلك من أربابه ، ويدخل صاحبا الدّيوان إلى الآمر فى كلّ وقت ومعهما المصحف والتوراة فيحلفان له أنهما لا يتعرضان إلا لمن يجب عليه لبيت المال حقّ . فيحملهما فى ذلك على الصدق ، وربما اشتطا على الناس وزاد عليهم ما لا يجب زيادته ، فتأذّى بسببهما جماعة والآمر لا يطّلِع على ذلك ولا أشاربه . واستمرّا على ذلك مُدَيْدة .

(١) المستوفى : كاتب يكون صاحب مجلس فى الديوان يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحساب فى أوقاته ، وينبه متولى الديوان على ما يجب استخراجه من المال فى حينه ، ويقيم الجرائد ، ويقابل كل حساب يرد عليه ويستوفيه ، ويخرج ما يجب تخريجه فيه ويعمل المطالبات . وإن ظهر أنه لم ينبه على وجوب مال أو استرفاع حساب ، أو أخر ما يجب تقديمه ، أو أهمل ما يتعين تخريجه كان عليه درك ذلك جميعه . ولا يؤاخذ بشئ عمل من مجلس خدمته مالم يكن خطه عليه إما بالمقابلة وإما بالتأريخ . قوانين الدواوين : ٣٠١ .

سنة عشرين وخمسمائة(١) :

فيها جهز الآمر المنتضى بن مسافر الغنوىّ بخِلَع سنيّة وتُحف مصريّة وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقى ، صاحب الموصل ؛ فلمّا كان فى أثناء الطريق سمع بموته(٢) ، فرجع بما معه إلى الآمر .

وفيها قدم الأمير الرئيس مهران بن عبد الرحيم ، مصنّف سيرة الفرنج الخارجين على بلاد الإسلام فى هذه السنين ، برسالة من صاحب حلب .

وفى شوال كان بدء أمر الرّاهب . وذلك أنّ راهبًا من النّصارى ، يعرف بأبى نجاح ابن فنا ، كتب إلى الآمر رقعة فى الكُتّاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدّولة واستولوا عليها ، وضمن أنّه يحقق فى جهاتهم ما يملأ بيوت الأموال . فتقدّم الخليفة بأن يُمكّن من الدّواوين ويُساعدَ على ما يخرجه من الحسبانات ، ولُقب بالأب القديس الرّوحانى النّفيس أبى الآباء سيد الرؤساء مقدّم دين النّصرانية ، وسيد البطريركية ، ثالث عشر الحواريين .

وكان الآمر لما انفرد بالأمْر بَعْد القبض على وزيره المأمون وبقى بغير وزير دانت له الدنيا . وكان معظّمًا كثير الجود إلى الحدّ الذى لا مزيد عليه ؛ فكثر الخير فى تلك الأيّام ، وفرح الناس بالفوائد ، وتردّد المسافرون والتجار ، وجُلبت البضائع ، وزاد الحاصل فى الخزائن من كلّ صِنف مُضافًا إلى ما كان فيها ، وحسُنَت السِّيرةُ فى الرّعيّة ؛ وأباح للنّاس

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من يناير سنة ١١٢٦ .

(٢) هو الأمير آق سنقر البرسقى صاحب الموصل والجزيرة والمتصرف فى شئون بغداد والعراق . تولى الموصل المرة الأولى سنة٥٠٧ ، ثم عزل عنها ليعود مرة أخرى سنة٥١٥ ، وبقى فيها حتى مات فى هذه السنة(٥٢٠)مقتولا بأيدى الباطنية فى المسجد الجامع بها بالرغم من أنه كان على غاية من التيقظ لهم والتحفظ منهم بالحراسة المشددة ولباس الحديد ، وقد ضرب أحدهم بسيفه فقتله فتوجهوا بعد ذلك بالطعنات إلى حلقه حتى قتل ، وقتل جميع من اشترك فى الاعتداء عليه . معجم الأنساب : ٦٠ ؛ الكامل : ١٠ فى مواضع متفرقة ؛ الباهر : كذلك ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢١٤ . ويذكر ابن القلانسى أن رسول الآمر وصل بصحبة أمين الدولة كشتكين والى بصرى ومعه خلع سنية وتحف هدية إلى ظهير الدين طغتكين . ذيل تاريخ دمشق : ٢١٥ .

والجنود ما كان الأفضل حظره عليهم من الملبوس والتّجمّل ؛ فما بَرح الناس فى خيراتٍ دَارّة ونِعَمٍ متزايدة إلى أنْ تمكّن الرّاهب من الدّواوين واشتد فى مطالبة النّصارى وضمن فى جهاتهم الأموال، وحملها أوّلاً فأوّلاً ، وكان قد حصل لهم فى أيّام الأفضل والمأمون ما يزيد عن الوصف . فلمّا تمكّن الرّاهبُ من النّصارى واستطاب ما تحصّل منهم ابتدأ يعمل فى المسلمين معاملى الدّيوان من المشارفين والضّمناء والعمّال .

فيها ركب الآمر لينظر جَوْسَق البغدادى أبى الحسن على بن محمد بن سعدون بالقرافة ، فإنه كان من أحسن جَواسِق القرافة[1] وأفخرها بناء ؛ فلمّا قرب منه سقط عن فرسه إلى الأرض فهُنّئَ بالسّلامة ، وقيل فى ذلك عدّة أشعار .

(١) الجوسق : القصر ، ويجمع على جواسق وهو معرب عن اللفظ الفارسى كوسك . وجوسق البغدادى المذكور بالمتن كان بالقرافة وإلى جواره قبر ملشه : وقد خرب سنة ٥٢٠ . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٥٣ .

سنة احدى وعشرين وخمسمائة : (١)

فيها أُحْضِر الموفق فى الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن نجيب الدّولة ، داعى اليمن ، الذى سيّره الوزير المأمون بن البطائحى ، فدخل فى يوم عاشوراء على جمل بطرطور ، ومعه مشاعليّة بهيئة ملائكة ، وخلفه قرد يصفعه ، وهو يقول بقوة نفس : والله لا ألتفت . فأدخل خزانة البنود وسُجِن مع المأمون .

فيها كثرت مصادرة الرّاهب للكُتّاب والعمال ، وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال ، وندب معه مقداد [١٣٠ ب] والى مصر وسعد الدولة والى القاهرة للشّدّ منه ؛ فتنكّدَ الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق . وأخذ الرّاهب يُحسّن للآمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم[٢] .

وفيها مات قاضى القضاة جلال الملك تاج الأحكام ، أبو الحجاج يوسف بن أيّوب ابن إسماعيل المغربى الأندلسى[٣] ؛ وكان أوّلا قد أقرأ المؤتمن أخا المأمون القرآن والنّحو ، فولّاه قضاء الغربيّة ، ثم نقل منها إلى قضاء القضاة بعد واقعة ابن الرّسعنى بوساطة المؤتمن . واستقر بعد وفاته فى قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن الميسر القيسرانى .

وكان أبو الحجّاج عاقلا . عرض عليه الآمر أنْ يلىَ الدّواوين مضافًا إلى ما يتولاه

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من يناير سنة ١١٢٧ .

(٢) فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة توفى قاضى القضاة محمد بن النعمان وترك عليه ديناً للأيتام وغيرهم عشرين ألف دينار ، وقيل ستة وثلاثين ألف دينار ، فختم برجوان على جميع ما ترك ، وطالب الأمناء والعدول من أعوان ابن النعمان بأموال اليتامى المتبقية عليهم فى ديوان القضاء فاعترف البعض بما عنده وأنكر آخرون . وكان من نتائج ذلك أن أمر الحاكم ألا يودع عند عدل ولا أمين شىء من أموال اليتامى وأن يكتروا مخزناً فى زقاق القناديل تودع فيه أموال اليتامى ، وعرف هذا المخزن منذ ذلك التاريخ بالمودع . انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب فى أحداث سنة ٣٨٩ .

(٣) يذكر ابن العماد فى أخبار سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة نبأ وفاة الفقيه العلامة أبى الحجاج يوسف بن عبد العزيز نزيل الإسكندرية وأحد الأئمة الكبار فى الأصول والفروع ، روى البخارى عن واحد عن أبى ذر ومسلماً عن أبى عبد الله الطبرى . شذرات الذهب : ٤ : ٦٧ . ولعله نفس الفقيه المذكور هنا فى المتن ، وقد يؤيد ذلك أن نشاط المؤتمن ، أخى المأمون ، وهو تلميذ أبى الحجاج كان متركزاً ، فى معظمه ، فى الإسكندرية .

من قضاء القضاة والمظالم ، فاستشار فى ذلك بعض أصحابه فأشار بالقبول ، فقال : إنّى لا أحْسن صنعة الكتابة ؛ فقال له : تجْعَلُ بين يديك من يُوضّح لك الأمر والتدبير ويدلُّك على سرِّ الصّناعة . فقال : ألا ترى إلّا أنى قَدْ رضيتُ أن أكون من الأسماء النّواقص التى لا تتمُّ إلّا بصِلةٍ وعائد ، واستحضرت مَنْ يدلُّنى على ما أجهل ، فكيف أصنع بين يدى السلطان ؟ لقد حكمتُ إذًا على نفسى بحكم حيف وأوردتُها خطّة خسف . وحمد الله .

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة : (١)

فيها وصلت رأس بهرام الباطنى . وكان طغتكين أتابك ، الملقّب ظهير الدّين ، قد وَهَب له بانياس خوفًا من شرّه ، فأفسد جماعةً بالشام ، وجرت له خطوبٌ آلت إلى قتله ، وحُمِلت رأسُه إلى الآمر(٢) .

وفيها رتّب قاضى القضاة أبا عبيد الله محمد بن ميَسّر مشارفًا على ثقة الدّولة ابن أبى الردّاد فى قياس المـاء وعمارة المقياس ، وعمل مصالحة ؛ فاستمرّ إلى أن قتل ابن ميسر ثم بطل ، فلم ينظر أحد فى هذه المشارفة .

وفى رجب عُمِل للآمر فى الخاقانية(٣) ، وكانت من خاصّ الخليفة ، قصر من ورد فسار إليها وحده بضيافة عظيمة . فلمّا استقرّ هناك خرج إليه أمير يقال له حسام الملك — أحد الأمراء الذين كانوا مع المؤتَمَن ، أخى المـأمون ، فى سَفَره فى البلاد التى كان يتولاّها وتخاذل مع ابن السّلار عنه — وهو لابسٌ لأمة حربه ، والتمس المُثُول بين يدى الخليفة . فاستثقل ما جاء به فى ذلك الوقت لأنه مُنافٍ لما فيه الخليفة من الرّاحة والنزهة ، فمُنِع من ذلك وصُدّ عنه ؛ فقال لجماعةٍ من حواشى الخليفة : أنتم منافقون على الخليفة إنْ لم أصل

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس من يناير سنة ١١٢٨ .

(٢) وكان يمارس نشاطه الهدام على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزى بحيث يطوف البلاد والمعاقل ولا يعرف أحد شخصه ، وتبعه كثير من الجهلة والطغام احتماء به أو طلباً للشر بحزبه ، وأيده فى تحركه ونشاطه أبو على طاهر بن سعد المزدقانى ، وزير طغتكين ، لحاجة فى نفسه والتمس من طغتكين أن يسلمه حصن بانياس ، ففعل ، فتقوى بهرام بهذه المنحة وجمع الأشرار والأوباش والرعاع فيه وأفسد بهم فى دمشق وأعمالها حتى اشتد خطره . وقد ثار ضده أهل منطقة وادى التيم لقتله شاباً ديناً شهماً من بينهم ، سنة ٥٢٢ ، فهاجمهم فى واديهم وأقام خيامه بجوارهم — وكانوا مستعدين لقتاله — فأغاروا على مخيمه وأوقعوا برجاله ونجحوا فى قتله بخيمته واحتزوا رأسه بعد أن مثلوا بجثته تقطيعاً بالسيوف والسكاكين . ذيل تاريخ دمشق : ٢١٥ ، ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٣) قرية من قرى قليوب وكانت من مخصصات الخليفة ، فيها بساتين وجنان كثيرة وأحواض لزراعة الورد بألوانه المختلفة تعرف بالوردات . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٨ .

إليه وهو يطالبُكم بذلك ويعاقبكم عليه . فأَطْلَعُوا الخليفة على أمره ، فأمر بإحضاره . فقال : يا مولانا ، لِمَنْ تركت أعداءك — يعني المأمون وأخاه — هذا والعَهْد قريب ؛ أأَمِنْت الغدر ؟ فما أجابه إلّا وهو على ظهور الرّهاويج[1] من الخيل ، فلم تَمْض ساعة إلّا وهو بالقصر يمضى إلى مكان إعتقال المأمون وأخيه ، فوجدهما على حالهما ، فزادَهُما وثاقًا وحراسَة .

فلمّا كان فى ليلة العشرين منه قتل المأمون وصالح بن الضيف ، وكان من نَشْو المأمون وقد سجن معه ، وعلىّ بن إبراهيم بن نجيب الدّولة ، المُحْضَر من اليمن ، وأُخْرِجوا إلى سقاية ريدان[2] فى الرّمل ، قبالة البستان الكبير خارج باب الفتوح ، فصلب أبدانهم بغير رءوس وفى صدر كلّ واحد رقعة فيها اسمه . فبلغ الأمر الناس فشكوا فيهم ، وقالوا : هم غير المذكورين . فأمر بإخراج رءوسهم وأُقيمت على أبدانهم .

فيها كانت ولاية ابن ميسّر القضاء فى ذى الحجّة على ما ذكر بعضهم ؛ وقيل بل كانت كما تقدّم ؛ ولقّب بثقة الدّولة القاضى الأمين سناء الملك ، شرف الأحكام ، قاضى القضاة، عمدة أمير المؤمنين ، أبى عبد الله محمد بن القاضى أبى الفرج هبة الله بن ميسر . فلازم الانتصاب والجلوس ، واعتمد التثبت فى الأحكام ، وعدّل جماعة ، فبلغت عدّة الشهود فى أيّامه مائة وعشرين شاهدا ، وكانوا دون الثلاثين .

ثم وردت إليه المظالم ؛ فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بهم الآمر ، وكان فيهم عدّة قد يئسوا من الفرج ، فاستأذن الخليفة وأفرج عنهم . وتكلّم مع الآمر فى أمر التُّجّار وما نزل بهم من المصادرات ، فأمر الخليفة بكتابة منشورهم فى معناهم قرئ على المنابر .

فيها كثرت وقائع أهل القسر على [١٣١ ا] النّاس ، وتقرّب كثير من الكتاب

---

(١) الرهاويج من الخيل المثيرة للغبار ، لسرعتها . يقال أرهج أثار الغبار ، وأرهجت السماء همت بالمطر ، ونوء مرهج كثير المطر ، والرهوجة بتشديد الراء المفتوحة ضرب من السير . القاموس المحيط .

(٢) سقاية ريدان : يعرفها ياقوت تعريفاً مبهماً بأنها بين القاهرة وبلبيس . وهى الآن بمنطقة العباسية الحالية وتعرف بالريدانية ، وكانت فى الأصل بستاناً لريدان الصقلى الأستاذ ، من رجال العزيز بالله . ويظهر من النص أنها كانت تقع خارج باب الفتوح . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٣٩ ؛ معجم البلدان : ٥ : ٩١ .

الظُّلمَة بعَوْرَات الناس إلى الخليفة ، فاشتدّت مُطَالبات الناس بالأموال ، وقُبل قولُ كلٍّ رافع شيئًا على أحد ، وأُخِذ النَّاس بما رُمُوا به ، وضُمِّن عدّةٌ من النَّاس أشياء لم تَجْرِ عادةٌ بضمانها ، وأُحْدِثت رسُومٌ لم تكن فيما تقدّم.وذلك أنهم لم يقدروا على تصريح القول بالمصادرة ، فعملوا ماذُكر ؛ فحصلت الشناعة ، وخرج مَنْ بالبلد من التُّجار .

وكثرت مصادرات القاطنين بمصر والقاهرة ، وعَظم قدرُ ما حُمِل من أموال هذه الجهات. فاتّسع عطاء الخليفة حتى وهب يومًا لغلامه برغش ، المنعوت بالعادل[1] ، ثمانين ألف دينار ، ثم سأله بعد مدّةٍ يسيرة عمّا فعله فيما وهبه ، فقال: يا مولانا تصدّقت ووهبت أكثر . فأعجب ذلك الآمر ، وفرح ، وشكره على فعله . ووهب مرّة لغلامة هزار الملك جوامرد ، المنعوت بالأفضل ، مثل ذلك . وكانا أخصّ غلمانه وأقربهم منه ، وأشرفهم عنده منزلة ؛ وكانا أسمح خلق الله ؛ وكان الناس فى أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر ، لا بمصر ولا بالقاهرة ، فإنَّ هزار الملوك كانت صدقته فى كلّ يوم جمعة راتبًا قد قرّره بالقرافة أربعة آلاف درهم فى ألف كاغدة ، على يد الثّقة ابن الصّعيدى وغزال الوكيل ، وكانت عطاياه من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً ؛ ولا يخلو رُكوبه إلى القصر وعَوْدُه منه من أحدٍ يقف له ويطلب منه . وكان برغش يعطى الجُمَل الكبار التى يغنى بها الطالب ، من المائة دينار إلى المائتين وأكثر .

وبلغ علم الّتى يقال لها جمعة ، مكنون الآمريّة ، أن الآمر سيّدها قد وهب لكلّ من غلاميه المذكورين ثمانين ألف دينار ، وكان الآمر يحبُّها ، وأَصْدَقها أربعة عشر ألف دينار ، وولدت منه ابنة سمّاها ستّ القصور ؛ فلمّا دخل عليها عشيّة اليوم الذى وهبهما فيه هذا المال قامت وأغلقت عليها مقصُورتها ، وقالت : ما تدخل إلىّ أو تَهَبَ لى مَا وهبت لكلٍّ منهما . فقال : السّاعة.. وأحضر الفراشين ، وحمل كلّ عشرة كيسًا فيه عشرة آلاف دينار

---

(١) أحد اثنين كانا مقربين إلى الخليفة الآمر ، وهو أصغر الاثنين وأرشقهما ، والآخر هزار الملوك ، جوامرد (ويسميه ابن تغرى بردى هزبر الملوك) . وقد بنى الأول مسجداً قبالة جزيرة الروضة بشارع مصر القديمة بين فم الخليج وكوبرى الملك الصالح ، دثر ولم يبق له أثر . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٤٠ : فى المتن وفى الحاشية : ٣ .

عينا . فلمّا صار إليها هذا المال،ومبلغه مائتا ألف دينار ذهبًا،فتحت الباب له ودخل[1] .

(١) يقول المقريزى فى المواعظ والاعتبار : كان الآمر قد بلى بعشق الجوارى العربيات ، فبلغه أن جارية بالصعيد من أجمل العرب وأظرفهم شاعرة مجيدة ، فتزيا بزى الأعراب وكان يجول فى الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها وتحيل حتى عاينها فا ملك صبره ، وعاد إلى دار ملكه وأرسل إلى أهلها يخطبها ، وتزوجها . فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء حتى لا تتقبض نفسها بحيطان المدينة فبنى لها البناء المعروف بالهودج على شط النيل ، وكان غريب الشكل . ولكنها ظلت معلقة الخاطر بابن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت إليه :

يا ابن ميـاح إليك المشتكى ... مالك من بعدكم قد ملكـا
كنت فى حى مطاعـاً آمـراً ... نائلا ما شئت منكم مدركـاً
فأنـا الآن بقصر مرصـد ... لا أرى إلا خبيثـاً ممسـكاً

فأجابهـا ابن عمهـا :

بنت عمى والتى غذيتهـا ... بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها ... لو غـدا ينفع منـا المشتكى
مالك الأمـر إليـه أشتكى ... مالكا وهو الـذى قد ملكـا

أنظر المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٥ — ٤٨٦ .

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة (١)

فيها عمّ البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتّاب والسُّوقةِ من الراهب ، بحيث لم يبق أحدٌ إلّا وناله منه مَكْرُوه ، إمّا من ضربٍ أو نهبٍ أو أخذ مال . وكان يجلس فى قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص ، ويستدعى الناس للمصادرة . فطلب فى بعض الأيّام رجُلا يعرف بابن الفرس من العُدول المميّزين المبَجّلين فى الناس فأهانه وأخرق به ، فخرج إلى الجامع فى يوم جمعة وقام على رِجْلَيْه وقال : يأهل مصر ، انظروا عَدْلَ مولانا الآمر فى تمكينه النّصرانى من المسلمين . فارْتَجّ الناس لكلامه وكادت تكون فتنة ؛ فاتّصل ذلك بخواصّ الخليفة ، فأبْلغوه إيّاه وخوّفوه عاقبة ذلك ، وطالَعُوه بما حلّ بالخلق .

وكان الرّاهب قد أخذ من شخص خادم يُقال له جديحو سبعين ألف دينار بخرج من مائة ألف دينار ، فصار يشكو ، وكان كثير البضائع والتّجارَات والمقارضين ، فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبرُه إلى أستاذٍ من أستاذى القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة ، يقال له لامع – وكان قد انقطعَ فى منزله بالقصر بعد ما حجّ غير مرّة ، وأنشأ جلبة(٢) بعيذاب يقال لها اللّامعيّة تحمل الحاجّ – فاتفق جَوَاز الآمر على مكانه فسأل عنه ، فقيل له : إنه لا يستطيع النّهوض إلى خدمتك . فدخل إليه وسأله عن حاله ، فقال : شغلى بسمعة مولانا أشدّ علىّ من نفسى . فقال له الآمر : لِأىّ شىء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الناس قدْ تمّ عليهم من الشّدة ما لا أُحْسِن أَصِفه وربمّا نسب ذلك إليك . وشرح له أمر الرّاهب ابن أبى نجاح وصاحبِى الدّيوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبى قيراط وأبى يعقوب إبراهيم السّامرى الكاتب ، وما أخذوه من هذا الخادم . فحلف الآمر إنّه ما علم أنهم بلغوا بالناس إلى هذا المبلغ ، وأنه يستدعى صاحبِى الدّيوان فى كلّ وقت ويحلّفهما على المصحف وعلى التّوراة ، وأنّ الراهب لمْ يُجْعَل [١٣١ ب] إلّا مُسْتَوفيًا لما يُسْتخرج من الأموال وليس له

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١١٢٨ .

(٢) الجلبة بفتح الجيم والباء بينهما لام ساكنة ، والجمع جلاب ، سفن خاصة بنقل التجار و البضائع كانت تستخدم فى البحر الأحمر .Dozy: Supp. Dict. ar

معهما حديث ألبتَّة . فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين ، إنهم قد اتفقوا على أذى النَّاس ، وقد جعلك الله خليفةً فى الأرض واسْتَرْعاك على عباده ، وكلّ راعٍ مسئول عن رعيته . فشَقَّ على الخليفة ، وعمل فيه كلامُ الأستاذ ، وخرج ؛ فما بات حتى صَرَفَ صاحبي الدِّيوان واعتقلهما ، ليَسْتَعِيد منهما ما أخذاه للنَّاس ظلمًا ؛ واستدعى الرَّاهب ، وكان بحضرته رجل من الأشراف ، فلما حضر الراهب أنشد :

إنَّ الذى شرَّفتَ من أجله   يزعُمُ هـذا أنَّه كاذب[1]

فقال الآمر للرَّاهب : يا راهب ، ماذا تقول ؟ فسكت . فأمر حينئذ وَالِي مِصْر بأخذه إلى الشرطة وضَرْبِه بالنِّعال حتّى يمُوت . فمضى به إلى شرطة مصر ، ومازال يُضْرب بالنِّعال حتى مات ، فَجُرَّ بكعبه إلى عند كرسى الجسر[1] مسحُوباً ، وسُمِّر على لوح ، وطُرِح فى بحر النِّيل ؛ فكان كلَّما وصل إلى ساحلٍ من سواحل مصر وهو مُنْحدِر دَفَعُوه إلى البحر ؛ فلم يزل حتّى خرج إلى البحر الملح ، واشتُهِر ذكره ، وسارت الرّكبان بهلاكه .

وكان هذا الراهب أوّلا من أشْمون طنّاح[3] ، وترهّب على يد أبى إسْحاق بن أبى اليمن ، وزير ابن عبد المسيح متولّى ديوان أسفل الأرض[4] ، ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولى الدّولة أبى البركات يُحَنَّا بن أبى الليث ، كاتب المجلس[5] . فلمّا قتِل الوزير المأمون

---

(١) ذكر ابن خلكان فى ترجمة الفقيه أبى بكر محمد بن محمد الفهرى الطرطوشى أنه جلس إلى جوار الوزير الأفضل الجمالى فى إحدى زياراته له وأنشده هذا البيت مع سبقه ببيت آخر يقول :

يا ذا الذى طاعته قربة   وحقه مفترض واجب

وأشار فى أثناء إنشاده البيت المذكور بالمتن إلى رجل نصرانى من كتاب الأفضل كان يجلس إلى جواره ، فأمر الأفضل بإقامته من موضعه . وفيات الأعيان : ١ : ٥٧٩ .

(٢) الجسر المقصود هنا كان يمتد بين ساحل مصر (الفسطاط) وبين جزيرة الروضة ، وفيما بين جزيرة الروضة وبر الجيزة ، وقد عمل من مجموعة من المراكب صفت ، بعضها إلى جوار بعض ، موثقة بالحبال ، ومدت فوقها أخشاب غطيت بالتراب ، وذلك لعبور الناس والدواب . المواعظ والأعتبار : ٢ : ١٧٠ .

(٣) الضبط من معجم البلدان . بالقرب من دمياط ، وتقع جنوب دكرنس الحالية . معجم البلدان : ١ : ٢٦٠–٢٦١ .

(٤) كانت وظيفة متولى ديوان ما من الوظائف الهامة فى الدولة يعلوها منصب الناظر ويتلوها منصب المستوفى . ولم يكن من بين أعوان متولى الديوان أو من بين موظفى الدواوين عامة فى مصر من يلقب بالوزير .

(٥) كان الأفضل قد أنشأ فى سنة إحدى وخمسمائة ديواناً سماه ديوان التحقيق استخدم فى الإشراف عليه أبا البركات يوحنا بن الليث المذكور هنا فى المتن وقد بقى يعمل فى هذا الديوان إلى أن قتل سنة ثمان وعشرين وخمسمائة . واستمر هذا الديوان فى مهمته إلى انتهاء عهد الفاطميين ثم توقف ، وأعاده الكامل الأيوبى سنة أربع وعشرين وتوقف بعد سنتين ، ثم أعاده السلطان المعز أيبك واستخدمه فى استيفاء مقابلة الدواوين ، وهو نوع منه . نهاية الأرب : ٢٨ . ويقول المقريزى : وهذا الديوان مقتضاه المقابلة على الدواوين ، وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير وله الخلع والمرتبة والحاجب ، ويلحق برأس الديوان ، يعنى متولى النظر ، ويفتقر إليه فى أكثر الأوقات . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠١ .

اتّصل بالخليفة الآمر ، وبذل له فى مصادرة الكتّاب النّصارى مائة ألف دينار ، فأُطلق يده فيهم ؛ واسترسل أذاه حتى شملت مضرّته كلّ أحد .

وكان يُعْمَلُ له فى تنّيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصّوف الأبيض (المنسوج[1]) بالذهب ، فيلبسها ومن فوقها غفارة[2] ديباج ، ويتطيّب بِعدّةِ مثاقيل مسك فى كلّ يوم فكانت رائحته تشْتَمّ من مسافة بعيدة . وكان يركب الحُمُر الفَارهة بالسروج المحلّاة بالذّهب والفضة ، ويجلس بقاعة الخطابة من جامع مصر .

ولما قتِل وُجد له فى مقطع ثلثمائة طرّاحة[3] سامان محشوة جددًا لم تستعمل ، قد رُصّتْ إلى قرب السقف ، وهذا من نوع واحد ، فكيف ما عداه !

ولمّا قتِل وعرف الآمر ما كان يعمل فى النّاس من أنواع الأذى خَشِى من الله واستحْيَا من الناس ؛ وكره مُسَاءلة الفقهاء من الإسماعيلية عن ذلك وعن كفّارة هذا الذّنب لأنّه إمام ، وشرط الإمام أن يكون معصومًا . فسيّر إلى الفقيه سلطان بن رشا شيخ الفقيه مجلى ، وكان خليفة الحكم ، مع مَنْ يثق به يستفتيه فى أمر الرّاهب وما يكفّر عنه ، فقال : يردّ ما صار إليه من الأموال إلى أرْبَابها . فردّ عليه : إنى والله ما أعرفهم ولا أقدر على ذلك ؛ ولكن أعتق الرقاب وأتصدّق . فقال الفقيه : الخليفة قادرٌ على أن يعتق ويتصدّق ولا يتأثّر لذلك ، ولكن يصوم فإنّه عبادة شاقّة على مثله . فقال : أصوم الدّهر . فقال : لا ؛ ولكن الصّوم الذى وصفه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صوم يوم وفطر يوم . فقال : لا أقدر على ذلك . فقال : يصوم رجب وشعبان ورمضان . ففعل ذلك ، وتحرّم فى صومه وبرّه هذه الأشهر من كلّ ما يُنكَر فى الديانة .

---

(١) مابين القوسين مضاف من نهاية الأرب .

(٢) الغفارة المعطف .Dozy: Supp. Dict. ar

(٣) الطراحة : مرتبة يفترشها الخليفة أو السلطان إذا جلس . نفس المصدر .

سنة اربع وعشرين وخمسمائة (1)

فى ربيع الأوّل وُلِدِ للآمر ولد سمّاه أبا القاسم الطيّب ، فجُعِل ولىّ عهده ؛ وأمر فزيّنت القاهرة ومصر ، وعُمِلت الملاهى فى الإيوانات وأبواب القصور ، وكسيت العساكر ، وزُيّنت القصُور . وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشًا ومصاغًا مابين آلات وأوانى من ذهب وفضة وجوهر ، فزيّن بها ؛ وعُلّق الإيوان جميعُه بالسُّتور والسّلاح . واستمرّ الحال على هذا أربعة عشر يومًا .

وأحضر الكبْش الذى يُعَقّ به عن المولود(2) ، وعليه جلٌّ(3) من ديباج ، وفى عنقه قلائد الفضّة ، فذبح بحضرة الخليفة الآمر . وجئ بالمولود فشُرّف قاضى القضاة ابن ميسّر بحمله ؛ ونُثرت الدنانير على رءوس الناس . ومدّت الأسمطة العظيمة بعد ما كُتِب إلى الفيّوم والقليوبيّة والشرقية فأُحضرت منها [132 ا] الفواكه ، ومُلِئ القصر منها ومن غيرها من ملاذ النُّفوس ، وبُخِّر بالعنبر والعود والندّ حتى امتلأ الجوّ من دُخَانه .

فيها تواترت الأخبار بتخويف الآمر من اغتيال النزاريّة وتحذيره منهم ، وإعلامه بأنه قد خرج منهم قوم من المشرق يريدون قتله ؛ فتحرّز احترازًا كبيرا بحيث إنه كان لا يصل أحد من قطر من الأقطار إلاّ ويُفتّش ويُستقصَى عنه . وأقام عدّةً من ثقاته يتلقون القوافل ليتعرّفوا أحوال الواصلين ويكشفوا عنهم كشفًا جليًّا . وكلمّا اشتد الأمر كثر الخوف . واتّصل به أن جماعةً من النّزاريّة حصلوا بالقاهرة ومصر ، فاحترز وتحيّل فى قبضهم فلم يقدر لما أراده الله ؛ وفشا فى الناس أمرهم ، وكانوا عشرة فخافوا أن يُظْفَر بهم ، فاجتمعوا فى بيت وقالوا إنه قد فشا أمرُنا ولا نأمن أن يُظفَر بنا ؛ واشتوَرُوا . فقال أحدهم : الرأى أن تقتلوا رجلاً منكم وتُلْقُوا برأسه بَيْن القصرين لتنظروا إن عرفها الآمر

(1) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من ديسمبر سنة 1129 .

(2) العقيق والعقيقة ، والعقة بالكسر ، الشعر الذى يولد عليه كل مولود من الناس ، والبهائم ، ومنه سميت الشاة التى تذبح عن المولود يوم أسبوعه عقيقة . وعق عن ولده من باب رد إذا ذبح عنه يوم أسبوعه ، وكذا إذا حلق عقيقته . مختار الصحاح .

(3) الجل للدابة ، بضم الجيم ، كالثوب للإنسان يلبس ليقى من البرد ، والجمع جلال ، وجمع الجمع أجلة .

وكان عمره يوم قُتل أربعًا وثلاثين سنة وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوما[1] ، ومدّة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما ؛ ومازال محكوما عليه حتى قُتِل الأفضل ، فتزايد أَمْرُه عَمّا كان عليه أيام الأفضل . فلما قبض على وزيره المأمون استبدّ بالأمور ، وتصرّف فى سائر أحوال المملكة ، وأكثر من الرّكوب ، ورتّب لركوبه ثلاثة أيّام من كلّ أسبوع وهى يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء ، فإذا لم يتهيأ له الركوب فى أحَد هذه الأيام ركب فى يَوْمٍ غيره . فكان يمضى أبدًا فى يومى الثّلاثاء والسّبت إلى النّزهة فى بستان البعل والتّاج والخمس وجوه وقبة الهواء ، من ظاهر القاهرة ، أو إلى دار الملك بمصر ، أو بالهودج الذى أنشأه بجزيرة مصر التى يقال لها اليوم الروضة .

وكان يتجوّل فى أيّام النّيل فى القصر بخدمه ويسكن فى اللؤلؤة المطلّة على خليج القاهرة . وكان النّاس يَوْمَ ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنّظر إليه ، فيكون كيوم العيد . وصار الناس مدّة أيامه التى استبدّ فيها فى لهوٍ وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه ، لا سيمّا غلامه برغش ورفيقه هزار الملوك جوامرد ، حتى إنه لا يكاد يوجد [١٣٢ب] فى مصر والقاهرة من يشكو زمانه لبسطهم الرزق بين الناس وتوسّعهم فى العطاء . ثم تنكّدَ عيش الناس بقيام الرّاهب وكثرة مُصَادراته ، وشَرِه حينئذ الآمر فى أَخْذِ أموال النّاس ، فقَبُحت سيرته ، وكثُر ظُلْمُه واغتصابه لأَمْلاك كثيرة من أملاك الناس ، مع ما فيه من التجرّؤ على سَفْك الدّماء وارتكاب المحذورات واستحسان القبائح .

وفى أيّامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل والحصون بسواحل البلاد الشاميّة ؛ فمُلِكت عكا فى شعبان سنة سبع وتسعين ، وعرقة فى رجب سنة اثنتين وخمسمائة ؛ واستولوا على مدينة طرابلس الشام بالسيف فى يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذى الحجّة سنة اثنتين

---

(١) يذكر النويرى أن عمره كان أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر لأنه ولد فى يوم الثلاثاء لليلة خلت من المحرم سنة تسعين وأربعمائة . وهذا أصح مما ذكره المقريزى هنا واتفق معه فيه أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة . وقد اتفق الجميع على تاريخ مولده .

فتَتيقّنُوا أنّ حلاَكُم[1] قد ذكرت له ، فتَعْملوا الحيلة فى فراركم من مصر ؛ وإن لم يعرفها فتطمئنوا حينئذ وتعرفوا أنّ القوم فى غفلة . فقالوا : ما يتسع لنا قتلُ واحد منا ينقص عددنا وما بذاك أمِرْنا . فقال : أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته ؛ وما دَلَلْتكم إلاّ على نفسى . وأسرع بسكيّن فذبح بها نفسه فمات ، وأخذوا رأسه ورموها فى الليل بين القصرين ، وأصبحوا ينظرون ما سبق . فلمّا رُئِيت الرأس واجتمع النّاس عليها لم يقل أحدٌ إنه عرفها ، فحُملت إلى الوالى ، فأحضر عُرَفاء الأسواق على أرباب المعايش وأوقفهم عليها فلم يعرفها أحدٌ . فأحضر أصحاب الأرباع بالحارات[2] فلم يعرفوها . ففرح النزاريّة واطمأنّوا بالإقامة فى مصر لقضاءمُرادِهم .

وكان الآمر كثير الفُرَج محبًّا لِلّهو ؛ فركب فى يوم الثلاثاء الرابع مِنْ ذى القَعدة يُريد (أن) يجىء إلى الهودج[3] الذى بناه بجزيرة مصر لمحبوبته البدريّة ؛ ومن العادة فى الركوب أن يشاع فى أرباب الخدم بالموكب جهة قصد الخليفة حتى لا يتفرقوا عنه ، فعلم النزاريّة أين يقصد فجاءوا إلى الجزيرة المذكورة ودخلوا فُرْنًا قبالة الطّالع من الجسر إلى البرّ ، ودفعوا إلى الفرّان دراهم ليعمل لهم فطيرًا بَسمْنٍ وعسل ، فبينما هم فى أكله وإذا بالخليفة الآمر قد عَبَر من كرسى الجسر بمصر وجاز عليه وقد تفرّق عنه الركابية ومن يصونه بسبب ضيق الجسر . فلمّا طلع من ذا الجسر يريد العبور إلى الجزيرة وثبوا عليه وثْبَةَ رجُل واحد وضَربُوه بالسّكاكين ، وواحد منهم صار خَلْفَه على كفل الدّابّة وضربه عدّة ضربات . فأدركهم الناس وقتلوهم ، وكانوا تسعة ، وحُمِل الآمر فى عشارى إلى اللّؤلؤة ، وكانت أيام النيل ، فمات من يومه ؛ وحُمِل من اللّؤلؤة وهو ميّت إلى القصر[4] .

---

(١) الحلية ، وجمعها حلى ، مثل لحية : الصفة ، وقد تضم الحاء . مختار الصحاح .

(٢) فى النجوم الزاهرة : ٥ : ١٨٥ : أصحاب الأرباع والحارات .

(٣) الهودج من متنزهات الفاطميين العجيبة البديعة ، بناه الآمر بأحكام الله فى جزيرة الروضة لمحبوبته البدرية بجوار البستان المختار ، وكان يتردد عليه كثيراً ، وقتل وهو متوجه إليه ، وبقى الهودج بعد مقتله متنزهاً للخلفاء . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٥ — ٤٨٦ .

(٤) ذكر المقريزى هنا أن هذا حدث فى يوم الثلاثاء الرابع من ذى القعدة ، وذكر النويرى أنه حدث فى يوم الثلاثاء لليلتين خلتا منه .

وخمسمائة[1] ؛ وملكوا بانياس وجبَيلٍ بالأمان لثمانٍ بَقِيَن من ذى الحجة منها[2] . وملكوا قلعة تبْنين فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة ؛ وتسلمُوا مدينة صُور فى سنة ثمانِ عشرة وخمسمائة .

وكثرت المرافعات فى أيامه . واستخدم عدّة من الكُتّاب الظلمة الأشْرار ؛ وضَمّن اشياء لم تَجْرِ العادة بتضمينها ، وأخذ رسومًا لم تكن فيما تقدّم .

وعمل دكة عليها خركاة[3] فى بركة الحبش ؛ وعمر فى بركة الحبش مكانًا سمّاه تنّيس وموضعًا آخر سمّاه دمياط . وجدّد قصر القرافة ، وعمل تحته مصطبة للصوفيّة ، فكان يجلس فى أعلاه ويرقص أهل الطريقة قدّامه ، والشمع مَوْقُود والمجامر تَعْبق بالبخور ، والأسْمِطة تمَدُّ بكلّ صنفٍ لذيذ من الأطعمة والحلوى . وفرّق فى ليلةٍ عند تواجُدِ ابن الجوهرى الواعظ وتمزيق رقعته على مَنْ حضر وعلى الفقراء ألف نصفية[4] ، ونثر عليهم من الطّاق ألف دينار تَخَاطفوها .

وبنى الهودج لمحبوبته العالية البدريّة فى جزيرة الرّوضة . ولهذه البدريّة وابن ميّاح ، من بنى عمّها ، مع الآمر أحاديث صارت كأحاديث البطّال وشبهها قد ذكرتها عند جزيرة الروضة من هذا الكتاب .

وكان المنفَق فى مطابخه وأسْمِطته شئٌ كثير ، فكان عدّة ما يُذْبح له فى كل شهر خمسة آلاف رأس من الضّأن خاصّة ، سوى ما يُذبح ممّا سوى ذلك ، وثمن الرأس منها ثلاثة دنانير .

وكان أسمر شديد السُّمْرة ؛ يحفظ القرآن ، وخطُّه ضعيفًا . وكانت نفسُه تحدّثه

---

(١) يذكر النويرى أن طرابلس سقطت فى أيدى الفرنج سنة ٥٠٣ ، وهو ينفرد بهذا التحديد بينما يتفق ابن الأثير وابن القلانسى وأبو المحاسن مع المقريزى فى التاريخ الذى ذكر هنا بالمتن .

(٢) ينفرد النويرى أيضاً بتأريخ استيلاء الفرنج عليهما فى سنة ٥٠٣ .

(٣) الخركاة : الخيمة أو النجع . وكانت الدكة بستاناً من أعظم بساتين القاهرة فيما بين أراضى اللوق والمقس ، وأنشئت مكانه منظرة للفاطميين تشرف طاقاتها على النيل الأعظم ولا يحول بينها وبين بر الجيزة شئ . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٧٩ — ٤٨٠ ، ٢ : ١٢٠ — ١٢١ .

(٤) النصفية وجمعها نصافى قماش من نسيج الكتان والحرير ، وهناك أيضاً النصافى الحزية ، نسبة إلى بلدة حزة قرب إربل ، وهى ثياب من القطن الخشن ، السلوك : ٢ : ٦٨ ، استعانة بما جاء فى بدائع الزهور لابن إياس ومعجم البلدان وبتفسير Dozy : Supp. Dict. ar.

بالسّفر إلى الشرق والغارة على بغداد ، وأعدَّ لذلك سُروجًا مُجَوَّفة القرابيص [1] وبطّنها بصفائح من قصدير ليحمل فيها الماء ، وعمل لها فمًّا فيه صنفارة فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس ، فكان كلّ سرج منها سبعة أرطال من ماء ، وعمل عدة من حجال[2] الخيل من الديباج ؛ وقال فى ذلك :

دع الّلوم عنى ، لست منى بموثق　　فلا بدّ لى من صدمة المتحقّق
وأسقى جيادى من فراتٍ ودجْلةٍ　　وأجمعُ شمل الدين بعد التفرّق

ومن شعره أيضا :

أمَا والذى حجّت إلى رُكْنِ بيته　　جراهيم ركبانٌ مقلدةٌ شهْبا
لأقتحِمنَّ الحربَ حتّى يقالَ لى　　ملكْتَ زمامَ الحرب ، فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم　　فَيْرضى بنا صحْبًا ونَرْضى به صَحْبًا

وكانت وزارةُ الأفضل بن أمير الجيوش ، وكان حاجرًا عليه ليس له معه أمرٌ ولا نهى ، ولا تعود له كلمة إلى أن قتل ، ثم وزر له المأمون محمَّد بن فاتك البطائحى ، فصار له فى وزارته أمر ونهى ، وعادت الأسمطة على ما كانت عليه قديما ؛ وكان الأفضل قد نقلها فصارت تُعمل أيّام الأعياد والمواسم فى دار الملك بمصر حيث كان يسكن . فلما قتل المأمون استبدّ ولم يَسْتوزرْ أحدًا ، ودامت له الدّنيا .

وقُضاته : ابن ذكا النابلسى[3] ؛ ثم ولى (أبوالفضل الجليس)[4] نعمة بن بشير ، فطلب الإقالة ؛ فوَلِىَ بعده الرشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصِّقلى ، ومات ؛ فاستقرّ بعده الجليس نعمة بن بشير النابلسى مرة ثانية ؛ ثم صُرِف بأبى الفتح مسلم بن

---

(١) هكذا وردت فى الأصل . وفى القاموس المحيط القربوس ، بالسين المهملة ، كحلزون ، ولا يسكن إلا فى ضرورة الشعر : حنو السرج ؛ وهما قربوسان والجمع قرابيس ، والحنو ، بكسر الحاء وفتحها ، وكل مافيه اعوجاج من البدن كالضلع ، ومن غيره كالقف والحقف ، وكل عود معوج . القاموس المحيط .

(٢) الحجل بفتح الحاء وكسرها القيد ، وهو الخلخال أيضاً .

(٣) يقول النويرى إن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى عزله عن القضاء ، حين رفع إليه إبراهيم بن حمزة الشاهد أن ابن ذكا أحدث فى مجلس الحكم . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٤) ما بين القوسين زيادة منقولة من نهاية الأرب : ٢٨ .

الرّسعنى ؛ وعُزِل بأبى الحجّاج يوسف بن أيوب المغربى ؛ [١٣٣ ا] فلمّا مات استقرّ من بعده أبو عبد الله محمّد بن هبة الله بن ميسّر القيسرانى ، وقُتِل الآمر وهو قاض .

وكُتّاب الإنشاء فى أيّامه : سناء الملك أبو محمّد بن محمّد الزّيدى الحسينى ؛ والشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة الحلبى ؛ والشيخ تاج الرئاسة أبو القاسم ابن الصّيرفى ؛ وابن أبى الدم اليهودىّ .

وكان نقش خاتمه : الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين(١) .

وفى أيّامه نزع السّعر ، فبلغ القمح كل أردب بدينار . وكان الناس قد أَلِفُوا الرخاء فى أيام الأفضل والمأمون ، وبَعُدَ عهدهم بالغلاء ، فقلقوا لذلك .

ومن نوادر الآمر أنه عاشر الخلفاء الفاطميين وهو العاشر فى النّسب أيضا ، ولم يَلِ عشرة على نَسَقٍ واحد ليس بينه أخ ولا عمّ ولا ابن عمّ غير الآمر .

وعُرِض عليه فصلٌ فى التوحيد من جملته : « وهو المحذّر بقوارع التهديد ، من يوم الوعد والوعيد » ؛ فقال : إذا حذر من الوعد كما يحذّر من الوعيد ، فما الفرق بينهما ؟ وأمر أن يقال : « المحذّر بقوارع التهديد من هول يوم الوعيد » . واستدرك فى فصل آخر فى ذكر علىّ ، رضى الله عنه ، قوله : « وهو السّابقُ إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجابته » ؛ فقال : إن قوله « السّابق » غير مستقيم ، لأنه إن أراد التّخصيص فذلك غير صحيح ، إذ كانت خديجة سبقت إلى الإسلام ، والسابق منهم جائز أن يكون واحدًا وأن يكون جماعة ؛ والله تعالى يقول : « والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(٢) » ؛ وليس فى ذلك دليل على تخصيص واحدٍ بالتقدم على الباقين ؛ وذكر مثالا فقال : خيل الحلبة إذا أقبلت منها عشرة لا يخرج فيها واحد عن واحد قيل لها « السُّبَّق » ، وقيل لكلّ واحد منها سابق . وأمر أن يقال : « أول سابقٍ إلى دعوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وإجابته » .

---

(١) « قيل إن بعض منجميه كان عرفه أنه يموت مقتولا بالسكاكين ، فكان كثيراً ما يلهج بقوله : الآمر المسكين المقتول بالسكين » . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٨٥ .

(٢) سورة الواقعة : آية : ١٠ .

الحَافِظُ لِدِّينِ ٱللهِ أبُو المَيْمُوّن عَبْدُ المجِيدِ بْنُ الأَمِيرِ
أَبِي القَاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ المُسْتَنْصِرِ باللهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَدّ

وُلِد بعسقلان فى المحرّم سنة سبع ، وقيل سنة ثمانٍ ، وستين وأربعمائة لمّا أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقيّة أولاده فى أيّام الشدة ؛ فكان يقال له الأمير عبد المجيد العسقلانى ، ابن عمّ مولانا .

ولمّا قَتَل النّزاريّة الآمر كان كبارُ غلمانه العادلَ برغش وهزارَ الملوك جوامرد ، وينعت بالأفضل ، فَعَمَدَا إلى الأمير أبى الميمون عبد المجيد ، وكان أكبر الجماعة الأقارب سِنًّا ، وقالا : إن الخليفة المنتقل قال قبل وفاته بأسبوع عن نفسه : « المسكين المقتول بالسِّكِّين » ؛ وأشار إلى أن الجهة الفلانية حامل منه ، وأنّه رأى رؤيا تدُلّ أنّها سَتلِدُ ولدًا ذكرا وهو الخليفة من بعده وأنّ كفالته للأمير عبد المجيد أبى الميمون . فجلس المذكور كفيلاً ، ونعت بالحافظ لدين الله ، فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة[1] سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، يوم قتل الآمر بأحكام الله ؛ وتقرّر أن يكون هزار الملوك وزيرًا ، وأن يكون الأمير السعيد (أبو الفتح[2]) يانس (الحافظى[2]) ، متولىّ الباب أسفهسلارًا . وقُرِئ سجلٌّ فى الإيوان بهذا التّقرير والحافظ فى الشّباك جالس ؛ تَولىّ قراءته قاضى القضاة ابن ميسّر على كرسىّ نُصِب له أمام الحافظ ، بحضور أرباب الدّولة .

وخُلِع على هزار الملوك خلع الوزارة ، وقد اجتمع فى « بين القصرين » خمسة آلاف فارس وراجل ، وفيهم رضوان بن وَلَخْشِى ، أحد الأمراء المميّزين أرباب الشجاعة ، وهو رأس

---

(١) يحدد النويرى تاريخ البيعة بيوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذى القعدة .

(٢) زيد ما بين القوسين فى الموضعين استعانة بما جاء فى النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٤٠ . وهو رومى الأصل من مماليك الأفضل بن بدر الجمالى وإليه تنسب حارة اليانسية التى كانت تقع خارج باب زويلة الكبير ، وتعرف اليوم باسم درب الأنسية . يقول القلقشندى : وكان يانس يلقب بأمير الجيوش سيف الإسلام ، ويعرف بيانس الفاصد لأنه فصد حسن بن الحافظ ، وتركه محلول الفصادة حتى مات . واليانسية جماعة كانوا فى زمن العزيز بالله ، ومنهم يانس الصقلى ؛ وهناك أيضاً يانس العزيزى ، ونسبة هذه الحارة محتملة لأن تكون لكل منهم . انظر : المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٦ – ١٧ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٩ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

الجمع ؛ وفى داخل القاعة بالقصر أيضا جماعة فيهم بُزغش وقد شقّ عليه تقدُّم هزار الملوك وتَقلُّده الوزارة ؛ فنظر إلى أبى على أحمد بن الأفضل ، الملقّب كتيفات ، وهو جالس ، فقال : يا مولاى الأجل ، أنا أشحّ عليك أن تُطِيل الجلوس حتىّ يخرج هذا الفاعل الصّانع وزيرًا فتخدمَه ويسومَك المشى فى ركابه ؛ اخرج إلى دارك ، وإذا قضى اللهُ مضَيْتَ منها لهنائه .

وكان ظَاهرُ هذا القول مكارمةَ أبى على وباطنُه أنّه علم أن أكثر العسكر الواقفين بين القصرين لا يرغبون وزارة هزار الملوك ؛ فدبَّر أنّهم إذا وقعت أعينُهم على أبى علىّ تعلّقوا به وأقاموه وزيرًا ، فيفسد أمرُ هزار الملوك . [١٣٣ ب] فقام أبو علىّ ليخرج ، فمنعه طغج ، أحد نوّاب الباب ، وكان فطِنًا ذكيا ؛ فقال له بُزغش : لِمَ تمنع هذا المولى من الخروج ؟ فقال : كيف لا أمنعُه من الخروج إلى هذا الجمع ولا يؤمَن تعلقّ العسكريّة فيقع له ما وقع للآخر . فهزّه بزُغش وقال له : دَعْ عَنْك الفضُول . وقام بنفسه وأخرجه إلى آخر دهاليز القصر ؛ فما هو إلاّ أنْ خرج من باب القصر ورآه رضوان بن ولخشى والجماعة ، وقد علموا أن هزار الملوك قد خُلِع عليه للوزارة وأنّه سيخرج إليهم ، فتوَاثَبُوا إلى أبى علىّ وقالوا هو الوزير بن الوزير بن الوزير . وأراد أن يَنْفَلِت منهم واعتذر أنه شرب دواء ، فلم يُقْبل منه ؛ وطُلب له فى الحال خيمة وبيت صدار ، فضربت فى جانب من بين القصرين ، وأدخلوه فيها .

وقام الصّالح وثار العسكر بِمُوَافقتهم على وزارته والرّضا به ، وصاحوا أن لا سبيل أنْ يَلِىَ علينا هذا الصّانع الفاعل ، وأعْلَنوا بِشَتْمه . فغلقت أبواب القصر كلها واشتدّ الأمر ؛ فأحضر ضرغامٌ وأصحابهُ سلالم وأقاموها إلى طاقات المنظرة ، وأطْلَقُوا عليها أميرًا يقال له ابن شاهنشاه ، فلما أشرف على طاق المنظرة جاء أُستاذُو الخليفة وأنكروا عليه فعله ؛ فقال هذه فتنة تقوم ما تسُرّ ، فما الذى خلَعْتُم عليه ! ويحصل من ذلك على الخليفة من العوامّ وسُوءِ أدب جُهّال العسكر ما لا يُتَلَافى ؛ وما هذا شئٌ والله إلاَّ نصيحة لموْلانا ، فإنّنى قد علمتُ من رَأْىِ القوم ما لا علمتم . أخْبِروا مولانا عنىّ بهذا .

فمضى الأستاذون إلى الحافظ وأبلغوه ما قال ابن شاهنشاه وهزارُ الملوك بين يديه بخِلَع الوزارة يسمع القول ؛ فقال له الحافظ : ها أنت (ذا) تسمع ما يقال . فقال : يا مولانا ، أنا فى

مجلسك ووزارتي بوصية خليفة قبلك ، فاتركني أخرج لهؤلاء الفَعَلة الصَّنَعة . فقال : لا سبيل لفتح باب القصر فى مثل هذا الوقت ، وقد فعلنا فى أمرك ما رُتِّب لك ، وهذه الخلع عليك ؛ ولكن قد قال أمير المؤمنين علىّ بن أبي طالب عليه السّلام : لا رأى لمنْ لا يُطاع .

واشتدّ الأمر وكثُر تَمْوِيرُ العسكر[1] . فقيل لابن شاهنشاه : قد أُجِبْتُم إلى وزارة أبي علىّ وما نحن له كارهون . فأعاد ذلك على رضوان وأصحابه ، فقالوا : قُل له يسلم لنا هزار الملوك . فامتنع من ذلك وقدْ تَكَاثَر القوم على سُور القصر وعزموا على طلب المذكور ولا بُدّ . فقال الحافظ له : قم واحتجِبْ فى مكانٍ عسى ندبّر فى قضيتك أمرًا نصرِفُ به هذا الجمع عنا وعنك .

فنزعت الخلع عنه[2] وأحيط به ، فصار إلى مكانٍ قُتِل فيه قِتْلَةً مستورة وأُلْقِيت رأسُه إلى القوم فسكنوا .

واستُدْعِيَ بالخلع لأبي على ، فأُفِيضَت عليه فى يوم الأربعاء خامسه ، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مُشاةٌ فى ركابه . فكانت وزارة هزار الملك نصف يوم بغير تصرّف . وكان قد اصطفاه الآمر لنفسه هو وبُرْغش قبل موته بمدّة وردَّ له المظالم والنظر فى أحوال الجند ، وهو نوع من الوزارة ؛ وكان يُنْعت بالأفضل .

ووقع النَّهب فى القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة ، ونهبت القيسارية وكان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزَنَهم ، ومذ بُنِيَت لم يكن فيها أمر يُكْره ، فكان هذا أوّلَ حادثٍ حدث على القاهرة من النَّهب والطمع .

وطيف برأس هزار الملوك على رمح . واستقرّت الوزارة لأبي على أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكان يُلقَّب بكتيفات ، فى يوم الخميس سادس

---

(١) ماريمور مورا ، والاسم المور : الموج والاضطراب والتحرك . ومنه قول الله تعالى فى سورة الطور : « يوم تمور السماء مورا » . القاموس المحيط .

(٢) فى الأصل : ونزعت الخلع عليه . وهى لا تناسب الحديث .

عشر ذى القعدة[1] . فأوّل ما بدأ به أنه أحاط بالحافظ وسجنه فى خزانة فيما بين الإيوان وباب العيد[2] . ويقال إنّ رضوان بن ولخشى دخل إليه وقيّده ؛ فقال له الحافظ : أنت فحل الأمراء . فنُعِت بذلك .

وتمكن أبو علىّ واستولى على جميع ما فى القصر من الأموال والذّخائر[3] ، وحمل الجميع إلى دار الوزارة بعد أن فرّق أكثر ما كان الآمر جَمَعَهُ من الغلال فى الناس على سبيل الإنعام . وكان السّعر غاليا ، يباع القمح بنحو الدّينار كلّ إردب ، فأراد أبو على أن يُحَسِّن سمعته ، فأمر أنْ تفتح المخازن [١٣٤ ا] وأطلق أكثر ما كان فيها ، وكانت مئى ألوف أرادب . وردّ على النّاس الأموال التى فضلت فى بيت المال مِنْ مال المصادرة التى كان قد أخذها الآمر فى أيّام مُبَاشرة الرّاهب وما كُتِبَت به الخُطوط قبل ذلك ؛ وكان الذى وُجد خمسين ألف دينار . فاستبشر النّاس به وفرحُوا فرحًا ما ثَبَتَتْ منه عقولُهم ، وضجّوا بالدّعاء له فى سائر أعمال الدّيار المصريّة ؛ وأعلنوا بذكر معايب الآمر ومثالبه ، وأقطع الحجريّة[4] البلاد ، وظهر فرح النّاس وابتهاجُهم .

وأكرم بُزغُش العادل الذى أشار عليه بالخروج من القصر إكرامًا كثيرا . وكانت قد ضُربت ألواح على عدة أملاك فى أيام الآمر فأعيدت إلى أربابها .

وكان إماميًّا متشددًا[5] ، فالتفّتْ عليه الإماميّة ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامى ، وتزايد الأمرُ فيه إلى التأذين فانفعل بهم ، وحسّنوا له الدّعوة للقائم المنتظر ، فضرب الدّراهم

---

(١) ولقب بالأكل . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٣٩ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

(٢) باب العيد : أحد أبواب القصر الفاطمى الكبير ، وأمامه رحبة سميت باسمه ، وإنما سمى باب العيد لأن الخليفة كان لا يركب يوم العيد فى موكبه للصلاة إلا من ذلك الباب فى طريقه إلى المصلى خارج باب النصر . ويسمى أيضاً باب البيمارستان العتيق . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٥٠ ، ٩٤ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٤٦ .

(٣) وقال : هذا كله مال أبى وجدى . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٣٩ . وقد تقدم فى حديث مقتل الأفضل أن الآمر نقل أموال وزيره الأفضل المقتول إلى قصر الخلافة بمعاونة الوزير المأمون البطائحى .

(٤) الحجرية : صبيان الحجر وهم جماعة من الشباب يناهزون خمسة آلاف يقيمون فى حجر منفردة لكل منها اسم يخصها ، ومتى طلبوا لمهم لم يجدوا عائقاً . صبح الأعشى ٣ : ٤٧٧ .

(٥) يقول أبو المحاسن : إنه كان سنياً كأبيه ، وأظهر التمسك بالإمام المنتظر فى آخر الزمان فجعل الدعاء فى الخطبة له وغير قواعد الرافضة . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٣٩ . وهى عبارة يناقض شقها الأول بقيتها ، فأهل السنة لا ينتظرون الإمام المنتظر فى آخر الزمان .

باسمه ونقش عليها : الله الصّمد الإمام محمّد . وخطب بنفسه فى يوم الجمعة ، وكان أكثر خَلْقِ الله تخلُّفا وأقلَّهم عِلْمًا ، فغلط فى الخطبة غلطة فاحشة صحّفها فلم ينكر عليه أحد .

واشتدّ ضرَرُه على أهل القصر من الإرْعَاد والإبْرَاق ، وأكْثَر من إزعاجهم والتّفتيش على ولد الآمر وعلى يانس ، صاحب الباب ، وعلى صبيان الخاصّ الآمرية . وأراد أن يخلع الحافظ ويقتُلَه بمن قتله الآمر من إخوته . وكان الآمر لمّا احتاط على مَوْجُود الأفضل بعد قتله بلغه عن أولاد الأفضل كلام فى حقّه يُسْتَقْبحَ ذكرُه ، فأقام عليهم الحجّة عندما مثلوا بحضرته ، وقال : أبوكم الأفضل غلامى ولا مال له . فسفه عليه أحدهم ؛ فغضب وقتلهم . فأراد أبو على بتفتيشه على الْحَمْل الّذى ذُكر أنه من الآمر أن يظفر به ليقتله بإخوته ؛ فلم يظهر الحمل ، ولا قَدَرَ أيضا على قتل الحافظ ولا خَلْعِه ، فاعتقله كما تقدّم ، وخطب للقائم المنتظر تمويهًا . فنفرت قُلوب أهل الدّولة منه ، وقامت نُفُوسُهم منه . وتعصّب قومٌ من الأجناد من خاصّ الخليفة ، بترتيب يانس لهم ، وتحالفوا سرًّا على قَتْله ، وكانوا أربعين رجلا ، وصاروا يرتقبون فرصة ينتهزونها .

وفيها قُبِض على جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط وعَلَى أبى يعقوب ابراهيم السّامرى ، ونهب الجند دُورَهُما ؛ وحُبسا فى حَبْسِ المعونة ، ثم أُخرجا ميّتَين[1] .

---

(١) وهما الكاتبان اللذان عينهما الآمر بأحكام الله فى ديوان استخراج الزكاة والمكوس عقب اعتقال المأمون البطائحى الوزير ، وأولهما مسلم والآخر يهودى وقد سبقت الإشارة إلى ذلك . ودار المعونة المشار إليها داران إحداهما بالفسطاط والأخرى بالقاهرة . واسم الدار مأخوذ من ظروف إنشائها إذ أنها بنيت فى الأصل على زمن قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى بمعونة المسلمين لينزلها ولا تهم ، ثم جعلت داراً للشرطة ، ثم حولت فى زمن العزيز بالله إلى سجن عرف باسم حبس المعونة . وعندما تولى صلاح الدين الأيوبى شئون مصر حولها إلى مدرسة للشافعية . وأصبحت تعرف على زمن المقريزى باسم المدرسة الشريفية . وحبس المعونة بالقاهرة كان يسجن فيه أرباب الجرائم من السراق وقطاع الطريق ونحوهم فى عصر الفاطميين ، وكان سجناً ضيقاً شنيعاً يشم بالقرب منه روائح كريهة . أما الأمراء والأعيان فكانوا يسجنون بخزانة البنود . المواعظ والأعتبار : ١ : ٤٦٣ ، ٢ : ١٨٧ ، ١٨٨ .

سنة خمس وعشرين وخمسمائة [1]

فيها رتّب أبو علىّ بن الأفضل فى الحكم أربعة قضاة ، فصار كلّ قاضٍ يحكم بمذهبه ويورّث بمذهبه ؛ فكان قاضى الشافعيّة سلطان بن إبراهيم بن المسلم بن رشا[2] ، وقاضى المالكية أبو عبد الله محمّد بن أبى محمّد عبد المولى بن أبى عبد الله محمد بن عبد الله اللبنى المغربى ، وقاضى الإسماعيليّة أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمّد القاضى فخر الأمناء الأنصارى المعروف بابن الأزرق ، وقاضى الإماميّة القاضى المفضّل أبو القاسم ابن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبى كامل . ولم يسمع بمثله هنا فى الملّة الإسلاميّة قبل ذلك .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من ديسمبر سنة ١١٣٠ .

(٢) أبو الفتح المقدسى الشافعى ، قال عنه السلفى إنه من أفقه الفقهاء بمصر ، عليه تفقه أكثرهم . وقال الذهبى أخذ عن نصر المقدسى وسمع من أبى بكر الخطيب . وقال الإسنوى برع فى المذهب ودخل مصر بعد السبعين (من عمره) وروى عن السلفى وغيره . وتوفى وعمره ست وسبعون سنة ، فى سنة ثمان عشرة أو تسع عشرة وخمسمائة فى قول الذهبى ، وهو غير مقبول لأنه تولى القضاء الشافعى فى مصر سنة خمس وعشرين . وقال ابن نقطة توفى سنة خمس وثلاثين . وهذا أقرب . شذرات الذهب : ٤ : ٥٨ — ٥٩ .

سنة ست وعشرين وخمسمائة (1)

فى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرّم ركب أبو على أحمد بن الأفضل إلى رأس الطابية ليُعرّق فرسًا فى الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة ، وللعب بالكرة(2) على عادته ؛ فجاء وهو هناك عشرة من صبيان الخاص الّذين تحالَفُوا على قتله متى ظفروا به جميعًا أو فُرادَى ، فصاح أبو على ، عَادةَ مَنْ يسابق بخيلٍ : راحت ، فقال العشرة : عليك ، وحَمَلُوا عليه وطعنوه حتى قُتِل . فأدركه أستاذ من أستاذيه وألقى نفسه عليه فقتلوه معه.

واجتمع الأربعون عنانًا واحدًا وجاءوا إلى القصر وفيهم يانس ، وكان مُسْتَوحِشًا من أبى على ، فأخرجوا الحافظ من الخزانة التى كان معتقلاً بها ، وفكّوا عنه القيد وأجلسوه فى الشباك على منصة الخلافة ، وقالوا : ما حرّكنا على هذا إلاّ الأمير يانس . فاجتمع الناس ، وأُخِذ له العهد على أنّه وَلِىٌّ عهدٍ كفيلٌ لمن لم يُذكر اسمه(3) .

ونُهِب فى هذا اليوم كثير من الأسواق والدُّور والحوانيت ؛ وصار ذلك عادة مستقرة وشيئًا معهودًا فى كل فتنة .

وحُمِل رأس أبى على إلى القصر . وكان قد أسْقَط منذ [134 ب] أقامه الجندُ ذِكْر إسماعيل بن جعفر الصّادق الذى تُنْسب إليه الطائفة الإسماعيليّة . وأزال من الأذان قولهم فيه : « حَىّ على خير العمل ، محمد وعلىّ خير البشر » ؛ وأسقط ذِكْر الحافظ من الخطبة ؛ واخترع لنفسه دعاءً يدعى به على المنابر وهو : « السّيد الأجلّ الأفضل ، سيّد ممالك أرباب

(1) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من ديسمبر سنة 1131 .

(2) من ألعاب الفروسية ، وهى اللعبة المعروفة الآن بلعبة البولو Polo . وكان يقام لها احتفال خاص يخرج فيه الخليفة أو الأمير فى موكب رسمى . ومن أدواتها الكوجان أو الصولجان وهو المحجن الذى تضرب به الكرة ، وهو عصا مدهونة برأسها خشبة معقوفة . وكانت عادة السلطان – زمن المماليك – أن يركب للعب بالكرة بعد وفاء النيل ثلاثة مواكب متوالية فى كل سبت يخرج أول النهار من باب الإصطبل وينزل إلى قصوره ، ومعه الأمراء على منازلهم ، ثم يركب للعب بعد صلاة الظهر ، ثم ينزل ليستريح ويستمر الأمراء فى اللعب إلى آذان العصر . ثم يعود بعد صلاة العصر إلى قصره . صبح الأعشى : 4 : 47 ، 5 : 458 ؛ المواعظ والاعتبار : 2 : 197 ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(3) كانت البيعة الأولى عقب مقتل الآمر بيعة بولاية العهد على أن يكون كفيلا لحمل الذى ذكر الآمر أنه يتوقعه . أما هذه المرة فكانت البيعة بالخلافة أصالة . الكامل : 10 : 240 ؛ نهاية الأرب : 28 .

الدّول ، المحامى عن حَوْزة الدّين ، وناشر جناح العدل على المسلمين ، الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحقّ فى حَالَىْ غيبته وحضوره ، والقائم فى نصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره ، أمين الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحقّ واعتماده ، ومرشد دُعاته المؤمنين إلى واضح بيانه وإرشاده ، مُولِى النّعم ، رافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم ؛ أبو على أحمد بن السّيّد الأجلّ الأفضل أبى القاسم شاهنشاه أمير الجيوش » .

وكانت مدّة تحكمه سنة وشهرًا وعشرة أيّام[1] ؛ ثم حمل بعد قتله ودُفِن بتربة أمير الجيوش[2] ، ظاهر باب النصر .

وخُلِع على السّعيد أبى الفتح يانس الأرمنى ، صاحب الباب ، خِلع الوزارة ؛ وكان من غلمان الأفضل بن أمير الجيوش العقلاء ، ولَهُ هَيْبة ، وعنده تماسُكٌ فى الأمور وحفظ للقوانين . فهدأت الدّهماء وصلحت الأحوال ؛ واستقرّت الخلافة للحافظ ؛ وحُمِل جميعُ ما كان قد نُقِل إلى دار الوزارة من الأموال والآلات وأعيد إلى القصر .

ولم يُحْدِث يانس شيئا ؛ إلاّ أنّه تخوّف من صبيان الخاصّ ، وحدثته نفسه أنهم قد جسروا على الملوك ، وأنه رُبّما غضبوا منه ففعلوا به ما فعلوه بغيره ؛ وأحسُّوا منه بذلك فتفرّقوا عنه .

فلمّا تأكدت الوحشة بينهم وبينه ركب فى خاصّته وغلمانه وأركب العسكر ، والتقوا قبالة باب التّبّانين[3] بين القصرين ، فقتل منهم مايزيد عن ثلثمائة فارس من أعيانهم ، فيهم قَتَلَةُ أبى على أحمد بن الأفضل . وكانوا نحو خمسمائة فارس ، فكسر شوكتهم وأضعفهم فلم يَبْقَ منهم مَنْ يُؤْبَه له ولا يُعتدّ به ، فقوِىَ أمرُ يانس وعَظُم شأنه .

وكانت له فى النفوس مكانة ، فثقُل على الحافظ وتخيّل منه ، فأحسّ بذلك ، وصار

(١) صحة هذا كما ذكر النويرى : سنة وشهران وثلاثة عشر يوماً . ذلك أن الحافظ تولى الخلافة فى الثانى ، أو الرابع ، من ذى القعدة سنة أربع وعشرين ، كما تقدم ، وتولى الأكمل الوزارة بعد ذلك بيومين وبقى فيها إلى يوم مقتله فى سادس عشر المحرم من هذه السنة .

(٢) كانت تربة أمير الجيوش بدر الجمالى أول تربة أنشئت بمقابر باب النصر ، خارج الباب ، فى المنطقة التى كانت تعرف برأس الطابية . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٦٣

(٣) باب التبانين من أبواب القصر الفاطمى الغربى ، مكانه زمن المقريزى باب قبو الخرنشف (الخرنفش) ، وفى موضعه بنيت دار العلم الجديدة . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٥٨ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٨ .

كلٌّ منهما يدبّر على الآخر . فبدأ الوزير يانس بحاشية الخليفة ، فقبض على قاضى القضاة وداعى الدّعاة أبى الفخر صالح بن عبد الله بن رجاء وأبى الفتوح بن قادوس فقتهلما . وبلغه شئٌ يكرهه عن أستاذ من خاصّ الخليفة ، فقبض عليه من غير مشاورة الحافظ ، واعتقله بخزانة البُنُود ، وضرب عنقه من ليلته . فاستبدّت الوحشة بينه وبين الحافظ ، وخشى من زيادة معناه ، فقال (الحافظ)[1] لطبيبه : اكْفِنِى أمره بمأكل أو مشرب . فأبى الطبيب ذلك خوفا من سوء العاقبة . ويقال إنّ الحافظ توصّل إلى أن سمّ يانس فى ماء المُسْتَراح ، فانفتح دُبُره واتّسع حتّى ما بقى يقدر على الجلوس[2] . فقال الطبيب : يا أمير المؤمنين ، قد أمكنت الفرصة وبلغت مقصودك ، فلو أنّ مولانا عاده فى هذه المرضة اكْتَسَبْتَ حُسْن الأُحْدُوثة ؛ وهذا المرض ليس دواؤه إلاّ السّكون ولا شئٌ أضرّ عليه من الحركة والانزعاج ، وهو كما يسمع بقصد مولانا تحرّك واهتمّ بلقائه وانْزَعج ، وفى ذلك تَلَافُ نفسه . فقبل ذلك وجاء لعيادته . فلمّا رآه يانس قام للقائه وخرج عن فراشه ؛ فأطال الحافظُ جلوسه عنده ومحادثته ، فلم يقم حتّى سقطت أمعاؤه ، ومات من ليلته ، فى سادس عشرى ذى الحجّة .

وكانت وزارته تسعة أشهر وأيّاما . وترك ولدين كفلهما الحافظ .

وكان يانس هذا قد أهداه باديس[3] جدّ عبّاس الوزير ــ الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ــ إلى الأفضل بن أمير الجيوش فترقى فى الخدم إلى أن تأمّر وتقدّم ووَلِىَ الباب ، وهى أعظم رتب الأمراء ، وكنى بأبى الفتح ولقب بالسّعيد ؛ ثم نعت فى وزارته بناصر الجيوش سيف الإسلام . وكان عظيم الهمّة بعيد الغور ، كثير الشرّ ، شديد الهيبة .

---

(١) زيد ما بين القوسين للتوضيح .

(٢) يقول ابن الأثير : وضع له خادمه فى بيت الطهارة ماء مسموماً ، فاغتسل به ، فوقع الدود فى سفله ، وقيل له متى قمت من مكانك هلكت . فكان يعالج بأن يجعل اللحم الطرى فى المحل فيتعلق به الدود فيخرج ، فيجعل عوضه لحم آخر حتى قارب الشفاء ، ثم زاره الحافظ . . . إلخ . ويروى النويرى مثل هذا . الكامل : ١٠ : ٢٤٠ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

(٣) باديس : أبو المناد ، بن المنصور بن يوسف بن بلكين بن زيرى ، صاحب إفريقية على زمن الحاكم بأمر الله نيابة عنه ، تولى أمر إفريقية بين سنتى ٣٨٦ – ٤٠٦ (٩٩٦ – ١٠١٥) . ومن هذا يتبين أنه يتعسر قبول ما ذكره المؤلف من أن باديس هذا أهدى يانس الأرمنى المذكور إلى الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى . وفيات الأعيان : ١ : ٨٦ – ٨٧ ؛ معجم الأنساب ؛ Mohammadan Dynasties .

وفيها استقرّت حال الحافظ لدين الله وبُويعَ له بيعة ثانية لمّا عُمِل الحمل . قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى : رأيت صغيرًا فى القرافة الكبرى ، ويسمى قُفَيفة ، سألت عنه ، قيل هذا ولد الآمر : لما وَلّى الحافظَ وَلِىَّ عهده من يُولد ، استولَى على الأَمْر ، ووُلِد هذا الولد فكتم حاله ، وأُخرج فى قُفّة [١٣٥ ا] على وجهها سَلْق وكُرّات ، وستر أمره إلى أن ركب بعد ذلك وَوُشِى به فأُخِذ وقُتِل .

ولمّا تمكّن الحافظ قُرِئ سجلّ بإمامته ، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بِزِىّ الخلفاء ، فى ثالث ربيع الأوّل ؛ ورفع عن النّاس بواقى مكس الغلّة .

وأمر بأن يُدْعَى له على المنابر بهذا الدّعاء ، وهو : « اللّهم صَلّ على الذى شيّدت به الدين بعد أن رام الأعداء دُثُورَه ، وأعزَزْت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمّة وظهوره ، وجعلته آية لمن تدبّر الحقائق ببأطن البصيرة ، مولانا وسيّدنا ، وإمام عصرنا وزماننا ، عبد المجيد أبى الميمون ، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين » .

وفيها صُرِف أبو عبد الله محمّد بن هبة الله بن ميسّر عن قضاء القضاة ، فى أول ربيع الأوّل ، وقُرّر مكانه سراج الدّين أبو الثّريا نجم بن جعفر ، وأضيفت إليه الدّعوة ، فقيل له قاضى القضاة وداعى الدّعاة ، وذلك وقت العشاء الآخرة من ليلة الخميس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة[1] .

ولمّا مات يانس تولىّ الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزِرْ أحدًا وأحسن السّيرة .

ويقال إن يانس لمّا قتل القاضى أبا الفخر سلّم الحكم إلى سراج الدّين أبى الثُّريا نجم بن جعفر .

وفيها جهّز الحافظ الأمير المنتضى أبا الفوارس وثّاب بن مسافر الغَنَوىّ رسولاً فى الرابع ن ذى القعدة بجواب شمس الملوك[2] ، صاحب دمشق ، وأَصْحَبَه الخِلَعَ السّنيّة وأسفاط

---

(١) وقتل فى ذى القعدة سنة ثمان وعشرين . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٢) شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بورى بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين ، صاحب دمشق بين سنتى ٥٢٦ — ٥٢٩ (١١٣٢ — ١١٣٤) ، تولى أمر دمشق بعد وفاة والده تاج الملوك متأثراً بالجراح التى أصابه بها الباطنية فى سنة ٥٢٥ ، وبقى شمس الملوك حتى دبرت أمه مقتله فى سنة ٥٢٩ حين اتهمه أمراؤه وأعوانه بأنه كان يدبر لتسليم دمشق إلى عماد الدين زنكى الذى كان يحاول الاستيلاء عليها . يقول ابن القلانسى فى ذلك : « فلم تجد لدائه دواء ولالسقمه شفاء=

الثياب والخيل المسوّمة ومالاً متوفّرًا . فوصل إلى دمشق وتُلُقِّيَ أحسن تَلَقٍّ[1] ، وقُبِلت الألطاف منه ، وقُرِئَ كتابهُ . وأقام إلى أن اعيد من القابلة[2] .

وفيها خرج أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر ، وكان قد توجّه إلى المغرب مستخفيا وجمع هناك جموعًا كثيرة وعاد . فبعث الحافظ إلى مقدّمى عسكره يَسْتَميلُهم . فلمّا وصل دير الزجاج والحمّام[3] اغتالوه وقتلوه فانفضّ جمعه .

= إلا بالراحة منه وحسم أسباب الفساد المتزايد عنه ... فصرفت الهمة إلى مناجزته ، وارتقبت الفرصة فى خلوته ، إلى أن تسهل الأمر المطلوب عند خلوته من غلمانه وسلاحيته ، فأمرت غلمانها بقتله وترْك الإمهال له غير راحمة له ولا متألمة لفقده . . . وأوعزت بإخراجه حين قتل وإلقائه فى موضع من الدار ليشاهده غلمانه . وكل سر بمصرعه وابتهج بالراحة منه ، وبالغ فى شكر الله تعالى على ما سهله فيه ، وأكثر الدعاء لها والثناء عليها » . ذيل تاريخ دمشق : ٢٤٥ – ٢٤٧ . ويلاحظ أن ابن القلانسى دمشقىّ معاصر لهذه الأحداث . انظر أيضاً : الكامل : ١١ : ٧ – ٨ .

(١) فى الأصل : وتلقى أحسن ملقى .

(٢) لم أجد لهذه البعثة ذكراً فى غيره من المراجع . وقد سبق أن أرسل الآمر هذا المبعوث إلى دمشق وإلى الموصل ، سنة ٥٢٠ ، فأدى رسالة دمشق ثم عاد ، إذ بلغه أن آق سنقر البرسقى قد توفى مقتولا بأيدى الباطنية . راجع ما تقدم فى أخبار سنة ٥٢٠ وفى تعليقاتها .

(٣) فى المغرب للبكرى : ٨٥ – ٨٦ تحديد لمسار السفن من طرابلس إلى الإسكندرية وفيه عند الاقتراب من مرسى السلوم إلى رأس العوسج إلى الكنائس إلى الشقر إلى بوصير إلى ميناء « الزجاج » إلى ميناء الأندلسيين إلى ميناء الإسكندرية . الحمام بتشديد الميم : موضع بين الإسكندرية وإفريقية . القاموس المحيط . معجم البلدان : ٣ : ٣٣٤ .

سنة سبع وعشرين وخمسمائة(1)

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية ، فخرج إليهم عسكر كانت بينهم وبينه حروب .

وفيها سلّم الحافظ أمر الدّيوان إلى الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غسّان ، المعروف بابن العسّاف ، وصرف يوحنا بن أبى اللّيث لأشياء نقمها عليه ، وسَعَوْا فيه عنده بأنه كان سببًا فيما عمله أبو على أحمد بن الأفضل من تفريق ما فرّقه من الأموال لأهله وأقاربه . واستخدم الحافظ أيضا أخا معتمد الدّولة فى نقابة الأشراف(2) وجعله جليسا ؛ وكان عنده أدب ومعرفة بعلم الفلك ، وكان الحافظ يحب هذا العلم .

وفيها قبض على ابن عبد الكريم ، تربية الآمر ، فوجد له ثلثمائة وستّون منديلا مذهبة ، وعلى مثالها ثلثمائة وستون بذلة مذهبة ؛ فكان يلبس كل يوم بذلة . وكل منديل ، وهى العمامة ، على مسمار فضة . ووجد له خمسمائة نرجسية ذهبا وفضة ؛ ومائتا صندوق فيها ثياب ملونات ؛ ومائة حسكة ذهبا وفضة ؛ ومن الجوهر ما يعجز عن وصفه .

(1) ويوافق أول المحرم منها الثانى عشر من نوفمبر سنة ١١٣٢ .

(2) نقابة الأشراف هيئة رسمية أنشأها الفاطميون لرعاية شئون العلويين ، وكان يتولى رئاستها واحد من كبار شيوخهم وأبرزهم مكانة ، يسهر على التحقق من صحة أنسابهم وإثباتها ورعاية مصالحهم وعيادة مرضاهم والسير فى جنائزهم . وكانت تعرف من قبل باسم نقابة الطالبيين . ولهذه المؤسسة نظير فى الجانب الشرقى من البلاد الإسلامية فى ظل العباسيين . النجوم الزاهرة فى مواضع متفرقة ؛ وكذلك المواعظ والاعتبار ؛ الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد الله عنان .

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة(1)

فيها عَهِد الحافظ إلى ولده سليمان ، وكان أَسَنَّ أولاده وأحَبَّهم إليه ، وأقامه ليسدّ مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إياه فى أوامره ونواهيه، فمات بعْد وِلاية العهد بشهرين ، فحزن عليه مدّة . ثُمّ جعل ابنه حيدرة وَلِيّ عهده ونَصَبَه للنّظر فى المظالم ، فشقّ ذلك على أخيه حسن لأنه كان يَرُوم ذلك لكثرة أمواله وتِلاده وحواشيه وموكبه ، بحيث كان له ديوان مُفْرد . وما زالت عقارب العداوة تدبّ بينهما حتّى وقعت الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الرِّيْحانيّة(2) ، وكانت شوكة الرّيحانية قوية والجند يشنئونهم خوفا منهم فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين ؛ وصاح الجند : يا حسن يا منصور ، يالَلْحَسَنيّة .

والْتَقَى العسكران ؛ فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف رجل(3) . فكانت أوّلَ مُصِيبة نزلت بالدولة [135 ب] من فقْدِ رجالها ونَقْصِ عدد عساكرها ؛ ولم يسلَمْ من الرّيحانيّة إلاّ مَنْ ألْقى نفسه فى بحر النيل من ناحية المقس(4) . واستظهر حسن وصار الأمر إليه ، فانضمّ له أَوْبَاش العسكر وزُعّارُهم(5) ، وفرّق فيهم الزّرد وسمّاهم صبيان الزّرد ، وصاروا لا يفارقونه ويحفّون به إذا ركب ، ويلازمون داره إذا نزل .

فقامت قيامة النّاس ، وقبض على ابن العساف وقتله واختفى منه الحافظ وحيدرة ؛

(1) ويوافق أول المحرم منها أول نوفبر سنة 1133 .

(2) تنسب الطائفة الجيوشية إلى أمير الجيوش بدر الجمالى أما الريحانية فلعلها تنسب إلى عزيز الدولة ريحان القائد الذى تولى إخماد ثورة بنى قرة فى البحيرة أيام المستنصر ، فنال حظوة الخليفة وقرب إليه جماعة من المغاربة وزاد فى أعطياتهم . وهناك حارة من حارات القاهرة عرفت باسم حارة الريحانية نسبة إلى هذه الطائفة العسكرية ، ثم سكنها بهاء الدين قراقوش من رجال صلاح الدين الأيوبى فأصبحت تعرف باسم حارة بهاء الدين . المواعظ والاعتبار : 2 : 2 ؛ النجوم الزاهرة : 4 : 38 ، 45 ؛ الفاطميون فى مصر : 210 — 211 .

(3) يذكر النويرى أن القتلى كانوا نحو عشرة آلاف . ويبدو أن تعليق المقريزى هنا بأن هذه كانت أول مصيبة نزلت بالدولة « من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها » غير دقيق ، ذلك أن فتنا كثيرة حدثت زمن المستنصر بين الأتراك والكتاميين ، واشترك السودانيون فى بعضها ، ثم جاء بدر الجمالى الأرمنى بجنوده فقضى على كثير من الجند والقادة الذين خشى إفسادهم وإضرارهم .

(4) وكانت هذه المعركة فى الخامس من رمضان من هذه السنة . نهاية الأرب : 28 .

(5) الزعارة بتشديد الزاى المفتوحة شراسة الخلق ، ولا فعل له ، والزعرور كعصفور السيء الخلق ، والعامة تقول رجل زعر وفيه زعارة . مختار الصحاح .

وجد فى طلب حيدرة . وهتك بالأوباش الذين اختارهم حُرمة القصر وخرق ناموسه من كونه نغّص على أبيه وأخيه ، وصاروا يحسّنون له كلّ رذيلة ، ويحرّونه[1] على أذى الناس .

فأخذ الحافظ فى تلافى الأمر مع حسن ليَنْصلح ؛ وعهِد إليه بالخلافة فى يوم الخميس لأربع بَقِين من شهر رمضان ، وأرْكَبَه بالشعار ، ونعت بولى عهد المؤمنين . وكتب له بذلك سجلاً قرئ على المنابر ، فكان يُقال على المنابر : « اللّهم شَيِّد ببقاء ولى عهد المؤمنين أركان خلافته ، وذلِّل سيوف الاقتدار فى نَصْره وكفايته ، وأعِنْه على مصالح بلاده ورعيته ، واجمع شملَهُ به وبكافّة السّادة إخوته ، الّذين أطْلَعتهم فى سماء مملكته بُدُورًا لا يغيرها المحاق ، وقمعْتَ ببأسهم كُلّ مرتدّ من أهل الشّقاق والنفاق ، وشددت بهم أزر الإمامة ، وجعلت الخلافة فيهم إلى يوم القيامة » .

فلم يزده ذلك إلاّ شرًّا وتعدّيا ؛ فضيقّ على أبيه وبالغ فى مضرّته . فسير الحافظ وفىّ الدولة إسحاق ، أحد الأستاذين المحنّكين ، إلى الصّعيد ليجمع ما قدر عليه من الرّيحانية فمضى واستَصْرَخ على حسن ، وجمع من الأمم ما لا يعلمه إلا الله ؛ وسَارَ بهم . فبلغ ذلك حسنًا ، فجهز إليه عسكرا عرَمْرَمًا وخرج ؛ فالتقى الجمعان . وهبّت ريح سوداء فى وجوه الواصلين ، وركبهم عسكر حسن ، فلم يفلت منهم إلا القليل ، وغرق أكثرهم فى البحر وقُتِلوا ؛ وأخذ الأستاذ إسحاق وأدخل إلى القاهرة على جمل برأسه طرطور لبد أحمر . فلما وصل بين القصرين رُمِى بالنّشاب حتى مات ، ورُمِى إليهم من القصر الغربىّ أستاذ آخر فقتلوه ، وقُتِل الأمير شرف الأمراء .

فلما اشتد الأمر على الحافظ عمل حيلة وكتب ورقة ورماها إلى ولده حسن ، فيها : « يا ولدى ، أنت على كلّ حالٍ ولدى ، ولو عمل كلّ منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه . ولا يحملنى قلبى ، وقد انتهى الأمر إلىّ أن أمراء الدولة فُلانًا وفُلانًا — وسمّاهم له — وأنك قد شدّدْت وطأتك عليهم وخافوك ، وأنهم مُعوِّلون على الفتك بك ؛ فخُذْ حذرك يا ولدى » .

---

(١) فى الأصل : يحروه بتشديد الراء . حر الماء حرا : أسخنه ، والحرير من تداخلته حرارة الغيظ كالمحرور . القاموس المحيط . ولعله استعمله بالصيغة العامية التى تستعمل فى أيامنا هذه بمعنى التحريض والإثارة .

فلمّا وقف حسن على الورقة قامت قيامته . فلمّا اجتمع أولئك الأمراء فى داره للسّلام عليه أمر صبيان الزّرد الذين اختارهم وصار يثق بهم فقتلوهم بأجمعهم ، وأَخَذَ ما فى دُورِهم . فاشتدّت مصيبة الدّولة بفَقْد من قُتِل من الأمراء الذين كانوا أركان الدّولة ، وهم أصحاب الرأى والمعرفة ، فَوَهَتْ واختلّتْ لقِلّة الرّجال وعدم الكُفَاة .

ومن حين قَتَل حسن الأمراء تخوّفه باقى الجند ونفرت نفوسهم منه فإنه كان جريئا عنيفًا بحّاثًا عن الناس يريد إقلاب الدوّلة وتغييرها لتقدّم أصحابه ، فأكثر من مصادرة الناس ، وقتل سراج الدين أبا الثريا نجمًا فى يوم الخميس ثامن شوال . وكان أبو الثريا فى أوّل أمره خاملاً فى الناس ، ثم سمع قوله فى العدالة أيّام الآمر . فلمّا قَبض أحمد بن الأفضل على أبى الفخر وسجنه عنده بدار الوزارة ، وقد كان الداعى أيام الآمر ، طلب من يكون داعيا ، فاستخدم نجمًا هذا داعيًا ولم يقف على ما كان عنده من الدّهاء . فلمّا كان فى وزارة يانس جمع إليه الحكم مع الدّعوة ؛ فلمّا مات يانس وانفرد الحافظ بالأمر بعده حَظِى نجم عنده ورقّاه إلى أعْلَى المراتب ، وصار يدبّر الدولة . وحسّن عنده نصرة طائفة الإسماعيلية والانتقام ممّن كان يؤذيهم فى أيام أحمد بن الأفضل ، فتأذّى بهذا خلق كثير ، وأثبت طائفة سمّاهم المؤمنين وجعل لهم زمامًا قتله حسن بن الحافظ . ولما قُتِل الشريف بن العباس وأخذ نجم يعادى أمراء الدّولة ورؤساءها ولا ينظر فى عاقبة — وكانوا قد حسدوه على قربه [١٣٦ ا] من الحافظ وتمكنه منه ومطاوعته له بحيث لا يعمل شيئا إلا برأيه — فلمّا تمكّن حسن بن الحافظ أغروه به فقتله وقتل معه جماعة . وردّ القضاء لابن ميسّر وخلع عليه فى يوم الخميس ثانى ذى القعدة .

وفيها مات القاضى المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد بن حمدون الكنانى قاضى الإسكندرية بثغر رشيد ، وقد عاد من القاهرة فى جمادى الآخرة ؛ ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وكانت له مدة فى القضاء ؛ وهو الذى كان سببا فى اغتيال أبى الصلت أمية الأندلس . وقد ذكره السلفى وأثنى عليه ، ورثى بعدة قصائد.

وفيها مات أبو عبد الله الحسين بن أبى الفضل بن الحسين الزاهد النّاطق بالحكم ، المعروف بابن بشرى الجوهرى ، الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ ، فى جمادى

الأولى . وكان حلو الوعظ ، إلاَّ أنه تعرَّض فى آخر عمره لما لا يعنيه ، فنفاه الحافظ إلى دمياط ؛ وذلك أن الآمر لمّا مات ترك جارية حاملاً ، فقام الحافظ بعده فى الخلافة على أن يكون كفيلاً للحملْ حتىّ يكبر ، فاتّفق أنّه وُلد وخافت أمّه عليه من الحافظ ، فجعلته فى قُفَّة من خوص وجعلت فوقه بصلاً وكُرّاثًا وجزرًا حتى لا يُفْطَن به ، وبعثته فى قماطه تحت الحوائج فى القفَّة إلى القرافة ، وأُدْخل به إلى مسجد أبى تراب الصوّاف[1] ، وأرضعته المرضعة ، وخَفِىَ أمْرُه عن الحافظ حتى كبر ، وكان يعرف بين الصبيان بقُفَيْفَة . فلمّا حان نفعُه نمّ عليه ابن الجوهرى هذا إلى الحافظ ، فأخذ الصبىّ وفَصَدَه ، فمات ، وخلع على ابن الجوهرى ثم نفاه إلى دمياط فمات بها .

(١) مسجد أبى تراب فى رحبة أبى تراب بين الخرنشف وحارة برجوان . يقول المقريزى : « ويزعم العامة ومن لا خلاق له أن به قبر أبى تراب النخشبى ، وهذا أقبح الكذب لأن أبا تراب النخشبى ، وهو عسكر بن حصين ، صحب حاتماً الأصم وغيره ، وقد مات بالبادية ، نهشته السباع سنة خمس وأربعين ومائتين قبل بناء القاهرة بنحو مائة وثلاث سنين » . ويروى « أن شخصاً حفر فى هذا الموقع ليبنى داراً فظهرت له شرافات ، فما زال يتابع الحفر حتى ظهر هذا المسجد فقال الناس هذا أبو تراب من حينئذ . ويؤيد هذا أنى أدركت هذا المسجد محفوفاً بالكيمان من جهاته وهو نازل فى الأرض ينزل إليه بنحو عشر درج » . . . ثم يقول : « وأنا قرأت على بابه رخامة منقوشة بالخط الكوفى تتضمن أن هذا قبر أبى تراب حيدرة بن المستنصر بالله أحد الخلفاء الفاطميين » . اهـ . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٩ — ٥٠ .

سنة تسع وعشرين وخمسمائة(1)

فيها عَظُم أمْرُ حسن بن الحافظ وقويَتْ شوكته ، وتأكدت العداوة بينه وبين مَنْ بقى من الأمراء والأجناد واشتدّ خوفهم منه ، وعزموا على خَلْع الحافظ من الخلافة وخَلْع ابنه حسن مِنْ ولاية العهد وعَزْله عن الأمر . فاجتمعوا بين القصرين ، وهم نحو العشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، وبعثوا إلى الحافظ فشكوا ما فيه من ابنه حسن وأرادوا إزالته عنهم. فعجز حسن عن مقاومتهم ولم يَبْقَ معه سوى الرّاجل من الجيوشية ومَنْ يقولُ بَقَوْلِهم من العسكر الغُرباء . فتحيّر ولم يجدْ بُدًّا من الفرار منهُمْ إلى أبيه ، فصار إليه ، وكان قد نزل بالقصر الغربي ، ففتح سردابا بين القصرين ووصل إلى أبيه بالقصر الشرقىّ مِنْ تحت الأرض ، وتحصّنَ بالقصر . فبادر الحافظ بالقبض عليه وقيَّدَه ، وأرسل إلى الأُمراء يُخْبِرهُم بالقبض على حسن ؛ فأجمعوا على طلبه ليقتلوه . فبعث إليهم يقبِّحُ مُرَادَهم منه أن يقتل ولده ، وأنه قد أزال عنهمُ أمْرَه ، وضمن لهم أنّه لا يتصرّف أبدا ؛ ووعدهم بالزّيادة فى الأرزاق والإقطاعات . فلم يقبلوا ذلك ، وقالوا : إمّا نحن وإمّا هو . وأحضروا الأحطاب والنيران لإحراق القصر ؛ وبالَغُوا فى الجرأة على الحافظ . فلم يجد من ينتصر به عليهم لأنهم أنصارُه وجُنْدُه الذين يَسْتَطِيل بهم على غيرهم ، فألجأته الضّرورة إلى أن استَمْهَلَهم ثلاثة أيام ليتَروى فيا يعمل .

فرأى أنّه لا يَنْفَكُّ من هذه النّازلة العظيمة إلاّ بقتل ابنه لتَنْحَسِمَ المباينة بينه وبين العسكر التى لا يأْمَن إن استمرّت أن تأتى على نفسه هو ، فإنّهم لم يَبْرَحُوا من بين القصرين . فاستدعى طَبِيبَيْه ، أبا منصور وابن قرقة ، فبدأ بأبى منصور اليهودىّ وفاوضه فى عمل سقية(2) لابنه ، فتحرّج من ذلك وأنكر معرفته كلّ الإنكار ، وحلف برأس الخليفة وعلى

(1) ويوافق أول المحرم منها الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١١٣٤ .

(2) شراب مسموم . وقد سبق اتهام اليازورى، وزير المستنصر ، بهتانا بأنه أعد السقية ليغتال بها الخليفة ، فكان هذا من أسباب تخوف الخليفة منه . انظر ما تقدم عن هذا الموضوع بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

التّوراة أنّه لم يقف قطّ على شىء من هذا[1] . فتركه وأحضر ابن قِرْقة ، وكان يلى الاستعمالات[2] بدار الدّيباج[3] وخزائن السّلاح[4] والسّروج[5] ، وفاوضه فى ذلك ؛ فقال : السّاعة ، ولا يتقطّع منها الجسد بل تفيض النّفس[6] لا غيرُ . فأحضرها من يومه ، وألزم الحافظ ابنه حسنا عن نَدَبَهُ من الصّقَالبة ، فأكرهوه على شُربها ، فمات فى يوم الثلاثاء ثالث عشرى جمادى الآخرة .

ونقل للقوم سرًّا : قد كان ما أردْتُم فامضوا إلى دُورِكُمْ . فلم يثقوا بذلك . وقالوا لا بدّ أن يشاهده منّا مَنْ نثق به ؛ ونَدَبُوا منهم امرأً يُعرف بالجرأة والصّرّ يقال له المعظم [١٣٦ ب] جلال الدولة محمد ، ويعرف بجلب راغب الآمرى ، فدخل إلى حيث حسن بن

---

(١) وقال : أنا لا أعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الأدوية . الكامل : ١١ : ٩ .

(٢) يبدو أن المقصود بها أنه كان متخصصاً فى التركيبات الكيمائية التى كان يحتاج إليها فى دور الديباج والسلاح والسروج ، يرشد إلى هذا رواية أبى المحاسن إذ يقول : وكان ابن قرقة خبيراً بالاستعمالات ذكياً . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٤٢ .

(٣) وهى خزانة الكسوة ؛ كان فيها من الحواصل من الديباج الملون على اختلاف ضروبه والشراب الخاص الدبيقى والسقلاطون (الملابس الحريرية الملونة بالألوان القرمزية وغيرها) وغير ذلك من أنواع القماش الفاخرة ما يدل على عظم الدولة . وإليها يحمل ما يعمل بدار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية ، وفيها يفصل ما يؤمر به من لباس الخليفة وما يحتاج إليه من الخلع والتشريفات وغيرها . وكان الفاطميون يخرجون من خزانة الكسوة إلى خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم كسوات الصيف والشتاء من العمامة إلى السراويل وما دونها وما فوقها ؛ وبلغ المنفق فى كسوة الشتاء والصيف فى إحدى المناسبات ستمائة ألف دينار ، وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار . المواعظ والأعتبار : ١ : ٤٠٩ — ٤١٣ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٢ .

(٤) وأصبحت تعرف فى العهد المملوكى ثم العثمانى باسم السلاح خاناه ، وفيها من أنواع السلاح المختلفة مالا نظير له : من الزرديات المغشاة بالديباج والجواشن المذهبة والخوذ المحلاة بالذهب والفضة والسيوف العربية والرماح والأسنة والقنطاريات وقسى الرجل وقسى الركاب وقسى اللولب والنبل . وكان الخليفة الفاطمى يدخل خزانة السلاح ويطوف بها قبل جلوسه على السرير ويتأمل حواصلها . وكان يصرف فيها فى كل سنة سبعون ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٣ المواعظ والاعتبار : ١ : ٤١٧ — ٤١٨ .

(٥) وصارت تعرف بعد عهد الفاطميين باسم الركاب خاناه ، وكانت قاعة كبيرة بالقصر بها السروج واللجم من الذهب والفضة وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة ، ومنها ما هو قريب من الخاص ، وما هو وسط برسم أرباب الرتب العالية ، وما هو دون برسم العوارى أيام المواكب لأرباب الخدم وبهذه القاعة مصطبة علوها ذراعان ومجالسها كذلك وعلى تلك المصطبة متكآت مخلصة الجانبين على كل متكأ ثلاثة سروج متطابقة ، وكان المستنصر بها خمسة آلاف سرج يساوى الواحد منها ما بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار ، ويعمل فيها من الصاغة والخرازين وسائر المستخدمين عدد جم لا يفترون عن العمل . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤١٨ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٣ .

(٦) فى الأصل نجد كلمتى « النفس ، الروح » مثبتتين دون إلغاء لإحداهما ، فأثبتنا الأولى منهما ، ترجيحاً ، استناداً إلى النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٤٣ .

الحافظ ، فإذا هو مسجى بثوب ملاءة ، فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكينا[1] وغرزه فى عدّة مواضع من بدنه حتّى تيقّنَ أنّه ميّت ، وانصرف إلى أصحابه وأخبرهم فتفرّقوا[2] .

وكان تاج الدولة بهرام الأرمنىّ قد انفَلَتَ من حسن بن الحافظ ووَلِىَ الغربية ؛ فلمّا علم أن النُّفُوس جميعها من البَدْوِ والحضر قد انْحَرفتْ عن حسن جَمعَ مُقْطَعِى الغربيّة والأَرْمَن والعُربان وطلب القاهرة ، ويقال كان ذلك بمُبَاطنةٍ من الحافظ ، فما وصل إلى القاهرة حتى غابت حُشُوده فى القرى والضِّياع ونهبُوها .

وعندما وصل إلى القاهرة ، يوم الخميس وقت العصر ، الحادى عشر منْ جمادى الآخرة التَفّ عليه مَنْ بها من الأُمراء والأَجناد وأَبَادُوا أكثر الجيُوشية والإِسْكندرانيّة والفرحيّة ومَنْ يقول بقَوْلِهم من الغزّ الغرباء[3] . ونهب أوباشُ النَّاس ما قدروا عليه .

ولمّا قُتِل حسن وسكنت الدّهماء قبض الحافظ على الطّبيب ابن قرقة وقتلَهُ بِخِزَانة البُنُود ، وارْتَجعَ جميع أمْلاكه ومَوْجُودِه ، وكان يَلِى الاستعمالات بدار الدّيباج وخزائن السّلاح والسُّرُوج . وأنْعَمَ على أبى منصور الطبيب وجعله رئيسًا على اليهود وصارت له نِعَمٌ جليلة .

وفيها كانت وزارة بَهرام الأرمنىّ النّصرانىّ الملقّب تاج الدّولة . وكان السّبب فى ولايته الوزارة أنه جرت فتنة بين الأَجناد والسّودان عندما قُتِل حسن بن الحافظ قَوِىَ فيها السّودان على الأَجناد وأخرجوهم من القاهرة ، فإنّ السّودان كانوا مع حسن دُونَ الأَجْناد ، فإنّهم

---

(١) فى النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٤٣ : وأخرج من وسطه بارشينا .

(٢) يقول النويرى : « فسقاه أبوه سما ، فات ، وجعله على سرير ، وأمر الأمراء بمشاهدته ، فدخلوا عليه ورأوه فسكنوا » . نهاية الأرب : ٢٨ . ويقول ابن الأثير : « فجرحوا أسافل رجليه فلم يجر منها دم فعلموا موته » . الكامل : ١١ : ٨ – ٩ . وكان الشعراء قد هجوا الأمير حسن بن الحافظ لظلمه وسفكه الدماء فمن ذلك ما قاله المعتمد بن الأنصارى :

لم تأت يا حسن بين الورى حسنا ... ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب ... والجور فى أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب ... تيه الملوك وأخلاق المجانين

الكامل : ١١ : ٩ .

(٣) يقول النويرى : إن بهرام كان والى الغربية وإنه سار عنها مجدا إلى أن وصل القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها . نهاية الأرب : ٢٨ .

الذين حملوا أباه الحافظ على قتله . وقَدِم بهرام بالحشد كما تقدّم ، فوجد حسنًا قد مات ، فمَسَكه الأجناد بظاهر القاهرة وأدخلوه على الحافظ لدين الله فى يوم الخميس ، بعد العصر ، الحادى عشر من جمادى الآخرة ، لتولية الوزارة ؛ فَخَلَعَ عليه فى يوم الأحد ، رابع عشره ، ثم خَلَع عليه ثانيا يوم الخميس ثامن عشره ، خِلَع الوزارة ، ونُعِت بسيف الإسلام تاج الخلافة[1] ، وهو نَصْرَانىّ ، مع كراهة الحافظ لذلك ، لتسْكُنَ الفتنة ، ولم يَرُدَّ إليه شيئًا من الأمور الشرعيّة . فلم يدخل فى مُشْكِلٍ لأنّه كان عاقلا سَيُوسًا حسن التَدْبير .

وتقدّم كثيرٌ من حواشى الحافظ إليه يُنكرون عليه ولاية بهرام مع كونه نصرانيا ، وقالوا : لا يرضى المسلمون بهذا ، ومِنْ شَرْط الوزير أن يَرْقَى مع الإمام المنبر فى الأعياد ليزرّر عليه المزرّرَة الحاجزة بينه وبين النّاس ، والقضاة نوّاب الوزير من زمن أمير الجيوش ، ويذكرون دائما النيابة عنه فى الكتب الْحُكميّة النافذة إلى الآفاق وكتب الأنْكحة . فقال : إذا رضينا نحن فمَنْ يُخالِفُنا ؛ وهو وزير السيف ؛ وأمّا صعُود المنبر فيستنيب عنه قاضى القضاة ؛ وأمّا ذكرُه فى الكتب الحكميّة فلا حاجة إلى ذلك ويُفعَل فيها ما كان يفعل قبل أمير الجيوش .

فشقّ على الناس وزارته ، وتطاول النّصارى فى أيّامه على المسلمين . وكان هو قد أحسن السِّيرة وسَاسَ الرعيّة ، وأدّى الطاعة للخليفة ، وأنفق فى الجند جُملةً من الأموال ، ودبّر الأُمُور فاستقامت له الأحوال ، ورَاسَلَهُ الملوك ، وزال ما كان فى البلد من الفتن؛ فلم يُنْكرَ عليه سوى أنّه نصرانىّ .

وكان يقعد يوم الجمعة عن الصّلاة فلا يحضر ، بل يعْدِلُ إلى دُكّانٍ بمفرده حتى يصلّى الخليفة بالناس . وأقبل الأرمن يَرِدُونَ إلى القاهرة ومصر من كلّ جهة حتّ صار بها منهم عَالمٌ عظيم . ووصل إليه ابن أخيه ، وكان يُعْرَف بالسّبع الأحمر ، فكثر القيل والْقال ؛ وأَطْلَق أسيرًا من الفرنج كان من أكابِرهم ، فأنكر النّاس ذلك ورفَعُوا فيه النّصائح للحافظ ، وأكثروا من الإنكار .

---

(١) فى نهاية الأرب : تاج الملوك .

وكان رضوان بن ولخشي حينئذ صاحب الباب ، وهو شجاع كاتب ، فبلغ بهرامَ أنّه يهزأ به في قوله وفعله ، فثقُل عليه وأخذ يعمل على إخراجه من القاهرة ، وولّى أخاه الباساك قوص[1]

وفيها توفّى الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروى الجذامى [١٣٧ ا] الإسكندرانىّ ، المعروف بالحدّاد[2] . بمصر .

---

(١) كانت ولاية قوص أعظم ولايات مصر زمن الفاطميين وواليها يحكم جميع بلاد الصعيد ، يليها فى الأهمية الولايات الثلاث الرئيسية وهى الشرقية ، والغربية ، والإسكندرية . ويدخل تحت هذه الولايات الأربع الولايات الصغار . صبح الأعشى : ٣ : ٣٩٦ — ٣٩٨ ، ٤٩٣ — ٤٩٤ .

(٢) يكنيه ابن خلكان بأبى المنصور ويقول : له ديوان شعر أكثره جيد ومدح جماعة من المصريين وروى عنه الحافظ أبو طاهر السلفى . ويذكر من شعره :

رحلوا ، فلولا أننى أرجو الإياب قضيت نحبى
والله ما فارقتهم لكننى فارقت قلبى

ومن شعره أيضا فى كرسى النسخ :

انظر بعينك فى بديع صنائعى وعجيب تركيبى وحكمة صانعى
فكأننى كفا محب شبكت يوم الفراق أصابعا بأصابعى

وفيات الأعيان : ١ : ٢٤١ — ٢٤٣ ؛ خريدة القصر للعماد الأصفهانى : قسم شعراء مصر .

سنة ثلاثين وخمسمائة[1]

فيها أخرج بَهرام الأمير رضوان بن ولخشى من القاهرة لولاية عسقلان ؛ وقيل بل كان خروجه فى سلخ رجب من السّنة الماضية . فلمّا وصل إليها وجد فيها جماعة من الأرمن قد وصلوا فى البحر يريدون القاهرة ، فناكَدَهُم ومنع كثيراً منهم ؛ فبلغ ذلك الوزير بهرامَ ، فشَقّ عليه ، وصرفه عن عسقلان واستدعاه ؛ فقدم إلى القاهرة . وشكره الناس على مَنْعِه الأرمَنَ مِنَ الوصول إلى القاهرة ، فلم يُطِقْ بهرام إقامته معه ، فولاه الغربيّةِ فى صفر إبعاداً له عنه .

وفيها مالك رجار بن رجار ملك صقليّة جربة[2] ؛ ونازل طرابلس الغرب فانهزم عنها[3]

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من أكتوبر سنة ١١٣٥ .

(٢) جربة : بفتح الجيم وكسرها ، جزيرة بالمغرب بالقرب من قابس فيها بساتين كثيرة وزيتون ، وهى كثيرة النهب ، بينها وبين البر الكبير مجاز . معجم البلدان : ٣ : ٧٤ ؛ المغرب : ١٩ ، ٨٥ . يقول ابن الأثير : وكان أهلها قد طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ، فخرج إليها جمع من الفرنج أهل صقلية فى أسطول كبير فيه من مشهورى فرسان الفرنج جماعة ، فنزلوا بساحتها فقاتلهم أهلها قتالا شديدا حتى قتل منهم بشر كثير ، فانهزموا أمام الفرنج الذين ملكوها وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها ، وهلك أكثر رجالها ، ومن بقى منهم أخذوا لأنفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم . الكامل : ١١ : ١٢ .

(٣) بهامش الأصل : بياض أسطر .

فيها تكاثَر حضور أقارب بهرام وإخوته ، وأهله وقومه ؛ ومجيئُهم من ناحية تلّ باشر[2] وكانوا مقيمين بها ، ولهم فيها كبيرٌ منهم يتولّى أمْرَهُم ؛ وقدموا أيضا بلاد الأرمن ، حتى صار منهم بديار مصر نحو الثلاثين ألف إنسان . فعظُم ضَرَرُهُم بالمسلمين وكثُرت استِطالَتُهم ، واشتدّ جَوْرُهم ، وتظاهرُوا بدين النّصْرانيّة ، وأكثروا من بناء الكنائس والدّيارات ، وصار كلُّ رئيسٍ منهم يبنى له كنيسةً بجوار داره .

وتفاقم الأمر . فخاف الناس منهم أن يغيّروا الملّة الإسلامية ويغلبوا على البلاد فيردُّوها دار كفر ؛ فتتَابعُوا فى الشكاية من أهل بهرام وأقاربه .

ووردت الأخبار من قوص بأن الباساك ، أخا بهرام[3] ، قد جَارَ على النّاس واستباح أموالهم ، وبالغ فى أذِيّتهم وظلمهم ، فاشتدّ ذلك على النّاس ، وعَظُم على الأُمراء ما نزل بالمسلمين ؛ فبعثوا إلى أبى الفتح رضوان بن ولخشى — وكان مقدّماً فيهم لكثرة نعوته بفَحْل الأُمراء وهو يومئذ يتولى الغربيّة — يشكون إليه ما حَلّ بالمسلمين ويستحثّونه على المصير وإنقاذِهم مما نزل بهم .

فلمّا وصلت إليه كتب الأُمراء تشمَّر لطلب الوزارة ، وَرَقى المنبر خطيبا بنفسه فخطب خطبة بليغةً حرَّض فيها النّاس على الجهاد فى سبيل الله والاجتماع لقتال بهرام وشيعته النّصارى من الأرمن . وكان حينئذ بمدينة سخا[4] ، ثم نزل وحشد الناس من العربان وغيرهم حتى استجاب له نحوٌ من ثلاثين ألفا ، فأخرج لهم كُتُب الخليفة الحافظ إليه

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١١٣٦ .

(٢) حصن وكورة غربى الفرات شمال حلب ، ويقدر ياقوت المسافة بينهما بيومين ، وأهلها من النصارى الأرمن . معجم البلدان : ٢ : ٤٠٢ .

(٣) وإليه تنسب المنية التى تقع بالقرب من أطفيح . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٤) كورة بمصر ، من إقليم الغربية ، فتحها خارجة بن حذيفة تحت قيادة عمرو بن العاص.ومن علمائها الحافظ محمد شمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . معجم الأدباء : ٥ : ٤٦ — ٤٧ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٧٠ ؛ الخطط التوفيقية : ١٢ : ١٢ — ١٨ ؛ قوانين الدواوين : ١٤٧ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٩ .

بالتقدّم بالمسير ونَزْع الوزارة من يد بهرام إذْ تبيّن أنه ليس من أهل الملّة . وسار بهم إلى دِجْوة[1] ، وبهرام لا ينزعج .

فلمّا قَرُب رضوان جمعَ بَهْرام الأرمن إليه وقال لهم : اعلموا أنّنا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدّولة ؛ والآن فقد كثر بغضهم لأيّامنا ، وما كنت بالذى أكون عبْدَ قومٍ وأخدمهم مِنْ حال الصِّبا فلمّا بلغنى الكبر أقاتلهم ؛ لاضربت فى وجوههم بسيفٍ أبدا . سيروا . وأخذ أمراء الدّولة وعساكرها يخرجون شيئاً بعد شىء إلى رضوان .

واجتمع بهرام بالخليفة وفاوضه فى أمره ؛ فقال تَحَلّبَتِ الإسلام عليك[2] . فأَيِسَ حينئذ ، وجمع الأرمن ، وكانوا كلّهم منقادين إليه لا يخالفونه فى شىء من الأشياء ، وسار بهم نحو بلاد الصّعيد يريد أخاه الباساك بقوص ، قاصداً أنّه يجتمع به ويمضون إلى أسوان فيتملكُونهما ويتقوّون بالنوبة أهل دينهم[3] . وقد ذكر أنّ بهرام خرج يريد محاربة رضوان فى عساكر مصر .

فلمّا وصل بعسكر القاهرة إلى رضوان رأوْا المصاحف قدْ رَفَعَهَا رضوان فوق الرّماح ، فصارُوا بأجمعهم إلى رضوان باتفاقٍ كان بينهم وبينه من قبل ذلك ؛ فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ما خفَّ حَمْلُه ، وخرج من باب البرقية يوم الأربعاء ، وقت العصر ، حادى عشر جُمادَى الأولى ، وسار يريد الصّعيد وقد أَوْسَق المراكب بما يحتاج إليه . فعِنْدَمَا رحل اقتحم رعاع النّاس وأَوْبَاشُهم إلى دار الوزارة فنَهَبُوها وهتكوا حُرمتها ، وعملوا كلَّ مكروه ؛ فكان هذا أوّل نهب وقع فى دار الوزارة . وامتدّت الأيدى إلى دُور الأرمن التى

---

(١) الضبط من قوانين الدواوين وهى من أعمال إقليم الشرقية ، ومن ملحقاتها كياد ، ويضبطها ياقوت بضم الدال . معجم البلدان : ٤ : ٤١ ؛ قوانين الدواوين : ١٣٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) فى القاموس المحيط : حلب القوم حلبا وحلوبا اجتمعوا من كل وجه ، والحلبة خيل تجتمع للنصرة .

(٣) عبارة الأصل : ويمضون إلى أسوان فيملكوها ويتقووا بالنوبة أهل دينهم .

ويقول النويرى : وتجمع الأرمن حول بهرام ، فراسل الخليفة الحافظ وقال : أنا القائم بمن معى – يعنى بذلك قدرته على مواجهة رضوان بالأرمن – فخاف الحافظ عاقبة ذلك وأمره أن يتوجه إلى قوص ويقيم عند أخيه الباساك – واليها – إلى حين يدبر أمرا . نهاية الأرب : ٢٨ .

كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح[١] ، فنهبوها ، ونهبوا كنيسة الزهرى[٢] ، ونبشوا قبر البطرك ، أخى بهرام .

وطار خبر انهزام بهرام [١٣٧ ب] فى سائر إقليم مصر ، فوصل الخبرُ بذلك إلى قوص قبل وُصول بهرام ، فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثّلوا به ، وجعلوا فى رجله كلباً ميّتا ، وألقوه على مَزْبَلة . فلمّا كان بعد قتله بيومين قدم بهرام فى طائفة الأرمن ، وهُم نحو الألفَىْ فارس ، رماة ، فرأى أخاه على المزبلة كما ذُكر ، فقتل جماعةً من أهل قوص ونهبها . وسار عنها إلى أسوان ، فنزل بالأدْيِرة البِيض ، وهى أماكن حصينَةٌ فى غربىّ أخميم ، فتفرّق عنه عدّةٌ من الأرمن وساروا يريدون بلادهم .

وأما رضوان فإنّه لمّا وصل إلى القاهرة وقف بين القصرين ، واستأذن الحافظ فيما يفعلُه ، فأشار بنزوله فى دار الوزارة ، فنزلها ، وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأُولى ، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل . فاستدعى بالأموال من الخليفة ، وأنفق فى الجند ، ومهّد الأمر . ورضوان أوّل وزير لقب بالملك .

فلمّا كان فى اليوم الثالث من استقراره فى الوزارة سيّر أخاه الأوحد إبراهيم ومعه العسكر شرقاً وغرباً ، والأُسطول بحراً ، فى طلب بهرام ، وبيده أمانٌ له ليعود مكرّماً وطائفتُه على إقطاعاتهم . فسار إلى الأديرة ، وتقرّر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها ؛ وذلك أنّ أسوان امتنعت عليه بكنز الدّولة[٣] وأهلها ، فاضطرّ إلى الإقامة بالأديرة وقد فارقه

---

(١) الحسينية : خارج باب الفتوح وكانت على زمن الفاطميين ثمانى حارات إحداها حارة الريحانية التى عرفت فيما بعد باسم حارة بهاء الدين ، وقد سكن الحسينية من هؤلاء الأرمن نحو سبعة آلاف ، ثم سكنها جماعة من الأشراف أيام الملك الكامل الأيوبى فعرفت باسمهم ، وينفى المقريزى هذا استنادا إلى أن عهد الحاكم شهد كثيرا من الطوائف ومنها طائفة الحسينية . صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٥ — ٣٥٦ ؛ المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٠ — ٢٢ .

(٢) كنيسة الزهرى كانت فى بر الخليج الغربى ، غربى اللوق ، فى الموضع الذى عرف باسم البركة الناصرية بجوار حكر أقبغا ما بين السبع سقايات وقنطرة السد ، وقد هدمت هذه الكنيسة سنة ٧٢٠ ، زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى أنشأ البركة الناصرية إلى جوارها . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٥١٢ — ٥١٣ ؛ السلوك ٢ : ٢١٦ ، ٢١٩ .

(٣) كنز الدولة لقب منح أول مرة أيام الحاكم بأمر الله ، لأمير أسوان أبى المكارم هبة الله بعد انتصاره على أبى ركوة الخارج حينئذ على الحاكم وإخماد ثورته . ثم أصبح هذا اللقب وراثيا فى أسرة أبى المكارم بعد ذلك . انظر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ١ : ٥٣١ ؛ كتاب العبر : ٤ : ٥٨ — ٥٩ ، ٥ : ٢٨٨ . وانظر كذلك الجزء الثانى من هذا الكتاب ، فى أخبار الحاكم بأمر الله .

أكثرُ الأرْمَن ، فمَنهم من سار إلى بلاده ومنهم من أقام بأرْضِ مصر ليكونوا فلاحين ، فسأل لهم مواضع يسكنُونَها ، فأُفْرِدَت لهم جهات ، منها سمالوط[1] وإبْوان[2] وأَقْلُوسَنا[3] والبرجين[4] فى صعيد مصر ، وضيعة أخرى بأعمال المحلة . وأقام بهرام بالأديرة البيض ومعه أهله وولده .

وفيها صُرِف أبو عبد الله محمّد بن مُيسّر عن قضاء القضاة فى يوم الأحد لِسَبْعٍ خلوْنَ من المحرّم ، والوزيرُ إذْ ذاك بهرام ، ونُفِى إلى تنيس ، فأقام بها إلى يوم الاثنين ثانى ربيع الأوّل ، وقُتل . وهو من قيساريّة ، وقدم منها مع أبيه وهو صغير فى وزارة أمير الجيوش بَدْر الجمالى عند حضوره إلى المستنصر فى سِنِى الشدّة ، وبعثه إلى البلاد الشاميّة لإحضار أرباب الأموال واليسار ؛ وكان مِن جُمْلة من أحْضِر والد القاضى ، وكان له مالٌ جزيل ، ففوّض إليه خطابة الجامع بمصر ؛ وفتح دار وكالة ، وأقام بها مدّةً حتى مات . فترقّى وَلَدُه إلى أن وَلِىَ القضاء عدّة مرار ؛ وكان له أفضالٌ ومكارم ، وحصلت له وجاهة ورُتْبةٌ جليلة ، وضرَب دنانير كثيرة كان اقترحَها على الخليفة الآمر[5] . وهو الذى أخْرَج الفُسْتُق الملبَّس بالحلْوَى ، فإنّه بَلَغَه أنّ أبا بكر محمّد بن علىّ المادِرائى عمل الكعك الذى يقال له افْطِنْ له ، وعمل عوضاً من حشو السّكر دنانير ، فلمّا مدّ السّماط فى يوم العْيد قال أحدُ الخدّام لصديقٍ له كان على السمّاط : اُفطن له ؛ ففهم عنه وتناول من ذلك ، وصار يخرجُ الذّهب من فَمِه ويخفيه حتى تنبّه الناس لذلك ، فتناوَلُوا بأجمعهم منه . فأرادوا القاضى ابنُ مُيسّر

(١) سمالوط وسملوط ، من مدن الصعيد ، تقع غربى النيل ، على بعد نحو خمسة وعشرين كيلومترا إلى الشمال من مدينة المنيا . معجم البلدان : ٥ : ١٢٨ ؛ قوانين الدواوين : ١٥١ ، ١٧٠ .

(٢) إبوان : قرية بالصعيد الأدنى غربى النيل ، وتعرف بإبوان عطية . وهناك إبوان أخرى بالقرب من البهنسا ، وثالثة بالقرب من دمياط والأخيرة غير مقصودة هنا . معجم البلدان : ١ : ٩٣ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) بالهمزة وبغيرها من أعمال الصعيد ، وتكتب بالصاد أيضا ، تتبع الآن مركز بنى مزار بمحافظة المنيا . معجم البلدان : ٧ : ١٥٣ ؛ قوانين الدواوين : ١٧٠ ؛ الخطط التوفيقية : ١٤ : ١١٤ .

(٤) من أعمال الجيزة . قوانين الدواوين : ١٠٢ .

(٥) كان الإشراف على دار الضرب يسند إلى قاضى القضاة زمن الفاطميين تعظيما لشأنها ، وينص على إسنادها إليه فى جملة ما يسند إليه من وظائف القاضى واختصاصاته ، وللقاضى أن ينيب عنه فى مباشرة شئون دار الضرب من يختاره من نواب الحكم (نواب القاضى) . وبقى الأمر على ذلك بعد زمن الفاطميين ، ثم أصبحت دار الضرب تحت إشراف ناظر الخاص بعد إلغاء الوزارة . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٦ — ٤٠٧ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٦٢ ؛ قوانين الدواوين : ٣٣١ — ٣٣٣ . وتجد فى صبح الأعشى حديثا مفصلا عن سك النقود الذهبية والفضية والنحاسية : ٣ : ٤٦١ — ٤٦٤ ؛ وفى قوانين الدواوين ، فى الصفحات المشار إليها هنا ، طريقة سك النقود وضبطها واعتمادها . وفى صبح الأعشى : ١٠ : ٣٨٤ وثيقة تولية الحسن ابن النعمان القضاء ودار الضرب والعيار والجوامع والمساجد على زمن الحاكم بأمر الله .

أن يتشبه بأبى بكر المادرائى فى ذلك ، فعمل صحناً منه لكن جعل فستقا قد لُبِّس حلوى وذلك الفستق من ذهب ، وأباحه أهلَ مجلسه ؛ ولم يقدر على عمل ذلك سوى مرة واحدة .

ثم إنه لما تناهت مدّته عاداهُ رجل يُعرف بابن الزّعفرانى ، فنمّ عليه عند الحافظ بأن أحمد بن الأفضل لمّا كان قد اعتقل الحافظ وجلس للهناء ودخل عليه الشعراء كان فيهم على بن عبّاد الإسكندرى ، وأنه أنشد قصيدة يذمّ فيه خلفاء مصر ويذكر سوء اعتقادهم ، منها فى ذمّ الحافظ :

هـذا سليمانكُمْ قـد ردّ خاتمه واسترجَعَ الملكَ منْ صخر بْنِ إبليس

فعندما قال هذا البيت قام ابن ميسّر وألقى عرضيته طرباً بهذا البيت . فأمر الحافظ بإحضار هذا الشاعر ، وقال : أنْشِدْنى قصيدتك: فأنشدها إلىأن بلغ فيها إلى قوله :

« ولا ترضوا عن الخمس المناحيس » . يعنى الحافظ وابنَيْه وأباه وجدّه ؛ فأمر الغلمان بلكْمِه ، فلكمُوه حتى مات بين يديه . وقُبض على ابن ميَسّر ونُفِى ثم قُتل . وكان يُنعت بجلال [١١٣٨] الملك ؛ وكانت علامته « الحمد لله على نعمه » .

وفيها مات أبو البركات بن بشرى الواعظ المعروف بابن الجوهرى فى جمادى الأُولى عن إحدى وتسعين سنة .

وفيها وَلِىَ قضاء القضاة أحمد بن عبد الرحمن بن محمّد بن أبى عقيل ، ونُعِت بقاضى القُضاة الأعزّ أبى المكارم .

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بنى سليم وادّعى النُّبوّة ، فاستجاب له خلقٌ كثير ، وأمْلَى عليهم قرآنا منه : إنّما النّاس بالنّاس ولولا النّاس لم يكن النّاس ، والجميع ربّ النّاس . ثم تلاشى أمره وانحلّ عنه النّاس .

وفيها جلس الوزير رضوان فى ذى القعدة لاستخدام المسلمين فى المناصب الّتى كانت بأيدى النّصارى . واستجدّ ديوان الجهاد[1] ، واهتمّ بتقوية الثغور واستعدّ لتعمير عسقلان

---

(١) فى صبح الأعشى : ٣ : ٤٩٢ يعرف القلقشندى بديوان الجهاد فيقول : وهو أيضا ديوان العمائر ، وكان محله بالصناعة (دار الصناعة) فى مصر ، وفيه إنشاء المراكب للأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها ، ومنه ينفق على رؤساء المراكب ورجالها ، وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استدعى له من بيت المال بما يكفيه .

بالعُدد والآلات ، وأشاع الخروج إلى الشام لِغَزْو الفرنج ، وأظهر من الاعتناء بذلك مالا يُوصَف . وكان قد مهدّ الأُمور ، وأعاد النّاس إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة بحُسْن سيرته ، وكثرة عدله وعمارته البلاد ، وقوّة نفسه وشجاعته . وأحضر جميع الدّواوين وكتبها ورتّبها ، ورتب الأُمور أحسن تدبير .

وكان من جملة الضُّمّان فى أموال الدّولة هبة الله بن عبد المحسن الشّاعر ؛ فلمّا عرض حسابه وجد قد انكسر عليه مال فى ضمانه ، فكتب له فى المجلس :

أنا شاعـرٌ وصناعتى الأَدبُ[1] وضمانُ مثلى المـالَ لا يجبُ
أنا مُسْتَمِيحكمُ ، وليس على من جاء يطلب رِفْدَكمْ طلبُ
وإذا [2] البـاقى علىَّ فمـا من حاصلٍ ، وَرِقٌ ولا ذهبُ

فسامحه فيما عليه من الباقى .

وفيها أُحْضِر من الصّعيد الأَعلى فى رمضان جماعةٌ تقدمهم رجل بجاوىّ يدّعى فيه أصحابه أنّه إله ، فصُلبوا .

(١) فى الأصل : وصنعتى الأدب .
(٢) بياض بالأصل .

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة[1]

فيها أفرج الوزير رضوان عن شمس الخلافة مختار الأفضلى ، صاحب باب بهرام ، من الاعتقال وولاه الإسكندرية .

فيها تشدّد رضوان على النّصارى من أصحاب بهرام وصادرهم ، وقتلهم بالسيف ، وأباد أكثرهم . وتطلّع إلى تقديم أربابِ المعارفِ من أرباب السيوف والأقلام ، وأحسن إليهم ، وزاد فى أرزاقهم .

ووجد نصرانيًّا قد توصّل فى أيّام بهرام إلى ديوان النّظر[2] ، يعرف بالأخْرَم ، ويبذل فى كل يوم ألف دينار سوى المؤن والغرامات ؛ فآذى المسلمين وشق عليهم ، فصرفه رضوان واستخدم بدله رجُلاً يُقال له المرتضى المحنّك بغير ضمان .

وتقدّم إلى ديوان الإنشاء بانشاء سجلٍّ فى الوضع من النّصارى واليهود ؛ فأنشأه أبو القاسم ابن الصّيرفى ، منعوا فيه من إرخاء الذّوائب وركوب البغلات ولُبس الطّيالِسَة ، وأمر النّصارى بشدّ الزنانير المخالفة لألوان ثيابهم ، وألاّ يجوزوا على معابد المسلمين رُكبانا ؛ فما رُئِى فى أيّامه يهودىّ ولا نصرانىّ يجوز على الجامع راكباً ، لكنّه ينزل ويقود دابّته . وأمر أن يؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها . ومنعهم من التكنى بأبى الحسن وأبى الحسين وأبى الطّاهر ، وأن يُبيِّضُوا قبورهم . وضمّن ذلك كلّه السّجلّ ؛ فعُمِل به .

وفيها نزع السّعر لتوقف النيل[3] ، فنال النّاس مجاعة ؛ فأمر الحافظ بفتح

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع عشر من سبتمبر سنة ١١٣٧ .

(٢) من اختصاصات ديوان النظر الإشراف على أرزاق ذوى الأقلام وغيرهم مياومة ومشاهرة ومسانهة من الرواتب عينا أو غلة من اللحم والخبز والعليق للدواب ، ولأكابر ذوى الرّواتب السكر والشمع والزيت والكسوة فى كل سنة والأضحية .. الخ ، وكان هذا كله يدون فى الاستيمار ، أى السجل الحكومى ؛ وقد ازدادت أهمية ديوان النظر بعد العصر الفاطمى لتقاصر منصب الوزارة وتوزع اختصاصاتها بين الدواوين المختلفة . السلوك : ١ : ٥٣ : حاشية ٤ ، ٢ : ٧٣٨ — ٧٣٩ ؛ صبح الأعشى : ٥ : ٤٦٥ — ٤٦٦ .

(٣) يقرر أبو المحاسن أن المـــاء القديم كان خمس أذرع وأصبعا واحدة ومبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا واثنتا عشرة أصبعا . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٦٣ ، وهذا يناقض ماذكر فى المتن هنا من أن سبب ارتفاع الأسعار توقف النيل . ويذكر=

الأهراء[1] والبيع منها على الناس بأوسط الأثمان ، فلم يمض الوزير بذلك ، وأخذ يهين حواشى الخليفة إذا حضروا إليه ويقدح فى مذهبه ، لأنه كان سنيا ، وكان أخوه الأوحد إبراهيم إماميًا .

فلما كثُر ذلك منه انزعج الخليفة ولم يُظهِر تغيُّرًا ، و(أخذ)[2] يعمل فى الخلاص منه ، فتنافر كلٌّ منهما من الآخر .

وكان رضوان خفيفا طائشا لا يثبت ، فهمّ بخلع الحافظ وقال ما هو بخليفة ولا إمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصحّ . وأحضر الفقيه أبا الطّاهر ابن عوف وابنَ أبى كامل فقيهَ الإماميّة وابن سلامة داعى الدّعاة ، وفاوضهُم فى الخلع واستخلاف شخص عيّنه لهم ، وألزَمَ كلاًّ منهم أن يقول ما عنده . فقال ابن عوف : الخلع لا يجوز إلا بشروط تثبت شرعا . وقال ابن أبى كامل : السلطان ، أبقاه الله ، يحملنى على أن أتكلّم على غير مذهبى [١٣٨ ب] فى الإمامة . قال : لأجل عمل مذهبك ؟ فقال : مذهبى معلوم ، يعنى أن الإماميّة لا يعتقدون حقّ الخلافة فى بنى إسماعيل بن جعفر ، لموته فى حياة أبيه وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته ، ولأنه لا ينبغى لمن لم تكن له إمامة أن يخلع . فخلص من هذا وقال الدّاعى : أنا داعى ومَوْلىً لهم ، وما يصحّ لى خلعُه ، فإنى أصيرُ فيما مضى كأنّى أدعُو لغير مستحقّ ، فأكون قد كذّبت نفسى فلا أُقْبَل الآن وأُستَخْصَم بذلك ، ولا يؤثّر قولى فيما تريدُون ؛ ولم تَجْرِ العادة على الفاطميّين بخلع حتى نأتى به .

فقابله على هذا القول بالسّبّ وإقامته أقبح قيام . فقال الفقيه النحّاس ، وكان حاضرًا ،

=ابن مماتى أن النيل إذا أوفى ستة عشر ذراعا فقد وجب الخراج ، وإذا زاد على ذلك ذراعا زاد الخراج مائة ألف دينار ، فإن نقص ذراعا نقص الخراج مائة ألف دينار ، ويزيد على ذلك أن الأحوال فى عهده اختلفت لتغير الأحوال . قوانين الدواوين : ٧٦ . وفى صبح الأعشى : ٣ : ٢٩٠ – ٢٩٣ حديث عن تفاوت ارتفاع النيل يشير فيه إلى مقادير الزيادة والنقصان المعتادة والشاذة . ويذكر المقريزى أن عمرو بن العاص كتب إلى ابن الخطاب يذكر أن أقل حد للرى دون خوف القحط اثنا عشر ذراعا وأوسطه ستة عشر ذراعا والنهايتان المخوفتان للقحط أو الاستبحار اثنا عشر ذراعا وثمانية عشر ذراعا . المواعظ والاعتبار : ١ : ٥٨ – ٥٩ .

(١) الأهراء جمع هرى بضم الهاء وسكون الراء ، بيت كبير يجمع طعام الخليفة أو السلطان ، والمكان الذى تخزن به الغلال والأتبان احتياطا للطوارئ ولها الحماة من الأمراء والمشارفين من العدول ، والمراكب واصلة إليها بأصناف الغلات إلى ساحل مصر وساحل المقس ، ومنها إطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم والصدقات والجوامع والمساجد والعبيد السودان ورجال الأسطول ودار الضيافة للرسل والوافدين . قوانين الدواوين : ٣٥٠ ، ٤٥٢ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٤ – ٤٦٥ .

(٢) زيد ما بين القوسين لأن السياق يقتضيه أو نحوه .

كلٌّ عظيمة ، وحمله على خلع الحافظ فبلغ ذلك المجلس الحافظ .

وفيها أُحْضِرت من تنِّيس امرأة بغير ثَدْيَيْن وفى موضع ثديَيْها مثل الحلمتين ، فصارت إلى مجلس الوزير رضوان وأَخْبرته أنها تصنع برِجْلَيها جميع ما يُعمل باليدين من رَقْمٍ وخطٌّ وغير ذلك . فجاء لها فى المجلس بَدَواة فتناولت برجلها اليُسْرى الأَقْلام قلمًا قلمًا[1] ، ثم تناولت السّكين برجليها وبَرَتْ قلمًا ، واستدْعَتْ ورقةً وأمسكتها بِرِجْلها اليُمنى وكتبت بالرِّجْل اليُسْرى رقعة بأحسن خطٍّ تكتبه النِّساء ، وحمدت الله فى آخرها ، وناولتها الوزير ، فإذا فيها سُؤال بأن يزاد فى راتبها . فوقّع لها خَلَف الرقعة بما تسأل وأعادها إلى بلدها .

وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة (به)[2] فى ثغر الإسكندرية ، وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف .

---

(١) يقول النويرى : وتأملتها ، فلم ترض شيئا منها . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٢) زيد ما بين القوسين من نهاية الأرب : ٢٨ .

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة(1)

فيها زاد السّعر وبلغ القمح ثلاثة دنّانير للإردبّ ، فبيعت الغلال التى كان الأفضل خزنها ، وقد تغيّرت وأرادوا رَمْيها فى النيّل ، فكانت تُقطع بالفئوس وتباع بأربعين دينارًا كل مائة إردبّ ، وكذلك الأرزُ الذى كان مخزونًا بمصر فإنّه أُبيع بعشرة دنانير المائة ؛ فوجد النّاس بذلك رفقا .

فيها كثُر سعْىُ الوشاة بين الحافظ والوزير فتخوّف كلٌّ منهما من الآخر ، وقبض الوزير على عدّة من خواصّ الحافظ ، منهم أبو المعالى بن قادُوس ، وابن شيبان المنجم ، ورئيس اليهود ، وجماعة ، فقتلهم . فسيّر الحافظ من أحضر إليه بهرَامَ فى رمضان ؛ فلمّا حضر أسْكَنَه عنده بالقصر وأكرمه ، وشَقّ ذلك على رضوان . وكان الحافظ قد تلطّف برضوان فى أمر بهرام وقرّر معه أن يستدعيَهُ ويُنْزِلَه فى القصر ، وحلف له أنّه لايوليّه أمرًا ولا يمكنه من تصرّف ؛ فتسامح رضوان فى أمره(2) . واستُدْعى فحضر بأهله وأُنْزِل فى دارٍ بالقصر قريبة من المحول(3) ، وهو قريبٌ من سكن الحافظ ، فكان يستحضِرُهُ فى غالب اللّيالى ويستشيره ويعمل برأيه .

ولمـا كان يوم عيد الفطر ركب الوزير مع الحافظ وعليه من الملابس ما لم يلْبَسْه أحد من الوزراء فى مثل ذلك اليوم ، وعاد إلى القصر وفى نفس الحافظ منه أشياء تبينّها رضوان

---

(1) ويوافق أول المحرم منها الثامن من سبتمبر سنة ١١٣٨ .

(2) وطلب رضوان أن يسكن مع الحافظ فى القصور ، فلم يمكنه . نهاية الأرب : ٢٨ .

(3) المحول : مجلس الداعى فى القصر الذى تخصص لنشاط الدعاة الرسميين الفاطميين بالقاهرة ، ويعرف بقصر البحر ، ويدخل إليه من باب الريح وبابه من باب البحر . وكان الداعى يصلى بالناس فى رواقه فى أثناء الاجتماعات . ومما يروى عن نشاط الدعاة فيه أن القاضى محمد بن النعمان جلس على كرسى بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا ، فكفنهم العزيز بالله . ويشرف على هذا النشاط الدعائى داعى الدعاة ، ومرتبته تلى مرتبة قاضى القضاة ، يساعده اثنا عشر نقيبا وله نواب كنواب الحكم (القضاء) يمثلونه فى أنحاء البلاد . المواعظ والاعتبار : ١ : ٣٩٠ — ٣٩١ . (وباب الريح من أبواب القصر الكبير الشرقى . وكان يقع تجاه دار سعيد السعداء موصلا إلى رحبة باب العيد منتهيا إلى بين القصرين . وباب البحر من أبواب هذا القصر كذلك قبالة بقايا دار الحديث الكاملية . نفس المصدر : ١ : ٤٣٣ ، ٤٣٤) .

فى وَجْه الحافظ وعلمها منه ، فاشمأزّت نفسه مع ما كان فيه من الطَّيْش ، فركب فى تاسع شوّال وزحف إلى القصر ؛ فكلّمه الخليفة من بَعْض طاقاتِ المنظرة الّتى تطلُّ على باب الذّهب ، وجرى بينهما كلام اجْتَرأ فيه على الخليفة. وعَادَ إلى داره بعد أن احتاط بالقصر واحتفظ بالأبواب ، فانتفض النّاس لذلك بالقاهرة ومصر ، وكثُرتْ الأراجيف .

وفى تلك الحالة نزل بعض أولاد الحافظ من القصر هاربًا إلى رضوان ، وكان شيخا ومعه ولد له ، ليقيمَهُ خَليفة ، فلم يكترث به ، وأحضر إسماعيل بن سلامة الداعى ، وقال له : ما تقول فى هذا الرجل ، هل يَصْلُح لما التمسه ؟ فقال : الخلافة لها شروط ونواميس ما فى هذا منها شىء ، وتحتاج إلى نصوص ، ولولا أن مولانا الآمر نصّ على مولانا الحافظ وأودعه سرّ الخلافة لما ثبتت فيه ولا استجاب له الناس . فلم يُحَصِّل سوى أنه كان مشئومًا على نفسه وأهله ، فإنّ الحافظ لما بلغه ذلك قتله وقَتَل جماعةً منهم كثيرة .

ثم إن الحافظ لمّا رأى فِعْل رضوان وتعدّيه وكثرة من انضم إليه من العسكر [١٣٩ ا] عمل فى التّدبير عليه وأرسل إلى صَبىٍّ من الجند يعرف بشومان ، وكانت فيه شهامةٌ وجُرأة وهو مِنْ صبيان الخاصّ ، فأحضره إليه من أحَد السّراديب سرًّا وأرسله إلى علىّ بن السّلار ، أحد أمراء الدّولة(١) ، يأمره بالتدبير على رضوان ، وأنْفَذَ معه مالاً إليه ليستعين به على ذلك . وكان على بن السّلار عاقلاً صاحبَ حزم ويقظةٍ وحسن تأَتٍّ مع قوة وصرامة .

فلمّا جاءه القاصد بالمال وبلّغه عن الخليفة ما قال انتهز الفُرْصَة وأرسل إلى جماعة من صبيان الخاصّ وقرّر معهم أن يجتمعوا ويدخلوا من باب زويلة كردوسا(٢) واحدًا وهم يصيحون : الحافظ يا منصور ؛ وفرّق فيهم ما أرسله إليه الخليفة .

---

(١) لما أخذ الأفضل بن بدر الجمالى مدينة القدس من سقمان بن أرتق ضم طائفة من عسكر سقمان إليه وفيهم والد العادل بن السلار هذا ، فترقى فى خدمة الأفضل الذى لقبه سيف الدولة وأكرم ابنه عليا وجعله فى صبيان الحجر ، فتميز من بينهم بعقله وشجاعته وحزمه وهيبته ، فجعله الحافظ ضمن أمرائه وولاه الإسكندرية ، وكان يعرف برأس البغل ثم استمر فى الترقى حتى تولى الوزارة للخليفة الظافر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وكان من أمره ما سيرد الحديث عنه ، فى المتن ، فى مناسباته . وهو أبو الحسن على بن السلار ، الملك العادل سيف الدين ، وقيل أبو منصور على بن إسحاق . وفيات الأعيان : ١ : ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٢) الكردوس والكردوسة بضم الكاف فيهما والجمع كراديس : الفرقة الحربية الراكبة ، والقطعة العظيمة من الخيل ، والكردوسان قيس ومعاوية ابنا ملك بن حنظلة ، وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة . القاموس المحيط .

فلمّا كان يوم الاثنين ، الثالث عشر من شوّال ، اجتمع بظاهر القاهرة منهم نحو العشرين وأقبلوا من باب زويلة يصيحون : ياللحافظ ، الحافظ يامنصور ؛ فما وصلوا إلى الشرايحيين الذى يُعرف اليوم بالشّوّايين[1] ، حتّى صارُوا نحو الخمسمائة ، وما وصلوا بين القصرين إلاّ والعسكر جميعُه من فارسٍ وراجلٍ معهم ، ولم يَبْق من الصّبيان والعوامّ أحدٌ حتّى خرج النّساء ، وأشرف النّساء من الطاقات ، وصاروا بأجمعهم يصيحون : ياللحافظية .

فلمّا سمع رضوان الضّجيج أراد أن يركب ، فمنعه بعض غلمانه ، فأبى عليه لأنه كان واثقا بنفسه وبِمَنْ معه ؛ وخرج وَحْدَه بغير سلاح ليس معه سوى سيف ، فَلَقِيَ الناس بنفسه وطَرَدَهُم يمينًا وشمالا ، وظهر منه شجاعة تعجَّبَ منه مَنْ شاهدها ، فإنه لقِيَ أُلوفًا من النّاس بمفرده ولم يزل يحمل عليهم حَمْلةً بعد حملةٍ إلى أن قتل منهم عدّة . وكان أخوه إبراهيم قد بلغه الخبر ، فركب من داره وأمسك عنه من يجيئه من ناحية قصر الشوك[2] ، وشدّت الريحانيّة ورجعوا إليه من ناحية زيادة الجامع الحاكمى[3] ودرب الفرنجيّة .

فلمّا طال عليه وتيقّن أنّ القوم بأجمعهم قد تَمَالَئُوا على حربه ، وكان قد انقضى من النهار أربع ساعات ، وأشرف عليه الأستاذون من ناحية باب الرّيح من أعالى القصر يرشقونه بالنّشّاب ويرمُونه بالطّوب ، تحيّر . وكان ابن أخته والى مصر ، فبلغه الخبر ، فقام بجميع غلمانه وسار لنجدة خاله ، فوجد عند باب زويلة من بلغه الخبر بأنّه لا يقدر على الوصول إليه ؛ فسار من ناحية باب البرقيّة ومعه بُوقات وطبول ، فسمع إبراهيم ، أخو رضوان ، أصوات البوقات والطّبُول من جهة باب البرقيّة ، فأنفذ إلى أخيه رضوان يقول له : قد تفرّق علينا العسكر وجاء من ناحية قصر الشّوك ، وقد قاطع الرّاجل علينا من ناحية باب النّصر .

---

(١) سوق الشوايين أول سوق وضع بالقاهرة وكان يعرف بالشرايحيين ، وهو من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين ، أصبح يعرف باسم سوق الشوايين عندما سكنه عدة من بائعى الشواء فى حدود السبعمائة من سِنى الهجرة . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٠٠ . وهو للآن جزء من شارع المعز لدين الله .

(٢) كان منزلا لبنى عذرة قبل بناء القاهرة ، والعامة تقول قصر الشوق ، بالقاف ، وهناك حى يعرف باسم هذا القصر فى الجمالية . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٤ .

(٣) حدثت هذه الزيادة فى الجامع الحاكمى سنة ٤٠١ فى منارة باب الفتوح ، إذ عمل لها أركان طول كل منها مائة ذراع ، وعرفت هذه الزيادة بالزيادة الحاكمية ، وأول من أسس هذا الجامع العزيز بالله ، وصلى به الجمعة ، ولكنه لم يكتمل فى عهده وإنما اكتمل فى عهد الحاكم وأصبح يعرف بجامع الخطبة ، وجامع الحاكم ، والجامع الأنور . نفس المصدر : ٢ : ٢٧٧ .

فلما بلغ رضوان ذلك أيقن بالهلاك إن وقف ، فما زال يتأخر قليلاً قليلاً حتى صار فى رحبة باب العيد عند دار سعيد السعداء[1] ، وبعث إلى داره ، التى هى دار الوزارة من أخذ له شيئًا منها على سبيل الخطف ، وأوْصى إلى أخيه ، فانضمّ إليه هو ومَنْ معه مِنْ أصحابه وفيهم أبو الفوارس وقُدارة بن أبى عَزة وشاور بن مجير السّعدى ، وجماعة من خواصّه ، وخرجوا من باب النصر . فما هو إلاّ أن صار بظاهر القاهرة اقتحم النّاس دار الوزارة ونهبوها حتىّ لم يتركوا فيها شيئًا .

وما وصل رضوان إلى تربة أمير الجيوش[2] إلاّ وقد تلاحق كثير من المغافرة ، وكان قدْ أسلف عند العرب أيَادِىَ وأفاض عليهم نِعمًا وأحسن إليهم إحسانًا كثيرا فى مدّة وزارته ، فأدْركه رجل من العرب يقال له سالم بن المحجل ، أحد شياطين الإنس ، وحسّن له المسير إلى الشام .

واشتغل النّاس بنَهْب دار الوزارة ، وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر وشحنها بالذخائر وأنواع السّلاح والعُدَد والآلات والغلال ، فانتُهِب جميع ذلك ، وأُحرقت أخشاب تعب الملوك فى تحصيلها . وكان نَهْبُ دار الوزارة أوّلَ ضررٍ دخل على الدّولة .

وطلب رضوان الشام ، فدخل عسقلان وملكها وجعلها معقله ، وتوجّه أخوه إلى الحجاز وأقام بها حتى مات ؛ وسار ابن أخته إلى بغداد فأكرمه [١٣٩ ب] أصحاب الخليفة هناك ولم يزل عندهم إلى أن مات .

وخرج رضوان من عسقلان ولحق بصلخد[3] ، فنزل على أمين الدّولة كمشتكين صاحبها

---

(١) هى الدار التى أنشأها الأستاذ قنبر سعيد السعداء ، عتيق الخليفة المستنصر بالله ، وكانت مقابل دار الوزارة ، فلما تولى العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك الوزارة سكنها وفتح إليها سردابا من دار الوزارة يمر فيه ، ثم سكنها شاور ابن مجير السعدى حين تولى وزارة العاضد لدين الله ، كما سكنها ابنه الكامل فى وزارة أبيه . فلما تولى صلاح الدين الأيوبى أمر مصر وأنهى عهد الفاطميين بها حولها إلى دار للصوفية الواردين من البلاد البعيدة ووقفها عليهم ، وجعل لها شيخا يشرف على رعايتهم ووقف عليها أوقافا كثيرة . . وأصبحت تعرف منذ ذلك التاريخ بخانقاه سعيد السعداء والخانقاه الصلاحية . (والخانقاه وجمعها الخوانق كالرباط والزاوية : معاهد دينية إسلامية لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد) . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤١٥–٤١٦ .

(٢) خارج باب النصر ، وهى أول مقبرة أنشئت فى هذه المنطقة زمن الفاطميين : نفس المصدر : ٢ : ٤٦٣ .

(٣) هى مدينة صرخد التى تلاصق بلد حوران من أعمال دمشق . معجم البلدان : ٥ : ٣٤٩ — ٣٥٠ . ويذكر ابن القلانسى أن أمين الدولة كمشتكين الأتابكى واليها تلقله بالإكرام ومزيد الإعظام والاحترام ، وأقام مدة فى ضيافته ثم عاد إلى مصر لأمر كان دبره ، فلما وصل إليها فسد ذلك التدبير عليه . ويزيد ابن الأثير أنه وصل فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين ثم تركها سنة أربع وثلاثين واصطحب معه عسكرا منها . ذيل تاريخ دمشق : ٢٧٠ ؛ الكامل : ١١ : ١٩ .

فأكرمه وأبَرّه ، وأقام عنده ثلاثة أشهر . ثم أنفذ إلى دمشق ، واستفسد من الأتراك بها مَنْ قدر عليه .

وفيها خربت الأثارب[1] من زلزلة ؛ وزُلْزِلت دمشق أيضا[2] .

وفيها مات الأعزّ قاضى القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبى عقيل ، فى شعبان ، فأقام منصب القضاء بغير قاض ثلاثة أشهر ؛ ثم اختير الفقيه أبو العبّاس أحمد ابن الحطيئة فى ذى القعدة ، فاشترط ألا يحكم بمذهب الدّولة ، فلم يُمكّن من ذلك . وكان الوزير رضوان قد تقدّم إلى الفقيه أبى عبد الله محمدّ بن عبد المولى بن عبد الله محمّد بن عقبة اللّخمى ، المعروف بابن اللُّبْنِى[3] ، المغربىّ المالكىّ ، أنْ يعقد الأنكحة . فلمّا كان فى الحادى عشر من ذى القعدة قرّر الحافظ فى قضاء القضاة القاضىَ فخر الأمناء أبا الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن محمّد الأنصارى الأوْسى ، المعروف بابن الأزرق .

---

(١) يقع حصن الأثارب بين حلب وأنطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب . معجم البلدان ١ : ١٠٥ – ١٠٦ .

(٢) يتحدث ابن القلانسى عن سلسلة من الزلازل حدثت بالبلاد الشامية فى هذه السنة ، فى شهر صفر ، فمن ذلك مثلا : فى يوم الثلاثاء الرابع من صفر جاءت فى دمشق زلزلة هائلة بعد الظهر اهتزت بها الأرض عدة مرات ، وفى ليلة الاثنين التاسع عشر ، فى الثلث منها ، عادت الزلزلة ثلاث مرات ، ثم عادت فى ليلة الأربعاء ، ثم فى ليلة الجمعة . وكانت الزلازل فى حلب وما والاها أشد ما يكون . . ويذكر بعض المحققين أن الزلزلة جاءت تقدير مائة مرة وقدرها آخرون بثمانين مرة . ويذكر ابن الأثير أن هذه الزلازل المخربة شملت الشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها فهلك تحت الهدم عالم كثير . وكان قد حدث مثلها فى السنة السابقة . ذيل تاريخ دمشق : ٢٦٨ ؛ الكامل : ١١ : ٢٥ ، ٢٧ – ٢٨ .

(٣) بهامش الأصل : « بخطه . لبنى من قرى المهدية بضم اللام وسكون الباء الموحدة ... » ويقول ياقوت لبنة من قرى المهدية ، (بضم اللام وسكون الباء وفتح النون) ، وإليها ينسب أبو محمد بن عقبة اللخمى اللبنى (المذكور بالمتن فى غالب الظن) ، ولد بالمغرب وسكن مصر وشهد بها (أى عمل ضمن شهود القضاء) وناب عن قاضيها فى الأحكام ، وكان يتعاطى الكلام . معجم البلدان : ٧ : ٣٢٢ .

فيها عاد الأفضل رضوان بن ولخشى من صلخد فى جَمْعٍ فيه نحوَ الألف فارس ، وكان النّاس فى مدّة غيبته يهتِفُون بعَوْده ، فبرزَتْ له العساكر ودافعوه عند باب الفتوح ، فلم يُطِقْ مقابلتهم ؛ فمضى إلى مصر ونزل على سطح الجَرْف المعروف اليوم بالرّصد ، وذلك يوم الثلاثاء مستهلّ صفر . فاهتمّ الحافظ بأَمْرِه ، وبعث إليه بعسكر من الحافظيّة والآمريّة وصبيان الخاصّ ، عدّتهم خمسة عشر ألف فارس ؛ مقدّم القلب تاج الملوك قايماز ، ومقدم الآمريّة فرج غلام الحافظ . فلقيَهم رضوان فى قريب ثلثمائة فارس ، فانكَسَرُوا ، وقُتل كثير منهم ، وغنم معظمهم ؛ وركب أقفيتهم إلى قريب القاهرة . وعاد شاوَر إلى موضعه فلم يثبُتْ ، وأراد العَوْدَ إلى صلخد فلم يقدر ، لقلّة الزّاد وتَعذُّر الطّريق ، فتوجّه بمَنْ معه من العربان إلى الصّعيد . فأَنْفَذ إليه الحافظ الأمير المفضل أبا الفتح نجم الدين سليم بن مصال فى عسكر ومعه أمان ، فسار خَلْفه ، وما زال به حتى أخذه وأحضره إلى القصر آخر نهار الاثنين رابع ربيع الآخر ، فعفا عنه الحافظ ، ولم يؤاخِذْ أحدًا من الأتراك الذين حضرُوا معه من الشّام . واعتقله عنده بالقصر قريبًا من الدّار التى فيها بهرام .

وفيها أُضِيفَ لِقَاضى القُضاة هبة الله بن حسن الأنصارى ، فى سابع عشر جُمادى الآخرة ، تدريس دار العلم بالقاهرة ، فمضى إليها ؛ وكان مدرِّسَها أبو الحسن على بن إسماعيل ، فجرت بينهما مفاوضات أدّت إلى الخصام الشّنيع ؛ فخرج القاضى إلى القصر ماشيًا وقدْ تخرّقَتْ ثيابه وسقطت عمامته . فعظُم على الحافظ خُروجُه فى الأسْواق على هذه الهيئة ، وغضب لذلك ؛ فصرفه ورسم عليه ، وغرّمه مائتى دينار ، وألزمه داره . وأمر بطلب أبى الطّاهر إسماعيل بن سلامة الأنصارى ، فخلع عليه وقرّره مكانه ، ونَعَتَه الموفّق فى الدّين ، ولم يُكتب له سجلّ ؛ فأقام إلى آخر ذى الحجة ، ولم يتناول على القضاء مَعْلومًا ؛ وكان

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١١٣٩ .

جارى الحكم فى كلّ شهر أربعين دينارًا ؛ وقنع بجارى التّقْدمة على الدّعاة وهو ثلاثون دينارًا فى الشهر .

وفيها وَلّى الحافظ لدين الله الأمير المفضّل نجم الدّين أبا الفتح[1] سليم بن مصال المالكىّ تدبير الأمور .

(١) يكنيه النويرى بأبى الفضل ، ويوافق أبو المحاسن المقريزى فى تكنيته بأبى الفتح . أما ابن خلكان فلا يذكر له كنية . تولى الوزارة للخليفة الظافر فى أول عهده ، لكن العادل ابن السلار غضب لذلك ونجح فى طرده من الوزارة ، فخرج من القاهرة وعبر النيل إلى الجيزة وجمع جماعة من المغاربة وسار بهم إلى الصعيد ، فتتبعته جيوش العادل ابن السلار إلى دلاص ، من أعمال ولاية البهنسا جنوب الواسطى ، فقتل ابن مصال وأرسلت رأسه إلى القاهرة وطيف بها على رمح . وسيرد تفصيل هذا فى موقعه من خلافة الظافر . انظر أيضا : وفيات الأعيان : ١ : ٣٧٠ فى ترجمة أبى الحسن على بن السلار ؛ والنجوم الزاهرة : ٥ فى مواضع ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة[1]

فيها هلك بَهْرام الأرمنى بالقصر ، وكان الحافظ لمّا أقدمه من الصعيد إلى عنده أنْزَلَه فى القَصْر ولم يُمكِّنْه من التّصرُّف ، وكان يشاوره فى تدبير أمور الدولة فيعْجِبُه رأيه وحزمه وعقله . فلمّا مات فى العشرين من ربيع الآخر حزن عليه حزنًا كثيرًا ظهر بسببه على القصر غمّة ، وهمّ أن يغلق الدّواوين ولا يفتحها ثلاثة أيّام[2] . وأحضر بطرك الملكيّة وأمره أن يجهّز بهرام ، فقام بتجهيزه . وأُخْرِجَ نصف النهار فى تابوت وعليه ثوب ديباج أحمر ، ومن حوله النَّصارى يُبَخِّرُون [1140] باللّبان والصّبّار وسنّ العود، وجميع الناس مشاة ، فلم يتأخر أحدٌ من أعيان الوقت عن جنازته .

وخرج الخليفة على بغلةٍ شهباء وعليه عمامة خضراء وثوبٌ أخضر بغير طيلسان ؛ فسار خلف التّابوت ، وسار والنّاس تبكى والأقساء يعلنون بقراءتهم ، والخليفة سائر ؛ إلى دير الخندق[3] من ظاهر القاهرة[4] . فنزل الخليفة عن بغلته وجلس على شَفِيرِ القبر وبكى بكاء شديدًا .

وكان عاقلاً مقدامًا فى الحرب ، حسن السّياسة ، جيّد التّدبير ؛ وكان أوّلاً يقوم بأمر الأرمن ، وسكناهم يومئذ فى ناحية تلّ باشر ، فتعصّب عليه جماعة منهم وولّوا غيره ؛ فخرج مغضبًا وقدم إلى القاهرة ، فترقّى فى الخِدَم إلى أن وَلِيَ المحلّة فقام بولايتها . ومنها سار فى زىٍّ حَسَنٍ إلى القاهرة ومعه من الأرمن نحو الألفين يقولون بقوله ، فاستوزره الحافظ .

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن رشا المقدسى فى آخر جمادى الآخرة .

---

(1) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من أغسطس سنة 1140 .

(2) يذكر النويرى أن الحافظ أمر فعلا بغلق الدواوين ثلاثة أيام . نهاية الأرب : 28 .

(3) كان يقع ظاهر القاهرة من بحريها ، عمره القائد جوهر عوضا عن دير هدمه فى القاهرة ونقل إليه عظاما كانت بالدير القديم وجمعها فى بئر عرفت ببئر العظام ؛ وهذا الدير كان قريبا من الجامع الأقمر ، وقد هدم أيام المنصور قلاوون سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ثم أنشئ فى موقعه كنيستان ، وعندهما أخذ النصارى يدفنون موتاهم فى مقبرة عرفت باسم مقبرة الخندق ، وعمرت هاتان الكنيستان عوضا عن الكنائس التى هدمت فى المقس . المواعظ والاعتبار : 2 : 507 ، 511 .

(4) يذكر النويرى هذا ويضيف إليه أنه قيل إنه دفن فى بستان الزهرى فى الكنيسة المستجدة .

سنة ست وثلاثين وخمسمائة[1]

فى ليلة الثلاثاء الثانى عشر من ربيع الأوّل سقطت صاعقةٌ أحرقت رُكْنَ منارة الجامع العتيق .

فى شعبان غلت الأسعار وعُدِمِ القمح والشعير ، فبلغ القمح كلّ إردبٍّ إلى تسعين درهما والدقيق إلى مائة وخمسين للحملة[2] ، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم ، والويبة من الشّعير إلى سبعة دراهم ، والزّيت الطيب إلى سبعة دراهم للرطل ، والجبن إلى درهمين للرطل والبيض إلى عشرين درهمًا للمائة ، والزيت الحار إلى درهم ونصف للرطل ، والقلقاس كل رطلين بدرهم ؛ وعُدِمِ الفرخ والدجاج فلم يُقْدَر على شئ منه . وعمّ الوباء ، وكثر الموَتان .

وفيها مات أحمد بن مفرّج بن أحمد بن أبى الخليل الصّقلّى الشاعر ، المعروف بتلميذ ابن سابق ؛ وكان فاضلاً ذكيًّا يتصرّف فى عدّة فنون ، وله رسائل حسنة وشعر جيّد .

وكان الشعراء فى أيام الحافظ قد أطنبوا فى المديح وتناهَوْا فى إطالة القصائد حتى صار الإنشاد يؤدّى إلى قِصَر الوقت الذى جرت العادة باستماع أشعارهم فيه ، لِطُول مُثُولهم بالخدمة ؛ فخرج الأمر إليهم بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار . فقال أحمد بن مفرّج[3] يخاطب الخليفة :

أمرتنا أنْ نَصُوغَ المدح مختصرًا ... لِمْ لا أمرت ندى كفَّيْك يَخْتَصِر
والله لا بُدّ أن تجـرى سوابقُنا ... حتى يَبِيَن لنـا فى مدحكْ الأثر

فأُمِرُوا بالاستمرار على ما هُمْ عليه من الإطالة فى الإنشاد .

---

(١) ويوافق اول المحرم منها السادس من أغسطس سنة ١١٤١ .

(٢) الحملة تساوى ثلثمائة رطل بالمصرى ، والرطل المصرى مائة درهم وأربعة وأربعون درهما أو اثنتا عشرة أوقية قوانين الدواوين : ٣٦٥ ، ٤٥٥ .

(٣) فى خريدة القصر قسم شعراء مصر : ٢، : ٦٤ — ٦٥ ، تعريف موجز بالشاعر ، ويتضمن أبياتا خمسة من شعره منها البيتان المذكوران هنا . ومنها بيت منفرد فى وصف الغيث يقول فيه :

ومن العجائب أن أتى من نسجـه ... وخيوطـه بيض ـ بساط أخضر

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة(١)

فيها عَظُم الوباء بديار مصر ، فَهَلك فيه عالم لا يُحصى عددُه كثرة .

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولاً إلى رُجار ملك صِقلِّية لمحاربته أهل صِقِلِّية ؛ وكان رُجار فيه فضيلة وأمر ، فصنِّفت له تصانيف ، وكان عنده محبّة للأدب ؛ ومدحه ابن قلاقس الشاعر(٢) وغيره .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من يوليو سنة ١١٤٢ .

(٢) نصر الله بن عبد الله بن على بن الأزهرى ، شاعر إسكندرى ، ولد سنة ٥٣٢ وتوفى سنة ٥٦٣ ، رحل إلى صقلية وأقام بها نحو عامين ثم عاد إلى مصر ومنها رحل إلى اليمن وأقام بها مدة ، ومات بعيذاب فى طريق عودته . ومن شعره يعبر عن متاعبه فى أسفاره برا أو بحرا :

لو لم يحرم على الأيام إنجادى . ما واصلت بين إتهامى وإنجادى
طورا أسير مع الحيتان فى لجج وتارة فى الفيافى بين آساد
والناس كنز ، ولكن لا يقدر لى إلا مرافقة الملاح والحادى

انظر خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ١٤٥ — ١٦٥ ، حيث تجد إشارة إلى مراجع أخرى .

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة(1)

فيها خرج محمد بن رافع اللَّوَاتِيّ بنواحي البحيرة ، فاجتمع له عدد كثير من الناس ، فخرج إليه طلائع بن رُزِّيك ، وهو يومئذ والي البحيرة ، فكانت بينهما حروب قُتِل فيها .

وفيها غلت الأسعار بمصر .

(1) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من يوليو سنة ١١٤٣ م .

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[1]

فيها سيّر الحافظ الرّشيد أبا الحسين أحمد بن الزبير[2] رسولاً إلى اليمن بسجلٍ يقرؤه عليهم ، فخرج في ربيع الأول .

وفيها خرج أبو الحسين ابن المستنصر إلى الأمير خمارتاش الحافظى صاحب الباب وقال له : اجعلنى خليفة وأنا أولّيك الوزارة ، فطالع الحافظَ بذلك ، فأمر بالقبض عليه ، فقُبِض واعتُقل .

وفيها قدم ، في جمادى الآخرة ، من دمشق الأمير مؤيد الدّولة أسامة بن منقذ وإخوتُه وأهلهُ ، ومعهم نظام الدين أبو الكرام محسن وزير صاحب دمشق ، معاضدين له ، فأكرم مثواهم وأنزلوا ، وأفيضت عليهم العطايا ، وتواترت الإنعامات[3] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من يوليو سنة ١١٤٤ .

(٢) ولد بأسوان ورحل إلى مصر واتصل بوزرائها وخلفائها ومدحهم فتقدم عندهم . أرسله الحافظ إلى اليمن داعية له فيقال إنه دعا لنفسه وضرب السكة باسمه فقبض عليه وأرسل إلى مصر ، فعفا الخليفة عنه . وهو ابن أخت الموفق ابن الخلال كاتب الإنشاء للفاطميين ، ترقى فى الخدمة حتى تولى نظارة ديوان الإسكندرية سنة تسع وخمسين وخمسمائة فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، وقتله شاور فى وزارته لميله إلى أسد الدين شيركوه الذى كان قد ساعد شاور على استرجاع منصب الوزارة . خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٢٠٠ – ٢٠٢ .

(٣) ويذكر ابن القلانسى فى سبب خروج أسامة وأهله من دمشق أن رئيس دمشق الأمير الرئيس مؤيد الدين خرج إلى صرخد مستوحشا من تصرف وزير دمشق أبى الكرام نظام الدين ومن الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن على بن منقذ ، ثم ترددت المراسلات بين الرئيس مؤيد الدين والأمير معين الدين أنر ، أتابك صاحب دمشق ، وتكرر المقال بين الرجلين اعتذارا ومعاتبة حتى أسفرت الحال عن تصالحهما على أن يخرج أبو الكرام الوزير وأسامة بن منقذ إلى ناحية مصر بأهليهما ومالهما وأسبابهما ، فسار إلى مصر بعد استئذان صاحبها وعاد الأمير مؤيد الدين إلى دمشق . ذيل تاريخ دمشق : ٢٧٧ – ٢٧٨ .

سنة اربعين وخمسمائة(١)

فيها أعيد نظر الدّواوين والأتراك والخزائن إلى القاضى الموفّق أبى الكرم محمد بن معصوم التّنّيسى فى جمادى الأولى .

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع والعشرين من يوليو سنة ١١٤٥ .

سنة احدى واربعين وخمسمائة (١)

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار ، يطلب الوزارة ، بأرض الصعيد ، فندب إليه عسكرًا عليه سلمان مؤنس اللّواتى ، فمضى إليه وحاربه ، فانهزم وهو من ورائه ، حتى أدركه وأخذه أسيرًا وقتله .

وفيها قدم صافى الخادم ، أحد خُدّام المتّقى ، من بغداد فارًّا ، فى ثالث عشرى جمادى الأولى ، خوفًا ؛ فأكرمه الحافظ .

وفيها مُنِعَ من التعرّض لصَرف شىء من المال الحاضر من الأعمال فى جرائد المستخدمين وأن يكون ما نسب منها على البواقى والفاضل فى هذه السنة .

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن آقسُنْقر حلب بعد أبيه(٢) .

وفيها ملك رجّار بن رجّار ملك صقلّية مدينة طرابلس الغرْب وولى عليها (رجلا من) بنى مطروح(٣) .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من يونيو سنة ١١٤٦ .

(٢) لما اتصل نبأ مقتل عماد الدين زنكى عند قلعة جعبر ، حيث كان يحاصرها ، بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين محمود وقال له : « اعلم أن الوزير جمال الدين- وزير عماد الدين زنكى - أخذ عسكر الموصل وعزم على تقديم أخيك سيف الدين ، وقصده إلى الموصل ، وقد أنفذ إلى جمال الدين وأرادنى على اللحاق به فلم أعرج إليه ؛ وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسى ملكك . . وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام بحلب ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق » . وسار سيف الدين غازى إلى الموصل وبعد أن استقر الأمر له بها اتفق مع أخيه نور الدين على لقاء لتصفية الموقف بينهما بعد أن تخوف كل منهما من الآخر ، فتم هذا . انظر كتاب الروضتين : ١ : ١١٩ - ١٢٣ .

(٣) زيد ما بين القوسين من الكامل حيث يفصل ابن الأثير ظروف هذا الحدث فيقول إن رجار سير أسطولا كبيرا إليها فقاتلها ثلاثة أيام ، وسمع الفرنج فى اليوم الثالث ضجة عظيمة سببها أن أهل طرابلس كانوا قد اختلفوا قبل وصول الفرنج بأيام فطرد بعضهم بنى مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين كان قد قدم فى طريقه إلى الحج ، فلما هاجم الفرنج المدينة أعاد الآخرون ابن مطروح إلى ولايتها فنشبت حرب أهلية بين الجماعتين ، فانتهز الفرنج السانحة وملكوا المدينة وقتلوا ونهبوا وأسروا ، ثم عمروها وجددوا أسوارها وحصنوها وولوا عليها رجلا من بنى مطروح . الكامل : ١١ : ٤١ .

سنة اثنتين واربعين وخمسمائة (١)

فيها صُرف أبو الكرم التِّنِّيسى فى ربيع الآخر ، وأعيد نظر الدّواوين للقاضى المرتضى المحنك .

وفيها سيّر الحافظ لظهير الدين صاحب دمشق هدايا وخلعًا وتُحفًا[٢] .

وفيها خرج رضوان من ثقب نقبه بالقصر . وذلك أنّ الحافظ لمّا اعتقله بالقصر أرسل يَسْأله فى أشياء ، من جملتها زيارة نجم الدّين بن مصال له فى الْوَقْت بعد الوَقْت ، فأجابه إلى ذلك لثقته بابن مصال . فحضر فى يوم من الأيّام ابنُ مصال لخدمة الخليفة ، وبدأ بزيارة رضوان ، فدخل إليه ومعه مشدّة فيها رقاع بجوائج النّاس ليَعْرضها على الحافظ ، وكانت عادته ذلك ؛ فاحتاج إلى الْخَلَاء ، فترك مشدّته عند رضوان ودخل الخلاء . فأخذ رضوان الرّقاع ووقّع بخطّه عليها كلها بما يسُوغ التوقيع به ، وأتْرَبها وطَوَاها فى المشدّة . وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ ، وقد علم أنّه كان عند رضوان ، فقال له : كيف ضيفُنا ؟ فقال : على غايةٍ من الشكر لنعمة مولانا وجواره . وأخرج رُقْعةً من تلك الرّقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التّوْقيع بخط رضوان ، فأمْسَكها وأخرج غيرها ، فإذا هى موقّع عليها أيضًا . وكان الحافظ يراه ، فقال : ما هذا ؟ فاستحيا ابن مصال عندما تداول الخليفة الرّقاع وعليها توقيع رضوان . فقال له الحافظ : يا نجم الدّين ، مازلت مبارَكًا علينا والله يشكر لك ذلك ؛ لقد فرّجت عَنّا غمّة . فقال : كيف يا مولانا قال :

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى من يوليو سنة ١١٤٧ .

(٢) يقول ابن القلانسى : وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر ربيع الآخر وصل رسول مصر إلى دمشق بما صحبه من تشريف وقود (بفتح القاف وسكون الواو) ومال برسم ظهير الدين ومعينه على جارى الرسم فى مثل ذلك . ذيل تاريخ دمشق : ٢٩٥ . وفى هذا الكلام نظر . أما معين الدين فالمقصود به الأمير معين الدين أنر ، وصى أمير دمشق والمتسلط على مقاليدها . وأما لقب الأمير فهو مجير الدين لا ظهير الدين ، وهو مجير الدين أبق الذى تولى أمر دمشق سنة أربع وثلاثين وخمسمائة وبقى بها حتى تسلمها منه نور الدين محمود فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة . ولم يتلقب بلقب ظهير الدين من هذه الأسرة البورية إلا مؤسس دولتها ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين ، جد مجير الدين أبق ، وقد توفى فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة . راجع الكامل لابن الأثير : ١٠ ، ١١ فى مواضع ؛ وذيل تاريخ دمشق ؛ والنجوم الزاهرة ؛ وكتاب الروضتين ؛ وغيرها من المراجع التى تتناول هذه الفترة .

رأيت البارحة رؤياً مقتضاها أنه ربمّا يشركنا فى كثيرٍ من أمْرنا ؛ فالحمد لله إذ كان هذا . وكتب على الرّقاع أمْضَاها بخطِّه ، وخلع على ابن مصال .

فلمّا طال اعتقال رضوان أخذ ينقب بحيث لا يُعْلَم به إلى أن انتهى النقبُ من موضعه الّذى هو فيه إلى تجاه فندق أبى الهيجاء ، وخرج النّقب عن سُور القصر . وكان قياس ما نَقَبه خمسةً وثلاثين ذراعًا ، فظهر منه بكرة يوم الثلاثاء ، ثالث عِشْرِى ذى القعدة ، فى الجيزة ، فالْتَفَّ عليه جماعة من لَواتة وعدّة من الأَجناد ؛ وسمع به الطَّمَّاعُون ، وكان للنَّاس فيه أَهْوِية . فندم الحافظ على تركه بغير حارس ؛ وأخذ فى العمل .

فلمّا كان ثالث يوم عدّى رضوان من اللوق[1] وسار إلى القاهرة ؛ فخرج إليه عسكر الحافظ وتحاربوا معه عند جامع ابن طولون ، فهزمهم ، وسار فى إثرهم إلى القاهرة ، فدخلها فى الرّابعة من نهار الجمعة سادس عِشْرِيه ، ونزل بالجامع الأَقمر[2] . فغلق الحافظ أبواب القصر وامتنع به . فأحضر رضوان أرباب الدولة والدّواوين ، وأمر ديوان الجيش بعَرْض الأَجناد ، وأخذ أموالا كانت خارجة من القصر ، وأنفق فى طوائف العسكر . وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا ؛ فسيّر إليه صندوقًا فيه مال وقال له : هذا الحدّ الذى أراده الله ؛ فاسترْضِ على نفسك[3] .

---

(١) صوابه أن يقال أرض اللوق بفتح اللام ، إلا أن الناس ينطقونها بضم اللام . يقال فى اللغة لاق الشئ يلوقه لوقا ولوقه : لينه ، وأرض اللوق هى التى انحسر عنها ماء النيل وتركها أرضا لينة لا تحتاج إلى الحرث لزراعتها ، وكانت أرض اللوق هذه بساتين ومزارع ليس بها من البناء شئ إلى أن عمر القاضى الفاضل ، وزير صلاح الدين ، بها دارا سميت بمنشأة الفاضل . وكانت هذه الأرض تشمل منطقة باب اللوق إلى الدكة بجوار المقس الفاطمى ومنطقة بركة الشقاف وما يسامتها إلى الخليج . المواعظ والاعتبار : ٢ ؛ ١١٧ — ١١٨ .

(٢) أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله فى موضع كان للعلافين ، وقام على إنشائه وزيره المأمون البطائحى ، فلم يترك أمام القصر دكانا ، وبنى تحت الجامع دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح ؛ واكتمل بناء الجامع فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ؛ ويقال إن اسمى الآمر الخليفة والمأمون الوزير كانا مدونين على لوح فوق محرابه . وقد شمل هذا المسجد كثير من التجديدات والتحسينات فى العصر المملوكى ، ولم تقم به خطبة إلى أن جدد الأمير يلبغا السالمى ، على زمن الظاهر برقوق ، عمارته سنة إحدى وثمانمائة ، فأقام به الخطبة . وهو الآن بشارع النحاسين الذى هو جزء من شارع المعز لدين الله . المواعظ والاعتبار ؛ ٢ : ٢٩٠ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٦٥ .

(٣) يقول ابن الأثير : وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا ليفرقه ، على عادتهم (على عادة الفاطميين) فإنهم كانوا إذا وزروا وزيرا أرسلوا إليه عشرين ألف دينار ليفرقها ، فأرسل إليه الحافظ عشرين ألف دينار فقسمها ، وكثر عليه الناس ، وطلب زيادة فأرسل إليه عشرين ألف دينار أخرى ففرقها فتفرق الناس وخفوا عنه. ويقول النويرى إن الحافظ أرسل إليه عشرين ألف دينار ، ولم يذكر شيئا عن الدفعة الأخرى التى ذكرها ابن الأثير. الكامل: ١١ : ١٩ ؛ نهاية الأرب : ٢٨

وأفشت هتافات الناس إلى رضوان ؛ فاستدعى الحافظ أحدَ مقدَّمى السّودان سرًّا وقال له : إلى بكم واثق . فقال : ما ادَّخَرْنا هذا إلّا لمولانا . فقال : كم أصحابك ؟ قال : عشرة . قال : لكم عشرة آلاف دينار واقتلوا هذا الخارجىَّ [١٤١ ا] علينا وعليكم ، فأنتم تعلمُون إحْسَاننا إليه وإساءتَه إلَيْنا . فقالوا : يا مولانا السمع والطاعة . ورتَّبوا أنهم يصيحون حول الجامع الأقمر : الحافظ يا منصور . فلمّا فعلوا ذلك قَلق وقال لمن حوله : ما كلّ مرة يصحُّ لهؤلاء الكلاب مُرَادُهم . فحسَّنوا له الرّكوب ظنًّا منهم أنه إذا ركب إلى بين القصرين لم يجسر أحدٌ عليه . فعِنْدما رَكب ضربه واحدٌ من السّودان فى فخذه ضربة شديدة ، وتداركه آخر بضربةٍ ، وتوالت عليه الضَّربات ؛ فقتل فى الساعة الحادية عشرة من نهار الجمعة المذكور ؛ وقطعت رأسه وحملت إلى الخليفة الحافظ . فسكنت الفتنة ، وهدأت الغوغاءُ .

ثم إن الحافظ بعث بالرّأس إلى امرأة رضوان ، فلمّا وُضِعَت فى حجرها قالت : هكذا يكون الرّجال .

وكان رضوان سُنِّيًّا حسن الاعتقاد ، شجاعًا ، مقدامًا ، قوىّ الغلب ، شديد البأس . وُلِدَ ليلة عيد الغدير من ذى الحجة[1] سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وترقَّى فى الخدم إلى أن وَلِىَ قوص وإخميم فى سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة . إلّا أنّه كان مع حسن عبارته وغزارة أدَبِه طائش العقل قليل الثبات ، لا يحسن التّدبير ، ولا يتأتّى له سياسة الأمور لعجلته وجرأته ؛ وكان أخوه الأوحد أثبت عقلا منه .

ومن جُمْلة ما كُتب له فى تقليد الوزارة بعد بهرام من إنشاء أبى القاسم ابن الصيرف : « . . . لأنّك أذْهَبْتَ عن الدّولة عَارَها ، وأمَطْت من طرق الهداية أوْعَارَها ، واستعدْت ملابس سيادةٍ كان قد دنَّسها من استعارها » .

ولم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحدًا ؛ وأعاد النّصرانى المعروف بالأخرم إلى ضمان الدولة ، على ما تقدّم ، ثم نقم عليه لكثرة المرافعين واعتقله ، وطلب منه المال فلم يسمح بشىء . فركب الحافظ يوماً ووقف على باب السّجن الذى هو فيه من القصر ، وأمر به ، فأُحْضِر إليه . وقال له : كم تَتَجالَد ؟ أُرِيد منك مالى على لسان صاحب السّتر . فبينا الخليفة

---

(١) يجرى الاحتفال بعيد الغدير فى الثامن عشر من شهر ذى الحجة فى كل عام .

يخاطبه إذ أخذ كفًّا من تراب وجعله فى فيه ؛ فقال له الحافظ : ما هذا ؟ فقال : مالا ينبغى نقله إلى مولانا ، صلوات الله عليه . فغضب عليه ، وأمر بإحضار أبيه وأخيه ، وكانا مُعْتقَلَيْن ، فأخرجا ؛ وقتل الأخرم وأخاه ، وأبوهما ينظر قتلهما ، ثم قتل الأب . وأحاط بـأموالهم فحصل منهم ما يزيد على عشرين ألف دينار عينا .

فيها مات الشيخ تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان ، المعروف بابن الصيرفى الكاتب ، فى يوم الأحد لعشرٍ بَقِينَ من صفر ؛ ومولده فى يوم السبت الثانى والعشرين من شعبان سنة ثلاث وستّين وأربعمائة . وكان أبوه صيرفياً وجدّه كاتباً ؛ وأخذ صناعة التّرسُّل عن ثقة الملك أبى العلاء صاعد بن مفرّج ؛ وتنقَّل حتى صار صاحب ديوان الجيش. ثم انتقل معه إلى ديوان الإنشاء[1]. ومات الشريف سناء الملك أبو محمد الزَّيدى الحسينى ؛ ثم تفرّد بالديوان فصار فيه بمفرده . وله الإنشاء البديع والشعر الرائع ، والتَّصانيف المفيدة فى التاريخ والأدب .

(١) وكان مولده فى شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة ؛ وقيل إنه توفى بعد سنة خمسين وخمسمائة . عمل فى ديوان الجيش مع ناظره صاعد بن مفرج ، واشتغل بكتابة الخراج مدة ، ثم فى ديوان المكاتبات زمن الوزير الأفضل بْن بدر الجمالى ، وهو الذى كتب سجل إعلان وفاة المستعلى بالله وخلافة الآمر بأحكام الله ، وتولى ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن أبى أسامة ، ولقب بتاج الرئاسة ، وبقى فيه حتى توفى فى هذه السنة . ومن مؤلفاته كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة الذى ترجم فيه لوزراء الفاطميين إلى أيام الآمر بأحكام الله . معجم الأدباء : ١٥ : ٧٩ — ٨١ .

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[1]

فيها توجّه العسكر ، فى ثالث صفر ، لقتال لَوَاتة وقد تجمّعوا وعقدوا الأمر لرجُلٍ قدم من المغرب وادّعى أنه وَلَدُ نزار بن المستنصر[2] . فسار إليهم العسكر وواقعهم على الحمامات[3] وانْهزَم منهم العسكر ؛ فجهّز الحافظ عسكرًا آخر ، ودسّ إلى مُقدّمى لَوَاتَة مالا جزيلا ، ووعدهم بالإقطاعات ؛ فغدَرُوا بابن نزار وقتلوه ، وبعثوا برأسه إلى الحافظ . ورجعت العساكر فى ربيع الأوّل .

وفيها صُرِف القاضى المكين الموفّق فى الدين أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة الأنصارى عن القضاء ، لِسَبْع خَلَوْن من المحرّم ؛ واستقرّ على الدّعوة الموفّق الأمير كمال الدّين ، واستخدم فى وظيفة القضاء ؛ وكان كريم الأخلاق ، حليما ، عليه سَكينة ووقار ، مليح الشيبة ، ظريف الهيئة .

(وفيها توفى) أبو الفضائل يونُس بن محمّد بن الحسن المَقْدِسى القرشىّ ، المعروف بجوامرد ، خطيب القدس .

[١٤١ ب] وفيها بلغ النّيل تسعة عشر ذراعًا وأربعة أصابع[4] ، ففاضَ الماء حتّى

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى والعشرين من مايو سنة ١١٤٨ .

(٢) يذكر ابن القلانسى هذه الحادثة أيضا دون أن يوضح اسم مدعى الحق ، كما يذكر أنه اجتمع عليه خلق كثير من المغاربة وكتامة وغيرهم ، ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٢ .

(٣) لعل المقصود بها ذات الحمام الواقعة فى الصحراء الغربية على مسافة من الإسكندرية ، يقول البكرى هى سوق جامعة بناها زيادة الله بن الأغلب منصرفه من المشرق إلى إفريقية وبإزائها بئر غزيرة طيبة حولها بساتين ، وبها قصر خرب يتداول سكناه روابط (مرابطو) صاحب مصر . المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب : ٣ ؛ معجم البلدان : ٣ : ٣٣٤ .

(٤) يذكر أبو المحاسن أن الزيادة بلغت ثمانى عشرة ذراعا وثلاث عشرة أصبعا ، وهو بهذا يخالف ما جاء فى المتن النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٨٤ . ويوافق النويرى فى نهاية الأرب تقدير المقريزى . وقد سبق فى التعليقات أن العادة جرت على اعتبار وصول الزيادة إلى اثنتى عشرة ذراعا حدا كافيا لإنقاذ البلاد من القحط ، فإذا وصلت ستة عشر ذراعا كانت زيادة مثالية مبشرة بمحصول جيد ، فإذا وصلت ثمانى عشرة ذراعا كان هذا نذيرا بطغيان النيل وإفساد المحصول ، كما سبقت الإشارة إلى أن ابن مماتى ذكر أن النيل إذا أوفى ستة عشر ذراعا فقد وجب الخراج ، وإذا زاد على ذلك ذراعا زيد الخراج بمقدار مائة ألف دينار ، وإن نقص ذراعا نقص الخراج مائة ألف دينار . ويضيف ابن مماتى إلى ذلك أن الذراع التى يقاس بها إلى اثنتى عشرة ذراعا ثمانية وعشرون أصبعا ومن بعد ذلك تكون الذراع أربعة وعشرين أصبعا . المواعظ والاعتبار : ١ : ٥٨ — ٥٩ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٢٩٠ — ٢٩٣ ؛ قوانين الدواوين : ٧٦ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

بلغ إلى الباب الجديد أول الشّارع ، خارج باب زويلة[1] ، فكان الناس يتوجّهُون من مصر إلى القاهرة على ناحية المقابر لامْتِلاء الطريق بالمياه . فلمّا بلغ الحافظ ذلك أَظْهرَ له الحزن والانقطاع ، فسأله بعض خواصّه عن ذلك ، فأخرج له كتابًا وقال : انظر هذا السطر ، فإذا فيه : « إذا وصل الماءُ البابَ الجديد انتقل الإمام عبد المجيد » . ثم قال : هذا الكتاب الذى نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا ، وما يأتى بعدها . فاتفق أنّه لم تَنْسَلِخْ هذه السّنة حتى مرض الحافظ مَرْضَة الموت .

وفيها انقرضت دولة بنى باديس[2] . وذلك أن الغلاء اشتد بإفريقية من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة اثنتين وأربعين حتى أكل النّاس بعضُهُم بعضًا ، وخَلت القرى ، ولحق كثيرٌ من الناس بجزيرة صقلية . فاغتنم رُجّار متملّكها الفرصة وبعث جُرْج ، مقدّم أسطوله ، على نحو مائتين وخمسين شينيًّا ، فنزل على المهديّة ثامن صفر سنة اثنتين وأربعين ، وبها الحسَن بن على بن يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس ، ففرّ بأخفّ حمله وتبعه النّاس . فدخل جُرْج المهديّة بغيْر مَانع ، واستولى على قصر الأمير حسن ، وأخذ منه ذخائر نفيسة وحظايا بديعات[3] .

---

(١) ويعرف أيضا بالباب الجديد الحاكى لأنه أنشئ فى عهده ؛ وكان يقع خارج باب زويلة من القاهرة عند رأس حارة المنتجبية بينها وبين حارة الهلالية ، وكانت حارة المنتجبية تقع على يمين الخارج من باب زويلة متجها نحو الجنوب . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ .

(٢) أسرة الزيريين أصحاب إفريقية والمغرب الأوسط ، وكانت حاضرتهم فى معظم أيامهم بمدينة القيروان ، امتد حكمهم بين سنتى ٣٦١ – ٥٤٣ (٩٧٢ – ١١٤٩) أمضوا الفترة الأولى منها حتى سنة ٤١٧ يحكمون باسم الفاطميين ، ثم استقلوا بالأمر حتى نهاية الفترة ، ثم خضعت بلادهم لروجر الثانى ثم للموحدين ؛ واستمروا فى حكمها فترة ، بعد زوال استقلالها ، نوابا عن روجر الثانى وعن الموحدين . وقد تقدم تفصيل ذلك فى مناسباته ، وسيرد باقيه ، فى ثنايا هذا الكتاب ، انظر أيضا : معجم الأنساب ؛ Mohammadan Dynasties

(٣) يذكر ابن الأثير أنه كانت هناك مواثيق بين روجر والحسن بن على بن يحيى بن باديس ، وأن الأسطول أراد أن يباغت المهدية ليلا ، فأسر مركبا إسلاميا بها عدد من الحمام المستخدم للمراسلات فأرسله محملا برسائل تخبر بمسير الأسطول الصقلى إلى القسطنطينية ، وذلك للتضليل ، فهبت ريح شديدة عطلت الأسطول فلم يصل المهدية إلا نهارا ، فأرسل قائد الأسطول إلى الحسن يؤمن جانبه استنادا إلى المعاهدات والمواثيق ، ويذكر أنه أراد أن يقتص لوالى مدينة قابس المطرود ويريد عوده إليها ، وتظاهر بأنه يستبد الحسن عسكريا ليعينه فى ذلك ، لكن الحسن أدرك الخطر وأحس بالخديعة ، وأدرك كذلك عجزه عن المقاومة ، فدعا الناس إلى الرحيل عن البلد وكان هو على رأس الراحلين . الكامل : ١١ : ٤٧ – ٤٩ .

وعزم حسن على المجيء إلى مصر ، فقبض عليه يحيى بن العزيز[1] ، صاحب بجاية[2] ، ووكل به وبأولاده ، وأنزله فى بعض الجزائر ، فبقى حتّى ملك عبد المؤمن بن على بجاية فى سنة سبع وأربعين ، فأحسن إلى الأمير حسن وأقرّه فى خدمته . فلمّا ملك المهديّة تقدّم إلى نائبه بها أن يقتدى برأى حسن ويرجع إلى قوله .

فكانت عدّة مَنْ ملك من بنى باديس بن زيرى بن مناد تسعة ، ومدّتهم ، من سنة إحدى وستّين وثلثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، مائة واثنتان وثمانون سنة .

وفيها بعث رُجّار بن رُجّار ملك جزيرة صقلية إلى المهديّة أسطوله ، مائتين وخمسين من الشّوانى ، مع جُرْجِى بن ميخائيل ، فجدّ فى حصارها حتى أخذها فى صفر منها[3] ، وملك سوسة[4] وصفاقس[5] ، وملك رُجّاربونة[6] .

---

(١) آخر بنى حماد بن بلكين بن زيرى بالمغرب الأوسط ، حكموا بين سنتى ٣٩٨ – ٥٤٧ (١٠٠٧ – ١١٥٢) ، وقضى الموحدون على دولتهم . توفى يحيى هذا سنة ٥٨٨ . معجم الأنساب .

(٢) مرسى ومدينة ، وأهميّتها ترجع إلى مينائها الرئيسى ، وبالقرب منها منازل كتامة الذين نزل بينهم أبو عبد الله الشيعى ، داعية الفاطميين ، فى مرحلة التمهيد لإعلان الخلافة الفاطمية . المغرب للبكرى : ٨٢ ؛ معجم البلدان : ٢ : ٦٢ .

(٣) هذا تكرار لما سبق قبل أسطر .

(٤) من مدن إفريقية (تونس الحالية) ، قريبة من المهدية وبينهما ثلاثة أيام ، وبينها وبين صفاقس يومان . معجم البلدان : ٥ : ١٧٣ – ١٧٥ ، المغرب : ٨٥ .

(٥) وهى أيضا سفاقس : مدينة بإفريقية على البحر مسورة ولها أسواق كثيرة ومساجد وحمامات وقصور وحصون ورباطات ، وتقع فى وسط غابة زيتون ، وكان زيتها يباع فى مصر وصقلية والمغرب . وبين سفاقس والقيروان ثلاث منازل أو مراحل ومنها إلى المهدية منزلتان . المغرب : ١٩ – ٢١ ؛ معجم البلدان : ٥ : ٨٧ – ٨٨ .

(٦) بينها وبين القيروان مرحلة واحدة ، وهى مدينة برية بحرية كثيرة اللحم واللبن والسمك ، من نوع الحوت ، والعسل ، وأكثر لحومها من البقر ، وحولها قبائل كثيرة من البربر منها مصمودة وأوربة وغيرهما . المغرب : ٥٤ ، ٨٢ ، ٨٤ .

سنة أربع وأربعين وخمسمائة(1)

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيُوشيّة والطائفة الرّيْحانيّة ، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدّة من الفريقين ؛ وامتنع النّاس من المضىّ إلى القاهرة ومن الذهاب إلى مصر . وابتدأت الحرب بينهم فى يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأُولى ، وتوالَتْ إلى يوم السبت رابع جمادى الآخرة ؛ فانهزمت الرّيْحانيّة إلى الجيزة .

وهمّ العسكر بخلع الحافظ من الخلافة ، فمات بقصر اللؤلؤة ، وقد نقل إليه وهو مريض ، بكرة يوم الأحد ، وقيل ليلة الاثنين ، لخمس خلون من جمادى الآخرة ؛ واشتغل الناس بموته .

وكان له من العمر يَوْمَ مات ستّ وسبعون سنة وثلاثة أشهر وأيّام ، منها مدّة خلافته من يوم بويع بعد أحمد بن الأفضل ثمانى عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما(2) .

وأصابته فى ولايته شدائد ، واعتُقل ، ثم لما أُعيد تحكّم عليه الوزراء حتى قبض على رضوان .فلم يستَوْزِرْ بعده أحدًا ، وإنّما أقام كتّابًا على سنّة الوزراء أرباب العمائم ولم يُسَمّ أحدًا منهم وزيرًا ؛ وهم : أبو عبد الله محمّد بن الأنصارى ، وخلع عليه بِالْحَنَكِ والدواة فتصرّف تصرُّف وزراء الأقلام ، وصعد المنبر مع الخليفة فى الأعياد والجمع ؛ والقاضى الموفّق محمد بن معصوم التنّيسى ؛ وصنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم النّصرانىّ .

وكان الحافظ حازم الرّأى ، جمّاعًا للأموال ، كثير المداراة ، سَيُوسًا عارفًا . ولم يكن أحدٌ ممّن وَلِىَ قَبْلَهُ أبوه غير خليفة سواه . وكان يميل إلى علم النجوم ؛ وكان له من المنجّمين سبعة ، منهم ؛ المحقوف ، وابن الملّاح ، وأبو محمّد بن القلعىّ ، وابن موسى النصرانىّ .

---

(1) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من مايو سنة ١١٤٩ .

(2) هذا التحديد ، يرجع إلى أن أحمد بن الأفضل الوزير كان يمنعه من التصرف ومن لقاء الناس ، وقد بويع البيعة الثانية بالخلافة بعد وفاة أحمد هذا ، أما بيعته الأولى فكانت بولاية للعهد وبالوصاية على العرش حتى يتبين الحمل الذى كان ينتظر أن يولد ليتولى الخلافة .

وفى أيّامه عُمِلت الطُّبْلة التى كانت إذا ضرب بها مَنْ به قولنج خرج عنه الرّيح ؛ ومازالت بالقصر إلى أن كُسِرت فى أيّام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[1] .

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل ، ويوسف ، وأبا المنصور [١٤٢ ا] إسماعيل[2] . وكان مطعُونًا عليه ، فإنّه وَلِىَ بغير عهد وإنمّا أقيم كفيلا عن مُنْتَظَرٍ فى بطن أمّه ، فلم يظهر للحمل خبر .

ومن محاسن ما يحُكى عنه أنّه كان يَخْرُجُ فى كلّ ستّة أشهر عسكرٌ من القاهرة إلى عسقلان لأجل الفرنج تقويةً لمن بها من المركزيّة الكنانيّة وغيرهم[3] . ويُقدّم على العسكر عدّة ، فيُجعل على كلّ مائة فارسٍ أميرٌ ، ويقدّم على الجميع أمير تسلّم إليه الخريطة فيكون أمير المقدّمين ؛ وتشتمل الخريطة على أوراق العرض من الدّيوان بالحضرة ليتّفق مع والى عسقلان على عرض العسكر بمقتضاها . ويصدر التّعريف من كاتب الجيش هناك إلى الدّيوان بالحضرة بذلك ، ويسلّم إليه مبلغٌ من المال لنفقته مَعُونةً لِمَنْ فاتتْه النّفقة من العسكر ، فإن النّقباء الّذين لِلطّوائف يجردون مَنْ كان من الطوائف حاضرًا ومَنْ كان مسافرًا فى إقطاعه ، فيأخذ صاحب الخريطة أوراقًا بمن سافر وهو فى إقطاعه ليوصل إليه نفقته .

وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير ، وللأجناد ثلاثون ديناراً لكل جندىّ .

واتّفق مرّة خروج العسكر إلى عسقلان وفيهم خمس أمراء من جملتهم جلب راغب ،

---

(١) القولنج مرض يصيب المعى وقد يؤدى إلى انسدادها فترة فيثقل معه خروج الثقل والريح . القاموس المحيط . وكان الحافظ كثير الإصابة بهذا المرض فعمل له الطبل المذكور فى المتن صنعه له شيرماه الديلمى (أو موسى النصرانى) من سبعة معادن والكواكب السبعة فى إشراقها ا النجوم الزاهرة ٥ : ٢٣٨ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ . وسيرد خبر هذا الطبل وانكساره فى احداث سنة ٥٦٧ .

(٢) وله أبو المنصور إسماعيل فى عهد خلافته ، وتولى الخلافة بعده ، أما جبريل ويوسف فقد ولدا قبلها ، وسبق أن كان له ولد يسمى سليمان وهو أول من تولى العهد من بعده فمات بعد شهرين من توليه العهد ، كما أن ابنه الآخر حسن رغب فى أن يتولى العهد بعد وفاة سليمان فلم يجبه أبوه إلى رغبته فكانت الأحداث التى انتهت بأن استعان أبوه بطبيبه على إنهاء حياته . ويزيد النويرى على هؤلاء ولدا آخر اسمه عبد الله ويذكر أنه هلك فى حياته أيضا . قارن نهاية الأرب : ٢٨ ؛ النجوم الزاهرة ٥ : ٢٤١ .

(٣) يذكر أبو المحاسن أن عدة هؤلاء الفرسان ، ويطلق عليهم « البدل » من ثلثمائة إلى أربعمائة فى القلة ، ومن أربعمائة إلى ستمائة فى الكثرة . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٤٤ .

الّذى اتفق منه فى حسن بن الحافظ بعد موته ما تقدّم ذكره[1] ؛ فلمّا سيّر إليه مائة دينار ، نفقته ، تجهّز للسفر فى جملة النّاس ، وسلّمت الخريطة لأميرهم . فلمّا دخلوا على الحافظ ليودّعوه ويدعو لهم بالنّصر والسّلامة على العادة ، قضَوْا حقّ الخلافة وانْصَرفوا إلّا جلب راغب فإنه وقف ؛ فقال الحافظ : قولوا للأمير ماوُقُوفك دون أصحابك ، ألك حاجة ؟ فقال : يأمرنى مولانا بالكلام . قال : قل . فقال ؛ يامولانا ليس على وجه الأرض خليفة ابن بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، غيرك ؛ وقد كان السّلطان استزلّنى فسفهت نفسى وأذنبت ذنبًا عظيماً عفوُ مولانا أوْسعُ منه وأعظم . فقال له الحافظ : قل ما تريد غير هذا فإنّا غيرُ مؤاخذيك به . فقال : يا مولانا قد توهمّت أنك تحقّقْت أنى ماضٍ فى حالة السخط ، وقد آلَيْتُ على نفسى أن أبْذُلَها فى الجهاد فلَعَلّى أموت شهيدًا ، قد صنع ذلك سخطُ مولانا علىّ . فقال له الحافظ : انْتَهِ[2] عن هذا الكلام ، وقد قلنا لك إنا ما وَاخَذْنَاك ، فأى شىء تقصد ؟ فقال : لا يُسَيّرنى مولانا تبعًا لغيرى ، فقد صرت مرارًا كثيرةً مقدّمًا ، وأخشى أن يُظَنّ أن هذا التأخير للذّنب الذى أنا متعرّف . قال : لا ، بل مقدّمًا وصاحبَ الخريطة . وأمَر بنقل الحال عن المقدّم الذى تقرّر للتقدّم والخريطة إلى جلب راغب ، وأُعْطِى مائتى دينار وقال: له استَعِنْ بهذه . فعُدّ هذا من الحِلْم الّذى ما سُمِع بمثله .

وكان الغالب على أخلاقه الحلم . وكان مقدم المطالبين يجىء إلى الخليفة الحافظ ويخبره بغرائب ما يظهر ؛ فجاء يومًا وأخبر أنه وجد حَوْضًا لطيفًا قريبًا من معلف الجمال ، فلم يتعرّض له . فندب الخليفة معه شاهدين حتى أتوْا به ، فإذا حوضٌ مطبق بغطاء كشف عنه فإذا فيه صَنَمٌ من رخام أبيض على هيئة الإنسان وهو واضع أصبعًا فى فِيهِ وأصبعًا أخرى فى دبره فأمر الحافظ أحد الشاهدين أن يناوله ذلك ؛ فلمّا أخذ الصّنم ضرط ضرطة عظيمة ، فألقاه من يده وقد اشتدّ خجله . فقام موفّق ، أحد الأستاذين المحنّكين ، ليناولَه إيّاه فضرط أيضًا . فأمر الحافظ بتركه وعلم أنه طلسم القولنج .

ووجد فى مقطع الرخام سرب تحت الأرض فيه حبوة ممدودة أُحضرت إلى الأستاذ مفضل،

(١) دخل هذا الأمير إلى الحجرة التى سجى بها الأمير حسن بعد تناول الشراب المسموم ليتأكد من موته فوخزه بسكينه فى مواضع من جسده .

(٢) فى الأصل : انتهى .

المعروف بصدر الباز ، فإذا فيها حَنَشٌ من ذهب زنته ستة مثاقيل ونصف مثقال ، وعيناه من ياقوت أحمر ، وفى فمه جرس من ذهب . فأُعلِم به الحافظ ، فلم يزل يبحث عن خبره حتّى أُحْضِرت له عدّة أحناش كبار ، وأخرج ذلك الحنش المذكور فجعلت الأحناش الكبار تخرج رءوسها ثم تحركها مرّةً أو مرّتين وتسقط ميتة .

وكان الحافظ حريصًا على علم السّيميا . فظهر فى أيّامه الشيخ أبو عبد الله الأندلسى ، شيخ بنى الأنصارى أوْحَد زمانه فى علم السّيمياء ، فسأله الحافظ أن يُرِيَه شيئاً من ذلك ؛ فأراه ساحة القصر قد صارت لجّة ماءٍ ، فيها سفينة متعلقة وشوانى حرببات [١٤٢ ب] قد خرجت على تلك السفينة وقاتلت أهلها ؛ والحافظ يرى لمعان السّيوف ومُرُور السّهام وخفقان البُنُود ، ورءوس الرّجال وهى تسقط عن كَوَاهِلها ، والدماء تسيل ؛ حتى سلّم أصحابُ السّفينة لأصحاب الشوانى فساروا بها والأبْواق تزعق والطّبول تضرب ، إلى أن غابت عن الأبصار فى لجج البحار . ثم كشف عن الحافظ فإذا هو قصره . ثم أمره أن يُرِيَه شيئاً آخر : فقال : لنُخْرِجْ مَنْ فى مجلس أمير المؤمنين إلى منزله ؛ فأمرهم ؛ فخرجوا حتى صاروا إلى حيث خيولُهم واقفة بباب القصر ، فلما قدمت إليهم ليركبوا فما مِنْهُم إلّا مَنْ رأى فرسه كأنه ثور وقرناه كأعظم ما يكون من القرون ؛ فعادوا إلى الحافظ وأعلموه بما رَأَوْا ، فضحك وقال : افْدُوا دوابكم منه . فقطع كلّ واحدٍ منهم على نفسه شيئاً فأمر له به . ومازال مقيمًا بمصر حتّى مات .

وكان فى أيّام الحافظ أيضًا ابن محفوظ ، سأله أن يُرِيَه شيئاً من أعماله ؛ فأمر بأربعة أطباق فضة أن تحضر ، فلمّا وضِعَت بين يديه امتلأت يَاسَمِينًا فى غير أوانه ، وصار يعلو على كلّ طبق وهو مرصوص متماسك بعضه فوق بعض ، إلى أن صار كأربعة أعمدة من رخام متقابلة(١)

---

(١) يذكر النويرى نقلا عن بعض المؤرخين أن الحافظ خطر بباله أن ينقل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من المدينة إلى القاهرة ، وكانت المدينة إذ ذاك يخطب بها لبنى العباس لظهور ملوك الدولة السلجوقية ، فأرسل نحوا من أربعين رجلا من أهل النجدة والقدرة ، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة ، وتحيلوا بأن حفروا سربا من مكان بعيد وعملوا حساب الخروج فى المكان المقصود ، فعصم الله تعالى نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، من أن ينقل من المكان الذى اختاره له ، فيقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا ، وقيل بل سعى بهم فأهلكوا .

الظّافر بأمر الله أبو المنصُور إسماعيل بن الحافظ لدين الله
أبي الميمون عبد المجيد[1] بن الأمير أبي القاسم محمّد
ابن المستنصر بالله

وُلِد يوم الأحد ، النصف من ربيع الآخر ، سنة سبع وعشرين وخمسمائة ؛ وبويع فى اليوم الذى مات فيه الحافظ لدين الله ، وهو كما تقدّم يوم الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وعمره سبع عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيّام[2] ؛ بوصيّة من أبيه له بالخلافة[3] . وكان أصْغَرَ أولاده وفيهم أبو الحجاج يوسف وأبو الأمانة جبريل ، وهما[4] أسَنُّ منه ،وركب بزىّ الخلافة . وَاستَوْزَر الأمير نجم الدّين أبا الفتح سليم بن محمّد بن مصال ، بوصيّة الحافظ بذلك أيضاً ، ونُعِت بالسيّد الأجلّ الأفضل أمير الجيوش وخلع عليه خلع الوزارة ؛ وهو يومئذ من أكابر الأمراء ، وهو شيخ ليّن متواضع[5] . فسكن دار المأمون البطائحى[6] . وصار أبو الكرم التنّيسى من ذوى رأيه .

وأوّل ما بدأ به الظافر أنه ركب بعد صلاة العشاء الآخرة بالشمع فى القصر ، ووقف بباب الملك بالايوان المجاور للشّباك ؛ وأحضر ابنى الأنصارى ، وهما أبو عبد الله وأبو[7] واستدعى متولّى السّتر ، وهو صاحب العذاب ، وأحضرت آلات العقوبة ؛ وضرب الأكبر

---

(١) فى الأصل ابن عبد المجيد ، وهو خطأ .

(٢) فى هذا الحساب نظر ، إذ الصواب أن عمره حين ولى الخلافة كانسبع عشرة سنة وشهرا واحدا وعشرين يوما . ويذكر أبو المحاسن أن عمره حين ولى الخلافة سبع عشرة سنة وأشهرا . وفى هذا تجوز أيضا . قارن النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٢٨ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ .

(٣) وأمه أم ولد تدعى ست الوفاء وقيل ست المنى . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٨٨ .

(٤) ،(٥) ورد ما بين هذا الرقين فى الأصل بشئ من الاضطراب هكذا : وهما أسن منه ، فاستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال ، ونعت بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش ، وركب بزى الخلافة ، وخلع عليه خلع الوزارة بوصية الحافظ بذلك أيضا ، ونعت بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش وهو يومئذ من أكابر الأمراء .

(٦) التى كانت بجوار درب السلسلة . وقد حول صلاح الدين الأيوبى جزءا منها إلى مدرسة لحنفية عرفت باسم المدرسة السيوفية لوقوعها بجوار درب السيوفيين ، ويذكر المقريزى أنها على زمنه كانت تقابل سوق الصنادقيين . وكانت هذه المدرسة مؤسسة تعليمية تخصص للأحناف بمصر . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٢ — ٤٦٣ ، ٢ : ٣٦٥ — ٣٦٦

(٧) بياض بالأصل لم أهتد بمساعدة ما بين يدى من مراجع التحقيق إلى ما يكمله .

بحضوره بالسّياط إلى أن قارب الهلاك ، وثنّى بأخيه كذلك ، ثم أخرجا وقُطِعت أيديهما وسُلَّت ألسنتهما من أقفيتهما ، وصُلبا على بابى زويلة الأول والثانى[1] فأقاما زمانًا ثم وُضِعا .

وكان سبب قتلهما أنهما كانا من الكتاب فنبغا وتوصّلا بالحافظ ، فاستخدمهما فى ديوان الجيش ، فوثبا على رؤساء الدّولة وأعيان كُتّابها وخواصّ الخليفة من الأستاذين المحنّكين ، مثل الأجلّ الموفّق كاتب الدّست[2] — وكان موضع سرّ الخليفة ومحلّ مشورته فى الأمور العظام من أحوال الممالك — ومَنْ يليه ، كالقاضى المرتضى المحنّك[3] ، والخطير ابن البّواب ، وتجرّآ على المذكورين وغيرهم مع قلّة دُرْبة . فكثر حُسّادهما وعُمِل عليهما فيما يخرج للأمراء والمقْطَعِين من الخروجات فى كل سنة ، ويشتمل الخرج على نعوت ذلك الأمير ، فيصير ذلك الخرج إلى عامل الإقطاعات ، وهو تحته . فذكرا فى أحد الخروجات كلامًا طريفًا ليؤخذ عليه خطّهما ليُوقَفَ عليه الخليفة حتّى يتبيّن له جهلهما ، وهو : « حَبْطَسْتُ حَبْطَسْتُ ، وفى النهر قد غطست ، بغلالة أرجوان ، صفراء بزعفران » . فمشى عليهما ذلك وترجما الخرج بخطّهما ، وخرج من أيديهما ، فأُحْضِر إلى الأجل الموفّق ابن الحجّاج ، كاتب الدّست ، فأخذه ودخل به إلى الخليفة الحافظ ، وقال : يا مولانا ، الأمثال مضروبة بحفظ ديوان هذه الدولة ومَنْ يتولّاها ، فكيف لو ظفر بهذا الخرج مخالف لها ، يقصد التشنيع عليها . فقال له الحافظ : يا مولاى الموفّق ، هَبْهُمَا لى . فقال : يا مولانا ، كلّنا مماليكك . وخرج ؛ ولم يبلغ الأعداء منهما ما أرادوا ؛ فزاد أمرهما فى الدّولة على الخليفة والاستعلاء [١٤٣ ا] على الناس .

وأراد الأكبر منهما أن يدخل على الخليفة ويخرج ظاهرًا ليراه النّاس ، فجدّدَ له ديوانًا سمّاه

---

(١) زويلة قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر القائد من المغرب وقد سكنوا بحارة عرفت باسمهم بجوار البابين اللذين أنشأهما جوهر عند المدخل الجنوبى القاهرة . يقول القلقشندى : وأحد هذين البابين القوس المجاور المسجد المعروف بمسجد سام بن نوح ، والثانى كان موضع الحوانيت التى يباع فيها الجبن على يسرة القوس المتقدم ذكره . وكان سبب إبطال هذا الباب أن المعز دخل القاهرة من باب القوس فازدحم الناس فيه وتجنبوا الدخول من الباب الآخر واشتهر بين الناس أن من دخل منه لم تقض له حاجة فأبطل . ولما جاء بدر الجمالى على زمن المستنصر أزال هذين البابين وأنشأ بدلهما الباب الموجود الآن والذى يسميه العامة باب المتولى أو بوابة المتولى . المواعظ والاعتبار : ١ : ٣٨٠ — ٣٨١ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٤٨ — ٣٤٩ ، ٣٦٣ .

(٢) الأجل الموفق أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال .

(٣) واسمه أبو عبد الله محمد بن الحسين الطرابلسى .

ديوان التّرتيب ، وجمع فيه مَنْ يخدم فى ترتيب الأعمال صفقة صفقة ، وأن يكون أميرهم بِجَارٍ يُقرّر له — وهذا الترتيب يقال له فى غير هذه الدولة صاحب البريد — فكان يكاتب متولّى هذا الديوان بالأخبار بمطالعاتٍ تصل إليه مترجمةً بمقام الخليفة فيَعْرِضها من يده ويُجَاوب عنها بخطّه . فورد كتابٌ بعض أصحاب التّرتيب بقضيّة ، فأجابه بكلام ، وأراد الاستشهاد بآية من كتاب الله تعالى ، فحرّفها وقالها على غير ما أُنْزِلت ؛ ووقع الجواب للموفّق ، فأخذ فى كمّه مصحفًا ودخل إلى الخليفة ومعه جواب ابن الأنصارى ، وقال : يا مولانا ، هذا كتاب الله تعالى قد حضر إلى مقامك ، وهو المنزل على جدّك رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، يشكو إليك جناية ابن الأنصارىّ عليه ، فخُذْ بحقّه لهذه الجنايات[1] ، والحمد لله إذْ وقع هذا الكتاب إلى المملوك دون غيره ، فإن المملوك لم يزل يتَتَبّع هذه الأمور لئلا يقع عليها أعداء الدّولة فيُشيعوا ذلك فى الدُّوَل المخالفة لها . فقال له الحافظ : أنا أعلم منك هذا وأعلم من المذكورين ماذكرت ؛ وقد كنتُ سألتك فيهما مرّة ، وهذه الثّانية ، فإنّ لهما علينا خدمة . فقال : العفو يا مولانا . وانصرف ولم ينل منهما غرضًا . فأمر الحافظ ابن الأنصارى الأكبر أنْ يَمْضِىَ إلى الأجلّ الموفّق ويخدمه فى داره .

وكان يومئذ ديوان المكاتبات مقسُومًا بين أبى المكارم ابن أسامة وبين الموفّق ، إلّا أنّ ابن أسامة لا يلتفت لأمر الدّيوان لكثرة شغله بدُنْياه ، فاسْتَنَابَ ابنه أبا المنصور عنه ، وكان يلحق بأبيه فى الاشتغال بأمر دنياه عن النّيابة ، فصار اعتماد الخليفة فى الدّيوان بأجمعه على الأجلّ الموفّق ؛ وكان ينفذه ولا يشُقّ ابن أسامة لما أسلفه من الخدم السابقة . ثم لمّا مات أبو المكارم أسامة ، وكان فى الظّنّ أنّ ابنه أبا المنصور يُستخْدَم مكانه ، سبق ابن الأنصارى وسأل الحافظ فاستخدمه فى النّصف من ديوان المكاتبات فقط شريكا للموفّق فيه ؛ وانفرد الموفّق بالإنشاء . ونُعت ابن الأنصارىّ بالقاضى الأجلّ سناء الملك ، وأمره الحافظ بخدمة الموفّق وأنْ يَتَمَنّع معه بمجرّد الرّتبة . فشَقّ ذلك على الموفق وصبر على ضرّ . وقُرّر أبو المنصور بن أسامة فى ديوان الترتيب مكان ابن الأنصارىّ .

وتجنّد ابن الأنصارىّ الأصغر وتأمّر فى يوم واحد ، وخُلِع عليه بالطّوّق ، ورُتّب فى زمّ

---

(١) فى الأصل : فخذ بحقه فإن هذا الجنايات .

الإمريّة[1] ، وهى إمرة طوائف الأجناد . فكثر الأعداء وتعدّدَت الحُسّاد ، واشتغل النّاس بهما وأطلقوا الألسنة بذمّهما ، فكان يقال : هذا الأمير الطّارى[2] ، ابن الأنصارىّ . ولَجّ النّاس بالكلام فيهم وهم عاجزون عنهم ، حتّى مات الحافظ فكان من أمرهما مع ابنه الظّافر ما تقدّم ذكره .

وفى يوم الثلاثاء رابع شعبان اجتمع كثير من السودان وعدّة من المفسرين ببعض القُرى[3] ، فخرج إليهم الوزير ابن مصال فنازلهم حتّى كسرهم .

وكان الأمير المظفّر سيف الدّين معدّ الملك ليث الدّولة على بن إسحاق بن السّلار واليا على البحيرة والإسكندرية وكان ابن زوجه ركن الإسلام عباس وَالى الغربية . فلم يَرْضَ ابن السّلار بوزارة ابن مصال ، وخرج من الإسكندرية إلى ربيبه[4] ، بالغربية واتّفقا على القيام وإزالة ابن مصال . فبلغه ذلك ، فأعلم به الخليفة الظافر ؛ فجمع الأمراء فى مجلس الوزارة وبعث إليهم زمام القصور يقول : هذا نجم الدّين وزيرى ونائبى. فمَنْ كان يطيعنى فَلْيُطِعه[5] ويمتثل أمره . فقال الأمراء : نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون فرجع الزّمام بهذا الجواب . فقال أمير من الأمراء ، شيخ يقال له درى الحرون ، وهو أحد أشرار القوم ومن رِفْقَة ابن السّلار : إن سُمِعَ منّى ما أقول قلت . فقال [١٤٣ ب] له الوزير : : قل . قال : مولانا ، صلوات الله عليه ، يعلم وأنت تعلم أنّ ما فى الجماعة من يضرب فى وجه ابن السّلار بسيف ، وأوّلهم أنا ؛ فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده فالأمر لله وله . فلمّا سمع الجماعة ذلك قاموا وخرجوا من القصر ، وشدّوا على خيولهم ، وساروا يريدون ابن السّلار .

---

(١) يعنى الإمارة . وقد وردت فى النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٩٤ بنفس الصيغة الموجودة هنا بالمتن .

(٢) المقصود به ابن الأنصارى الأصغر . نفس المصدر .

(٣) يذكر النويرى أن هذه الثورة السودانية كانت بالبهنسانية (وكانت ولاية ومدينة على زمن الفاطميين ، وهى الآن بمحافظة المنيا وتتبع مركز بنى مزار) .

(٤) بالأصل : إلى زوج أمه وصححته ما أثبت بالمتن ، ذلك أن عباسا ، والى الغربية ، كان ابن السيدة بلارة من زوجها أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وقد قدم الثلاثة إلى الإسكندرية مطرودين من المهدية ، وكان عباس صغيرا ، فمات أبو الفتوح بالإسكندرية وتزوجت أرملته ، بلارة ، من العادل بن السلار واليها ، فتربى عباس فى رعايته . راجع النجوم الزاهرة : ٥ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ ؛ وفيات الأعيان ؛ كتاب الروضتين : ١ فى مواضع مختلفة .

(٥) فى الأصل : فيطعه .

فلمّا غُلِبَ الظّافر عن دَفْعِه أعطى ابن مصال مالاً كثيرا ، وأمره أن يعمل لنفسه ما يرى فيه الخيرة وهو يساعده . وسار ابن السّلار فرأى ابن مصال أنه لا طاقة له به ، فخرج إلى جهة الصّعيد ، وعدّى إلى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان ، عندما سمع بوصول المظفر . وقَدِم ابن السّلار إلى القاهرة فى يوم الأربعاء خامس عشر شعبان ، فوقف على القصر وسيّر إلى الظافر وإلى مَنْ يدبّره من النساء يُعْلم بحاله . فجرت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة آخرها أنه فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة ؛ ونُعِت بالسيّد الأجلّ أمير الجيوش ، شرف الإسلام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين .

وبقى يحقد على الظّافر مَيْلَهُ مع ابن مصال ؛ وفى نفس الخليفة نفور منه أيضا . وسكن دار الوزارة .

وجمع ابن مصال كثيراً من السّودان ومن العربان ولَوَاتَة وغيرهم ، وانضمّ إليه بدر بن رافع ، مقدّم العربان ، وسار بهم . فندَبَ ابنُ السّلار رَبِيبَه المظفّر أبا منصور ركن الدّين عبّاس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس فى عسكر ، فنزل بركة الحبش . وقدم ابن مصال أمامه الأمير الماجد فى عسكر ، فطرَقَ عبّاساً على حين غفلة وقتل من عسكره كثيراً ، وانهزم جماعة ؛ وثبت عبّاس حتى أتته النجدة من الغدفكَرّ على أصحاب ابن مصال وقاتلهم ، فلم يُفْلِت منهم إلا من سبحت به فرسه فى النيّل ؛ وأُخِذ الأمير الماجد نسيب ابن مصال وضربت عنقه . فسار ابن مصال إلى بلاد الصّعيد بجميع الأجناد والعُربان .

وشرع ابن السّلار يجهّز عبّاسًا فجهّزه فى جيش كثيف وبادر بالخروج خوفًا من الاجتماع على ابن مصال ؛ فسار إلى دلاص[1] ومعه طلائع بن رُزّيك ، وهو أحد المقدّمين ، فبرز إليه ابنُ مصال وواقَعَهُ عدّة وجوه ؛ فانجلت الوقائع عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع مقدّم العربان فى يوم الأحد التاسع عشر من شوّال . ويقال إنه بلغت عدّة

(١) تقع غربى النيل ، من أعمال البهنسا ، وهى مدينة تتبعها قرى ، وهى الآن تتبع محافظة المنيا . معجم البلدان : ٤ : ٦٦ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٥ ، ٢٦٢ .

القتلى سبعة عشر ألفا . فَعادَ عبّاس وقد قَوِىَ ومعه رأس ابن مصال إلى القاهرة ، فطيف بها على قناة القاهرة ومصر يوم الخميس ثالث عشرى ذى القعدة ، وحُمِل أهلُه وولدُه إلى القصر وأُخْلِيت لهم قاعة ؛ وخُلِع على ابن السّلار .

وكان ابن مصال من أهل برقة . وخدم أوّلا فى البَيْدرة والصّيد هو وأبوه ، فتقدّم فى الخدم حتّى نال الوزارة . واتفق أنه مرّ فى وزارته مرّةً فقالت له امرأة كانت تعرفُه فى حال فقره : سليم وزرت ؟ فقال لها : نعم . قالت : والله ماوزرت وبقى أحد . فضحك وأمر لها بِصِلَة .

وكان العادل ابن السّلار منذ استقرّ فى الوزارة أخذ ينظر فى أمر الأجناد المعروفين بالنهضة والعزم وزاد فى أرزاقهم ، وتفقد خزائن السلاح، وحفظ النّواميس، وشدّ من مذهب أهل السّنة . فقَدِمَ عليه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السّلفى[1] ، فأكرمه وبنى له مدرسة بالإسكندرية .

وقدم عليه مؤيدّ الدولة أسامة بن مُرشد بن علىّ بن مُنقذ ، فأكرمه . إلا أنه كان يستوحشُ من الظّافر وخائفاً على نفسه فأخْبِر بأن ينتدِب رجالا يمشون فى ركابه بالزّرد والخُوذ نحو السّتمائة ويَجعلهم نوبتين بزمامين فى كلّ يوم نوبة ؛ وأوهِمَ أن الخليفة خبأ له قومًا يغتالونه بالقصر . فنقل جلوس الخليفة من القاعة التى يُدْخل إليها من الدّهالِيز المظلمة إلى الإيوان فى البراح والسّعة . فكان إذا دخل إلى الخليفة يدخل ومعه أولئك الذين انتدبهم كلّهم ، فيجلس الخليفة فى الشباك بالإيوان ويجلس هو من خارجه ومع هذا يبالغ فى الخدمة ويُظهِر الطّاعة ، ولا يخِلُّ بها فى قولٍ ولا فِعْل .

وكان للخليفة غلمان نحو الخمسمائة رجل يقال لهم صبيان الخاصّ [١٤٤ ا] وفيهم

---

(١) شيخ الإسلام أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن سلفة الأصبهانى ؛ تنقل بين أصبهان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة وغيرها متعلما ومعلما ومحدثا ، واستغرقت رحلاته العلمية بضع عشرة سنة استقر بعدها فى الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولم يخرج منها إلا إلى القاهرة لسماع الحديث ؛ ويقال إنه أقام بها خمسة وستين عاما . وسلفة بكسر السين وفتح اللام والفاء : لفظ أعجمى بمعنى غليظ الشفة ، وقيل بمعنى ذى الثلاث شفاه لأن شفة جده كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية . وفيات الأعيان : ١ : ٣١ – ٣٢ ؛ تذكرة الحفاظ : ٤ : ٩٠ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٢٢٧ ؛ طبقات الشافعية للسبكى : ٤ : ٤٣ – ٤٨ .

مَنْ هو أمير ؛ فبلغ ابن السّلار أنّهم قد تحالفوا وتعاقدوا على أن يهجموا عليه وهو فى داره ليْلاً ويقتلوه . فلمّا كان فى سادس عشرى رمضان أغلق القاهرة والقصور وأحاط بصبيان الخاصّ وقتلهم ؛ وفرّ منهم عدّة ، فكتب إلى الوُلاة بقتل من ظُفِر به منهم . وأخذ يتبعهم حتى أتى على أكثرهم .

وأصل هذه الطائفة التى كانت تعرف بصبيان الخاصّ أنّ مَنْ مات مِنَ الأمراء والأجناد وعبيد الدولة وله ولد فإنه يحمل إلى حضرة الخليفة ويودع فى أماكن مخصوصة ويؤخذ فى تعليمه أنواع الفروسيّة من الرّمى وغيره ؛ ويقال لهم صبيان الخاصّ .

وأخذ ابن السّلار فى الاحتفال بأمْرِ عَسْقلان وسدّ خَللها ، وحمل إليها من الغلال والأسلحة شيئا كثيرا .

وولىّ عَضُد الخلافة ناصر الدّين نصْر بن عبّاس ربيبه مصر بشفاعة جدّته أم عبّاس ، وكان فيه جرأة ، فاستَدْنَاه الخليفة الظّافر وقرّبه واختصّ به .

وفيها قُتِل الموفّق أبو الكرم محمد بن معصوم التنّيسى فى يوم الجمعة الرابع من شوال وكان يتولىّ نظر الدّيوان . وذلك أنّ ابن السّلار لمّا كان فى بداية أمره من جملة الصّبيان الحجريّة[1] دخل يوماً على الموفّق بن معصوم برسالة وأعادها عليه مراراً وأغْلَظ له فى القول فنفرت منه نفس ابن معصوم . فكُتِب له مرّة منشورٌ بإقطاع وجاء به إلى ابن معصُوم ليثبته . فلمّا رآه تغافل عنه وأهمل أمره إهانةً له وكراهة فيه ؛ فقال له ابن السّلاروقد تكرّر سؤالُه وهو يعرض عنه : ما تسمع ؟ فقال له الموفّق : كلامك ما يدْخُل فى أذنى أصلاً . فولىّ ابن السّلار وخرج من غير أن يكتب له . وصرف الدّهر ضرباته ، وصار ابنُ السّلار وزيراً وابن معصوم ناظر الدّواوين ؛ فلمّا دخل عليه قال له : يا قاضى ، ماأظنّ كلامى يدخل أذُنَك ، فتلجلج[2] وقال : عفو السلطان . فقال : قد استعملتُ العفو بخروجى

---

(١) وهم الذين ورد ذكرهم فى المتن قبل بضعة أسطر باسم صبيان الخاص . ذلك أن هؤلاء الصبيان الصغار كانوا يقيمون فى حجر خاصة بهم ، يفرد لكل منهم حجرة ويكونون فى خدمة الخليفة متى احتاج إليهم ، ويعدون إعدادا خاصا لهذه الخدمات ومن بين ما يهتمون بمعرفته أعمال الفروسية .

(٢) الجلجة والتلجلج التردد فى الكلام ، وفعله تلجلج لازم ، وتلجلج داره منه أخذها ، القاموس المحيط .

من عندك . وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارا حديدا عظيم الخلقة ، وقال : والله هذا أعددته لك من ذلك الوقت . وأمر بهِ فجر وضُرِب المسمار فى أُذُنِه حتى نفذ من الأخرى ، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار فى خشبة وعلق عليها ميتا ، ثم أُنْزِل بعد أيّام .

وفيها رُمِى برأس سعيد السعداء الخادم من القصر فى سابع عشر شعبان[1] ، ثمّ أخرج وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق[2] . وهو هذا الذى تُنْسب إليه دُوَيرة سعيد السعداء التى هى اليوم خانقاه برحبة باب العيد .

وفيها قتل تاج الرئاسة ابن [3]المأمون البطائحى فى رابع عشر صفر .

وفيها مات أبو الحسن على بن الحسن البيسانى ، والد القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على ، وكان قاضى بيسان والنّاظر فيها ؛ ومولده فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة ، ومولد أبيه الحسن يوم عيد الغدير من ذى الحجّة سنة ستين وأربعمائة[4]

---

(١) هو الأستاذ قنبر ، وقيل عنبر ، وقيل بيان ، ولقبه سعيد السعداء أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر عتيق الخليفة المستنصر . يذكر المقريزى هنا أنه قتل فى سابع عشر شعبان من هذه السنة ، ويذكر فى المواعظ والاعتبار أن قتله كان فى سابع شعبان.وكانت داره المذكورةهنا مقابل دار الوزارة ، فلما تولى العادل بن طلائع بن رزيك الوزارة سكنها وجعل بينها وبين دار الوزارة سردابا يصل بينهما ، وحولها صلاح الدين إلى دويرة للصوفية عرفت باسم خانقاه سعيد السعداء . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤١٥ - ٤١٦ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٦٨ - ٣٦٩. ولا يزال هناك شارع صغير يحمل اسم سعيد السعداء يتفرع من شارع حوش الشرقاوى الذى يبدأ من شارع تحت الربع بقسم الدرب الأحمر .

(٢) يقع باب الخرق على رأس شارع تحت الربع من جهة الغرب ، وينتهى إلى شارع غيط العدة ، وأنشئت عنده قنطرة على الخليج عرفت باسمه . وقد تحول اسمه حديثا إلى باب الخلق . الخطط التوفيقية : ٣ : ٥١ - ٥٢ .

(٣) بياض بالأصل .

(٤) بهامش الأصل : بياض أسطر .

سنة خمس واربعين وخمسمائة [1]

فيها أغار جمع كثير من الفرنج على الفرما ونهبوها ، وحرقوها وأخربوها ، فى رجب [2]

(١) ويوافق أول المحرم منها اليوم الثلاثين من إبريل سنة ١١٥٠ .

(٢) لم أجد لهذا الخبر سندا فى غير نهاية الأرب : ٢٨ . وينفرد أبو المحاسن بذكر استيلاء الفرنج على عسقلان فى هذه السنة بالأمان بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير ، ويقول إن القتال كان قد تمادى بين الفريقين فى كل سنة إلى أن استسلمت فى هذه السنة وأخذ الفرنج جميع ذخائرها . ويذكر ابن القلانسى هذا الحدث فى أخبار سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ويذكر أن من أمكنه الخروج من أهلها برا أو بحرا فعل فى اتجاه مصر وغيرها . ويذكر كذلك أنه كان فى هذا الثغر من العدد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يحصر فيذكر . ويضيف ابن الأثير إلى تفاصيل هذه الحادثة التى يذكرها فى أخبار سنة ثمان وأربعين وخمسمائة كذلك أن الوزراء كانوا فى كل سنة يرسلون إلى الثغر من الأسلحة والذخائر والأموال والرجال من يقوم بحفظها ، فلما قتل ابن السلار وحدثت الاضطرابات الداخلية فى أعقاب ذلك اغتنم الفرنج الفرصة فهاجموها ، وقاتل أهلها قتالا شديدا حتى كاد الفرنج ييئسون ، ثم حدث خلاف بين أهلها انتهزه الفرنج وصدقوا القتال فاحتلوا البلد . ويذكر ستيفنسون خبر سقوطها بيد الفرنج فى أخبار سنة ١١٥٣ م وهى توافق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . قارن : النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٩٩ ذيل تاريخ دمشق : ٣٢١ — ٣٢٢ ؛ الكامل : ١١ : ٧١ ؛ وكذلك The Crusaders in the East; p. 171

سنة ست وأربعين وخمسمائة[١]

فيها جهّز أبو منصور علىّ بن إسحاق ، المعروف بالعادل ابن السّلار ، المراكب الحربية بالرّجال والعُدَد ، وسيّرها فى ربيع الأوّل إلى يافا ، فأسرت عدّةً من مراكب الفرنج ، وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه ، وقتلواخلقا كثيرا من الفرنج بها. ثم توجّهوا إلى ثغر عكّا فأنْكَوْا فيهم ؛ وساروا منه إلى صَيْدا وبيروت وطرابلس فأبْلَوْا بلاءً حسنا ، وظفروا بجماعة من حجّاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم[٢] .

وبلغ ذلكَ الملكَ العادل نور الدّين محمود بن زنكى ، ملك الشام ، فعزم على قصد الفرنج ومحاربتهم فى البّر ، ولو قُدِّر ذلك لقطع الله دابر الفرنج ، لكنّه اشتغل بإصلاح أمور دمشق[٣] .

وعاد الأُسطول مظفرا بعد ما أنفق عليه العادل ثلثمائة ألف دينار . وسبب مسير الأُسطول تخريب الفرنج للفرما .

وفيها قطع العادل بن السّلار جميع الكسوات المقررة للنّاس[٤] [١٤٤ ب] فى الدولة فعمّ ذلك الأُمراء والدّواوين وغيرهم .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها اليوم العشرين من إبريل سنة ١١٥١ .

(٢) وعدد سفن هذا الأسطول سبعون مركبا حربية يذكر ابن القلانسى أنه لم يخرج مثلها فى السنين الخالية . . « إذ بلغت قدرا كبيرا من القوة وكثرة العدد والعدة والرجال » . ذيل تاريخ دمشق : ٣١٥ .

(٣) كان نور الدين يحاول أخذ دمشق ، شجعه على ذلك ميل كثير من رجالها وأجنادها إلى الدخول فى طاعته وقد استعرض نور الدين جيشه فبلغ ثلاثين ألف مقاتل . وانتهت هذه المحاولة بصلح بين الطرفين بعد أن تعرض نور الدين بالمناوشة لأطراف المدينة فى مناطق الغوطة وداريا وجسر الخشب وطريق حوران – دمشق ولم يخرج أحد من أهل دمشق وأجنادها لحربه أو لمعاونته . ذيل تاريخ دمشق : ٣١٥ – ٣١٦ .

(٤) يقول النويرى : وقطعت جميع الكساوى المرتبة للأمراء والدواوين عن أربابها وتوفرت .

سنة سبع واربعين وخمسمائة(1)

فيها صَرَف ابن السّلار أبا الفضائل يونس عن القضاء ، وكان من الأعيان النّزِهِينَ الأنفُسَ ، الكبيرين الهِمم ، العظيمين القدرَ ، لم يشرب قطّ ماء النّيل بل ماء الآبار ، ولم يأكل خبز السّلطان . وقرّر عبد المحسن بن محمّد بن مكرم من بعده ؛ ثمّ صرفه وولّى بعده بدر بن ثمال بن نصير ، وقيل بل الذى تولّى بعده أبو المعالى محمّد بن جُميع ابن نجا الدسوقى الشافعى.

(1) ويوافق أول المحرم منها الثامن من ابريل سنة ١١٥٢

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة(١)

فيها خرج العسكر من القاهرة لحفظ ثغر عسقلان من الفرنج ، وكانوا قد نزلوا عليها فى السنة الخالية . وكانت العادة أن يخرج فى كل ستّة أشهر عسكر بدلاً من العسكر الّذى بالثغر . فلمّا قدم البدل كانت النّوبة لركن الدّين المظفّر أبى منصور عبّاس بن تميم ربيب العادل ، فخرج ومعه من الأُمراء ابنه نصر بن عبّاس والأمير ملهم والضّرغام وأسامة ابن منقذ وغيره ، وكان لأُسامة بعبّاس اختصاص كبيرٌ . فلمّا نزلوا بعد رحيلهم من القاهرة على بلبيس تذكّر عبّاس وأسامة مصر وطِيبَها وما هم خارجون إليه من مقاساة السّفر ولقاء العدوّ ، فتأوّه عبّاس أسفًا على مفارقته لذّاته بمصر ، وأخذ يلوم العادل ويُثرِّب عليه(٢) من أجل كونه أخرجه . فقال له أسامة : لو أردْت كنت أنت سلطان مصر . فقال : وكيف لى بذلك ؟ فقال : هذا ولدك ناصر الدّين بينه وبين الخليفة مودّة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضعَ عمّك ، فإنه يحبك ويكره عمّك ؛ فإذا أجابك فاقتل عمّك . فوقع هذا الكلام من عباس بموقعٍ وقَبِله ، فاستدعى ابنَه وأسرّ إليه بما تقرّر بينه وبين أسامة وسيّره سرًّا إلى القاهرة .

وكان العادل قد كره تخصيص نصر بن عبّاس بالخليفة الظّافر ، وقال لعبّاس [وأمّه](٣) والله ما ينبغى اجتماع نصر بالخليفة ؛ قُولاَ له يقصر من اجتماعه فربّما نتج من شابّيْن ما لا ينبغى . وقال لأم عبّاس : لا يدخل ابنك دارى إلا بإذنى . فكأنّه يوحى [بـ]ـأنه قاتلُه .

فلمّا سار نصر من عند أبيه ودخل إلى القاهرة كان وقت غفلة من العادل أمكنته فيه الفرصة ، فاجتمع بالظّافر وأعلمه بالحال الّتى قدم من أجْلها ، فأعجبه ذلك وأذِنَ فيه ، لما كان فى نفسه من قتل ابن السّلار لصبيان الخاصّ وغير ذلك . ففارق نصر

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من مارس سنة ١١٥٣ .

(٢) التثريب التعيير والاستقصاء فى اللوم ؛ وثرب عليه تثريبا قبح عليه فعله . مختار الصحاح .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين لأن سياق الكلام يقتضيه .

الخليفة وقد قوى عزمه ، وأتى إلى دار جدّته السيدة بلارة بنت القاسم زوجة العادل ، وأخبر العادل بأنّ أباه سمح له بالعودِ إلى القاهرة شفقةً عليه وخوفًا من وعثاء السّفر فقبل ذلك ومشى عليه . فلمّا أصبح العادل يوم الخميس سادس المحرّم مضى من أوّل النّهار إلى مصر لتجهيز المراكب الحربيّة والنّفقة فى رجالها وعرضها ؛ فظلّ نهاره فى تهيئة ذلك ليلحق عبّاسًا ، وعاد فى أثناء النهار إلى داره بالقاهرة وقد لحقتهُ مشقّة وتعب تعبًا كثيرا . فلما استلقى على الفراش لينام ، وكانت امرأته جدّة نصر قد توجّهت إلى الحمام وخلا له البيت ؛ فجاء إلى باب السرّ ودخل منه ومعه سيف ، فإذا العادل قد نام وقت القائلة ، فاخترط سيفه وضربه وهو خائف ، فوقعت الضّربةُ على رجله ، فثار من فراشه وأبصره ، فقال : إلى أين يا كُليب ! وخرج نصر يعْدُو ، وكان قد أعسّته جماعة من أصحابه ، فلمّا صار إليهم وأعلمهم بما وقع قالوا له : قد قتلت نفسك وقتلتنا ! ودخلوا وهو معهم ، فإذا به قد جاء أُستاذ من خدامه وهو يحدّثه فقتلوه وأخذوا رأسه ، فطلع بها نصر إلى الظّافر . وماج الناس فى القاهرة .

وسرح الطائر للوقت بطلب عبّاس من بلبيس ، فقام من فوره وصار إلى القاهرة ، فدخلها بكرة يوم الجمعة سادس المحرّم ، ثانى يوم قتلة العادل ؛ فوجد جماعة من الأتراك كان العادل اصطفاهم واختصّهم قد نفروا وتوحشت قلوبهم ممّا وقع ؛ فأخذ يسكّن أمرهم ، فلم يثقوا به ولا اطمأنوا إليه . وخرجوا يدًا واحدة فساروا إلى دمشق .

وكانت قتلة العادل فى يوم الخميس وقت الظهر السادس من المحرم ، وله فى [١٤٥ ا] الوزارة ثلاث سنين وستة أشهر .

ولمّا حُمِلت رأسُه إلى الظّافر أشرف من باب الذهب ، ونُصبت الرأس ليراها النّاس ، ثم حُملت إلى خزانة الرءوس من بيت المال وجُعلت فيها مع الرءوس ، وما تحرّك لها ساكن ، ولا تكلّم أحد . إلا أنّ نائحة كانت تُسمّى خسروان كانت قد مهرت فى صناعة النّياحة على الأموات ، وصارت تنشئ فى نُواحها الرّوائع ، فقالت فيه ترثيه سطرين أُعجب بهما أدباء العصْر من جملة قطعة :

ما تقبل الغفلة يا شهيد الدّار
ياشبيه ذى النّورين صاحب المختار

وبطل مسير العساكر إلى عسقلان[1] . فسرَّ الفرنج ما جرى ، وكانوا محاصرين لعسقلان فقالوا لأهلها قتله ابنُه وأنتم تقاتلون لِمَنْ ؟ فلمَّا صَحَّ الخبر لهم وَهَنُوا لانقطاع المدد عنهم حتّى أخذها الفرنج وتقوَّوا بأخذها . واستعرضوا كلّ جارية ومملوك بدمشق من النَّصَارى ، وأطلقوا قهرًا من أراد منهم الخروج من دمشق إلى وطنه شاء صاحبه أو أبى[2] .

ولمَّا وصل عبّاس خلع عليه الظَّافر خلَع الوزارة في يوم الجمعة المذكور، ونُعت بالأفضل ركن الإسلام ، فباشر وضَبَطَ الأمور ، وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينْسِيَهم العادل .

واستمرّ ولدُه نصْر على مخافطة الخليفة ، فاشتغل به عن كلّ أحد ، وأبوه لا يعجبه ذلك . وواصل الخليفةُ الظَّافر نصرَ بن عبّاس بن تميم بالعطاء الجزيل ، فأرسل إليه في يوم عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أيّاماً وحمل إليه كسوة من كلّ نوع ، وأغفله أيّامًا وبعث إليه خمسين صينيّة فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياما وبعث إليه ثلاثين بغل رحل وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها . وكان يتردد بينهما مرتفع بن فحل في قتل نصر لابنه عباس كما قتل زوج جدته العادل ابن السّلار ، فبلغ ذلك أباه على لسَان أُسامة بن منقذ فلاطفه واستماله . وزاد الأمر حتى كان الخليفة يخرج من قصره إلى دار نصر بن عبّاس ، التّى هى اليوم المدرسة المعروفة بالسّيوفيّة[3] . فخاف عبّاس من جرأة ابنه وخشى أن يحمل الخليفة على قتله فيقتله كما قتل ابن السّلار ، فعتبه سرًّا ونهاه عن ملازمة الخليفة وابنه ، فلم يفد فيه القول .

---

(١) كان ثغر عسقلان من أواخر الثغور الفاطمية بالسواحل الشامية التى صمدت للإغارات الصليبية والفرنجية حتى سقطت فى هذا العام ، عام ثمان وأربعين وخمسمائة ، وكان الفاطميون يرسلون إلى هذا الثغر بالبدل لتجديد حاميته وتقويتها ؛ وفى عهد الحافظ لدين الله كان هذا البدل يخرج كل ستة أشهر فى القلة بين مائتى فارس وأربعمائة ، وفى الكثرة بين أربعمائة فارس وستمائة ، ومعهم عددهم وذخائرهم وأموالهم وأموال أخرى يحملونها إلى المقيمين بالثغر ، وتوقف هذا بعد مقتل ابن السلار لما أعقبه من فتن واضطرابات كان الوزير عباس الصنهاجى من بين ضحاياها . وبقيت عسقلان فى يد الفرنج حتى استردها منهم صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣ . كتاب الروضتين : ١ : ٢٢٣ .

(٢) قارن ذيل تاريخ دمشق : ٣٢١ ؛ الكامل ١١ : ٧١ .

(٣) كانت تعرف فى أول الأمر بدار جبر بن القاسم ، ثم اتخذها المأمون البطائحى ، وزير الآمر بأحكام الله ، مقرا له . وفى جزء من هذه الدار افتتحت المدرسة السيوفية الحنفية على زمن صلاح الدين الأيوبى .

وفيها وصلت مراكب من صقلية ، فملكوا مدينة تنّيس[1] .

وفيها مات رُجَار بن رُجَار صاحب جزيرة صقلية ،وقام من بعده ابنه وليالم بن رجار بن رجار[2] ، فاستردّ المسلمون سواحل إفريقية والمهديّة[3] .

---

(١) يذكر ابن الأثير أنهم قدموا إلى مدينة تنيس ونهبوها ، ولم يذكر أنهم تملكوها . الكامل : ١١ : ٧٢ . وتنيس مدينة قديمة كانت قائمة فى جزيرة صغيرة فى الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة على بعد تسعة كيلومترات من الجنوب الغربى لمدينة بور سعيد . وقد نقل أهلها زمن الكامل الأيوبى إلى دمياط بسبب إغارة الصليبيين فخربت البلد منذئذ . ويلاحظ التمييز بين تنيس هذه بكسر التاء وتشديد النون المكسورة وتانيس ، صان الحجر ، بمركز فاقوس وتنيس بغير تشديد ، وهى البربا ، بمركز جرجا . النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٢ .

(٢) هو William, the Bad وليام الردئ ؛ توج فى حياة والده روجر الثانى سنة ١١٥١ (توفى روجر ١١٥٤) وظل فى حكم الجزيرة حتى سنة ١١٦٦ . وفى عهده حدثت اضطرابات محلية فى صقلية سببها عدم اطمئنان الناس إلى معاونيه فى الحكم فأدت هذه الاضطرابات إلى ضعف قبضته على المناطق التى كانت قد خضعت لوالده فى الشمال الإفريقى . دائرة المعارف البريطانيــة .

(٣) فى هذا الموضع بنسخة الأصل ، عقب نهاية أحداث سنة ٥٤٨ ، طيارة جاء فيها : « بخطه : وفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ورد الخبر أن الفرنج أصروا على أخذ عسقلان فأمر بحمل رأس الحسين بن على بن أبى طالب إلى القاهرة ، فأخرج وله رائحة كالمسك ولم يجف دمه ، ثم حمل فى عشارى من عشاريات الخدمة مع مكنون الخادم وخرج معه الأمير سيف المملكة متولى عسقلان والقاضى المؤتمن ابن مسكين ، فسارا بها حتى وضعوه فى الكافور ، فأدخل به من السرداب إلى قصر الزمرد . وكان الإمام الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ قد بنى المسجد المعروف اليوم بجامع الفكاهين ليجعله فيه ، فجمع الظافر أهل بيته واستشارهم فأشاروا بأن يجعل الرأس عندهم فى القصر ، فدفن عند قبة الديلم من القصر بدهليز الخدمة ، وصار كل من يدخل منه الخدمة يقبل الأرض أمام القبر. وكانوا ينحرون عنده فى كل يوم عاشوراء الإبل والبقر والغنم ويكثرون البكاء والنوح ويسبون من قتله ، ولم يزالوا كذلك حتى زالت دولتهم . وكان وصول الرأس فى يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة منها وحصل فى القصر يوم الثلاثاء عاشره . وأنشد القاضى ابن الزبير فى دخول الرأس أبياتا نونية ، منها :

ما لنـــا نطلب ما يفـــنى ولا نطلب الأمن الـذى يبقى لنـــا

لهف قلبى عـــلى رءوس نقلت هو سواها هنا بعد هنـــا

ويبدو واضحا ما فى الشطر الأول من البيت الثانى من اضطراب الوزن ، وما فى البيت جميعه من غموض فى المعنى .

سنة تسع وأربعين وخمسمائة (١) :

فيها استدعى الظّافر ناصرَ الدّولة نصير بن عبّاس وأخرج له صينيّة من ذهب فيها ألف حَبّة ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرّد أخضر ذبابي(٢) ، وأمر له من بيت المال بعشرة آلاف دينار مصرية(٣) ، فقتله بعد هذه الهديّة بستة أيام . وذلك أنه خرج الخليفة الظّافر متنكرًا من قصره فى ليلة الخميس سلخ المحرّم ومعه خادمان ، وسار على عادته إلى دار نصر بن عباس ، فقتله نصر ، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه ؛ وقتل سعد الدّولة ، أحد الخادمين اللذين خرجا معه من القصر ، وفرّ الآخر .

وكان سبب قتله أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ عندما علموا أنه هو الّذى حسَّنَ لعبّاس قَتْل ابن السّلار وتحدّثوا بقَتْله ، وقيل للظّافر عنه إنّه غريبٌ ومِنْ دَولة أخرى وإنّ فى تركه وقوعَ ما لا يمكن تدارُكه . فلمّا بلغ أسامة ذلك أخذ يُغْرى عبّاسًا بابنه نصر ويبالغ فى القصّة حتى قال له يوما : كيف تصبر على ما يقولُ النّاس فى حقّ ولدك واتهامهم الخليفة أنّه يفعل به مَا يفعل بالنّساء . فشقّ على عبّاس وَلاَمَ ابنه ، فلم يُصغ إلى لومه . فلمّا أنعم الظّافر على نصر بناحية قليوب وحضر إلى أبيه ليُعْلِمَه بذلك قال أسامة ، وكان

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن عشر من مارس سنة ١١٥٤ .

(٢) فى وصف الزمرد يقول القلقشندى ، نقلاعن بلينوس ، والزمرد ابتدأ لينعقد ياقوتا وكان لونه أحمر إلا أنه لشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرض له السواد ، وامتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضر . ثم يقول وأفضل أنواعه وأشرفها الذبابى ، ويزداد حسنه بكبر الجرم واستواء القصبة وعدم الاعوجاج فيها ، وهو شديد الخضرة لا يشوب خضرته شئ آخر من الألوان ، جيد المائية ، شديد الشعاع . ويسمى ذبابيا لمشابهة لونه فى الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعى ، وهو من أحسن الألوان خضرة وبصيصا . وهو أقل من القليل ، بل لا يكاد يوجد . صبح الأعشى : ٢ : ١٠٧ — ١١٠ .

(٣) يتحدث القلقشندى عن الدنانير المسكوكة بالديار المصرية وما يأتى إليها من المسكوك فى غيرها من الممالك ، فيقول : وهى ضربان : الضرب الأول ما يتعامل به وزنا كالذهب المصرى وما فى معناه ، والعبرة فى وزنها بالمثقال فكل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم والمثقال أربعة وعشرون قيراطا ، وقدر بثنتين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط . والضرب الثانى ما يتعامل به معادة (بالعدد) وهو ما يأتى من بلاد الإفرنجة والروم ، كل دينار منها بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصرى ،واعتباره بصنج الفضة المصرية كل دينار زنة درهم وحبّى خروب يرجح قليلا . ثم يصف القلقشندى هذه الدنانير الإفرنتية ، وتعنى الإفرنسية ؛ ثم يتحدث عن بعض الدنانير المصرية ، ويعلق بعد ذلك بقوله : وصرف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حال بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال . قارن : صبح الأعشى : ٣ : ٤٣٦ — ٤٣٩ ؛ وانظر كذلك : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين : ٣٠٠ — ٣٠٨ .

حاضرًا ، ما هى بمَهْرِك غالية . فامتعض لذلك عبّاس وقال [١٤٥ ب] لأُسامة : كيف الحيلَةُ فى الخلاص مّما بُلِينا به ؟! فقال : هيّن ؛ هذا الخليفة فى كل وقت يأتى إلى عند ولدك فى داره خفية ، فمُرْه إذا جاء أن يقتله . فاستدعى عباس بنه وقال : يا بنىّ قد أكثَرْتَ من ملازمة الخليفة وتحدَّث النّاس فى حقّك بما أوجع باطنى ، وقد يصلُ من هذا إلى أعدائنا ما لا يزول . فاحتدّ نصر وقال له : أيُرْضيك قتلُه ؟ فقال : أزِلْ التّهمة عنك كيف شئت .

فأخذ نصر يُعْمل الحيلة فى قتل الظّافر وسأله أن يخرج إلى داره ليلاً فى سرٍّ من الخدم ليتفسّحا فى منزله ليلة واحدة ، وكان منزلُه دارَ المأمون البطائحى . فخرج إليه فى عدّة يسيرة من الخدم ؛ فلمّا تحصّل عنده اغتاله ، وقتل الخدم الذين معه بالجماعة الّذين قتل بهم العادل ابن السّلار ، ورمى بهم فى جبّ عنده ، وغطّى رأس الجُبّ بقطعة رخام بيضاء فصارت من جملة رخام المجلس ، فخفى أمره . ثم مضى نَصْر إلى أبيه وعرّفه قتل الظافر .

وكان الظّافر من أحسن النّاس صورة ، وقُتِل ولهُ من العمر إحدى وعشرون سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يومًا ، منها مدّة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأربعة عشر يوما . وكان محكوما عليه من الوزراء .

وفى أيّامه أخذ الفرنج عسقلان واسْتولَوْا عليها ، وظهر الوهن والخلل فى الدّولة ، فإنّه كان كثير اللّهْو واللّعب مع جواريه ، مقبلاً على سماع المغنى.وهو الّذى أنشأ الجامع المعروف الآن بجامع الفكاهين فى خطّ الشّوّايين من القاهرة[1] .

---

(١) لا يزال هذا المسجد موجودا إلى الآن ويسميه المقريزى باسم جامع الفاكهيين ، ويقول إنه كان يسمى جامع الأفخر ويعرف اليوم باسم جامع الفاكهانى نسبة إلى السيد محمد الأنور الفاكهانى . وله بابان أحدهما يطل غربا على شارع المعز لدين الله فى القسم الذى كان يعرف بشارع العقادين والآخر يطل على حارة خوش قدم من جهته الشمالية . وقد أنشأه الخليفة الظافر سنة ٥٤٨ (ويخطئ المقريزى والقلقشندى حين يحددان سنة ٥٤٣ تاريخا لبنائه إذ أن الظافر تولى الخلافة سنة ٥٤٤) ، وكان قبل ذلك زريبة للكباش . وسبب بنائه جامعا أن خادما كان يشرف على الزريبة فرأى ذباحا وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكينه وذهب لقضاء حاجة له ، فأتى رأس الغنم الآخر فأخذ السكين بفمه ورماها فى البالوعة ، وجاء الذباح فلم يجد السكين فاستصرخ الخادم وخلصه منه ، فرفعت القصة إلى أهل القصر فأمروا بعمارته مسجدا . ويقال إن الظافر كان يريد أن يدفن رأس الحسين ، رضى الله عنه ، بهذا المسجد بعد أن استنقذها من عسقلان عندما أخذها الفرنج ، فأشار عليه أهل القصر بدفن الرأس الشريفة بداخل القصر . صبح الأعشى : ٣ : ٣٦١ ؛ المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٩٣ ؛ الخطط التوفيقية : ٢ : ٣٠ .

وفيها ملك نور الدّين محمود بن عماد الدّين زنكى بن آق سنقر دمشق من مجير الدِّين أبق بن محمد بن بُورى بن طغتكين ، فسار أبق إلى بغداد ، وبها مات[1] .

وكان عند الإمام الظّافر فى قصر الرّوض ببغاء بيضاء تقرأ المعوّذتين وتستدْعى كثيراً من الأستاذين بأسْمائهم ونُعُوتِهم[2] .

---

(١) دخل نور الدين دمشق وعوض صاحبها عنها مدينة حمص فسار إليها وأقام بها ثم حاول إثارة الفتنة بدمشق فراسل أهلها ، فبلغ الخبر نور الدين فخشى ما قد يترتب عليه لاسيما مع مجاورة الفرنج ، فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس على ضفة الفرات الغربية ، بين حلب والرقة ، فلم يرضها وسار عن الشام إلى العراق فأقام ببغداد وابتنى بها دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفى بها سنة أربع وستين وخمسمائة . كتاب الروضتين : ١ : ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ الباهر فى تاريخ آتابكة الموصل ؛ معجم الأنساب . ويقول ابن القلانسى فى ظروف سقوط دمشق بأيدى نور الدين : وتقدم نور الدين ورجاله نحو مدينة دمشق من الجهة الشرقية حتى قربوا من سور باب كيسان من الجهة القبلية وليس على السور نافخ من العسكرية والبلدية غير نفر يسير من الأتراك لا يؤبه بهم ، فتسرع بعض الرجالة إلى السور وعليه امرأة يهودية فأرسلت إليه حبلا فصعد فيه وحصل على السور وتبعه غيره ونصبوا عليه علما وصاحوا يا منصور ، وامتنع الأجناد والرعية من المقاومة لمحبتهم لنور الدين وعدله وحسن ذكره . ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٧ .

(٢) لعل المقصود به قصر الورد بالخاقانية ، إذ كان من متنزهات الفاطميين يوم قصر الورد بالخاقانية من قرى قليوب ، وبها جنان كثيرة تعتبر من خاص الخليفة ، ودويرات (أحواض) يزرع فيها الورد ، فيسير إليها الخليفة يوما من أيام نزهته ، ويقام له فيها قصر عظيم من الورد ويخدم بضيافة عظيمة . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٨ .

الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله
أبي المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد

يقال فى اسم أمه ست الكمال ، ويقال إحسان . ولد يوم الجمعة حادى عشر المحرّم ، وقيل لتسع بقين من المحرّم ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ؛ وبويع له عند قتل أبيه يوم الخميس سلخ المحرّم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوما

وكان من خبره أنه لمّا قَتل نَصْر بن عبّاس الخليفة الظّافر فى ليلة الخميس أصبح الوزير عبّاس متوجّهًا إلى القصر فى يوم الخميس على العادة ، فلمّا صار إلى مقطع الوزارة وطال جلوسه والخليفة لم يجلس استدعى زمام القصر مفلحًا وقال له : إنْ كان لمولانا ما يشغَلُه عنّا فى هذا اليوم عُدْنا إليه فى الغد . فمضى الزّمام وهو حائر لا يَدْرى ما يعمل وأعلم أخوَى الظّافر ، يوسف وجبريل ، وكانا رجلين وأحدهما مكتهل ، فأخبرهما بالقصّة ، ولم يكن عندهما من خروج أخيهما إلى دار نصر بن عبّاس خبر ولا عَلِمَا إلاّ فى تلك السّاعة ؛ فلم يَشُكّا حينئذٍ أنه قُتل ، وقالا للزّمام : هَبْك اعتذرت اليوم هل يتمّ لك هذا مع الزّمان ؟ فقال : فما تأمرانى ؟ فقالا : اصْدقه وحاققه . فعاد إليه وقال : ثَمّ سِرٌّ أُلْقِيه إليك بحضور الأمراء الأستاذين . فقال : ما ثمّ إلاّ الجهر . فقال : إنّ الخليفة خرج البارحة لزيارة وَلَدِ لك فلم يَعُدْ بغير العادة . فقال : تكذبُ يا عبد السُّوء ، وإنّما أنت مبايعٌ أخوَيْه يوسف وجبريل اللّذين حَسَدَاهُ على الخلافة واغتالاه فاتّفَقْتُم على هذا القول . فقال : معاذَ الله . قال : فأَيْن هما ؟ فخرجا إليه ومعهما ابن عمّ لهما يقال له أبو التُّقَى صالح بن حسن بن (عبدالمجيد ابن محمد بن)[1] المستنصر ، فقال : حضرا . فقال لهما : أين الخليفة ؟ فقال الثلاثة : هو بحيث يعلم ابنك ناصر الدين ، قال : لا ، وإنّما أنتُما قتلتُمَاه حسدًا له . قالا : هذا بهتان

(١) وصالح هذا ابن الأمير حسن بن الخليفة الحافظ الذى كان قد تولى عهد الخليفة الحافظ وأساء السيرة وشغب على أبيه ونكل برجال الدولة حتّى طالبوا بقتله ، فدبر الحافظ أمر قتله بالسم بمعونة طبيبه الخاص . وقد تقدم ذكر هذا تفصيلا فى أثناء الحديث عن خلافة الحافظ . وقد زيد ما بين الحاصرتين استمانة بما مضى فى المتن بشأن هذه الحادثة ، وبما جاء فى النجوم : ٥ : ٣٠٧ ؛ وفى نهاية الأرب : ٢٨ .

منك لأن بيعة أخينا فى أعناقنا [١٤٦ ا] وهؤلاء الأمراء الحاضرون يعلمون ذلك ، وإننا لفى طاعته بوصيّة أبينا . فكذّبهما ، وأمر غلمانه يقتلونهم ، الثلاثة .

وكان فى القصر ألف سيف مجرّدة ، فشُوهِد أمر قبيح لم يُرَ أشْنَعُ منه لما جرى فيه من البَغْى الّذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق .

وقال لزمام القصر : أَيْنَ ابْنُ مولانا ؟ فقال : حاضر . قال : فدُلَّنى إلى مكانه . فدخل بنفسه إليه ، وكان عند جدّته لأمّه ، فحمله على كتفه وأخرجه للنّاس قبل أن يُرفع القتلى ، وبُويع بالخلافة ، ولُقّب بالفائز بنصر الله[١] ؛ وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يومًا ؛ وصار يشاهد القتلى فحصل له فَزَعٌ واضطراب ، وما زال مدّة خلافته لم يَطبْ له عيش لأنّه كان يُصْرع كلّ قليل[٢] .

(١) يقول النويرى : « ووقف فى القاعة وأمر أن تدخل الأمراء ، فدخلوا . فقال هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه كما ترون والواجب الطاعة لهذا الطفل . فقالوا بأجمعهم ؛ سمعنا وأطعنا ، وصاحوا صيحة عظيمة زل منها عقل الصبى واختل » . ويتفق أبو المحاسن مع النويرى فى هذه العبارات ويعزوها إلى الحافظ أبى عبد الله الذهبى فى كتاب تاريخ الإسلام . نهاية الأرب : ٢٨ ، النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٠٨ . ويقول ابن خلكان : وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس . وفيات الأعيان : ١ : ٣٩٥ . ويروى أبو المحاسن عن سبط ابن الجوزى أن عباسا قتل أخوى الظافر وابن أخيه صبرا بين يديه ، ثم أحضر أعيان الدولة وقال : إن الظافر ركب البارحة فى مركب فغرق . ثم أخرج عيسى ولد الظافر . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٨٩ ولم أر هذه الرواية فى غيره .

(٢) ويذكر أبو شامة ، نقلا عن أسامة بن منقذ : فما راعنا إلا قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان هو أبو الأمانة جبريل قد قتلوه وواحد قد شق بطنه يجذب مصارينه ، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفى رأسه ضربة سيف والدم يفور منها ، وأبو البقاء ابن أخيه مع ابنه نصر . ثم أدخلوهما خزانة فى القصر فقتلوهما وفى الخزانة ألف سيف مجرد . قال : وكان ذلك من أشد الأيام التى جرت علىّ لأنى رأيت من الفساد والبغى ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه . انظر كتاب الروضتين : ١ : ٢٤٥ ؛ كتاب الاعتبار : ١٦ . وأمام هذا الموضع بالأصل طيارة نصها : « بخط المصنف فى نصف ورقة ملفوفة بهذا المحل : — لما فعل عباس بأولاد الحافظ ما فعل حنقت عليه قلوب الناس وأضمروا العداوة والبغضاء . وكاتب من فى القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك يستصرخون به ، فحشد وخرج من البهنسا يريد القاهرة . وبلغ ذلك عباسا ، فخرج يوم الخامس عشر من صفر وجعل ابنه ناصر الدين نصرا على القاهرة ، فلما خرج قام عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال فى الشوارع ، فأسرع الناس وفتحوا أبواب القاهرة . فلما جاءهم واستدناهم انهزموا ، فلما تحقق عداوة الجند والأمراء علم أنه لا مقام له بينهم وعزم على قصد الشام واللحاق بنور الدين الشهيد ليستنجده . هذا والرسل تتردد بين القصر وبين طلائع وهو يستميل الأمراء إليه ويبعث إليهم . فلما بلغ ذلك عباسا استحلف الأمراء أنهم لا يخونونه ولا يخامرون عليه ، وأحضر مقدمى العرب من رؤساء زريق وحزام وسنبس وطلحة ولواتة وحلفهم بالمصحف وبالطلاق على مثل ذلك . واهتم بأمر سفره بخيله وجماله ، وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدى الرحالة كعادة الوزراء بمصر ومائتا بغل للرحلة وأربعمائة جمل لحمل أثقاله ، يريد أن يخرج فى يوم السبت خامس عشر ربيع الأول يطالع أخباره ، فما راعه بكرة الجمعة رابع عشره إلا والناس قد لبسوا السلاح وزحفوا إلى داره ورءوسهم =

ومن طريف ما وقع فى هذا اليوم أن الوزير عبّاسًا لمّا أراد الدّخول إلى المجلس وجَد بابه قد قُفِل من داخل، وكان متولىّ فتح المجلس وغلقه أستاذٌ شيخ يقال له أمين الملك، فاحتالوا فى الباب حتىّ فتحوه ودخَلُوا ، فإذا أمينُ الملك خلف الباب وهو ميّت وفى يده المفتاح .

وفى أثناء ذلك حضر الخادم الذى أفْلتَ مْن نصر إلى القصر وحدّثهم بكيفية قتْلَةِ الظّافر ، فكثرت النّياحة عليه بالقصور . وظنّ عبّاس أنّ الأمْر قد استقام له ، فجاء خلاف ما أمّل . وأخذ أهلُ القصور فى إعْمال الحيلة عليه ؛ وكان الأمراء والسُّودان قد نَافَرُوه واستوحشوا منه لِمَا فعله بأَولاد الحافظ ، وأضمروا له العداوة والبغضاء . فاختلفت عليه الكلمة ، وهاجت الفتنة ، وصار العسكر أحزابًا ولبسوا السّلاح . فخرج إليهم عبّاس فى يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول ، فكانت بينه وبينهم محارَبَةٌ انكسروا فيها منه ،وقتل منهم جماعة.

هذا وأهل القصر فى تدبير العمل عليه ، فبعثت ع"ة الفائز إلى فارس المسلمين أبى الغارات طلائع بن رُزّيك ، وكان واليًا على الأشمونين(١) والبهنسا(٢) ، بالكتب وفى طَيِّها

= الأمراء الذين استحلفهم بألا يخونوه، فأمر فشدت دوابه وأوقفت على باب داره وصارت سدا بينه وبين المصريين بحيث لايصلون إليه لازدحام الدروب ، فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير ، وهو زمامهم ، وصاح عليهم وسبهم وقال روحوا إلى بيوتكم وبيتوا الدواب ، ومضى الركابية والمكارية والحمالون وبقيت الدواب مهملة فوقع فيها النهب . وكانت الأتراك عند باب النصر والكتاب تنفق فيهم ، فبعث إليهم عباس الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ليحضر هم ، وهم ثمانمائة فارس ، فركبوا كلهم وخرجوا من باب القاهرة منهزمين عن القتال ، وركب المماليك ، وهم أكثر من الأتراك ، وخرجوا أيضا من باب النصر وعاد أسامة إلى عباس وعرفه ذلك . فاشتغل كل أحد بإخراج أهله ، وخرجت خدم عباس وقد نهبت تلك الدواب بأجمعها وخلت الطريق ورجعت عساكر المصريين وأخرجوا عباسا ومن معه وهم فى قلة والمصريون فى كثرة . فلما خرج عباس من باب النصر أغلق المصريون أبواب القاهرة وعادوا إلى دور عباس وأصحابه فنهبوها ، وتجمعت قبائل العربان الذين استحلفهم عباس وقاتلوا عباسا خارج باب النصر من ضحى يوم الجمعة المذكور إلى يوم الخميس العشرين منه وسار وهم يقاتلونه النهار كله فإذا جن الليل اغفلوا حتى ينام ـ يركبون فى مائة فارس ويرفعون أصواتهم بالصياح فيأخذون الخيل ويأسرون الرجال . فلما كان يوم الأحد ثالث عشر صحبهم الفرنج فى جمعهم على . . . . فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك وأسروا ابنه ناصر الدين وأخذوا خدامه وحرسه وقتلوا من ظفروا به ، وأسروا نجم الدولة أبا عبد الله محمد بن منقذ ، وفر أسامة فى طائفة إلى دمشق وهم فى أسوأ حال ، ودخلوها يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من سنة خمس وأربعين وخمسمائة » . اه .

(١) ولاية الأشمونين والطحاوية بالوجه القبلى ، جنوب ولاية البهنسا ، وكانت عملا واسعا كثير الزرع متقارب القرى ؛ وقاعدة الولاية مدينة الأشمونين ، بضم الهمزة وسكون الشين وضم الميم ، بالشاطئ الغربى للنيل ، وهى الآن أطلال تجاورها قرية الأشمونين إحدى قرى مركز ملوى بمحافظة أسيوط ، وكانت هذه الولاية فى الأصل عملين أحدهما عمل الأشمونين والثانى عمل طحا المدينة ، بفتح الطاء والحاء ، ثم صارا عملا واحدا . صبح الأعشى : ٣ : ٣٧٨ ، ٣٩٤ — ٣٩٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٣ : ١٩٦ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٥ — ١٠٧ .

(٢) ولاية البهنسا ، أو البهنسى ، أو البهنساوية : تلى ولاية الجيزة ، أو الجيزية ، من الجنوب ، ويليها ولاية الأشمونين، وقاعدتها مدينة البهنسا بالبر الغربى من النيل على بحر يوسف تحت الجبل . صبح الأعشى : ٣ : ٣٧٨ ، ٣٩٣ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٤ — ١٠٥ .

شعور النساء تستَصْرِخُ به على عباس[1] ؛ وكتب إليه أيضا الجليس بن الحباب[2] . فانتَفض عند وقوفه على الكتب ورؤية شعور النساء ، وجمع العربان والأجناد مُقْطِعِى البلاد .

وبلغ ذلك عبّاسا ، فخرج من القاهرة بالعساكر فى عاشر صفر ، وجعل ابنه ناصر الدين بالقاهرة ، وأنفذ إلى طلائع بحسين بن أبى الهيجاء ، زوج ابنته[3] ، ليردّه عمّا عزم عليه . فلمّا خلا به قال له : تقاتل عبّاسا وله خمسة آلاف مملوك !! قال : أقاتله بنفسى ونفسك . قال : أما الآن فنعم . ففتّ ذلك فى عَضُد عبّاس لشهرة حسين وشجاعته .

وعندما نزل عباس إلى إطفيح فى بكرة يوم الثلاثاء ، خامس عشره ، لحق أعراب إطفيح بابن رزّيك ، فوافوه على أبْوَيْط[4] ، فسار بهم ونزل دهشور[5] ، فاضطرب عبّاس ورجع إلى القاهرة ، وتفرّق عنه الناس إلى طلائع بن رزّيك ، وصار منْ أهْلِ البلد فى مُنَاكَدَة . وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال فى الشوارع ، فاستظهر عليهم عبّاس وفتحوا الأبواب وقد تحقق عداوة الأمراء والجند له .

واتفق أنه مرّ يوما فرُمِى من طاقٍ ببعض الشوارع بِهاوُن ، ورُمِى مرّةً بقِدْرٍ مملوءة طعاما حارًّا ؛ فقال : ما بقى بعد هذا شئ . وعزم على الفرار فلم يقدر ، وغلقت أبواب القاهرة .

واشتغل الناس بهذا الحادث وهو يدبّر فى الخروج من القاهرة ، فأشار عليه بعض خواصّه بتحريق القاهرة فأبى وقال : يكفى ما جرى . فلمّا عدّى طلائع بْن رزّيك إلى حمول عوّل

---

(١) يذكر النويرى أنه كان يتولى السيوطية ، وقيل منية ابن خصيب . ويذكر أبو المحاسن أنه كان يتولى منية ابن خصيب . وتنسب منية ابن خصيب إلى الخصيب بن عبد الحميد والى خراج مصر زمن هارون الرشيد ، وكانت جزءا من ولاية الأشمونين . ويذكر ابن الأثير أن منية ابن خصيب لم تكن من الأعمال الجليلة وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم ، هذا إلى أنه كان فى طلائع شهامة . الكامل : ١١ : ٧٣ ؛ قوانين الداوين : ١٩٢ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٠٩ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٢٠٥ .

(٢) أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى المصرى ، من ذرية بنى الأغلب سلاطين إفريقية . تولى ديوان الإنشاء فى مصر مع الموفق بن الخلال لخليفة الفاطمى الفائز . وسمى الجليس لمجالسته خلفاء مصر . كتاب الروضتين : ١ : ٢٩٢ ، ٥٠٧ — ٥٠٨ ؛ فوات الوفيات : ١ : ٢٧٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٩٢ ، ٣٧١ ؛ النكت العصرية : ٤٣ ؛ خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٩ — ٢٠٠ ،

(٣) زوج ابنة طلائع بن رزيك . استعانة بما سيأتى .

(٤) وهى الآن تابعة لمركز الواسطى بمحافظة بنى سويف . وهناك أبويط أخرى قرية قرب بردنيس من أعمال الأسيوطية : قوانين الدواوين : ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٢٨ ؛ معجم البلدان : ١ : ٩٦ .

(٥) من أعمال الجيزة على الشاطىء الغربى للنيل . معجم البلدان : ٤ : ١١٤ ؛ قوانين الدواوين : ١٣٨ .

عبّاس وولده نصر على المسير مِن مِصر بكلّ ما يملكانه من مالٍ وسلاح وما قدرًا عليه من حواصل الدّولة ــ وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدى الرجال ، ومائتا بغل رحل ، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله ــ فى يوم الجمعة ثانى عشر ربيع الأول بعد ما حلّف الأمراء ألاّ يخونوه[1] . وأحضر مقدّمى العرب من رزيق [١٤٦ ب] وجذام وسنبس وطلحة وجعفر ولواتة ، وحلّفهم .

فلمّا كان يوم الجمعة ركبوا عليه بكرة وتبعهما أسامة بن منقذ وجماعة ؛ وبلغ ذلك طلائع فسار ونزل قُبالة المقس فى عشيّة نَهَارِه ، وخرج النّاس إلى المقابر . وبات فى عشَارِىٍّ ، وأصبح ، فأقام إلى يوم الأربعاء تاسع عشره ، فركب يريد القصر وقد خرج الأمراء إليه ، منهم من قاتله ومنهم من انضمّ إليه ؛ فلم يكن غير ساعة حتى انجلى الأمر عَنْ فرار عبّاس وولده وابن منقذ ؛ فنهب النّاس دورهم .

ودخل طلائع إلى القاهرة وشَقّها بعساكره فى يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول ، وهو لَابسٌ ثيابا سوداء ، وأعلامه وبنوده كلّها سودٌ ، وشعور النّساء التى أرسلت إليه من القصر على رءوس الرماح . فكان هذا من الفأل العجيب ، فإن الأَعْلامَ العباسيّة السّود دخلت إلى القاهرة وأزالت الأعلام العلويّة البيض بعد خمْسَ عشرة سنة .

ونزل طلائع بدار المأمون التى كان يسكنها نصربن عبّاس . وأحضر الخادم الذى كان مع الظافر لما قتل ، فأعلمه بالحال ، فمضى راجلاً من القصر إلى دار نصر بن عبّاس ، واستخرج الظّافر والأستاذ الذى كان معه ، وغسّلَهما وكفّنَهما ؛ وحَمَل الظّافرَ فى تابوت مغشىٍّ الأستاذُون والأمراء ومشى طلائع وهو حافٍ قد شقّ ثيابه ومعه النّاس بأجمعهم حتىّ

---

(١) جاء فى الروضتين نقلا عن أسامة بن منقذ : « كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا بغل ومائتا جنيب (الخيول التى تسير وراء الأمير فى الحرب ، استعدادا ، لاحتمال الحاجة إليها) فلما أراد الخروج تقدم بشد خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج . فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت الفضاء خرج غلام يقال له عنبر على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يده فقال للجمالين روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب ، وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم . وكان ما جرى لطفا من الله فإن الدواب سدت الطريق بينه وبين المصريين ومنعتهم من الوصول إليه وهم فى خلق كثير ونحن فى قلة ما نبلغ خمسين رجلا وغلمان عباس ومماليكه فى ألف ومائتى غلام وثمانمائة فارس وقفوا فى الفضاء من باب النصر إلى رأس الطابية فرارا من القتال » . كتاب الروضتين : ١ : ٢٤٥ — ٢٤٦ .

وصل إلى القصر ، فصلىّ عليه الخليفة الفائز[1] ، ودفن فى تربة القصر مع آبائه .

وجلس الفائز بقيّة النهار وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد الجوهر ، وخلع على ولديه ، ونعت بالأجلّ النّاصر ، سند الإمام ، زعيم الأنام ، مجير الإسلام ، خدن أمير المؤمنين . وخلع على أخيه ونُعِت بنعوت الصالح قبل الوزارة ، وخلع على حواشيه . وأجرى فى الخلع مجرى الأفضل بالطّيلسان المقوّر ، وأنشِئ له سجلّ عظيم نُعِت فيه بالملك الصّالح ، ولم يلقّب أحد من الوزراء قبله بالملك[2] ، وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر .

وكتِب فى سجلّه ، على طرفه ، بخطّ الفائز : « لوزيرنا السيّد الأجلّ الملك الصّالح ، ناصر الأئمة ، كاشف الغمّة ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، غياث الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، هادى دعَاة المؤمنين ، أبى الغارات طلائع بن رزّيك الفائزى ؛ عضد الله به الدّين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى أبدًا كلمته ، من جلالة القَدْر ، وعظيم الأمر ، وفخامة الشان ، وعلوّ المكان ، واستيجاب التفضيل ، واستحقاق غايات المنّ الجزيل ، ومزيّة الولاء الذى بعثه على بذل النفس فى نصرتنا ، ودَعَاه دون الخلائق إلى القيام بحقّ مشايَعَتِنا وطاعتنا ، مما يبعثنا على التّبرُّع له ببَذْلِ كلّ مَصونٍ ، والابتداء مِنْ ذاتنا بالاقتراح له بكلّ شىء يَسرُّ النّفوس ويقِرّ العيون ؛ والّذى يعْمَلُه هذا السجلّ من تقريظه وأوصافه ، فالّذى تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه ؛ ولذلك شرّفناه بجميع التّدبير والإنَالَة ، ورفعناه إلى أعلى رتَب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة . والله تعالى يعضد به دولتنا ، ويحوط به حَوْزتنا ، ويمدّه بمواد التوفيق والتأييد ، ويجعل أيّامه فى وزارتنا ممنوحةً غايةَ الاستمرار والتأبيد إن شاء الله تعالى » .

---

(١) يلاحظ أن عمر الفائز كان عندئذ خمس سنوات وأياما ، وقد ذكر أن عباسا كان حمله على كتفه عند بيعته بالخلافة فبال على كتفه !

(٢) ليس هذا صحيحا ، فقد كان رضوان بن ولخشى ، وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، أول من تلقب بلقب ملك . وقد سبق ذكر ذلك فى موضعه .

وكان سجلاً فى غاية الطول والكبَر[1] ، من إنشاء الآجلّ الموفّق أبي الحجاج يوسف ابن على بن الخلال[2] .

ونزل الملكُ الصّالح بالخلع والأمراء وغيرهم من أهل الدّولة مشاةً فى ركابه إلى دار الوزارة ، فجلس للهناء ، وتقدّم الشعراء فأنشدوا عدّة مدائح ذكروا فيها هذه الحالة والواقعة. وكانوا عدّة ، منهم عبدالرّحيم بن على البَيْسانى[3] ، والقاضى الأجلّ الرشيد أحمد بن الزّبير،

---

(١) ومما جاء فى هذا السجل : « واختصك أمير المؤمنين بطيلسان غدا السيف توأما ، ليكون كل ما أسند إليك من أمور الدولة معلما ، ولم يسمع بذلك إلا ما أكرم به الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أمير الجيوش أبا النجم بدرا وولده أبا القاسم شاهنشاه ، وأنت أيها السيد الأجل الملك الصالح . وأين سعيهما من سعيك ، ورعيهما الذمام من رعيك ، لأنك كشفت الغمة ، وانتصرت للأئمة ، وبيضت غياهب الظلمة ، وشفيت قلوب الأمة » . النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١١ .

(٢) يسميه ابن خلكان ، نقلا عن خريدة القصر للعماد الأصفهانى ، يوسف بن محمد ، كاتب الدست ، أى صاحب ديوان الإنشاء ، منذ أيام الحافظ لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء إلى أن كبرت سنه وعجز عن الحركة ، وفى رعايته نشأ القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الذى تولى كتابة الإنشاء لأسد الدين شيركوه ، ثم لصلاح الدين الأيوبى . توفى الموفق ابن الخلال سنة ٥٦٦ . وكانت له قدرة على الترسل فى الكتابة وعلى استعمال المحسنات البديعية بكثرة وغزارة ، ولم يخل شعره من هذه المحسنات الغزيرة . فمنه قوله :

عذبت ليـــال بالعذيب خـوالى ... وحلت مواقف بالوصـــال حوالى
ومضت لذاذات تقضى ذكرهـا ... تصبى الحليم وتستهيم الســالى
وجلت موردة الخدود فأوثقت ... فى الصبوة الخالى محسن الخــال
قالـوا سراة بنى هـلال أصلهـا ... صدقوا ، كذاك البدر فرع هلال

ومنه فى وصف شمعة :

وصحيفة بيضاء تطلع فى الدجى ... صبحا ، وتشفى الناظرين بدائهـا
شابت ذوائبهـا أوان شـبابها ... واسود مفرقها أوان فنائهـا
كالعين فى طبقاتها ، ودموعها ... وسوادها ، وبياضها ، وضيائها

وفيات الأعيان : ٢ : ٤٠٧ – ٤٠٩ ؛ شذرات الذهب : ٤ : ٢١٩ ؛ خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٢٣٥–٢٣٧ .

(٣) شيخ كتاب الترسل دون منازع تثقف فى ديوان الإنشاء بإشراف الموفق ابن الخلال . يحكى عن نفسه أنه التحق بديوان الإنشاء وصاحبه عندئذ ابن الخلال فسأله ماذا أعددت لفن الكتابة من الآلات فأجابه : ليس عندى شئ سوى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة . فأمره ، بعد طول ملازمة ، أن يحل شعر الحماسة ففعل ، فأمره أن يقوم بذلك مرة ثانية ففعل . وتولى الكتابة فى الإسكندرية مع صاحب ديوانها ، ابن حديد ، فحسده كتاب القاهرة وسعوا به إلى الظافر ، فنفى القاضى ابن الزبير صاحب ديوان الإنشاء بالقاهرة عندئذ التهمة ومدحه عند الظافر فأمر باستدعائه من الإسكندرية ليكتب بديوان الإنشاء بالقاهرة ، وترقى إلى أن صار فى النهاية وزيرا لصلاح الدين ، وتوفى بعد وفاة سلطانه صلاح الدين بسنوات ، وذلك سنة ٥٩٦ . النكت العصرية : ٥٣–٥٤ ؛ خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٣٥ – ٥٤ ؛ وفيات الأعيان : ٢ : ٤٠٨ – ٤٠٩ ؛ شذرات الذهب : ٤ : ٣٢٥ ؛ طبقات الشافعية الكبرى : ٣ : ٢٥٣ ؛ كتاب الروضتين فى أكثر من موضع .

والقاضى الجليس عبدالعزيز بن الحسنين بن الحباب ، والقاضى السعيد جلال الملك الأشرف ضياء الدين أبو على الحسن بن محمّد بن محمّد بن إسماعيل بن كاسيبويه ، وأبو محمّد يحيى ابن خير ، الملقب ديك الكرم [١٤٧ ا] الشاعر ، وغيرهم[١] .

وأما عبّاس فإنه سار بمَنْ معه يريد أيلة ليسير منها إلى بلاد الشام ، فأرسلت أخت الظافر إلى الفرنج بعسقلان رسلاً[٢] على البريد تُعْلمهم الحال وتبذل لهم الأموال فى الخروج إلى عبّاس ، وأباحَتْهم جميع ما معه ، وأن يبعثوا به إلى القاهرة ، فأجابوا إلى ذلك ، وخرجوا إليه . فلمّا أدركوه ثبت لهم ودافَعَهم عن نفسه ، فخذله أصحابه وفرّوا عنه مع أسامة بن منْقذ إلى الشام ، فقاتل الفرنج حتى قُتِل ، وأُسِرَ ابنه نصر فعمِل فى قفص حديد وحمِل إلى القاهرة ، فدخِل به إلى القصر يَوْم الاثنين سابع عشرى ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة ، وأخرج منه يوم الاثنين الثّامن عشر من ربيع الآخر قتيلاً مقطوعَ اليد اليُمْنَى ، وصُلِبَ سحرًا على باب زويلة ، فكان يومًا عظيما عند النّاس[٣] . واستولَى الفرنج على جميع ما كان معهم .

ولمّا سيّر الفرنج بنصر بن عبّاس إلى القاهرة أنشَدَ عندما عاين البلد : -

بلى ؛ نحْنُ كُنّا أهلها ، فأبادنا ... صُروفُ الليالى والجُدُود العواثرُ

وخرج النّاس عند قُدُومه إلى القاهرة ليرَوْه فبالَغُوا فى سبّه ولعْنه ، وبصقوا عليه ، حتّى دخل القصر ؛ وعُرِضَ فى القفص[٤] وقُتِل ؛ قتله الجوارى نَخْسًا بالمِسَالّ وصفعًا بالنّعال

(١) ومن هؤلاء عمارة اليمنى اللى قال من قصيدة :

لكم يابنى رزيك ، لازال ظلكم ... مواطن ، سحب الموت فيها مواطـر
سللتم على عباس بيض صـــوارم ... قهرتم بها سلطانه وهـــو قاهـــر

انظر : كتاب الروضتين : ١ : ٢٤٤ .

(٢) فى الأصل : . . عمة الفرنج إلى الظافر بعسقلان . وهو خطأ من الناسخ لا يتصور أن يقع من المقريزى المؤلف . والتصحيح من السياق ومن النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٠ ؛ ومن نهاية الأرب : ٢٨ ؛ ومن غيرها .

(٣) ويذكر أبو المحاسن أن أخت الظافر قطعت يد نصر اليمنى وأنه ضرب ضربا مهلكا وقرض جسمه بالمقاريض ثم صلب حيا على باب زويلة حتى مات ، وبقى مصلوبا إلى يوم عاشوراء سنة إحدى وخمسين ، ثم أنزل وأحرقت عظامه . ويروى أيضا أن الصالح طلائع بن رزيك هو الذى أرسل إلى الفرنج يطلب نصر بن عباس وبذل لهم أموالا ، فلما وصل سلمه إلى نساء الظافر فأقمن يضربنه بالقباقيب والزرابيل أياما ، وقطعن لحمه وأطعمنه إياه إلى أن مات ، ثم صلب . (والزرابيل نوع من الخفاف تلبسه الجوارى) . النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٠ - ٣١١ .

(٤) القفص الذى أرسله فيه الفرنج إلى مصر بعد أسره وكان من الحديد . نفس المصدر : ٥ : ٣١٠ .

وقطعوا لحمه واشتووْه وأطعموه إيّاه حتى مات ، ثم أُخرِج وصُلِب على باب زويلة ، وأُحْرِق بعد ذلك .

وتتبّع الصّالح مَنْ كان مع نَصْر بن عبّاس فى قتل الظافر ، فقتل قايماز وفتوّح الأخرس وابن غالب صبْرًا بين يديه فى جماعة معهم . وثبتت أموره فنَعتَ نفسه بفارس المسلمين نصير الدّين ، الصالح ؛ ومدحه الشعراء بذلك .

وشرع الصّالح فى الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم ؛ وتتبّع أرباب البيوتات والنّعم والأعيان فسلبهم نِعَمَهم . وقبض على عدّة من الأمراء وقتلهم فى ثالث عشر ربيع الأوّل ، وعلى عدّة من أرباب العمائم ، منهم أبو الحسن على بن سليم بن البواب ناظر الدّواوين ، وكان عارفًا بالحساب والمنطق والهندسة ، مليح الشعر والتّرسُّل ، جيّد الكتابة .

وأخذ يعمل على الأمراء المتقدّمين فى الدّولة ، مثل ناصر الدين ياقوت ، صاحب الباب ، . وكان قد ناب عن الحافظ مرّة فى مَرْضَة مرضها مدّة ثلاثة أشهر وكاد يولّيه الوزارة[1] ؛ ومثل الأوْحَد بن تميم ، والى دمياط وتنّيس ، فإنه كان قد تحرّك لمّا سمع قضيّة عبّاس وسار يريدُ القاهرة ، فسبقه طلائع بن رُزّيك بيوم ، فصار يحقد عليه كونه همّ بأمْرٍ ربّما نال به الوزارة ، غير أنه لم يسَعْهُ إلاّ إعادته إلى ولايته وأضاف إليها الدّقهليّة والمرتاحية[2] وهو يُسرّ له المكر .

وكان من أمراء الدّولة تاج الملوك قايماز ، وهو من أكابر الأمراء ، ويليه ابن غالب ؛ فجبل الأجناد عليهما حتىّ قُتِلا ونهبت دورهما .

ثمّ إنه قَلِقَ من قُرْب الأوْحد منه وأراد إبْعَادَه عنه ، فنقله من ولاية دمياط وتنّيس

---

(١) يذكر أبو المحاسن فى هذا أن الخليفة « طلب أن يوزره فأبى ياقوت المذكور » . نفس المصدر : ٥ : ٣١٢ .

(٢) الدقهلية والمرتاحية كانتا ولاية واحدة ، مجاورة لولاية الشرقية من جهة الشمال ينتهى آخرها إلى الأرض السبخة وإلى بحيرة تنيس المتصلة بالطينة من طريق الشام . ومقر الولاية مدينة أشموم بضم الهمزة وسكون الشين المعجمة على ضفة الشعبة التى تذهب إلى بحيرة تنيس من فرقة النيل الشرقية المارة إلى دمياط . وكان بهذه الولاية كورة تعرف باسم كورة دقهلية بفتح الدال والقاف وسكون الهاء فأصبحت قرية من عمل أشموم . وكان عمل الدقهلية يشمل ما يعرف الآن بمراكز فارسكور ودكرنس والمنزلة ، من محافظة الدقهلية ، بينما كان مركز المنصورة وأجا يكونان عمل المرتاحية . قوانين الدواوين : ٨٨ ، ٨٩ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٨٧ ، ٤٠٥ — ٤٠٦ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٢ ؛ حاشية : ٣ .

إلى ولاية سيوط[1] وأخميم[2] ؛ فخلت له القاهرة . وأظهر مذهب الإماميّة وباع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سِعْرًا ومدّةً ستّةَ أشهر فقط ؛ فتضرّر النّاس من كثرة تَرْدَادِ الوُلاة عليهم .

وضيّق مع ذلك على أهل القصر طمعا فى صغر سنّ الخليفة . وجعل له مجلسًا يحضره أهل الأدب فى الليل وطارحهم فيه الشّعر فَهُرِع إليه النّاس ودوّنوا ما ينظمه من الشعر ، وكان ابن الزّبير يُعِنُه[3] على إصلاحه وتنميقه .

---

(١) كانت ولاية الأسيوطية تجاور الولاية المنفلوطية من الجنوب ، ومقرها مدينة أسيوط بضم الهمزة على الشاطئ الغربى للنيل ؛ ووردت أيضا بغير ألف ، مفتوحة السين أو مضمومتها كما ذكرت فى المتن وكما جاءت فى شعر أبى الحسن على بن محمد بن على بن الساعاتى الذى قال :

لله يـوم فى سـيوط وليـلة ... صرف الزمـان بمثلهـا لا يغلط
بتنابهـا ، والبـدر فى غلوائه ... ولـه بجنح الليـل فرع أشمط
والطير تقرأ ، والغدير صحيفة ... والريح تكتب ، والغمـام ينقط
والطل فى تلك الغصـون كلؤلؤ ... نظم ، تصافحه النسيم فيسقط

صبح الأعشى : ٣ : ٣٨٢ ، ٣٩٩ — ٤٠٠ ؛ معجم البلدان : ٥ : ٢٠٢ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٣ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ .

(٢) تقع الولاية الإخميمية جنوب الولاية الأسيوطية ، وأكثر مدنها وقراها بالجانب الغربى للنيل وقاعدتها مدينة إخميم ، بكسر الهمزة وسكون الخاء ، وكانت تعرف باسم كورة إخميم والدير وأبشاية . يقول ياقوت : وفى غربيها جبل صغير من أصغى اليه بأذنه سمع خرير المـاء ولغطا شبيها بكلام الآدميين لا يدرى ما هو . وينسب إلى هذه المدينة ذو النون بن إبراهيم الإخميمى المصرى الزاهد ، حدث عن مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن لهيعة وغيرهم ؛ توفى سنة ٢٤٦ ودفن بمقابر المغافر . صبح الأعشى : ٣ : ٣٨٣ ، ٤٠٠ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٢٣٩ — ٢٤٠ ؛ معجم البلدان : ١ : ١٥٣ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٣ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٤ .

(٣) المهذب أبو محمد الحسن بن على بن الزبير ، وكان أشعر من أخيه الرشيد أحمد بن على بن الزبير ، والرشيد أعلم منه فى سائر العلوم . أنشد أول أشعاره فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وتوفى سنة إحدى وستين وخمسمائة . ويقال إن أكثر شعر الصالح طلائع بن رزيك من عمل المهذب بن الزبير . يقول ياقوت : وصنف المهذب كتاب الأنساب ، وهو كتاب كبير فى أكثر من عشرين مجلدا ، كل مجلد عشرون كراسا ، رأيت بعضه فوجدته مع تحقق هذا العلم وبحثى عن كتبه غاية فى معناه لا مزيد عليه . ومن شعره :

وشـادن ما مثله فى الجنـان ... قد فاق فى الحسن جميع الحسـان
لم أر إلا عينـه جعبـة ... للسيف ، والنصل ، وحد السنان

ومنه فى مدح الصالح بن رزيك :

وافى فأردى رجالا بعد ما نعموا ... دهرا ، وأحيا رجالا بعدما هلكوا

معجم الأدباء : ٩ : ٤٧ — ٧٠ ؛ وفيات الأعيان : ١ : ٥١ — ٥٢ (فى ترجمة القاضى الرشيد أحمد بن الزبير) خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٢٠٤ — ٢٢٥ .

فيها صَرَف الصَّالح عن قضاء القضاة أبا المعالى مجلى بن جميع ، الفقيه الشافعى ، ووَلّىَ القاضى المفضل أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم فى أخريات شعبان .

فيها بلغ التِّلّيس ستّة دنانير .

فيها مات القاضى المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسين الطرابلسى ، المعروف بالمحنَّك ، وكان قد وَلِىَ نظر الدّواوين والخزائن ؛ وله تاريخ خلفاء مصر قطع فيه على الحافظ .

ومات ركن الخلافة أبو الفضل جعفر فاتك بن مختار بن حسن بن تمام ، أخو الوزير المأمون بن البطائحى [١٤٧ ب] ، وصلّى عليه الصّالح .

وفيها كتب المقتفى لأمر الله العبّاسى[١] عهدًا لنور الدين محمود بن زنكى ، صاحب دمشق بولاية مصر والسّاحل ، وبعث إليه بمراكب زحف وأمره بالمسير إليها لمّا بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير ، وقيل له قد اختلّت أحوال الدّولة بمصر[٢] .

---

(١) الخليفة الواحد والثلاثون من خلفاء العباسيين ، تولى الخلافة بين سنتى ٥٣٠ — ٥٥٥ (١١٣٦ — ١١٦٠) . يقول ابن الأثير : وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون من أول الديلم إلى الآن (يعنى سنة ٥٥٥ هـ) ، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر إلا أن يكون المعتضد ، وكان يباشر الحرب بنفسه ، يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد حتى لا يفوته منها شئ . الكامل : ١١ : ٩٦ .

(٢) لم أجد لهذا الخبر سندا يؤيده فيما بين يدى من مراجع التحقيق ومنها نهاية الأرب : ٢٨ ؛ ذيل تاريخ دمشق ؛ الباهر ؛ والكامل ، وكلاهما لابن الأثير ؛ كتاب الروضتين : ١ ؛ والنجوم الزاهرة : ٥ .

سنة خمسين وخمسمائة (١) :

فيها مضى الأُسطول إلى ميناء صور فملكها وأخربها وأحرقها ، وعاد مظفراً بعدة مراكب فيها حجّاج من النصارى وغيرهم ، وبعدة كبيرة من الأسرى وبغنائم جزيلة(٢) .

وفيها خرج على الصّالح الأَمير الأَوحد بن تميم ، وَالِي إخميم وأسْيوط ، وجمع جمعاً موفوراً ، فسيّر إليه الصالح عدّة من العسكر ، فكانت بينهما عدة وقائع أسفرت عن قَتْله الأَوحَدَ فى يوم الأَربعاء سابع عشر رجب .

وفيها قدم الفقيه نجم الدّين عُمَارة بن أَبى الحسن على ، اليمانى الحكمى(٣) فى شهر

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع من مارس سنة ١١٥٥ .

(٢) وكان الفرنج قد استولوا على مدينة صور سنة ثمانى وخمسمائة . ويذكر ابن القلانسى من أمر هذه الحملة البحرية أن قائد الأسطول « كان مقدما شديد البأس بصيرا بأشغال البحر ، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج وألبسهم لباس الفرنج وأنهضهم فى عدة مراكب لكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها ، ثم قصد ميناء صور وقد ذكر له أن فيها شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثيرة ومال كثير وافر فهجم عليها وملكها وقتل من فيها واستولى على ما حوته ، وأقام فيها ثلاثة أيام ، ثم أحرقها وعاد منها فظفر بمراكب حجاج الفرنج فقتل وأسر وانتهب ، وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى » . ولعل هذه الحملة كانت ردا على ما قام به الإفرنج من الإغارة على تنيس فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة إذ قتلوا ونهبوا وأسروا ورحلوا بعد إقامتهم بها ثلاثة أيام . وقد سبق ذكر ذلك . قارن ذيل تاريخ دمشق : ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٣) نجم الدين أبو محمد عمارة (بضم العين) بن أبى الحسن على بن زيدان الحكمى ، من مدينة مرطان بوادى وساع فى اليمن . تفقه على مذهب الشافعى ، ودخل مصر ، فى سنة خمسين وخمسمائة ، رسولا من قبل قاسم بن هاشم بن فليتة صاحب مكة (٥٤٩ — ٥٥٦) — وهو الثانى عشر من بنى فليتة أشراف مكة — قدم عمارة للإصلاح بين قاسم وبين المصريين ، ثم قدمها مرة ثانية سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وبقى بها مقرباً إلى الفاطميين محتفظا بعقيدته السنية . واتهمه صلاح الدين بالتآمر ، مع جماعة ، لإعادة حكم الفاطميين ، وتم شنقه بالقاهرة نتيجة لهذا الاتهام فى سنة تسع وستين وخمسمائة . ومن لطيف شعره أنه مر يوم اعتقاله بباب القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى ، وكان يكرمه ويقربه ، فاحتجب الفاضل عنه . فقال :

عبد الرحيم قد احتجب ۞ إن الخلاص هو العجب

ومن شعره وقد قطعت رواتبه أيام صلاح الدين ، وتوجه به إلى القاضى الفاضل :

قست رأفة الدنيا ، فلا الدهر عاطف ۞ علىّ ، ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة ۞ كلام العدا فيها علىّ كلوم
وسامحه فى قطع رزقى ، بفضله ۞ وصلت إليه ، والزمان ذميم
ألا هل له عطف علىّ ، فإننى ۞ فقير إلى ما اعتدت منه عديم

ربيع الأول ، برسالة قاسم بن فليتة أمير الحرمين ، فأُحضر فى قاعة الذهب من القصر يوم السّلام ، وقد جلس الخليفة الفائز وحضر الوزير الملك الصّالح طلائع بن رزيك والأُمراء ، على العادة ؛ فأدّى الرسالة وأنشد[1] :

الحمدُ للعِيس بعْدَ العزم والهمم … حمداً يقوم بما أولت من النِّعَم[2]
لا أجحد الحق ، عندى للرّكاب يدٌ … تمنّت اللُّجْم فيها رؤية الخُطُم[3]
قرّبْن بُعْدَ مزار العزّ من نظرى … حتى رأيتُ إمامَ العصْرِ من أَمَم
ورُحْنَ من كعبة البطحاء والحرم … وفداً إلى كعبة المعروف والنِّعَم[4]
فَهَلْ دَرَى[5] البيت أنى بعد فُرْقَتِهِ … ما سرتُ من حَرَمٍ إلاّ إلى حَرَم
حيثُ الخلافةُ مَضروبٌ سرادقُها … بين النَّقِيضَيْن من عفوٍ ومن نِقَم
وللإمامةِ أنوارٌ مقدّسةٌ … تجلو البغيضَيْن من ظُلْم ومن ظُلَم
وللنبّوة آياتٌ تَنُصُّ لنا[6] … على الخفِيَّيْن من حُكْم ومن حِكَم
ولِلْمَكارِمِ أعلامٌ تعلّمنا … مَدْحَ الجزِيلَيْن من بأسٍ ومن كرم
ولِلعُلاَ ألْسُنٌ تُثْنى مَحَامِدُها … على الْحَمِيدَيْن من فِعْلٍ ومن شِيَم
ورَايَةُ الشّرف البذّاخ تَرْفعُهَا … يدُ الرَّفِيعَيْن : من مَجْدٍ ومن هِمَم
أقسمتُ بالْفَائِزِ المعصومِ معتقداً … فوْزَ النجاةِ وأجْر البرّ فى القَسَم
لقد حَمَى الدّين والدُّنيا وأهْلَهما … وزيرُه الصّالح الفَرّاج لِلْغُمَم
اللاّبسُ الفخرَ لم تَنْسُج غَلاَئِلَه … إلاّ يدُ الصَّنعَيْن : السّيف والقلم

انظر وفيات الأعيان : ١ : ٣٧٦ ، شذرات الذهب : ٤ : ٢٣٤ ، بغية الوعاة : ٣٥٩ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٢٤٤ : حاشية : ١ ، ٥٦٠ – ٥٧٧ ، تاريخ اليمن ، النكت العصرية ، وكلاهما لعمارة اليمنى . وسيرد كثير من أخبار عمارة فى بقية هذا الكتاب .

(١) النكت العصرية : ٣٢ – ٣٤ ، كتاب الروضتين : ١ : ٥٧٤ – ٥٧٥ .

(٢) فى الأصل : بما أوليت من نعم . والمثبت عن النكت العصرية وهو أكثر مناسبة لأنه يحمد للعيس والعزم والهمم ما قدمته .

(٣) فى كتاب الروضتين ، وفى النكت العصرية : رتبة الخطم . والخطام الزمام .

(٤) فى كتاب الروضتين ، وفى النكت : والكرم .

(٥) فى الأصل : فلو درى . والمثبت أولى ، وهو من النكت ومن الروضتين .

(٦) فى الروضتين : تفوه لنا .

وُجُودُه أَوْجَدَ الأَيَّامَ ما اقْتَرَحت ... وَجـودُه أَعْـدَم الشاكين للعـدم
قـد ملَّكَته العوالى رِقَّ مملكـةٍ ... تُعِيرُ أنفَ الثّريا عِـزَّةَ الشَّمَم
أَرَى مَقاماً عظيم الشأن أوهمنى ... فى يقْظَتِى أنها من جُملة الحلُمْ
يومٌ من العمر لم يَخطُر علىَ أملى ... ولا ترقَّتْ إليـه رغبـة الهِمَم
ليت الكواكب تدْنُو لى فأَنْظِمَها ... عقود مَدْح فما أَرْضى لكم كَلِمِى
ترى الوزارة فيـه وهى باذلـةٌ ... عند الخلافة نُصحاً غير مُتَّهَم[1]
عـواطف علَّمَتْنا[2] أنَّ بينهما ... قرابةً مِنْ جميل الرّأى لا الرَّحم
خليفـةٌ ووزير مَـدَّ عـدلُهما ... ظِلاًّ على مَفرَق الإسلام والأُمم
زيادة النّيل نقصٌ عنـد فيضهما ... فما عسى يتعاطَى مُنَّـة الـدِّيَم

فكان الصّالح يستعيدُ أبْياتَها فى حال الإنشاد مراراً ، والأُمراء والأُستاذون يذهبون فى الاستحسان كلّ مذهب . ثم أُفيضت عليه خلَعُ الخليفة المذهَّبة ، ومنح له الصالح خمسمائة دينار ، وأخرجت إليه السّيِّدة الشريفة بنت الحافظ مع الأُستاذين خمسمائة دينار أخرى ، وحمل المـال معه إلى منزله ، وأُطْلِقت له من دار الضيافة رسومٌ جليلة ، وتهادته أمراء الدّولة إلى منازلهم للولائم .

واستحضره الصالح لِلْمُجَالسة ، ونظَمه فى سلك أهل الْمُؤَانَسة ، وانثَالت عليه صِلاتُه ، وغمَرَهُ ببرّه . وصار يحضر فى اللّيل عنده مع الشيخ الجليل أبى المعالى ابن الحباب[3]، والشيخ الموفَّق ابن الخلال ، وأبى الفتح محمود بن قادوس[4] ، والمهذَّب أبى محمّد الحسن بن

---

(١) فى الأصل : متهمى .

(٢) فى الروضتين : أعلمتنا .

(٣) عبد العزيز بن الحسين الأغلبى السعدى التميمى ، كان متعاونا مع يوسف بن الخلال فى ديوان الإنشاء . ومن رائق شعره :

حيـا بتفاحـة مخضبـة ... من شفنى حبـه وتيمـنى
فقلت : ما إن رأيت مشبهها ... فاحمر من خجلة ، فـكذبنى

خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٩ – ٢٠٠ ؛ فوات الوفيات : ١ : ٢٧٨ .

(٤) أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن حميد الفهرى من كتاب الإنشاء ، وكان يسمى ذا البلاغتين ، توفى سنة ٥٥١ . خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢٦ – ٢٣٤ . ومن شعره ما قاله فى الرشيد بن الزبير ، وكان أسود :

إن قلت من نـار خلقت ... وفقت كل النـاس فهمـا
قلنا : صدقت . فما الـذى ... أطفـاك حتى صرت فحمـا

الزبير[1]، وولد الصّالح مجد الإسلام (رزيك)[2] ،وصهره، الأجلّ المظفّر الأمين، سيف الدّين جصن المسلمين ، ذى الفضائل والمناقب ، يمين أمير المؤمنين ، أبى عبد الله الحسين بن الأمير فارس الدّولة أبى الهيجاء الفائزى الصّالحى ، وأخيه فارس المسلمين بَدْر بن رُزيك ؛ وقريبه عز الدّين حسام[3] ، وضرغام ، وعلى بن الزبد ، ويحيى بن الخيّاط[4] ، ورضوان بن جلب راغب ، وعلىّ هَوْشَات[5] ، ومحمد بن شمس الخلافة . وهؤلاء أهل مجلس الليل .

وأنشده يوما وهو فى القبو من دار الوزارة قصيدة منها[6] :

دَعُوا كلَّ بَرْقٍ شِمتُمُ غير بارق ... يلُــوح على الفسطاط صادق نشره
وزُورُوا المقام الصّالحىّ ، فكلُّ مَنْ ... على الأرض يُنْسَى ذكرُه عِنْد ذكرِه
ولا تجعلوا مقصودَكُمْ طلب الغِنَى ... فتجنُوا على مَجْــد المقام وفخره
ولـكن سَلُوا منه العُــلَا تظفروا بها ... فكلُّ امْرِئٍ يُرجى على قَــدْر قَدْرِه

فرمى إليه الخريطة فوجد فيها خمسمائة دينار وخمسين رباعيًّا[7]. ومدحه فى شعبان بقصيدة[8] فدفع إليه الخريطة ، فإذا فيها ثلاثة وسبعون دينارا .

---

(١) وهؤلاء – كما يقول عمارة فى النكت – من أعيان أهل الأدب أما من يرد ذكرهم بعد ذلك فهم أهــل السيوف والأعــلام .

(٢) بياض بالأصل . والتكملة استعانة بما سيأتى من أن مجد الإسلام رزيك بن الصالح سيتولى الوزارة بعــد مقتل والــده .

(٣) يقول عمارة : « وهؤلاء هم أهله » . ثم يعقب بقوله : « فأما غيرهم من أمراء دولته المختصين بمجالسته فى أكثر أوقاته ، فنهم . . . » الخ . النكت : ٣٥ .

(٤) يحيى بن الخياط من رجال الدولة الفاطمية منذ عهد وزيرها الصالح طلائع بن رزيك ، خرج فيما بعد على شاور – وزير الفاطميين ، ولـكنه تمكن من إخــماد ثورته . انظر النكت العصرية فى مواضع مختلفة .

(٥) الضبط من النكت العصرية : ٣٥ .

(٦) وردت فى النكت العصرية : ٣٥ – ٣٦ .

(٧) فى النكت العصرية : فوجدت فيها مائة دينار وخمسين رباعيا .

(٨) فى النكت العصرية : ٣٦ ، منها :

قصدتك من أرض الحطيم قصائدى ... حادى سراها سنة وكتــاب
إن تســألا عــما لقيت ، فــإننى ... لا مخفــقٌ أمــل ، ولا كــذاب

ثمّ لمّا عزم على الرُّجوع وَدّع الخليفة والصالح بن رزّيك بقصيدة[1] ، فأَوْسَعَاهُ إكراماً وإنعاماً ، ورسم أن يكون تَسْفيرهُ[2] خمسمائة دينار كما كانت وفادته ، وبعثت إليه السّيدة مثل ذلك ، وخُلِع عليه للسّفر ، ودفع له الصّالح مائة دينار . وكُتِب له إلى ناصر الدّولة والى قوص بمائة إردبٍّ من القمح وحملها من مال الدّيوان إلى مكة . وكُتِبَ له كتابٌ إلى محمد بن عمران[3] ، صاحب عدن ، ببراءته من ثلاثة آلاف دينار وإسقاطها عنه .

وسار فى شوّال إلى مكّة فتسلّم القمح من قوص وحمل معه إلى مكة من مال الدّيوان . ولمّا وقف صاحب عدن على الكتاب أبرأه من الثلاثة آلاف دينار وأسقطها عنه ، فسيّر إلى الصالح بقصيدة من عدن يشكره على ذلك[4] ؛ فلمّا وقف عليها قال : قد فرّطْنَا فيه حين تركناه يخرج من عندنا ، ولقد كان إمساكُه للخدمة والصُّحّبة أولى .

ثم عاد بعد ذلك بمدّة[5] ، واستقرّ بعد ذلك من جملة خُدّام الدّولة وخواصّها .

فيها مات الفقيه أبو المعالى مجلى بن جميع بن نجا المخزوى القرشى الأَرْسُوفِى الشافعى ، صاحب كتاب الذخيرة فى الفقه .

---

(١) وردت فى النكت العصرية : ٣٧ ، ومنها :

من لى بأن ترد الحجـاز وغيرهـا	أخبار طيب مواردى ومصادرى
زارت بى الآمـال أكـرم ساحة	فوق الثرى ، فغـدوت أكرم زائر
ووفـدت ألتمس الكرامة والغنى	فرجعت من كل بحـظ وافـر
فكأن مكـة قـال صادق فألها :	سافر تعـد نحـوى بوجه سافر

(٢) فى الأصل : تفسيره . وهى لا تناسب السياق ، والمثبت هنا مما جاء فى النكت العصرية : ٣٧ . وقد كان من المقرر أن تكون مكافأة التسفير ثلاثمائة دينار ، فتوسط سيف الدين حسين ، صهر الصالح ، فى زيادتهـا إلى خمسمائة .

(٣) المقصود به عمران المكرم بن محمد المعظم ، وقد ورد اسمه فى النكت العصرية : ٣٨ ، وهو سابع أمراء بنى زريع الإسماعيليين (بضم الزاى وفتح الراء) ، حكم بين سنتى ٥٤٨ – ٥٦٠ ، أما محمد بن عمران فقد حكم بعد وفاة أبيه فى سنة ٥٦٠ واستمر إلى سنة ٥٦٩ ، وبهذا لا يكون معاصرا لهذه الرحلة التى قام بها عمارة فى عودته إلى اليمن من مصر . معجم الأنساب .

(٤) ورد منها فى النكت العصرية خمسة أبيات : ٤٠ – ٤١ ومطلعها :

ليـالى بالفسطاط من شاطئ مصر	سقى عهدك المـاضى عهادا من القطر

ومنها :

قصـدت الجناب الصـالحى تفاؤلا	وقد فسدت حـالى فأصلحنى دهرى
ولم يرض لى معروفه دون جـاهه	فسير كتبا كالكتائب فى أمرى

(٥) بمدة قصيرة ، فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

سنة احدى وخمسين وخمسمائة (١) :

فيها نزع السّعر ووقع الغلاء بديار مصر ، فلحق النّاس منه شدّة[٢]

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من فبراير سنة ١١٥٦ .

(٢) بهامش الأصل : بياض سطرين . ويقول ابن القلانسى : فى شعبان من السنة وردت الأخبار من ناحية مصر بارتفاع أسعار الغلة بها وقلة وجودها وشدة إضرارها بالضعفاء والمساكين وغيرهم ، وأمر المتولى لأمرها المحتكرين لها ببيع الزائد على أقواتهم على المقلين والمحتاجين ، ووكد الخطاب فى ذلك ، وما زادت الحال إلا شدة مع ما ذكر من توفية النيل فى السنة . وذكر أبو المحاسن أن المـــاء القديم كان ست أذرع وتسع عشرة أصبعا ومبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا وثمانى أصابع . ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٦ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٢٤ .

[١٤٨ب]**سنة اثنين وخمسين وخمسمائة**(١) :

فيها كان انفِسَاخُ الهدنة بين الفرنج وبين المصريين ، فشرع الصّالح فى النفقة على العساكر وعُرْبان البلاد للغارة على بلاد الفرنج . فأخرج سريّةً فى سابع عشر جُمادى الأُولى وأتْبَعها بأخرى فى رابع عشر جمادى الآخرة ؛ فوصلت الأُولى إلى غزّة ونهبت أطرافها ، ثم سارت إلى عسقلان فأسَرَتْ وغَنَمِت وعادت مظفَّرة غانمة . ثم ندب سريّةً ثالثة ، فمضَتْ إلى الشريعة(٢) فأبْلَت بلاءً حسنا وعادت مؤيّدة . وسيّر المراكب الحربيّة فانتهت إلى بيروت وأوْقَعتْ بمراكب الفرنج وأسرت منهم وغنِمت . وسيّر عسكراً فى البرّ إلى بلاد الشوبك(٣) فعاثوا فيها وغَارُوا ورجعوا بالغنائم فى رجب ومعهم كثيرٌ من الأَسرى . ثم سيّر الأسطول إلى عكا فأسَرُوا نحوًا من سبعمائة نفسٍ بعد حروب كثيرة ، وعاد الأسطول فى رمضان . وجهّز سريّةً فغارت على بلاد الفرنج وعادت بالغنائم فى رمضان . ثم بدأت سريّة فى أوّل ذى القعدة وأردفها بأخرى فى خامِسِه فوصلت غاراتُهم إلى أعمال دمشق وعادُوا غانمين(٤) .

وفيها قدم رسول نور الدّين محمود صاحب دمشق(٥) .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من فبراير سنة ١١٥٧ .

(٢) هو نهر الأردن ، أطلق هذا الاسم عليه منذ زمن الحروب الصليبية ، وبخاصة جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية ومصبه فى البحر الميت ، ويعرفه البدو بهذا الاسم حتى الآن . السلوك : ١ : ٣٨١ : حاشية : ٤ .

(٣) الشوبك حصن شديد الحصانة بناه Baldwin I، صاحب بيت المقدس ، سنة ٥٠٩ ، جنوب بحر الميت ، فى منطقة عالية ليسهل منه مراقبة القوافل السالكة فى الطريق بين الشام ومصر ومهاجمتها ، وهو قريب من حصن الكرك الفرنجى . معجم البلدان : ٥ : ٢٠٥ ؛ The Crusaders in the East; p. 65.

(٤) ولعل فى هذه الغارات المتتابعة وما وليها من اشتبكات مع الفرنج طوال عهد وزارته ما يسوغ تكنيته بأبى الغارات ، وهو ما أطلق عليه فعلا ، وربط المؤرخون والشعراء بينه وبين كثرة إغاراته على الفرنج . وتجد فى كتاب الروضتين : ١ : ٢٨٨ — ٢٩٩ مجموعة من القصائد المتبادلة بين الصالح طلائع وأسامة بن منقذ ، الذى كان عندئذ على صلة بنور الدين محمود ، تؤكد المحاولات التى قام بها الصالح لإيجاد علاقات تعاون بين مصر والشام فى مقاومة العدو المشترك .

(٥) يقول ابن القلانسى : وفى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول توجه زين الحجاج ، كثّر الله سلامته ، إلى ناحية مصر رسولا من المولى نور الدين لإيصال ما صحبه من المطالعات إلى صاحب الأمر فيها ، وصحبته أيضا الرسول الواصل منها . ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٨ .

وفيها كسرت مراكب للفرنج فيها الحجاج منهم على ثغر الإسكندرية ، فقبض عليهم نائب الثغر وجهّزهم .

وفى سلخ ذى الحجة قبَض الصّالح على الأمير ناصر الدّولة ياقوت والى قوص وعلى أولاده واعتقلهم من أجل أنّه بلغه عنه أنه كاتبَ أُخْتَ الظافر وقصد القيام على الصّالح وأخذ الوزارة . وكان ناصر الدّولة فى ولاية قوص من أيّام عبّاس ، ولمّا استدعى أهل القصر طلائع من الأشمونين لم يجسُر على الحركة حتى كتب إلى ناصر الدّولة يُعْلِمُه بذلك ويستدعيه ليكون له الأمر ، فأعاد جوابه يُظْهر الزّهد فى ذلك وأنّه تركه من أيّام الخليفة عن قُدْرَة ، ظنًّا منه أن طلائع لا يصْلُح ولا يتمّ له ما يريدُ من مقاومة عبّاس ؛ فخاب رجاؤه . ولم يزل به الصّالح حتى أوْدَعه السجن ، ولم يزل به حتىّ مات فيه فى رجب من الآتية .

وفيها أُحضر إلى القاهرة رجل كامل الأعضاء سريع الحركة ، طوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشبار ، وله عدّة أولاد ؛ فدخل على الصّالح حتى رآه .

فى هذه السنة زُلْزِلت الشام زلازل عظيمة أَخْرَبت حصن شَيْزَر ، وأكثر حماة وبعض كفرطاب وأفامية ؛ وزلزلت فى حلب وغيرها من البلاد ؛ وكانت بدمشق خفيفة لم تخرب شيئا ، ودامت مدّةً بأرض الشمال[1] .

---

(١) حديث هذه الزلازل طويل مفصل فى ذيل تاريخ دمشق فى مواضع متفرقة من الصفحات : ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ - ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ فى الحديث عن أخبار هذه السنة ، ٥٥٢ . وسبقه حديث عن زلازل سنة ٥٥١ فى الصفحات ٣٣٤ - ٣٣٦ . ومن نتائج هذه الزلازل وتأثيراتها : انهدام كثير من مساكن شيزر على أهلها ، هرب أهل دمشق منها ، فى رجب سنة ٥٥٢ ، إلى البساتين والصحراء لعدة ليال وأيام جزعين مسبحين داعين ، وانهدام جزء كبير من فص الجامع الكبير ، وخراب كثير من سقائفها ومنازلها ، انهدام قلعة حماة وسائر دورها ومنازلها على أهلها بحيث لم يسلم منهم إلاالیسیر ، انهدام حصن شيزر وبه واليها تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ ومن تبعه إلا اليسير . ومما قيل فى هذه الزلازل وآثارها :

روّعتنا زلازل حادثات ... بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة ... أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلادا كثيرة وثغورا ... وحصونا موثقات البناء
فإذا مارنت عيون إليها ... أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضى من الله أمر ... سابق فى عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كا ... ن له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسبحا باكى العين ... مروعا من سخطة وبلاء
جل ربى فى ملكه ، وتعالى ... عن مقال الجهال والسفهاء

وفيها سقطت دارٌ بخطّ سوق وردان من مدينة مصر هلك بها جماعةٌ من سكانها ، من جملتهم امرأة تُرضع ولدًا أُخرجت من تحت الرّدم ميتة ، وأُخْرِج الطفل ابنُها فى ثانى يوم وهو حىّ ، فسُلِّم إلى مَنْ تُرضعه ، وعاش حتىّ بلغ مبالغ الرجال .

واتّفق أيضا فى هذه السنة أن السّديد أبا النّقباء صالحًا كان يخدم فى عمالة الرّباع السّلطانية بمصر ، وممّا يجرى فيها دار ابن معشر عند فم السّد الذى يُفتح كل سَنة عند كسر الخليج إذا كان وفاءُ النِّيل ، فإذا كان قُرْبَ الوفاء رُسِم بمَرَمَّة هذا الدار ، فرُمَّت وأُسْكِنت فى موسم الخليج ، فيتحصّل من أجرتها فى يوم ولَيْلَة ما يتحصّل من أجرة سنة كاملة . فرمّها فى هذه السّنة وأسكَنها على العادة ، وسكن فى بيت تحتانىّ منها ، فامتلأت جميعُها حتى لم يبق فيها ما يسع أحدًا ، فسقطت وهلك جميعُ مَنْ فيها إلاّ هو ، فإنهَ أُخْرِج بعد يومين من تحت الردم فيه رَمَقٌ فبَرأ وعاش مدة طويلة ، ثم طلَع يوما وهو عَجِلٌ إلى منزل سُكْناهُ بحارة الرّوم من القَاهرة انْدقّت ساقه فى درجة وحدث بها خَدْشٌ يسيرٌ فمات منه .

= قارن فى حديث هذه الزلازل : كتاب الروضتين : ١ : ٢٦٠–٢٦٨ ؛ الكامل : ١١ : ٨٢ حيث قال ابن الأثير : إن معلما كان بحماة فارق المكتب لمهم عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، فلم يأت أحد يسأل عن صبى كان له بالمكتب .

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (١) :

فى المحرّم جهّز الصّالح أربعة آلاف وأمّر عليهم شمس الخلافة أبا الأشبال ضرغامًا للغارة على بلاد الفرنج ، فساروا فى صفر إلى تلّ العجول(٢) وحاربُوا الفرنج فى النّصف منه ، فانهزموا من المسلمين هزيمة قبيحة عليهم . وسيّر عسكراً آخر فى شعبان ، فواقعُوا الفرنج على العريش وعادُوا ظافرين بعدّة غنائم ما بين خيول [١٤٩ ا] وأموال(٣) .

وفيها قدم رسُول الملك العادل محمود بن زنكى ؛ وقدمت رسل الفرنج يسألون فى الصلح ؛ ورسول صاحب قسطنطينية يسأل إسعافه بمراكب نجدةً له على صاحب صقلّية(٤) .

وفيها خرجت من القاهرة سريّة إلى بيت جبرين(٥) وعادت غانمة . وسار الأسطول فى يوم الجمعة ثالث عِشْرى ربيع الآخر فانثنَى إلى تنّيس فى الثّامن مِنْ شعبان وأقلع منه إلى بلاد الفرنج .

وفى سادس عِشْرى ربيع الآخر قدم أسطول الاسكندرية وقد امتلأت أيْدى الغُزاة بالغنائم. وفى ربيع الآخر سار عسكرٌ إلى وادى موسى(٦) فنزل على حصن الدميرة وحاصره ثمانية أيّام ، وتوجّه إلى الشّوبك وأغار على ما هنالك ؛ وأقام أميران على الحصار وعاد بقيّة العسكر .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى من فبراير سنة ١١٥٨ .

(٢) بالقرب من كل من عسقلان وغزة . انظر The Crusaders in the East; p. 310

(٣) يتحدث ابن القلانسى عن اشتباك جيوش مصر مع الفرنج عند غزة وعسقلان وأعمالها ويقول إن الفرنج لم يفلت منهم إلا اليسير ؛ ويزيد أن مقدم الغزاة ظفر بعدة سفن فرنجية فقتل وأسر الكثير من رجالها وعددها وحاز من أموالها ما لا يكاد يحصى . ذيل تاريخ دمشق : ٣٥١ .

(٤) صاحب قسطنطينية ، أى امبراطور بيزنطة ، Manuel الذى حكم بين سنتى ١١٤٣-١١٨٠ ؛ وصاحب صقلية William I, the Bad (١١٥١-١١٦٦) . وكان صاحب صقلية قد انشغل بالحرب ضد بيزنطة التى كانت تحاول أن تمد نفوذها وسلطتها المباشرة إلى القسم الغربى من البحر المتوسط فى اتجاه إيطاليا وصقلية . وبسبب هذه المنازعات، التى استمرت كذلك فى عهد William II, The Good (١١٦٦-١١٨٩) ، أتيحت الفرصة للمدن الإفريقية الشمالية لتتحرر من سلطنة صقلية . دائرة المعارف البريطانية .

(٥) يقول ياقوت إنه بلد بين بيت المقدس وغزة يبعد عن الأولى بمقدار مرحلتين وعن الثانية بأقل من ذلك . معجم البلدان : ٢ : ٣٢١ .

(٦) جنوبى بيت المقدس ، وينسب إلى موسى بن عمران عليه السلام . معجم البلدان : ٨ : ٣٧٧ ؛ وكذلك : The Crusaders in the East; p. 119.

وفى التّاسع من جمادى الأُولى سار عسكرٌ إلى القدس فخرّبَ وعاد بالغنائم . وورد الخبر بوقعة كانت على طبريَّة كسر فيها الفرنج وانهزموا ، فأخذ الصالح فى النفقة على طوائف العسكر ، وكان جملة ما أنفقه فيها مائة ألف دينار . فلما تكامل تجهيزهُم سيَّر خمس شَوَانٍ[1] فى الخامس من شعبان ، فتوجّهت لسواحل الشام ، وظفرت بمراكبَ من مراكبِ الفرنج وعادت بكثيرٍ من الغنائم والأسرى فى الثانى والعشرين من رمضان . وخرج العسكر فى البرّ وقد وَرَدَ الخبر بحركة متملّك العريش يُريد الغارة على أطراف البلاد ، فلمّا بلغه سير العسكر لم يتحرّك ، ورجع العسكر .

وجُهِّز رسول محمُود بْن زنكى بجواب رسالته ومعه هديّة فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمتُه ثلاثون ألف دينار ، ومن العَيْن ما مبلغُه سبعون ألف دينار تَقْويةً له على جهاد الفرنج[2] . وكتب إلى الصّالح[3] كتابا ضمنه قصيدة يحرضه فيها على قتال الفرنج ، فوصلت إليه فى سادس عشر من شهر رمضان ، ولبس نور الدّين خلعة المُلك الصالح[4] طلائع ؛ وانقضت السّنة فى تجهيز العساكر فى البرّ والبحر ومسيرها وعَوْدِها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة ،منهم أخو القمص صاحب قبرص ،فأكرمه الصالح وبعث به إلى ملك القسطنطينية . وكثرت الغنائم من الفرنج بالقاهرة حتىّ امتلأت الأيدى بها .

وقَال الصّالح فى هذه الغزوات عدة قصائد مطوّلة[5] .

---

(١) جمع شينى : مركب حربى للقتال ، ويسمى بالغراب أيضا ، وله مائة وأربعون مجدافا وفيه ، إلى جانب الجدافين ، المقاتلة ؛ ويقابله بالإنجليزية Galley . قوانين الدواوين : ٣٤٠ ، ٤٥٦ .

(٢) واسم الرسول الدمشق الحاجب محمود المولد ، وكان قد قدم فى السنة السابقة محملا برد نور الدين محمود على رسالة الملك الصالح ، وزير مصر ، فأعاده الصالح فى رمضان من هذه السنة « ومعه المـــال المنفذ برسم الخزانة الملكية النورية وأنواع الأثواب المصرية والجياد العربية » ، وصحبته رسول وزير مصر . ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٣ . وستتكرر هذه البعثة فى السنة التـــالية .

(٣) ، (٤) ما بين هذين الرقمين مستدرك بهامش الأصل .

(٥) ومثال لهذه القصائد قوله :

جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت ... عليها عتـــاق الخيل كالنقنف السهب
فقد أصبحت أوعارهـــا وحزونهـــا ... سهولا توطا للفـــوارس والركب
ولمـــا غدت لا ماء فى جنباتهـــا ... صببنا عليهـــا وابلا من دم سكب
وجادت بها سحب الدروع من العدا ... نجيعا ، فأغنتْها الغـــداة عن السحب
وأجـــرت بحارا منه فوق جبالهـــا ... ولـــكن بحار ليس تعـــذب للشرب

وفيها مات القاضى المفضَّل كافى الكُفاة محمود بن القاضى الموفّق إسماعيل بن حميد القاضى ، المعروف بابن قادوس ، فى سابع المحرّم ؛ فحضر الصّالح إلى داره بمصر ومشى فى جنازته حتى صُلِّى عليه ، ومضى إلى تربته عند مسجد الأَقدام[1] بالقرافة . وكان من أماثل المصريّين وأعيان كُتَّابهم ، مقدّمًا عند الملوك . وله ديوان شعر[2] .

= فقـد عمها خصب به من رءوسهم ... بها ، ولكم خصب أضر من الجـدب
وقـد روعتها خيلنـا قبل هـذه ... مرارا وكانت قبـل آمنـة السرب
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها ... فماقت نواقيس الفرنج عـن الغرب

خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ١٧٨ — ١٧٩ . وتجد حديثا مطولا عن هذا الشاعر فى نفس المصدر : ١٧٣ — ١٨٦ ، وفى النكت العصرية .

(١) وسمى مسجد الأقدام لأن مروان بن الحكم لما دخل مصر وصالح أهلها وبايعوه امتنع ثمانون رجلا من المغافر عن بيعته وظلوا على بيعة ابن الزبير فأمر مروان بقطع أيديهم وأرجلهم وقتلهم على بئر المغافر فى هذا الموضع فسمى المسجد الذى بنى فى هذا الموضع بالأقدام لأنه بنى على آثارهم . وقيل اختلفت قبيلتان عليه كل منهما تدعيه فقيس بعده عن كل منهما بالأقدام ثم نسب إلى أقربهما منه . وكان القديم منه محرابه والأروقة المحيطة به ثم زاد فيه الإخشيد ، ثم زاد سهم الدولة فى القسم البحرى منه ، وكان سهم الدولة متولى الستارة . وهذا المسجد بالقرافة بخط المغافر . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٤٥ .

(٢) سبق شىء من التعريف به فى التعليقات ، وتجد ترجمة له فى خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢٦ — ٢٣٤ .

سنة اربع وخمسين وخمسمائة (١) :

فى شهر ربيع الأوّل ، فى خامسه ، قدم رسُول الفرنج بهديّة لطلب المدنة .

وقدم رسُول نور الدّين يخبر بأنه متوجّه نحو بلاد الفرنج ، وأشار بإخراج عسكر نحوهم؛ فخرجت سريّة إلى غزّة . وعاد رسول نور الدّين، وهو الحاجب محمود المسترشدى، وصحبتُه الأمير عزّ الدين أبو الفضل غسان بن محمد بن جلب راغب الآمرى ؛ وكانا قد توجّها إلى نور الدّين فى السّنة الخالية وخرجا من دمشق فى نصف صفر . فندب الصّالح العساكر للغارة ، وأنفق فى ستة آلاف وخمسمائة فارس ، فساروا فى سادس جمادى الأُولى . وتوجّه الأسطول فى البحر ، وذلك أن ملك القسطنطينية أراد غزو بلاد ابن لاون[٢] ، صاحب أرمينية فبعث يعلم نور الدّين بذلك ، فكتب نور الدّين يستنجد الملك الصّالح على الفرنج ، فأَنْجَدَهُ بذلك . وفى سلخ جمادى الآخرة عاد العسكر غانما .

وفى هذه السنة خرج الأمير عز الدّين أبو المهنّد حسام ابن الأمير الأسد جلال الدّين فضّة ، وهو ابن أخت الملك الصّالح ، على عسكر لقتال طرخان بن سليط بن طريف والى الإسكندرية وقد جمع العربان وغيرهم وخلع طاعة الصّالح[٣] .

فيها بنى الصالح على بلبيس حصنًا من لَبن .

فيها توفى أبو القاسم عبد الرّحمن بن محمّد بن الفضل بن مَنْصُور بن أحمد بن يونُس ابن عبد الرّحمن بن اللّيث بن المغيرة بن عبد الرحمن بن العلاء بن الحضرمى [١٤٩ ب]

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من يناير سنة ١١٥٩ . وبجوار هذا العنوان بهامش الأصل : بياض ربع صفحة .

(٢) واسمه : Thoros, Son of King Leo of Armenia انظر : The Damascus Chronicle of the Crusades; p. 349 وكتاب الروضتين : ١ : ٣٠٤ ؛ وكذلك The Crusaders in the East; p. 180

(٣) وسيرد فى أخبار السنة التالية ، ٥٥٥ ، نبأ تطورات هذه الثورة ونتائجها .

فى شهر رمضان بالإسكندرية . وقد حدّث فسمع منه السِّلَفى ؛ وهو آخر من حدّث عن الخيال . ومولده لِستٍّ بقينَ من ربيع الآخر سنة ستّ وستّين وأربعمائة .

وتوفّى الفقيه أبو الحسن وحشىّ بن عبد الغالب العادلىّ السّعدى بمنية زفتى ؛ وأخذ عن الطرطوشى وغيره .

وتوفّى بمصر أبو القاسم عبد السّلام بن مختار اللغوى ؛ سمع من بركات وغيره ؛ وقرأ على العقبى . وله مدائح فى الصالح بن رزيك وكان متصدرًا بالجامع العتيق .

سنة خمس وخمسين وخمسمائة (١) :

فيها خرج إسماعيل ، المعروف بروق ، من القاهرة فى ليلة الخميس حادى عشر المحرّم ، ولحق بأخيه طرخان والى الإسكندرية وقد جمع لحرب الصّالح،فخرج إليه المظفر عزّ الدّين حسام والأمير مجد الخلافة أسد الدّين ورد على عسكر ، ولحقهم المظفر سيف الدّين حسين .

وقد بَرَز إسماعيل(٢) من الإسكندرية فى جُمُوعه وخيمّ على دمنهور ، وتلقّب بالملك الهادى ؛ فطرقه العسكر ، فهرب واختفى بالجيزة ، فقُبض عليه فى سابع عشره . وعاد العسكر فى ثالث عِشْريه ، فهرب طرخان من معتقله فى رابع ربيع الآخر ، وظُفِر به فى سادسِهِ ، فَصُلب على باب زويلة . ثم ضُربت رقبة إسماعيل فى ثامنه ، وصُلِب إلى جانب أخيه .

وكان أبو طرخان فرّانا ، فترقّ طرخان فى أيام الفتن حتى ولاّه الصّالح الإسكندرية فى سنة ثلاث وخمسين . وقال الشعراء فى صلبه عدّة قصائد .

وفيها مات الخليفة الفائز بنصر الله ليلة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رجب ؛ ومولده يوم الجمعة لتسع بقين من المحرّم سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وستّة أيّام(٣) ، منها مدّة خلافته ستّ سنين وخمسة أشهر وستّة عشر يومًا .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى عشر من يناير سنة ١١٦٠ .

(٢) فى الأصل طرخان . والتصحيح استنادا إلى ما جاء فى بقية الخبر ، واستعانة بما جاء فى نهاية الأرب حيث ذكر النويرى أن طرخان اعتقل فى السنة الماضية وأن إسماعيل هو الذى ثار فى المحرم من هذه السنة طالبا لثأره وتلقب — أى إسماعيل — بالملك الهادى ، فلما هجمت عليه الجيوش هرب إلى الجيزة واستتر عند بعض العربان . ثم هرب طرخان مع الموكل به فاعتقل بعد يومين وصلب على باب زويلة وضرب بالنشاب ، ثم صلب أخوه إلى جانبه بعد قتله . ومن طريف ما قاله عمارة فى صلب طرخان :

أراد علــو منزلة وقــدر ... فأصبح فوق جذع وهو عال
ومد على صليب الجذع منـه ... يمينا لا تطــول على الشمال
ونكس رأســه لعتاب قلب ... دعاه إلى الغواية والضــلال

النكت العصرية : ٤٧ .

(٣) فى الأصل : فكان عمره إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام ، وهو ينقص شهرا بمقارنة التاريخين اللذين ذكرهما لمولده ووفاته اللذين يوافقه فيهما النويرى . ويذكر النويرى عمره صحيحا . وبالنسبة لتاريخ وفاته يضيف النويرى بعد ذكر التاريخ الذى يتفق فيه مع المقريزى جملة تقول : « وقيل لليلة منه » .

ولم يلْتَذَّ بالخلافة ولا رأى فيها خيرًا ؛ فإنّ أباه لمّا قُتِل وبكر عبّاس إلى القصر وفحص عن الخليفة الظّافر وقَتَلَ أخويه وابنَ عمّه لينْفِيَ عن نفسه وابنه التّهمة ، دُعى إلى القصر واستَدْعَى ابن الظّافر هذا وحملَهُ على كتفه ولهُ من العُمْر نحو الخمس سنين ، ووقف به فى صَحْن القاعة وأمر الأمراء فدَخلوا عليه . فلمّا مثلوا بالقاعة قال لهم : هذا وَلَدُ مولاكُمْ وقد قتل أبوه وعمّاهُ ، والواجب إخلاص الطّاعة لهذا الطّفل . فقالوا بأجمعهم : سمعنا وأطعنا ، وصاحوا صيحة اضْطَرب منها الطّفل وداخله من تلك الصّيحة ، مع ما شاهده من رؤية عمّه والخدّام وهُمْ فى دمائهم ، ما خبّل عقله ، وبال على كتف عبّاس ، فسيّرُوه إلى أمّه ، وأقام مُختلاًّ يُصْرع وجدّته تكفله .

وركب فى الأعياد مُغَرَّرًا به ، وخطب عنه قاضى القضاة وهو معه على المنبر . وقطع الخليج فى أيّامه فى اللّيل واعتذر عن ذلك بأن النيل عدا وقطع الجسر ، إلى غير ذلك من التحويزات .

ثم وزر الصّالح بعد عبّاس واستبدّ بجميع الأُمُور وليْس له معه أمرٌ ولاَ نهىٌ ، ولا تعود كلمة . فدبّرت عمة الفائز فى قتل الصّالح ، وفرّقت فى ذلك نحو خمسين ألف دينار ؛ فبلغ ذلك الصالح ، فأمسكها وقتلها بالأستاذين والصّقالبة سرًّا ، والفائز فى وَادٍ آخرَ من الاضطراب والاختلال . ونقل كفالته إلى عمّته الصُّغرى ، وطَيّب قلبها ، وراسلها .

العَاضِدُ لِدِينِ ٱللهِ أبُو مُحَمَّد عَبْدُ ٱللهِ بن الأمِير يُوسُفَ
ابْن الحَافِظ لِدِينِ ٱللهِ أبي المَيمُون عَبد المَجِيدِ

وُلِد يوم الثلاثاء لعشرٍ بقينَ من المحرّم سنة ستّ وأربعين وخمسمائة[1] ؛ وبويع عند انتقال الفائز يوم الجمعة قبل الصّلاة لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وعمره يومئذ تسع سنين وستة أشهر وسبعة أيّام[2] .

وذلك أنه لمّا مات الخليفة الفائز ركب الصّالح بن رزّيك إلى القصر بثياب الحزن ، واستدعى زمام القصر ، وسأله عمّن يصْلُح فى القصر للخلافة ؛ فقال : هٰهُنا جماعة . فقال : عرّفنى بأَكْبَرِهم . فسمّى له واحدًا ، فأَمَرَ بإحضاره . فتقدّم إليه أميرٌ يقال له على ابن مزيد وقال له سرًّا : لا يكُنْ عبّاس أحزم منك رأيًا حيثُ اختار الصّغير وترك الكبير [١٥٠ ا] واستبدّ بالأمر . فَمَالَ إلى قوله ، وقال للزّمام : أُريدُ منك صغيرًا . فقال : عندى ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله ، وهو دُوَن البلوغ . فقال : علىَّ به . فأُحْضِر إليه بعمامةٍ لطيفة وثوب مُقَوّط ، وهو مثل الوحش ، أسمر ، كبير العينين ، عريض الحاجبين

(١) يختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ مولده ، فيذكر أبو المحاسن أنه : « ولــد سنة أربع وأربعين وخمسمائة وقيل سنة أربعين » ؛ ويذكر كذلك أن ابن خلكان يقول إنه « ولد يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة سبع وأربعين وخمسمائة » . ويعلق محققة على هذا بأن المذكور فى وفيات الأعيان سنة « ست وأربعين وخمسمائة » . ويقتبس أبو المحاسن كذلك الحافظ أبا عبد الله الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام فى قوله : « ولد سنة ست وأربعين وخمسمائة فى أولها » . وبطبيعة الحـال يؤدى هذا الاختلاف فى تحديد تاريخ المولد إلى اختلاف آخر فى عمره حين بويع بالخلافة وحين الوفاة . قارن النجوم الزاهرة ٥ : ٣٣٤ ، ٣٣٨ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ ؛ وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٢) وقد سها المقريزى فى حساب عمره هنا إذ أنه يكون قد تولى الخلافة وسنه تسع سنين وخمسة أشهر وسبعة وعشرون يوما . وقد كتب الصالح طلائع بن رزيك إلى أسامة بن منقذ بدمشق يعلمه بوفاة الفائز وخلافة العاضد ، فأجابه أسامة :

هناء بنعمى قل عن قدرها الشكر   وصبر الرزء لا يقــوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الإمام ، وقام بالـ   إ مامة فينـــا بعده العاضد الطهر
إمامـــا هـــدى ، لله فى نقل ذا إلى   كرامته ، وفى إقامـــة ذا سر
فعش أبـــدا ، واسلم لهم يا كفيلهم   تدافع عنهم كل حـــادثة تعـــرو

كتاب الروضتين : ١ : ٣١١ .

أخْنَس الأنْف[1]، منتشر المنخرين ، كبير الشَّفتين . فأجلسه الصّالح فى البادهنج[2] ، وكان عمره إحدى عشرة سنة[3]. ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يُحضر بذلة ساذجة خضراء ، وهى لبس ولىّ العهد إذا حزن على مَنْ تقدّمه ، وقام وألبسه إيّاها .

وأخذوا فى تجهيز الفائز ؛ فلمّا أُخْرِج تابوته صلّى عليه وحمل إلى التُّربة . وأخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه ، وأمر أنْ تُحملَ إليه ثيابُ الخلافة ، فأُلْبِسَها ؛ وبايعه ، ثمّ بايعه النّاس ؛ ونعته بالعاضد لدين الله . وذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة خمسٍ وخمسين[4] . وأبوه أحد الأخوين اللّذين قتلهما الوزير عبّاس[5] .

ولمّا بويع العاضد ركب وحملت على رأسه المظلّة ؛ وركب الصّالح بين يديه ، وخرج من التربة قاصدًا قصره . وكانت عادة الخلفاء أنّه إذا ورد البشير إلى أخَصّ أهْلِ من يُبَايَع يعطى ألف دينار ؛ فلمّا بُويع العاضدُ حضر المبشّر إلى عمّته فأعطته نزْرًا ، فلمّا راجعها فى الزِّيادة أبَتْ عليه ؛ فسُئِلت فى السبب فقالت : هذا قاطع الخلفاء[6] . وهكذا كان .

واستقرّ العاضدُ اسمًا والصّالح معنىً[7] ، فتمكنّ وقويت حرمتُه ، واستولى على الدّولة وتمكنّ منها ، ونقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة ، وأساء السِّيرة باحتكار الغلاّت ، فوقع الغلاء وارتفعت الأسعار ؛ وأكثر من قَتْل أمراء الدولة .

---

(١) الخنس ، محركة ، تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، وهو أخنس ، وهى خنساء . القاموس المحيط .

(٢) منفذ التّهوية فى البيوت ، ومنه قيل للفتحة الموجودة فى جانبى المنبر بادهنج . السلوك : ٢ : ٢٢٢ .

(٣) سبق قبل أسطر قول المؤلف : وعمره يومئذ تسع سنين وستة أشهر وسبعة أيام .

(٤) يعلق الفارق فى تاريخه على تولية العاضد فيقول : وهو الخليفة الرابع عشر من هذا البيت لأن كل خليفة ولى علقت منطقته بقبلة الجامع ، وتكون منطقة الذين قبله مكشوفة ومنطقة الحى مغطاة ، فإذا مات وولى غيره كشفت وعلقت منطقة الخليفة المولى مغطاة ، وكل فى الجامع مع هذه إلى هذه السنة أربع عشرة منطقة ذيل تاريخ دمشق : ٣٦٠ — ٣٦١ .

(٥) راجع ما تقدم فى مناسبة تولية الفائز بن الظافر الخلافة بعد مقتل الظافر وإخفاء جثته فى دار نصر بن عباس .

(٦) فى ترجمة العاضد يقول ابن خلكان : والعاضد فى اللغة القاطع ، يقال عضدت الشئ فأنا عاضد له إذا قطعته ، فكأنه عاضد دولتهم . وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٩ — ٢٧٠ . ولعل هذا هو ما قصدته عمة الخليفة بقولها للمبشر بخلافته : هذا عاضد الخلفاء . ويحسن هنا أن نتذكر ما قاله الحاكم بأمر الله لوالدته قبيل خروجه واختفائه حين حاولت منعه من الخروج إذ قال لها لابد من الخروج فإنى قد رأيت أن على « قطعا » .

(٧) رسمت فى نسخة الأصل : معنا .

وفيها وَلِى الصَّالح شاوَر بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس السَّعدى الصَّعيد[1]، فظهرت كفايتُه واستمال الرَّعية .

وفيها بعث العاضد بالخلع إلى نور الدِّين محمود صاحب دمشق ، فلبسها .

وفيها توفى بمصر أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن عمر بن قاسم ، المعروف بنفطويه الحضرمى ، المقرئ الأديب ؛ رحل فسمع ببغداد وميّافارِقين[2] وبمصر .

وتُوفّ بعَيْذاب[3] الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمن بن الحسين بن الحباب السعدى ، أخو القاضى الجليس ؛ رحل فسمع ببغداد وغيرها ، وصنف كتاب مساوئ الخمر ؛ وكتاب الحجّة لسلف هذه الأمّة فى تسمية الصِّديق والردّ على من أنكر ذلك ؛ وكتاب تهذيب المقتبس فى أنباء أهل الأندلس . وكان من الصَّالحين[4] .

وتُوفّ أبو جعفر أحمد بن محمّد بن كوار بن المختار بن الغرناطى بمصر ، وكان من أعيان غرناطة ، وله معرفة جيّدة بالنّحو ؛ وكتب عن السِّلفى .

---

(١) المقصود بها ولاية قوص وكانت من أهم ولايات الصعيد ، وتبدأ من جنوب ولاية أسيوط وتنتهى إلى آخر أسوان . راجع صبح الأعشى : ٣ : ٣٨٠ ، ٣٩٦ – ٣٩٨ .

(٢) فى إقليم ديار بكر بأرض الجزيرة ، وكانت أصلا من حصون بيزنطة ، ثم صار لها ولإقليم ديار بكر بأسره أهمية خاصة فى بعض عصور التاريخ الإسلامى ، على زمن الأسرة الأرتقية، بين سنتى ٤٩٥–٦٢٩، فى منطقة حصن كيفا ، وبين سنتى ٥٠٢ – ٨١١ فى منطقة ماردين . قارن معجم البلدان : ٨ : ٢١٤ – ٢١٨ ؛ ومعجم الأنساب .

(٣) إحدى أربع مدن ساحلية على البحر الأحمر (بحر القلزم) كانت تجبى بها المكوس على البضائع الواردة من جهة الحجاز واليمن وما والاها . وكانت عيذاب أكثر هذه المدن الأربع واصلا لرغبة رؤساء المراكب فى التعدية من جدة إليها وإن كانت باحتها متسعة لغزارة المساء وأمن الحاق بالشعب الذى ينبت فى قعر هذا البحر . ومن هذا الساحل يتوصل إلى قوص بالبضائع ومنها إلى الفسطاط فى بحر النيل . وكان للفاطميين بعيذاب أسطول يتلقّ المراكب القادمة بالبضائع والسفار فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا عليها من قوم كانوا بجزائر البحر يعترضون المراكب فيحميهم الأسطول . وكانت عدة هذا الأسطول خمس مراكب ، ثم صارت ثلاثا ، وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول عادة ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه . صبح الأعشى : ٣ : ٤٦٤ ، ٥١٩ – ٥٢٠ .

(٤) تقدم شئ من التعريف به فى مناسبة سابقة . قارن : وفيات الأعيان : ١ : ٣١ – ٣٢ ؛ طبقات الشافعية الكبرى : ٤ : ٤٣ – ٤٨ .

سنة ست وخمسين وخمسمائة (١) :

فيها عقد العاضد على ابنة الصّالح ابن رُزِّيك فى مُستَهَلّه بعْدَما امتنع من ذلك فحبسه الصّالح حتى أجاب . وقصد الصّالح بزواجه ابنته أن يُرزَق منه ولدًا فيجتمع لبنى رزّيك الخلافة مع الملك .

وفيها قدم حسين بن نزار بن المستنصر إلى برقة من بلاد المغرب[٢] ، ودعا إلى نفسه ، فاجتمَع عليه قومٌ كثير وتلقّب بالمستنصر[٣]، وعزم على المسير إلى أخذ القاهرة ، فخدعه الأمير (عز الدين)[٤] حسام بن فضّة (بن رزّيك)[٤] ووعده بالقيام بدعوته ، ومازال يتلطّفُ به حتى صار عنده فى خيمته ، فقبض عليه وحمله إلى القاهرة ، فقُتِل فى شهر رمضان[٥] .

وفيها قُتِل الملك الصّالح فارس المسلمين نصير الدين ، أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك . وذلك أنّه لما ثقُلت وطأته وكثُرت مُضايقتهُ لأهل القصر ، أخذت السّيدة العمّة ست القصور ، وهى أخت الظافر الصّغرى ، فى العمل على قتله[٦] ، ورتّبت مع قومٍ من السّودان الأقوياء أن يُقيموا منهم فى باب السّرداب من الدّهليز المظلم الذى يَدْخُل منه إلى القاعة جماعةً ، ويقيموا آخرين فى خزانةٍ هناك وأرسلت إلى ابن الرّاعى ، وإلى الأمير (المعظم)[٧] بن قوام الدّولة صاحب الباب وقرّرت معه أن يُخْلِىَ الدّهالِيز من الناس

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والثلاثين من ديسمبر سنة ١١٦٠ .

(٢) فى الأصل : محمد بن حسين بن نزار بن المستنصر ، ولم أجده فى غيره إلا باسم حسين بن نزار بن المستنصر . قارن نهاية الأرب : ٢٨ ؛ وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٩ – ٢٧٠ فى ترجمة العاضد ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٣٩ .

(٣) يذكر النويرى وأبو المحاسن وابن خلكان أن هذا حدث فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة .

(٤) ما بين القوسين مزيد من نهاية الأرب ، وكذلك استعانة بما سبق .

(٥) ذبحه صبرا كما يذكر ابن خلكان : وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٩ ، وينقله عنه صاحب النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٣٩ .

(٦) وكانت عمته الكبرى قد شرعت فى التدبير لقتله ، وفرقت فى ذلك مالا يقرب من خمسين ألف دينار ، فعلم طلائع ابن رزيك بذلك فأوقع بها وقتلها بمعاونة بعض الأستاذين والصقالبة سراً ، ثم نقل كفالة الخليفة الفائز إلى هذه العمة الصغرى التى أخذت بدورها تدبر مقتله . النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٤ .

(٧) بياض بالأصل يتسع لكلمة ، والتكملة من النكت العصرية : ٥٤ .

حتى لا يبقى بها أحد . فأعدّوا فى حجرة فى [١٥٠ ب] دهليز القصر ، وردّوا عليهم طرف الضبّة[1] .

فلما كان فى يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ركب الصّالح على عادته للسّلام على الخليفة ، فلمّا انفصل من خدمة السّلام بقاعة الذهب وخرج إلى الدّهاليز عرض له أستاذٌ يقال له عنبر الرّيفى ، وأوقفه ، وذكر له حديثًا طويلا ؛ فتقدّم رزّيك ابن الصّالح ، فخرج رجلان وثبا على الصّالح ، ووقعت الصّيحة ، فعثر الصّالح بأذياله ، فتقدّم إليه ابن الرّاعى وطعنه بسيفٍ قطع أحد وَرِيدَيْه ، وضربه العبيد بالسّيوف فقطعوا عذيته ونزلت فى لحمه وشلت سلسلة ظهره . فوضع يده على جُرْحه وأنشد :

إنْ كان عندك يا زمانُ بَقيَّةٌ مِمّا تُهينُ به الكرامَ فَهاتِهـا

وضُرِب رُزّيك (بن طلائع[2]) فى عضده الأيمن . وتكاثرُوا على الصّالح فسقط على وجهه مُنْكبًّا واستفرغ بالدّم فأدركه الأمير ابن الزبد[3] وألبسه منديل ضرغام بن سوار ، وكان

---

(١) يذكر ابن خلكان أن العاضد هو الذى قام بهذا التدبير ، وهو غير معقول ، لأن العاضد لم يكن جاوز التاسعة من سنه ، أو الحادية عشرة فى قـول آخر ، إلا بقليل حين تم هذا التدبير . ويذكر أيضاً أن من اشترك فى التدبير فى الاعتداء جماعة من الأجناد عرفوا بأولاد الراعى ، وأن المحاولة فشلت فى الليلة الأولى لأن أحد المتآمرين قام ليفتح ضبة الباب فأخطأ وأغلقها . وفيات الأعيان : ١ : ٢٣٨ — ٢٤٠ .

(٢) أضيف ما بين القوسين للتوضيح من النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٥ . وسيتولى رزيك هذا الوزارة بعد وفاة أبيه كما سيأتى .

(٣) واسمه المكرم أبو الحسن على بن الزبد . النكت العصرية : ٣٥ ، وفى مواضع أخرى متفرقة ؛ نهاية الأرب : ٢٨ ويذكر عمـارة أن ابن الزبد هذا كان من الغلاة فى مذهبه من غير علم ، وأنه قاتل عن الصالح أشد قتال إذ ظل يضرب بسيفه دفاعاعنه حتى انكسر نصفين فألقى نفسه على الصالح ووقاه بنفسه ، فلم تزل السيوف تنحره حتى قام الصـالح . وفى هذا يقول عمارة :

لا تسـألا إلا مضـارب سيفـه فلقد تزيـد وتنقص الأخبـار
حتى إذا انقطع الحسـام بكفـه وانفل منـه مضرب وغـرار
ألـقى عليك ، وقـاية لك ، نفسه لـما انتحتك صوارم وشفـار
إن لم يـلق كأس الردى ، فبقلبه من خمرها ، أسفـا عليك ، خمـار
هى وقفـة رزق المكرم حمدهـا وعلى رجال لؤمهـا والعـار

النكت العصرية : ١٤٤ — ١٤٥ .

قد نزع منديله عن رأسه ، وحُمِل حتى أُرْكِب على فرسه ، وهو لا يُفيق . وبقى خسين ابن أبي الهيجاء فى القصر يقاتل السّودان حتى قتل منهم خمسين رجلاً .

ولمّا ركب الصّالح وشدّوا جرحه تطلّعت السّيدة العمّة من القصور فرأته راكبًا ، فقالت : رُحْنَا والله . فلمّا صار إلى داره كان إذا أفاق يقول : رحمك الله يا عبّاس ، وبعث إلى العاضد يعتب عليه كيف رَضِيَ بقتله مع حُسْنِ أثره فى إقامته خليفة ؛ فأقسم أنّه لم يعلم بذلك ولا رضى به . وأنشد عند موته :

وماظفروا لمّا قتلت بطائل   فعشت شهيداً ثم متّ شهيدا

فلمّا كان ثلث ليلة الثلاثاء ، العشرين من شهر رمضان ، مات ودفن بالقاهرة ، ثم نقل منها بعد ذلك إلى القرافة ، والعاضد راكب والجند يمشون خلف تابوته[1] .

ومولده فى سنة خمس وتسعين . وكانت وزارته سبع سنين وستة أشهر تنقص أيّامًا. وكان فاضلا ، سمْحاً فى العطاء ، سهلا فى اللقاء ، محبًّا لأهل الفضائل ، جيدّ الشعر وخطّه دون شعره . ويقال إنّه من المغرب ، وقد قصد أبوه زيارة قبر علىّ بن أبي طالب بالنّجف فرأى أمام المشهد عليًّا وأخبره عن طلائع أنّه يلى مصر ، فقدِمَها ، وما يزال يترقّى فى الخدم حتى نال ما نال .

---

(١) يقول ابن خلكان : وكان قد دفن بالقاهرة فنقله ولده العادل من دار الوزارة التى دفن بها ، وهى المعروفة بإنشاء الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، وكان نقله فى تاسع عشر صفر سنة سبع وخمسين فى تابوت وركب خلفه العاضد إلى تربته التى دفن بها بالقرافة الكبرى . وفيات الأعيان : ١ : ٢٤٩ . وقد أنشد عمارة اليمنى فى مقتله وتابوته ونقله إلى تربة القرافة قصيدة طويلة منها :

خربت ربوع المكرمات لراحل   عمدت به الأجداث وهى قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع   عميت برؤية نعشه الأبصار
نعش تود « بنات نعش » لوغدت   ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الأنام إليه تحت جنازة   خفضت برفعة قدرها الأقدار
وكأنها تابوت موسى أودعت   فى جانبيه سكينة ووقار
وتغاير الهرمان والحرمان فى   تابوته ، وعلى الكريم يغار
فثهن بالأجر الجزيل ، وميتة   درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصى بها ، وحمزة عمه   وابن البتول ، وجعفر الطيار

و « بنات نعش » الكبرى سبعة كواكب أربعة منها نعش وثلاث بنات ، والصغرى كذلك ، وتنصرف نكرة لا معرفة ، وواحدها ابن نعش . ويقال هو أخفى من نعيش فى بنات نعش . القاموس المحيط ؛ أساس البلاغة . وتجد هذه القصيدة فى النكت العصرية : ٦٣ — ٦٥ ؛ وهى بصورة أكمل فى كتاب الروضتين حيث وردت فى واحد واربعين بيتا : ١ : ٣١٤ — ٣١٦ .

وأنشد له ابن خلكان(١) :

كم ذَا يُرِينا الدّهر من أحداثه غِيَراً(٢) وفينا الصَّدُّ والإعراض
نَنْسى الممات وليس يَجْرى ذكرُه فينا ، فتُذْكِرُنا بِهِ الأمــراضُ

وكان لأهل العلم عنده نَفَاق ويرسل إليهم العطايا الكثيرة . بلغَهُ أنَّ أبا محمدِ ابنَ الدّهان النّحوى البغدادى(٣) المقيم بالموصل قد شرح بيتًا من شعره وهو :

تجنَّبَ سَمْعِى ما يقول العواذلُ وأصبح لى شُغلٌ من الغَزْوِ شاغِلِ

فجهَّز له هدّية سنيّة ليرسلها إليه ، فقُتِل قبل إرسالها . وبلَغَهُ أن إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه فأرسل إليه كتابًا يشكره ومعه هديّة .

وكان وافر العقل رضىّ النّفس ، بصيراً بالتّجارب عالمًا بأيّام الناس ، بصيرا بالعلوم الأدبية ، مُحَبَّبًا إلى الناس لإظهاره الفضل والدّين وإنكاره الظّلم والفساد . إلاّ أنّه كان من غُلَاة الإمامية مخالفًا لما عليه مذهب العاضد وأهل الدّولة . فلمّا بايع للعاضد وركب من القصر سمع ضجّةً عظيمةً ، فقال : ما الخبر ؟ فقيل إنهم يفرحون بالخليفة . فقال : كأنى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ؛ وما علموا أنّى كنت من ساعةٍ أستعرِضُهم استعراض الغنم .

وجرى من بعض الأُمراء فى مجلس السَّمَر عنده انتقاص بعض السّلف ، وكان الفقيه عُمارة جالسًا فقام وخرج معتذرًا بحصاة تَعْتادُه ، وانقطع فى منزله ثلاثة أيّام ، ورسول الصّالح يَرِدُ إليه كلّ يوم بالطبيب ، ثم ركب إليه بعد ذلك وهو فى بستانٍ مع جلسائه

---

(١) وفيات الأعيان : ١ : ٢٣٨ .

(٢) الغير بوزن عنب الإسم من قولك غيرت الشئ فتغير ، ومنه غير الزمان . قال الكسائى : وهو اسم مفرد مذكر وجمعه أغيار . وقال أبو عمر وهو جمع مفرده غيرة . مختار الصحاح .

(٣) هو أبو محمد سعيد بن المبارك بن على بن عبد الله بن سعيد . . . بن أبى اليسر كعب الأنصارى ، كان يعرف بسيبويه عصره ، وله فى النحو : شرح الإيضاح ، التكلة ، الفصول الكبرى ، الفصول الصغرى ، الغرة فى شرح كتاب اللمع لابن جنى ، وله كتاب العروض فى مجلدة ، وكتاب الرسالة السعيدية فى المـآخذ الكندية ويشتمل على سرقات المتنبى . ترك بغداد وانتقل إلى الموصل وترك بها كتبه فارتفع النهر ببغداد وغرقت كتبه ، وزاد إتلاف كتبه أن المـاء طغى على داره من مدبغة كانت خلف الدار . وكف بصره وهو يحاول تبخير كتبه باللادن لإصلاحها . وله نظم حسن . توفى سنة تسع وستين وخمسمائة . وفيات الأعيان : ١ : ٢٠٩ — ٢١٠ ؛ بغية الوعاة : ١ : ٥٨٧ .

فى خلوة ، فاستوحش من غيبته ، فأَعْلَمه أنه لم يكنْ به وَجَع ولكنّه كره ما جرى فى حقّ السّلف ، فإنْ أَمَر السّلطان فقَطَع ذلك حضرت وإلا كان فى [١٥١ ا] الأَرض سَعَة وفى الملوك كثرة . فعَجِبَ الصّالح من ذلك . وقال : سأَلتك بالله ما تعتقد فى أَبى بكر وعمر ؟ فقال : أعتقد أنّه لَوْلاَهُما لم يكن سبق للإسلام حُرْمة ولا عَلاَ لهُ راية ، وما من مسلم إلا ومحبّتُهما واجبة عليه . ثم قرأ : « ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيم إلاَّ من سَفِهَ نَفْسَهُ »[1] فضحك الصالح ، وكان هذا من رياضته ، فإنّه مخالف لمذهبه مخالفة لا يحتملُها مثلُه إلاّ أنّه كان مُرْتَاضًا حصيفًا قد لقِيَ الفقهاء وسمع كلامهم .

وبعث يومًا إلى عُمارة ثلاثة أكياسٍ من مالٍ ورُقعةً بخطِّه فيها هذه الأَبيات يدعُوه فيها إلى مذهبه[2] :

قُلْ للفقيه عمارَةٍ : يا خَيْرَ من ... أضحى يؤلِّفُ خطبةً وكتــابا
اسمعْ[3] نصيحةَمَنْ دَعاكإلىالهُدَى ... قل حِطَّةٌ[4] ، وادخُل إلينا البَابَا
تَلْق الأَئمَّة شافعين ، ولا تجد ... إلاَّ لَدَينــا سُنَّة وكتـــابا
وعَلَيَّ أن يعلو محلُّك فى الورى ... وإذا شفعْت إلَىّ كنت مُجَابا
وتعجَّل الآلاف ، وهى ثلاثة ... صلةً ، وحقّك لا تعدُّ ثوابا

فأَجابه عمارة[5] :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا ... يا خير أَمْلاكِ الزَّمان نِصَــابا
لكن إذا ما أفسَدَتْ علماؤكم ... مَعْمُورَ مُعْتَقَدى وصار خرابا
ودعوتُمُ فكرى إلى أقــوالكم ... من بَعْدِ ذاك ، أطاعكم وأجــابا

---

(١) سورة البقرة : آية : ١٣٠ .

(٢) النكت العصرية : ٤٥ .

(٣) فى النكت : اقبل .

(٤) يشير بذلك إلى ما ورد فى سورة البقرة : آية : ٥٨ ، من قول الله جل وعز لقوم موسى : « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » . فهو يقول لعمارة « قل حطة » يغفر لك . يقول صاحب مختار الصحاح : وقوله تعالى « وقولوا حطة » أى حط عنا أوزارنا ، وقيل هى كلمة أمر بها بنو إسرائيل لوقالوها لحطت أوزارهم .

(٥) النكت العصرية : نفس المصدر : ٤٥ – ٤٦ .

فاشدد يديك على صفاء محبّتى   وامنُنْ عَلَىّ ، وسُدَّ هــذا البابا

وهو الّذى بنى الجامع خارج باب زويلة(١) ؛ ووقف ثلثى المقس على الأشراف ، وتسعة قراريط على أشراف المدينة ، وقيراطًا على بنى معصوم إمامِ مشهد علىّ الذى بشره بالمنام . ويقال إنه من وَلَدِ جبلة بن الأيْهم الغسّانى .

وكان أبوه يسمّى أسد رزّيك وقدم مع أمير الجيوش بدر إلى مصر ؛ وتُوفّى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة .

ومن العجب أنّه وَلِىَ الوزارة فى التّاسع عشر ، وقُتِل فى التّاسع عشر ، وزالت دَوْلتُهُم فى التّاسع عشر . وهو أوّل مَنْ خُوطِب بالملك فى ديار مصر ونُعت به(٢) .

ومن عجيب الاتّفاق أنّ عُمارة أنشد مجد الإسلام رزّيك بن الصّالح بدار سَعيد السُّعداء فى ليلة السادس عشر من شهر رمضَان أبْياتا منها(٣) :

أبُوكَ الّذى تَسْطو الّليالى بِحدِّهِ   وأنت يمينٌ إنْ سَطَا ، وشِمال
لِرُتبته العظمى ، وإن طال عمرُه   إليك مصيرٌ واجب ومَــآل
تُخَالِسُكَ الّلحظَ المصونَ ، ودونَها   حجابٌ شريف لاانْقَضَى وحِجال(٤)

---

(١) بناه بقصد نقل رأس الحسين ، رضى الله عنه ، من عسقلان إليه عند خوف هجوم الفرنج عليها ، فلم يمكنه الفائز من ذلك وابتنى له المشهد المعروف بمشهد الحسين بجوار القصر ونقله إليه فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وبنى الصالح بجامعه صهريجا وجعل له ساقية تنقل المــاء إليه من الخليج أيام النيل على القرب من باب الخرق (باب الخلق) . ولم يكن به خطبة ، وأول ما أقيمت به الجمعة فى أيام المعز أيبك التركمانى فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة . صبح الأعشى : ٣ : ٣٦٢ ؛ المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٩٣ — ٢٩٤ . وفى حديث رغبة الصالح فى نقل الرأس الشريفة من عسقلان إلى مسجده واعتراض الفائز هذه الرغبة نظر ، فقد سقطت عسقلان فى يد الفرنج فى سنة ثمان وأربعمائة ولم يكن الفائز قد تولى الخلافة بعد وكانت الخلافة لأبيه الظافر ، ولم يكن الصالح قد قدم القاهرة لتولى وزارة الفاطميين إذ أنه لم يقدم إليها إلا باستدعاء نساء القصر إياه بعد مقتل الظافر لينتقموا بمساعدته من عباس الوزير حينئذ . وقد سبق فى أخبار سنة ثمان وأربعين نبأ نقل الرأس الشريفة إلى القاهرة . وقد بنى الصالح مسجدا بالقرافة إلى جانب تربته يقول المقريزى إنه بناه بخط الجامع الذى عرف باسم جامع الأولياء ، وتقع تربته فى الجهة الغربية لجامع الأولياء بالقرافة الكبرى ملاصقة له ، وعرف هذا الجامع باسم مسجد بنى عبيد الله ، ومسجد القبة ، ومسجد العزاء ، وكان فى أعلاه منظرة ، وعمارته متقنة الزى.وبقى هذا المسجد كما يقول المقريزى إلى ما بعد سنة ثمانمائة. المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤٤٧ .

(٢) كان رضوان بن ولخشى الوزير أول من لقب بالملك . وقد سبق ذكر ذلك ، وتؤكده المصادر المختلفة .

(٣) النكت العصرية : ٤٩ ؛ خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٠ .

(٤) حجال جمع حجلة ، وهو البيت يزين للعروس .

فانتقل الملك إليه بعد ثلاثة أيّام .

قال عُمارة[1] : ودخلت على الصّالح قبل قتْلِه بثلاثة أيّام ، فَناوَلَنى رقعة فيها بيتان من شعره وهما :

نحن فى غفلةٍ ونومٍ ولِلْموْ ... تِ عيونٌ يقْظانةٌ لا تنـــام

قد رحَلْنا إلى الحِمَـــام سنينًا ... ليت شعرى ، متى يكون الحِمَام!

فكان آخر عهدى به .

وممّا رثاه عمارة به قوله[2] :

أفى أهْلِ ذَا النّادى عليمٌ أُسَائلُه ... فإنى ، لِمَا بِى،ذاهب العقل ذاهلُه[3]

[٥١ب]سمعتُ حديثًا أحسدالصُّمّ عنده ... ويذهل واعيه ، ويخرس قــائله

فقد رَابَنِى مِنْ شاهدِ الحال أنَّنى ... أرى الدَّسْت منصُوبًا وما فيه كافله

وأنّى أرى فـوق الوُجوه كآبةً ... تدلّ على أنّ الوُجـوه ثَوَاكِله

دَعُونى ، فما هذا بِوقْتِ بكائـه ... سيأْتِيكمُ طلٌّ البكاء ووَابلُـه

ولِمْ لا نُبكِّيه ونندُبُ فقـــدَه ... وأولادُنا أيْتَامــــه وأرَامِلُـــه

أيكرَمُ مَثْوى ضيفِكمُ وغرِيبِكم ... فيسكن ، أم تُطوى بِبَيْنٍ مراحــله

فيالَيْتَ شِعرى بعد حُسْنِ فعالـه ... وقد غاب عنّا،ما بِنَا الدّهرُ فاعِلُه[4]!

قال عمارة[5] : وكانت أحوال الصّالح تارةً له وتارةً عليه ؛ فما هو عليه فَرْطُ العصبيّة فى المذهب ، وجمعُ المال واحتجانُه ، والميْلُ على الجند وإضعافهم والقصُّ من أطرافهم . وأما التى له فلَمْ تكن مجالِسُ أنسه تنقضى إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعيّة والأدبيّة ، وفى مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته . وكان مُرْتاضاً قد سمر أطراف المعالى وتميّز عن أخلاق الملوك الّذين ليس عندهم إلاّ خشونَة مجرّدة .

---

(١) النكت العصرية : ٤٨ — ٤٩ ؛ خريدة القصر : ١ : ١٨٠ .

(٢) النكت العصرية : ٥٠ ؛ كتاب الروضتين ؛ ٣١٣ — ٣١٤ .

(٣) فى كتاب الروضتين : ١ : ٣١٣ ، وفى النكت العصرية : ٥٠ : ذاهب اللب ذاهله .

(٤) يتبادل هذان البيتان الأخيران مكانيهما فى كتاب الروضتين ، وفى النكت .

(٥) فى النكت العصرية : ٤٧ — ٤٨ .

وكان شاعراً[1] يحب الأدب وأهله ، ويُكثِر من جليسه ، ويبسط من أنيسه . وكان كرمُه أقربَ من الجزيل منه إلى المزيل وصنَّف كتابًا سمّاه : الاعتماد فى الرَّدِّ على أهل العِنَاد . وله قصيدةٌ سمّاها : الجوهرِّية فى الرّدّ على القدريّة

ولمّا مات الصّالح خرج ولده المنصور وهو مجروح وجلس فى مرتبة أبيه ، وبعث إلى العمّة ستّ القصور من أهل القصور فسُلِّمت إليه ، فخنقها بمنديل ورمِيَت قدامه[2] ، فبعثت السّيّدة العمّةُ أختُها إلى سيف الدّين حسين بن أبى الهيجاء ، صهر الصّالح ، وحلفت له أنّها لم تَدْر ما جرى على الصّالح وأنّ فاعِلَ ذلك أصحاب أختها المقتولة . وحضر إليها مجد الإسلام أبو شجاع رزِّيك بن الصّالح فخُلِعَ عليه للوزارة ، فإنّ الصّالح أوصى بها إليه وجعل مِنْ حسين بن أبى الهيجاء الكردى مدّبرَ أمره ، ونُعِت بالسّيد الأجلّ مجد الإسلام الملك العادل النّاصر أمير الجيوش ، وفُسِح له فى أخْذِ من ارتاب به فى قتل أبيه ، فأخذ ابن قوام الدولة وقتله وولَدَه والأستاذ الّذى شَغَل الصّالح بالحديث .

واستحْسَن النّاس سيرته ، وسامح النّاس بما عليهم من البواق الثابتة فى الدّواوين . وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة ، وقام عن الحاجّ بما يستأديه منهم أمير الحرمين ؛ وسيَّر على يد الأمير محمدّ بن شمس الخلافة نحوًا من خمسة عشر ألف دينار إلى قاسم ابن هاشم ، أمير الحرَميْن ، برَسْمِ إطلاق الحاجّ . وظفر بقَتَلَةِ أبيه ظفرًا عجيبًا بعد تشتّتِهِم فى البلاد[3] .

---

(١) نفس المصدر والصفحة . ومن شعره :

يا ما شـيا فـوق الثرى	رفقا ، فسوف تصير تحتـه
إن قلت إلى أعـرف الـ	مولى القدير ، فما عرفتـه
أو كنت تعبـد المخـا	فـة والرجاء ، فما عبـدته

(٢) يروى ابن الأثير شيئا غير هذا إذ يقول : حمل الصالح إلى داره وفيه حياة فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره فى خلافته ، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به ، فقال إن كنت بريئا فسلم عمتك إلى حتى أنتقم منها ، فأمر بأخذها ، فأرسل إليها فأخذها قهرا وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل . الكامل : ١١ : ١٠٣ . ويذكر النويرى أن العاضد توقف عن إجابة طلب الصالح ، فأرسل الصالح إلى ست القصور وأخرجها ، فلما جاءت إلى منزله أمر بخنقها فخنقت بين يديه حتى ماتت ومات الصالح فى بقية ليلته .

(٣) راجع النكت العصرية : ٥٣ .

وكان زفاف أخته إلى العاضد فى وزارته فحمل معها بيُوتَ الأموال . ونقل تابوت أبيه إلى القرافة .

وسيّر إلى والى الإسكندرية بحَمْل عبد الرّحيم بن على البيسانى ، الملقّب بالقاضى الفاضل ، واستخدمه بين يديه فى ديوان الجيش .

وترامت الحال فى أيّامه بالأمير عزّ الدّين حسام ، قريبه ، وعظم صيته ، واستوْلَى على تدبير كثيرٍ من أُموره ، وعظم غلمان أبيه . وكان فارسا شجاعا ، له مواقف معروفة(1) .

وكان أبوه الصّالح قد ولّى شاوَر بن مجير بن نزار السّعدى قوص ، ثمّ ندم على ولايته وأراد عَوْدَه من الطّريق ، ففاته ، وحصل بها ؛ وطلب منه فى كلّ شهر أربعمائة دينار ، وقال لابُدّ لقوص من والٍ ، وأنا ذلك ؛ والله لا أَدخل القاهرة ، ومتى صرفنى دخلت النّوبة . فتركه .

ولمّا جُرِح وأشرف على الوفاة كان يَعُدّ لنفسه ثلاث غلطات ، إحداها ولاية شاور الصّعيد الأعلى ، والثانية بناء الجامع على باب زويلة ، فإنه مضرّةٌ على القاهرة ، والثالثة خروجى [١٥٢ ا] بالعساكر إلى بلبيس وتأخيرى إرسالها إلى بلاد الفرنج ؛ وكان قد أنفق على هذه العساكر مائتى ألف دينار .

وأوصى ابنه رزّيك ألاّ يتعرّض لشاور بمسلءة ولا يغيّر عليه حاله فإنّه لا تأمنُ عصيانَه والخروج عليك . فلمّا استمرّ رزّيك بن الصّالح فى الوزارة حسّنت له بطانتُه صرف شاور عن قوص ليتمّ الأمر له ، وأشار عليه سيف الدّين حسين بن أبى الهيجاء بإبقائه ، فقال ما أنا آبى ولا لى طمعٌ فيما آخذهُ منه ولكنْ أُريدُه يطأ بساطى . فقيل له : ما يدخل أبدًا . فلم يقبل ، وخلع على الأمير نصير الدّين شيخ الدّولة ابن الرّفعة بولاية قوص(2) .

---

(1) أصل هذه الفقرة موجود بالنكت العصرية : ١٥٨ . لكن اقتباسها بهذه الصورة يوقع فى إيهام التغيير ونصها هناك : « وترامت فى أيامه (أى أيام العادل بن الصالح) الحال بالأمير عز الدين حسام قريبه ، واستولى على تدبير كثير من أموره عمه فارس المسلمين ، وصهره سيف الدين . وعظم غلمان أبيه عن الوقوف عند أوامره » . وبهذا لا يكون عز الدين حسام المذكور فى المتن منفردا بتدبير أمور العادل كما توهم عبارة المقريزى .

(2) يذكر النويرى أن أقارب العادل رزيك بن طلائع حسنوا له عزل شاور فذكرهم بوصية أبيه ، فأصروا على عزله وكان أشدهم فى هذا الأمير عزالدين حسام بن فضة ، فألزم العادل إلى أن كتب كتابا إلى شاور يأمره بالحضور إلى القاهرة ، فكتب شاور إلى العادل يستعطفه ويذكره بخدمته لأبيه وبوصية أبيه بعدم عزله ، فقال العادل لأقربائه : المصلحة تركه . فأصروا على عزله . وهذه الرواية تخالف ما ذكرهنا فى المتن من أن العادل كان مصرا على عزل شاور . ويذكر ابن الأثير كذلك أن أقارب العادل حسنوا له عزل شاور . قارن نهاية الأرب : ٢٨ ؛ الكامل : ١١ : ١٠٨ .

فيها خرج ملك النّوبة إلى أسوان فى اثنى عشر ألف فارس وقتل من المسلمين عالما عظيماً .

فيهامات بالقاهرة ، فى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة خلت من رجب ، القاضى أبو الحجّاج يوسُف بن عبد الجبّار بن شبل بن على الصويبى ؛ وصويب قبيلة من جذام . وُلِد بالقدس يوم الجمعة تاسع ذى القعدة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وقدم مصربعدأخذ الفرنج القدس فنشأ بها واشتغل بالعلم ، وتولىّ خزانة الكتب[1] فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وولِىَ قضاء فوة[2] وعملها فى محرّم سنة سبع وأربعين .

ومات بالصّعيد كنز الدّولة أبو الطّليق يوسف ، ووَلِى بعده رئاسة قبائله أخوه أبو العزّ فتُّوح فى حادى عشر محرّم .

---

(١) كانت عدة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم بالقصر الفاطمى ، كما يروى المقريزى ، أربعون خزانة من جملة كتبها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة ونيف وثلاثون نسخة من كتاب العين إحداها بخط الخليل ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد . وقد ذهب معظم ما فى هذه الخزائن أيام الشدة العظمى على زمن المستنصر . وكانت إحدى الخزائن فى أحد مجالس المارستان يجىء إليها الخليفة راكبا ويترجل عند الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويستدعى القائم بأمرها ويطلب المصاحف والكتب ، وإن أراد أخذ شىء منها معه فعل ثم يعيده . وكان لهذا المجلس رفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل . وقد أنشأ القاضى الفاضل مكتبة بمدرسته الفاضلية بالقاهرة حوت من كتب القصر الفاطمى مائة ألف مجلد . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٨ — ٤٠٩ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٥ — ٤٧٦ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ١٠١ .

(٢) بضم الفاء وتشديد الواو بلدة بالقرب من الإسكندرية ، بمركز دسوق على الشاطئ الشرق لفرع رشيد على بعد ساعتين بتقدير على باشا مبارك إلى الشمال من دسوق . ويقدر ياقوت المسافة بينها وبين البحر بنحو خمسة فراسخ أو ستة . معجم البلدان : ٦ : ٤٠٦ ؛ قوانين الدواوين : ١٣٨ ، ١٦٦ ، ٢٢٢ ؛ الخطط التوفيقية : ١٤ : ٧٧ .

سنة سبع وخمسين وخمسمائة [1] :

فى عاشر المحرّم أفرج العادل رزّيك عن الأمراء الذين اعتقلهم أبوه الصّالح ابن رزّيك فى ثالث عشرى ربيع الأوّل سنة تسعٍ وأربعين ، وهم صبح بن شاهنشاه ، وأسد الغاوى ومرتفع الظهير[2] .

وفيها أنشأ[3] الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية فعرف ببرج ضرغام[4] .

وفى آخر ذى القعْدة ورد الخبر بخروج شاور عن طاعة العادل رزّيك[5] . وذلك أن الأمير نصير الدّين لمّا خُلع عليه بولاية قوص كتب على يده كتابًا إلى شاور بتسليم البلاد إليه وحضوره إلى القاهرة . فلمّا وصل إلى إخميم كتب كتابًا إلى شاور وفى طيّه كتاب رزّيك ، فلمّا وقف عليه بعث إليه أن ارجع ولا تحضر ، قولاً واحدًا ، فرجع إلى القاهرة وجهر شاور بالعصيان[6] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والعشرين من ديسمبر سنة ١١٦١ .

(٢) وهم من أمراء البرقية ، وقد قتلوا جميعا فى وزارة ضرغام . النكت العصرية : ٧٤ .

(٣) فى الأصل : سار . والتصحيح من نهاية الأرب : ٢٨ .

(٤) بهامش الأصل : بياض أربعة أسطر .

(٥) بهامش الأصل حاشية تقول : « وبخطه . شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث ابن سعد بن مخيس بن أبى ذؤيب عبد الله وهو والد حليمة بنت أبى ذؤيب ». اهـ . ويذكر ابن خلكان نسبه بشىء من الاختلاف فيقول شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن مخيس بن أبى ذؤيب عبد الله وهو والد حليمة مرضع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أرضعته بلبن ابنتها الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة . وفيات الأعيان : ١ : ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٦) يقول النويرى : فلما وقف شاور على الكتاب أرسل إلى نصير الدين رسولا من جهته برسالة يقول فيها إن بينى وبينك صحبة ولا تغتر بقول حسام وارجع من حيث أتيت فهو خير لك . فرجع نصير الدين إلى القاهرة ولم يماوده .

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (١) :

فيها زالت دولة بنى رزّيك . وذلك أنّ مماليك الصّالح وغلمانه ، مثل يانس وورد وسعادة الأسود وبختيار ، اشتد ظلمهم ؛ وكان الصّالح قدْ قدّمهم حتى صار لكلٍّ منهم نحو المائتى مملوك ، وطَغَوْا فى أيّام رزّيك حتى ضجّ النّاس منهم . وقال بعضهم :

أمِنتمُ يا بنى رُزّيك جهلا فذاك الأمر يتبعه الأمانى
أباد الله دولتكم سريعا فقد ثقُلت على كتف الزّمان

وكان شاور بن مجير السّعدى لمّا بلغه أنّ النّاصر رزّيك بن الصّالح طلائع بن رزّيك عزله عن ولاية قوص وولّى غيره اضطرب وخرج من قوص فى جماعة قليلة ، فسار على طريق الواحات فى البرارى حتّى صار فى تَرُوجة[٢] ، فاجتمع عليه النّاس وقوِىَ أمرهُ وتزايد . فاهتمّ لذلك رزّيك ورأى فى منامه وكأنه قد صار روّاسا[٣] فى حانوت ؛ فلمّا قصّ هذه الرؤيا على حسين بن أبى الهيجاء نظر عابرا ، كان تاجرا حاذقًا ، يعرف بابن الأرتاحى[٤] ، وأخبره بما رأى ، فغالطه فى التفسير ، وفهم ذلك حسين . فلمّا خرج ألزمه أن يصدقه بتأويل ما رآه رزّيك ، فقال يا مولاى القمر عندنا هو الوزير كما أنّ الشمس الخليفة ، والحنش المستدير عليه جَيْشٌ مصَحّف ، وكونه روّاسًا أقلبها تجدها شاورا مصَحّفًا ؛ وما وقع لى غير هذا . فقال اكتم هذا عن الناس . وأخذ حسين يحتاط لنفسه ، وتجهّز إلى الحجاز[٥] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها العاشر من ديسمبر سنة ١١٦٢ .

(٢) قرية من أعمال محافظة البحيرة حاليا ، وكانت من أعمال الاسكندرية فى الطريق منها إلى القاهرة واشتهرت بزراعة الكمون . معجم البلدان : ٢ : ٣٨٤ ؛ قوانين الدواوين : ١٢٢ ، ٢٢٩ .

(٣) فى المواعظ والاعتبار : ٢ : ٩٥ حديث عن سوق يسمى سوق خان الرواسين يقول فيه : كان على رأس سويقة أمير الجيوش ، قيل له ذلك من أجل أن هناك خانا تعمل فيه الرءوس المعمومة . وكان فيه عدة من البياعين ويشتمل على نحو العشرين حانوتا مملوءة بأصناف المأكولات ، وكان من أحسن أسواق القاهرة وقد اختل وتلاشى أمره .

(٤) أخطأ أبو المحاسن فى تسميته بابن الايتاخى . النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٦ . إذ ورد بهامش الأصل عبارة تقول : « وبخطه : الأرتاحى هو أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الله بن نفطويه الأرتاحى المدحجى ... ... ، ولد فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة بمصر ومات بها فى ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وستين وخمسمائة » .

(٥) وكان العادل قد جهزه لحرب شاور فانهزم عند لقاء جيش شاور وفر ، فندب العادل عز الدين حسام بن فضة فانهزم منه أيضا . نهاية الأرب : ٢٨ .

فكثر الإرجاف بمسير شاور إلى أن قرب من القاهرة . فوقع الصَّائحُ فى بنى رزِّيك ، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس ، فأسرع ضرغام ونظَرَاؤهُ من وجُوه [١٥٢ب] الأمراء ، وهم إخوته ملهم وحسام وهمام ، ويحيى بن الخيّاط وبنو الحاجب ونظراؤهم ، وصاروا إلى شاور . فأُسْقِط فى أيدى العسكر الباقى مع بنى رزِّيك .

وكان أوّل من نجا بنفسه حسين بن أبى الهيجاء ، خرج فارًّا ومعه حسام إلى الحوف واستجار بطريف بن مكنون أحد أمراء جذام ، فأجاره وحمله من أيلة فى البحر إلى المدينة النبويّة ؛ فجاوَرَ بها مدّة ومات ، فدُفِن بالبقيع .

ولمّا فرّ حسين فَتَّ ذلك فى عضد رزِّيك ولم يثبت ، وخرج رزِّيك من القاهرة فى نصف المحرّم ومعه جماعة من غلمانه وعدّة بغال موقرة من المال والجواهر والثّياب الخاصّ . وتحيّر فلم يَدْرِ أين يذهب ، فوقع بظاهر إطْفِيح[1] عند مقدّم العرب سليمان بن الْفَيْض ، فأخذه وكلّ ما معه .

ودخل أبو شجاع شاور إلى القاهرة ومعهُ خلقٌ كثير ، ومعه أولاده طىّ وشجاع والطارى ، فنزل دار سعيد السّعداء ، وأحْضَر إليه ابنُ الْفَيْض رُزِّيك مكبّلا ، فاعتقله وأخاه جلال الإسلام . فبعث جلال الإسلام إلى مَنْ أَعْلم شاورًا أن أخاه طلب مبردًا من بَعْض غلمان أبيه وبَرَد القيد الذى فى رجليه ليهرب ، فدخلوا إليه وقتلوه . ومولده فى ذى القعدة سنة ثلاث ، أو اثنتين ، وخمسمائة . وأنفقوا[2] على أخيه لهذه النصيحة ، وبقى من جملة أرباب الإقطاع إلى أن مات . وقيل إنّ هذا كان من فعلات طىّ بن شاور وحشمه حتى قتل العادل .

وكان سليمان بن الفَيْض من لخم ؛ وهو ممّن أنشأه الملك الصّالح طلائع بن رزِّيك وخوّله فى نعم جمّة ، فلم يَرْعَ يدًا ، وقبض على ابنه العادل وأسْلَمه لشاور ، ونهب أصحابهُ ماله . فلمّا قدم به عليه قال يا سليمان ، لقد خبأك الصالحُ ذخيرةً لولده حين استجار بكَ

---

(١) كانت بإطفيح مقر الولاية الإطفيحية التى تقع شرق النيل جنوب الفسطاط وتمتدما بين النيل والمقطم شمالا وجنوبا ، وقد فقدت أهميتها . وهى الآن جزء من محافظة الجيزة وتقع فى مركز الصف . صبح الأعشى : ٣ : ٣٩٢ ؛ معجم البلدان : ١ : ٢٨٧ ؛ الخطط التوفيقية : ٨ : ٧٧ — ٧٨ .

(٢) فى النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١٧ : وأبقوا .

فأَسْلَمْتَه لى ، وأنا الآخر أخبئك ذخيرة لولدى . ثم أمرَ به فشُنق[1] .

وانقطع بنو رزِّيك ، وبزَوَالهم زالت الدّولة . فكانت مدّة بنى رزِّيك فى الوزارة تسع سنين وشهرًا وأيّامًا .

وكان دخول شاور إلى القاهرة ووزارته فى يوم الأَحد ثانى عشرى المحرّم . ولمّا استقرّ فى الوزارة تلقب بأَمير الجيوش . وانْثَالَتْ عليه وعلى ولده طىّ أموال بنى رزِّيك وودائعهم من عند النَّاس ، حتَّى كان فى النَّاس من يتبرَّع بما عنده ، فظفر هو من أموالهم سوى السّلاح والكراع وغيره ، وسوى ما أخذه أولاده ، بما ينيف عن خمسمائة ألف دينار عينا . فبعث بذلك كلّه مع جميع ما أُدْخل إليه إلى العُرْبان ، وأَوْدَعَه عندهم وأَنْعَم عليهم حتى كَثُرَتْ أموالهم وصاروا يكيلونها كَيْلا ويقولون : لفلان قدحان ذهباً ولفلان ثلاثة أقداح . وزاد تمكُّنهُم له حتَّى لم يكونوا يفارقون باب الفتوح وباب النصر ، ونهبوا غلَّات الحوف ، واستخفُّوا المقطَعين ، فلم ينكِرْ عليهم وأراد أن يكونوا له عضُدًا ورِدَاء .

وكان الصالح بن رزِّيك قد قرّر للفرنج فى كلّ سنة على مصر ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملُها إليهم ، فوافَتْ رُسُلُهم تطلب ذلك . ولمّا قتل رزِّيك بن الصّالح فى رمضان قدّمت رأسه فى طشت إلى شاور وهو بدار الوزارة ، فقال فى ذلك الفقيه عُمارة[2] :

أَعْزِزْ علىّ أَبا شجاع أن أرى ... ذاك الجبين مضرّجا بدمائه
ما قلبته سوى رجالٍ قلَّبُوا ... أَيديهمُ من قبلُ فى نَعْمائه

وجلس[3] شاور بعد قَتْل النَّاصر رزِّيك بن الصّالح بدار الذهب ، وقام الشعراء والخطباء ولفيف الناس إلَّا الأَقل ينالُون من بنى رزِّيك ، وفيهم ضرغام نائب الباب ويحيى بن الخيّاط أسفهسلار العسكر ، وغيرهما[4] ، فقال عمارة[5] :

---

(١) يقول النويرى : وسميت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم ، فهى تعرف الآن بهذا الاسم . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٢) فى النكت العصرية : ٦٧ .

(٣) النكت العصرية : ٦٩ .

(٤) فى الأصل : وغيره .

(٥) فى النكت العصرية : ٦٩ — ٧٠ . ومطلع هذه القصيدة هناك :

صحت بدولتك الأيام من سقم ... وزال ما يشتكيه الدهــر من ألم

زالت ليالى بنى رزّيك وانْصرمَتْ والحمدُ والذّمُّ فيها غيرُ منْصَرِم
كأَنَّ صَالِحَهُـم يومًا وعَادِلَهُـم فى صدْرِ ذَا الدّسْت لم يقْعُد ولم يقم
هم حَرّكُوها عليهم وهى ساكنـةٌ والسلم قد تنبت الأَوراق فى السّلم
كنّا نظنُّ ، وبعضُ الظّنِّ مأْثَمَةٌ بـأَنَّ ذلك جمـعٌ غيرُ مُنْهـزِم
[١١٥٣] فمُذْ وقعت وقوع النّسر خانهم مَنْ كان مجتمعًا من ذلك الرّخم(١)
ولم يكونوا عـدوًّا ذلَّ جانِبُـه وإنّما غرقوا من سَيْلِكَ العـرِم
وما قصدتُ بتعظيمى عِداك سوى تعظيم شأنك ، فاعذُرْنى ولا تلُم
ولو شكرت ليـاليهم محافظـةً لعهدها لم يكن بالعهد من قِدم
ولو فَتحتُ فمِى يومًا بذمِّهِـمُ لم يَرْضَ فضلُك إلّا أنْ يسدَّ فمى
والله يأمر بالاحسان عارفة منه ويَنْهَى عن الفحشاء فى الكلم

فشكر شاور عُمَارة على الوفاء لبنى رزّيك ، ونقم عليه ضرغام قوله : « فمذ وقعت . . . » البيت ، وكان يقول له : نحن عندك من الرّخم .

ثم إنّ شاور جهّز الخلع إلى العادل نور الدّين بالشام ، فلبسها يوم الاثنين ثانى عِشْرِى رمضان ، وقبض المال المسيَّر إليه .

وكتب للأَجناد والعرب وحواشى القصر من الرواتب والزّيادات نظيرَ مالهم عشر مرّات(٢) ، وهو غير ظاهر للنّاس والأَبواب مغلقة عليه خيفة . وذلك أن الصّالح بن رزّيك كان قد أنشأَ أُمرَاء يقال لهم البرقيّة ، وجعل ضرغام بن عامر بن سوار المذكور الملقّب أبا الأَشبال فارس المسلمين مقدّمهم ، ثم صار صاحب الباب ؛ فطمع فى شاور ، وكان فارسًا كاتبًا ، فجمع رفقته ؛ وتخوّف منه شاور . وصار العسكر فرقتين : ضرغام ومن معه فرقة ، وحرب ومن معه حزب(٣) . فأَما ضرغام فأَظهر المبايَنَةَ ، وأَما نُظَرَاؤُه فَاختصّوا بطىّ بن شاور وعاشَرُوه ولازَمُوه .

---

(١) الرخمة طائر أبقع يشبه النسر فى خلقته .

(٢) ويكمل النويرى ذلك بقوله : وبسط العدل أياما ثم شرع فى ظلم الناس ، وبسط يده ويد أولاده فى الدولة ، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم وبالعاضد . نهاية الأرب : ٢٨ .

(٣) يقول النويرى : فكان الضرغام وإخوته وأهله فرقة ، والظهير عز الدين مرتفع وعين الزمان وابن الزبد فرقة ، وكان الضرغام ومن معه أظهر الفرقتين . نفس المصدر . ويقول عمارة : وافترقت أمراء البرقية فضرغام ومن معه حزب والظهير مرتفع وعين الزمان وابن الزبد ومن معهم حزب ، فأما ضرغام فكان أظهر الحزبين لأنه نائب الباب ولأنه من نفسه وإخوته وأصهاره فى جيش عظيم . النكت المصرية : ٦٨ .

فلمّا كان بعد تسعة أشهر من وزارته ثار به ضرغام يوم الجمعة ثامن عِشْرِى رمضان وقد جمع له ، وكانت بينهما وقعة قُتِل فيها طىّ بن شاور ، وهو أكبر أولاده ، وقتل أخوه سليمان الطارى وهو الأصغر ، وأسر الكامل فاعتقله مُلْهَم ومنع منه أخاه ضرغامًا لِيَدٍ كانت له عنده . وكان بين قَتْل طىّ بن شاور وقتل العادل رزِّيك نيف وثلاثون يومًا .

وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل رضوان بن ولخشى ، وقد كان رفيقًا له إذ ذاك ، وذلك أوّل شوال ، فنُهِبتْ دارُه ودُورُ أولاده وحواشيه ، وذهب جميعُ ما نَالُوه من مال بنى رزِّيك . وقتل الكامل علىّ بين القصْرَين وتُركت جثّتُه يومين ملقاة ومعه ابنُ أخته وحسّان تربية شاور . فكانت وزارته تسعة أشهر .

وكانت أخلاقُ شاور فى وزارته هذه مستورة باستمرار العافية والسلامة ، ولم يكن فيها أقبح من قتل رزِّيك بن الصّالح فإنّها أعربت عن ضيق عَطَنه وحَرَج صدره . وكان كرمُه إليه المنْتَهى ، وشدة بأسه فى مواطن الحرب شهيرة ؛ وكان شديد الثّبات كثير الوثبات . ومما نقم عليه أن ابنه الكامل عمل مظلّة كانت تحمل على رأسه[1] ، وتحكّمَ على أبيه ، وترفّع على الأمراء وعَسَفَهُم .

ولمّا فرّ شاور ونزل بفاقوس عند بنى منصور استولى ضرغام على الوزارة وتلقّب بالملك المنصور ، فى سابع عِشْرِى رمضان[2] ، فشكر النّاس سيرته ، فإنه كان فارس عصره ، كاتبًا ، جميل الصورة ، فَكِه المحاضرة ، عاقلا كريمًا ، لا يضع كرمه إلّا فى سمعةٍ ترفعه أو مداراةٍ تتبعه . إلّا أنه كان أُذُنًا متخيِّلا على أصحابه ، وإذا ظنّ بإنسان شرًّا جعل الشّك يقينًا . وكان فى وزارته مغلوبًا مع أخويه ناصر الدّين همام وفخر الدّين حسام .

وقيل إنّ ملهمًا وضرغامًا لمّا علِمَا تغيُّر النّاس على شاور وَأَوْلاده أخَذَا فى مُراسَلة رزِّيك فى سجنه وإفساد النّاس له ؛ فبلغ الخبر طىَّ بن شاور[3] ، فدخل إليه وقال : بلغنى أن ملهمًا

---

(١) وذلك لأن المظلة كانت من الرسوم التى يختص بها الخليفة .

(٢) لــا توجه شاور إلى الشام عاد الضرغام إلى القصر وأرسل إلى العاضد يخبره بما كان من أمر شاور ومضى إلى داره بقية ليلته . وجاء إلى القصر بكرة النهار فاستدعاه العاضد لدين الله وولاه الوزارة واستحلف له الأمراء. نهاية الأرب : ٢٨.

(٣) يقول النويرى : فاتصل ذلك بالكامل بن شاور . . . . الخ . نفس المصدر .

وضرغامًا قد تحدّثا لرزّيك فى الأمر وقد حَلّفَا له جماعةً من الأمراء ، وأنت غافل عن هذا الأمر . فقال له شاور : اسكُنْ ولا تَعْجَل ؛ أنا أكشف عن هذا ، فإذا تحقَّقْتُه [١٥٣ ب] حكمته . فقال : لا غِنَى بى عن قَتْل رزّيك فإنى إذا قتلته أَمِنت . فقال له شاور : لا يمكن قتلُه فإنّه أَوْلَانى جميلا بسببه صِرتُ فى هذا المحلّ . فمضى طىّ إلى رزّيك وقتله ؛ فقامت قيامة شاور . وبلغ ذلك ضرغامًا فثار وأثار مَنْ خَلْفَه وقرّر معهم أمر رزّيك وزحف بهم، فانهزم شاور . فكان فى هذه السنة ثلاثة من الوزراء هم : رزّيك بن الصالح بن رزّيك ، وأمير الجيوش شاور والمنصور ضرغام بن عامر بن سوار المنذرى اللّخمى أبو الأشبالُ .

وفيها اختلّت الدّولة وضَعُفت بذهاب أمرائها وأُولِى الرأى فيها .

فيها سار الفرنج إلى ديار مصر فوصلوا إلى السدير . وورد الخبر فى ثانى شوال بوصولهم إلى فاقوس ؛ فأخرج إليهم ضرغام أخاه ناصر المسلمين همامًا ، وكان شجاعًا ، فالْتقى معهُمْ وحاربَهُم ، فهزمُوه بعد أن قتل منهم خلقًا . وكان شاور قد انضم إلى بنى منصور لأنه من فخذهم ، وكان قائمًا على كوم عال . ثم إن الفرنج صارُوا إلى حِصْنٍ بلبيس فى شوّال وملكوا بعض السُّور فردّهم عنه همام وبنو كنانة . وتفرّق العسكر إلى الحوف فقاتل العرب هؤلاء وقد انهزموا من الفرنج فقتلوا كلّ من ظفروا به . وعاد العسكر وقد قتل منهم العرب عدّة ، ورجع الفرنج إلى بلاد الساحل بمن أسروه من المسلمين وفيهم القطورى من أكابر الأمراء .

فلمّا صار همام بالقاهرة صار كأنه مُشَارِكٌ لأخيه فى الوزارة ، كلٌّ منهما يُوقِّع ويُقْطِع ، ولم يظفر ضرغام من المال بكبير شىء فإنّه نُهِب .

وفيها ولّى الوزيرُ ضرغامٌ الأميرَ مرتفع الخلواص(١) الإسكندريّة برجاء إبْعَادِه عنه ، فلمّا صَارَ إليها ظَفِر بقومٍ رتّبهم ضرغام لقتاله ، فتأكدت الوَحْشَة بينهما ، وجمع لمحاربة ضرغام وخرج من الإسكندرية فكتم ذلك .

وفيها قدم شاور دمشق فى ذى القَعْدة وترامَى على نُور الدّين، فبعث الوزير ضرغام إليه

(١) يسميه النويرى : على بن الخواص .

بعَلَم المُلك ابن النحّاس[1] بأن يَقْبض على شاور ، فأجابَ فى الظّاهر وأضْمر غير ذلك .

وفيها قَتَل ضرغام عدّة من الأمراء فى دعوة جمعهم فيها ، وأعَدَّ لهم من خرج على الجميع وقتلهم فى داره .

وكان قاع النّيل خمسَ أذرع وثلاث عشرة إصْبعًا ، وبلغ أربعَ عشرة ذراعًا وثمانى أصابع[1] .

---

(١) فى الخريدة تعريف بابنه يحيى بن علم الملك بن النحاس المصرى من أمراء الدولة المصرية أيام وزيك ، وأصله من ذرية تميم بن المعز الصنهاجى صاحب المهدية بالمغرب . خريدة القصر قسم شعراء مصر : ٢ : ١٢١ — ١٢٣ .

(٢) يذكر أبو المحاسن أن المــاء القديم كان خمس أذرع وثلاث عشرة أصبعا ، ومبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا وثمانى أصابع . النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٦٤ .

سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١) :

فيها وصل رُسل الفرنج فى طلب مالِ الهُدنة فماطَلَهُم به ضرغام ودافَعَهُم حتى شُغِل عنهم بقدوم شاور .

وفى ثامن عشر ربيع الأوّل قبض ضرغام على صبح بن شاهنشاه عين الزمان وأسد الغاوى وعلى بن الزّبد فى عدّة تبلغ نحو السّبعين من الأمراء سوى أتباعهم ؛ وذلك أنّه بَلَغَهُ عنهم أنهم قد حسدُوه واحتقرُوه وكاتبُوا شاوراً ووعدُوه القيام معه . ثمّ أخرجهم ليلا وضرب أعناقهم ؛ فاختلّت الدّولة بقتْل رجالها وذهاب فرسانها .

وفيها وجّه ضرغام بأخيه ناصر الدّين همام على طائفة من العسكر لقتال الأمير مرتفع ابن مجلى المعروف بالخلواص ، متولّى الإسكندرية ، وقد جمع وسار ؛ فعندما بلغ مَنْ معه من العربان قتلُ الأمراء البرقيّة فترُوا عن القيام معه وطمعوا فيه ، ووثب به قوم من بنى سنبس[٢] وقبضوا عليه ، وأتَوْا به إلى همام ، فقدم به إلى القاهرة ، فضرب ضرغام عنقه يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر وصَلَبَه على باب زويلة ؛ فنفرت القلوب من ضرغام .

وكان شاور قد وصل فى ثالث عِشْرِى ذى القَعْدة من السّنة الماضية إلى دمشق مترامياً على السّلطان الملك العادل نور الدّين محمود بن زَنكى ، مستجيراً به على ضرغام ، فأكرم مثواه وأحسن إليه ، فتحدث مع السّلطان فى أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليعُود إلى منصبه ويكون لنور الدّين ثلث دَخْل البلاد بعد إقطاعات العساكر ، ويكون معه من أمراء الشام مَنْ يقيمُ معه فى مصر ، ويتصرّف هو بأوامر نور الدّين واختياره . فبقى نور الدّين يقدّم إلى هذا الغرض رِجلا ويؤخّر أخرى ، فتارةً يقصدُ رعاية شاور لكونه التجأ إليه وكَوْن ما قالهُ زيادةً فى ملكه وتقويةً له على الفرنج ؛ وتارة يخشى خطر [١٥٤ ا] الطّريق وكون الفرنج فيه ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منها اليوم الثلاثين من نوفبر سنة ١١٦٣ .

(٢) سنبس بطن من طيء .

ويخاف منْ شاور أنّه إذا استقرّت قدمُه فى مصر خَاسَ[1] فى قوله ويخلف بما وَعَد . ثم قوى عزمُه على إرْسال الجيوش ، فتقدّم بتجهيزها وإزاحة عِلَلِها .

واتّفق أنّ الواعظ زين الدّين بن نجا الأنصارى[2] سمع بسَعَةِ أرزاق مصر فقدم إليها فى وزارة الصّالح ابن رزّيك فأقبل عليه وحصل له من إنعامه وممّا أخذَه لهُ من العاضد فى ثلاث سنين ما يناهز عشرين ألف دينار ، وسوّغَهُ عدّة دورٍ بتوقيع . فسمع بالزّاهد أبى عمْرو ابن مرزوق يتحدّث النّاس عنه بأنّه مَهْمَا قاله لم وقع ، وأنّه يركب كلَّ سنةٍ فى نصف شعبان حمارًا له ويأتى معه جماعةٌ إلى ذيْل الجبل ويودّعونَه ويمضون ، فيطلع أبو عمْرو إلى الجبل ، ويلقاه النّاس فى اللّيلة الثانية ويجتمعون كاجتماعهم للعيد ، ويركب حماره ، والنّاس تحته ، وينتظر ، وينزل بعد صلاة المغرب إلى مسْجده بقصد زيارته وقد تجمعّ النّاس فى الأسطحة والدّكاكين والطّرقات ، والشّيخ يعمل الختمات . فوصل إليه وأقام حتى انْفَضّ النّاس ، فَخَلَا به وتعرّف إليه ، فكان ممّا قال له : أتعرف بالشّام أحدًا يقالُ له شيركوه . فقال : نعم ، أميرٌ من أمراء نور الدّين . فقال : هذا يأتى إلى هذه البلاد ويملكُها ، وكلّ ما تراه من هذه الدّولة يزول حتّى لا يبقى له أثر عن قريب . وانْصَرف ابن نجا عن الشّيخ أبى عمرو وقد تعجّب من قوله .

فلمّا قضى أرَبَهُ من القاهرة وعاد إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نو الدّين وحكى له قوْلَ الشيخ أبى عمرو ، فقال له : لا تُخبْر أحدًا بذلك . ومضى اليومُ وما بعده ، إلى أنْ قدِم شاور على السّلطان نور الدّين وقوّى عزمه على تجهيز العَسَاكر معه ؛ فوقع اختيار السّلطان على الأمير أسَد الدّين شيركُوه بن شاذى بن مروان ، أحد أمرائه ، فاستَدْعاه من حلب[3] ، فوصل إلى دمشق مُسْتهلّ رجب منها ، وأمره بالمسير إلى مصر مع العساكر صحبة شاور ،

---

(١) خاس بالعهد يخيس خيسا بسكون الياء وفتحها خان وغدر ونكث . القاموس المحيط .

(٢) زين الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن نجا الفقيه الحنبلى الواعظ ، ويعرف بابن نجية ؛ أحب الوعظ واشتغل به فعرف به . أرسله نور الدين محمود فى مهمة إلى بغداد ، سنة ٥٦٤ ، فكساه الخليفة خلعة احتفظ بها ليلبسها فى الأعياد . واقتنى ابن نجا أموالا عظيمة حتى قيل إنه كان فى داره عشرون جارية للفراش ، وكان يقدم فى داره من الأطعمة الكثيرة الجيدة ما لا يقدم فى دور الملوك ، ومع هذا مات فقيرا سنة ٥٩٩ فكفنه أصحابه . كتاب الروضتين : ١ : ٣١٢ : حاشية : ٣ ؛ وفيات الأعيان : ١ : ٢٣٩ .

(٣) حيث كان ينوب عن نور الدين محمود الذى اتخذ دمشق قاعدة أولى لحكمه منذ دخلها فاتحا فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

فامتنع وقال : لا ، أمشى بألف فارس ، إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة شينى فيها عشرة آلاف مقاتل وعندهم أربعون ألف عبد لخمس خلفاء ، وهم مُستوطِنون فى أوطانهم قريبةٌ منهم خزائنهُم ، ونأتى نحنُ من تَعَب السّفر بهذه العدّة القليلة . فتركه وأرسَلَ إلى ابن نجا ، فلمّا جاء قال له : حديثُ الرّجل الزاهد الذى بمصر أخبرت به أحدًا ؟ فقال : معاذ الله ؛ والله ما سمعَه منىّ أحد سوى السّلطان . فقال : امْضِ إلى أسد الدّين شيركوه واحْكِ له الخبر . فمضى إلى شيركوه وقصّ عليه الحديث بنصّه ، فطابت نفسُه للسّفر[1] .

وسار العسكر وصحبته شاور يوم الاثنين خامس عشر جمادى الأُولى ، وقد أقر نورُ الدّين شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقمَ له ممّن ثار عليه . وخرج نورُ الدّين إلى أطراف بلاد الفرنج ممّا يلى دمشق بعساكر ليمنع الفرنج من التعرّض لأسد الدّين ؛ فكان قُصَارَى أمر الفرنج أن يمتنعوا من نور الدّين ويحفظوا بلادهم .

وأخذ شيركوه فى سيره إلى مصر على شرقىّ الشّوبك حتى نَزَل أيلة ، وسار منها إلى السّويس[2] ؛ فلم يَدْرِ ضرغام ، وقد وصل إليه رسُل الفرنج فى طلب مال الهدنة المقرّر لهم فى كل سنة على أهل مصر وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار وهو يدافعُهم ويماطلون ، إلاّ بطيور البطائق[3] قد سقطت من عند أخيه الأمير حسام الدّين ، متولى بلبيس ، فى يوم الأحد

---

(١) يذكر أبو شامة غير هذا إذ يقول فى هذه المناسبة : « وكان هوى أسد الدين فى ذلك ، وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة » . وأبو شامة يستند فى هذا إلى ابن الأثير وإلى العماد الأصفهانى . قارن : كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٢ ؛ الكامل : ١١ : ١١١ — ١١٣ .

(٢) يقول ابن واصل : « وكان الطريق إذ ذاك شرقى الكرك والشوبك على عقبة أيلة إلى صدر وسويس ثم إلى البركة » . مفرج الكروب : ١ : ١٣٨ . وصدر بفتح الصاد وسكون الدال قلعة فى الطريق بين أيلة والسويس تركزت أهميتها فى قيمتها الاستراتيجية . والبركة هى بركة الجب ، جب عميرة ، وهى أيضا بركة الحجاج ، إذ كان الحجاج يتجمعون عندها قبل خروجهم إلى الحج . وكانت الجيوش الذاهبة إلى الشام تتجمع عندها أيضا . وهى تقع على مسافة « بريد » من القاهرة ، من شمالهــا ، أى على مسافة اثنى عشر ميلا .

(٣) المقصود به الحمام الذى كان يستخدم فى نقل الرسائل البطائق . وقد بالغ الخلفاء ورجال الدولة على اختلاف درجاتهم فى اقتنائه واعتمدوا عليه فى تبليغ الرسائل عند الحاجة إلى الإسراع فى هذا ، وقد بلغ ثمن الطائر الواحد من هذا النوع سبعمائة دينار ، وقيل إن طائرا منها جاء من خليج القسطنطينية إلى البصرة بلغ ثمنه ألف دينار . ومن طريف استخداماته أن العزيز بالله الفاطمى ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية وأنه يحب أن يراها ، وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق ، فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرى ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ويرسلها إلى مصر ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وطلع به إلى العزيز بالله فى يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه . صبح الأعشى : ١٤ : ٣٨٩ — ٣٩١ .

خامس عِشْرى جمادى الأُولى ، يخبر فيها بوصول شاور وأسد الدّين شيركوة ومعهما من الأتراك خلق كثير ؛ فانزَعج وتأهّب لتَسْيِير العسكر . وأصبح النّاس يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الأُولى وقد شاع ذلك بينهم ، فخافوا على أنفسهم وأموالهم وانتقلوا من مكان إلى مكان على عادتهم وجمعوا عندهم الأقوات والماء .

وخرج الأمير ناصر المسلمين همام بالعساكر أوّل يوم من جمادى الآخرة ، وهم نحو ستة آلاف فارس بالخيول المُسْرَجة والدّروع الثمينة والسّلاح العجيب ، وقد أعْجبوا بأنفسهم واطمأنّوا بأنهم ظافرون . فوصلوا إلى بلبيس يوم الأحد ثانيه ، فوافاهم شاور بالعسكر الشامى يوم الاثنين ، [١٥٤ ب] فباتُوا ليلة الثّلاثاء ، وأصبحوا وقد توهّم منهم أسد الدّين شيركوه وقال لشاور : يا هذا لقد غرَرْتنا وقُلت إنّه ليس بمصر عساكر حتى جئنا بهذه الشّرذمة . فقال : لا يهولنّك ما تشاهد من هذه الجموع فأكثرُها حَاكَةٌ وفلاّحون يجمعهم الطّبل وتفرّقهم العصا ؛ فما ظنك بهم إذا حَمِىَ الوطيس وكَلَبت الحرب . وأمّا الأمراء فإنّ كتُبَهم وعهودهم معى ؛ وسترى إذَا الْتقينا ، لكنّىّ أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد .

فلمّا ترتّبُوا نهاهم عن القتال ، فتحرّك المصريُّون وتأهّبوا وأقامُوا حتىّ حَمِىَ النّهار ، فسخُن عليهم الحديد ولم يَروْا أحدًا يسيرُ إليهم فنزلوا عن خيولهم وأقاموا الخيم ، وألقى بعضهم السّلاح . فلمّا عَايَن ذلك شاور أمر بالحملة عليهم ، فثار المصريّون وحمل ناصر المسلمين هُمام والأمير فارس المسلمين على العسكر الشّامى ؛ فجُرِح همام والْتَفَت فلم يَرَ أحدًا من عسكره ، فكان أشجعهم من يصيرُ على ظهر فرسه . وانهزمُوا بأجمَعِهِمْ إلى بلبيس ، وَغَنم العَسْكر الشّامى جميعَ ما كان معهم ، فَقَوِوا به ، وتبعُوهم وأسرُوا منهم جماعة الأمراء وغيرهم ، ثم مَنُّوا عليهم وسيّرُوهم فى جَمْعهم .

ولحق الأمير همام بالقاهرة سحر يوم الأربعاء خامسه وهو مجروح ، واختفى الأمير حسام فى مدينة بلبيس فَدلّ عليه بعض الكِنَانيّة فأُسِر وقيد .

وسار العسكر فوصلوا إلى القاهرة بُكرةَ يوم الخميس سَادِسه ، فنزلوا عند التَّاج[1] بظاهر القاهرة ، وانتشر العسكر فى البلاد يريدُون الأكل والْعَلَف .

وكان ضرغام قد كاتَبَ أهل الأعمال فوصَلُوا إليه لخوفهم من الترك ، فضمهُمْ إليه ومعهم الرّيحانيّة والجيوشيّة وجَعَلَهُم فى داخل القاهرة ؛ فأقام شاور بمَنْ معه على التّاج حتّى استراحت خيولهم . ثم إنه استحلف شيركوه ومَنْ معه أنهم لا يغدِرُون به ولا يسلمونه ، ولا ينهزمون إلاّ عن غلبة . ومع هذا فإنّ طوائفَ من العربان كانت تطارد عسكر ضرغام بأرض الطّبالة[2]، وخرج أهلُ منية السّيرج[3] فقتلوا من الترك جماعة، فمالُوا عليهم وانتهبوا المنية وأذاقُوا أهلها نكالاً شديدا . وأقام شاور بمن معه فى ناحية الخرقانية[4] وشبرا دمنهور[5] ، ثم سار من ناحية المقس يريد القاهرة ؛ فخرج إليه عسكر ضرغام وحملوا

(١) منظرة التاج من جملة المناظر التى أنشئت ليتنزه فيها خلفاء الفاطميين للنزهة . أنشأ هذه المنظرة الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان لها فرش معدة لتناسب الصيف والشتاء ، وقد رأى المقريزى خرائبها وذكر أنه لم يبق بها أثر سوى كوم تحته حجارة كبيرة ، وما حول هذا الكوم أصبح من جملة منية الشيرج التى كانت منطقة مزارع ، وكانت الأرض التى أنشىء بها التاج بجانب الخليج متصلة بأرض الطبالة فى بستان متسع يعرف ببستان البعل . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨١ ؛ ٢ : ١٢٩ .

(٢) على جانب الخليج الغربى بجوار خطة المقس ، وكانت من أحسن متنزهات القاهرة ، وهبها الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧) ، واسمه معد ، إلى مغنيته المعروفة باسم نسب (بالسين المهملة أو الشين المعجمة) ، بطلبها ذلك منه ، عندما غنته فى مناسبة الخطبة له ببغداد أيام ثورة البساسيرى :

يا بنى العباس صدوا   ملك الأمر معد
ملككم كان معارا   والعوارى تسترد

وموقعها الآن بين شارع الظاهر شمالا وغربا وسكة الفجالة وشارع الفجالة جنوبا وشارع الخليج المصرى شرقا . صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٦ ؛ المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٢٥ — ١٢٦ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٢ .

(٣) ويقال لها منية الأمراء ومنية الأمير ، على بعد فرسخ من القاهرة فى طريق الإسكندرية . ويقال إن قتلى وقعة الخندق التى دارت بين مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن جحدم والى مصر سنة خمس وستين دفنوا بموقعها وكانوا ثمانمائة . وكانت زمن الفاطميين من أحسن متنزهات القاهرة،عدا النهر عليها حتى صار جامعها القديم ودورها فى بر الجيزة ؛ وفيها كان يعمل عيد الشهيد . وبها أنشأ الأفضل منظرة التاج وغيرها من المناظر . الخطط التوفيقية : ١٦ : ٦٧ — ٦٨ .

(٤) على الشاطىء الشرقى للنيل ، وهى الآن قرية صغيرة بمحافظة القليوبية ، بينها وبين القناطر الخيرية نحو ثلثى ساعة بتقدير على مبارك باشا . وكانت فى العصر الفاطمى تسمى أيضا بالخاقانية . ويعدها ابن مماتى من أعمال الشرقية . وكانت تعتبر من خاص الخليفة وبها قصر الورد ودويرات (أحواض) يزرع بها . الخطط التوفيقية : ١٠ ، ٢٩٧ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٤٥٠ ؛ مفرج الكروب : ١ : ١٧٦ ؛ قوانين الدواوين : ٨٥ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٨ — ٤٨٩ .

(٥) وتعرف اليوم باسم شبرا الخيمة ، إحدى قرى ضواحى القاهرة ، وتقع على فم الترعة الإسماعيلية فى الشمال الغربى للقاهرة على النيل . وإنما سميت قديما شبرا دمنهور لوقوعها جنوب مدينة دمنهور شبرا . وتعرف شبرا دمنهور عند القاهريين باسم شبرا البلد . ويعدها ابن مماتى من أعمال الشرقية كذلك . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩ : حاشية : ١ ؛ قوانين الدواوين : ١٥٢ ؛ الخطط التوفيقية : ١٢ : ١١٩ — ١٢٢ . ويذكر على مبارك منطقة باسم شبرا دمنهور ويعدها جزءا من مدينة دمنهور غربى فرع السكة الحديدية الرئيسى بين القاهرة والإسكندرية . وهى غير المقصود هنا بطبيعة الحال . الخطط التوفيقية : ١٢ : ١٢٢ .

عليه ، فخاف من كان معه من الأمراء الّذين كانوا مع همام أخى ضرغام ولحقوا بالقاهرة فانهزم هزيمة قبيحة . فسُرّ بذلك ضرغام ، وأحضر قاضى القضاة وأمَرَه بحَمْل ما فى مودع الحكم من مال الأيتام ؛ فحملها إليه .

وكان شاور لمّا انهزم سار إلى بركة الحبش وصار إلى الرّصد فملك ما هنالك ، وأخذ مدينة مصر وأقام بها أيّامًا ، ولم يبْق مع شاور وشيركوه من الأمراء الذين كانوا مع همام سوى شمس الخلافة محمّد وأوْلاد سيف الملك الجمل وابن ناصر الدّولة وأولاد حسن؛ فقيّد شيركوه ابن شمس الخلافة دون النّاس كلهم .

وكَرِهَ النّاس من ضرغام أخْذَهُ أموالَ الأيتام مع مَا سبَقَ منه مِنْ قَتْل الأمراء وغيرهم ، وعلمُوا عجْزَهُ عن شاور .

وكان شاور يركب كلّ يوم فى مصر ويؤمّن أهلها ويمنع الأتراك من التّعرُّض إليهم ، فمال النّاس إليه . وبلغهم عن ضرغام أنّه يتوعّدُهم إذا ظفر بشاور أنّه يُحرق مصر على أهلها من أجْل أنّهم أمْكَنُوا شاورًا من دخول البلد وباعُوا عليه وعلى من معه . فتحول شاور عن مصر ونزل اللُّوق ، وطارَدَ خيلَ ضرغام وقد خَلَت المنصورة والهِلاَلِيّة وثبتَ أهل اليانسية فقاتل الناس قتالاً خفيفًا . وصار شاور وشيركوه إلى باب سعادة وباب القنطرة من أبواب القاهرة ، وطرحوا النّار فى الّلؤْلؤة وما حولها من الدّور . وكانت وقعة عظيمة بين الفريقين، قُتِل فيها من العسكرين خلقٌ كثير .

فلمّا كان الليل اجتمع مقدّمُو الرّيحانيّة وفد فنى منهم كثير ، وأرسلوا إلى شاور يطلبون الأمان ــ وكان قبل ذلك يبعث إليهم ويَسْتميلُهم ــ فأمنهم .

ولمّا رأى الخليفة العاضد انْحِلاَلَ أمْرِ ضرغام بعث يأمر الرّماة بالكفّ عن الرّمْى ، فخرج الرّجال إلى شاور فى الصّباح ، فسُرّ بهم . وفترت همّة أهل القاهرة ، وأعمل كلٌّ منهم الحيلة فى الخروج ؛ وخرج ضرغام ومعه جماعة إلى خارج القاهرة ، وجعلوا يتردّدُون من باب إلى باب ، وفيهم ابن ملهم وابن فرج الله [١٥٥ ا] وصارم بن أبى الخليل وجماعةٌ مذكورون ، فكانوا يطاردُونَ مَنْ طاردهم . وأمر ضرغام بضرب البوقات والطّبل على الأسوار

ليجتمعَ النَّاس ؛ فلم يخرج إليه أحد وانْفَلَّ النَّاس عنه . فعاد إلى القاهرة وصار إلى باب الرّحبة من أبواب النّصر ولم يَبْقَ معه سوى خمسمائة فارس ، فوقف وطلب الخليفة أن يُشْرِفَ عليهم من الطَّاق . فبلغ ذلك شاورًا فسَرّح فى الحال ابنه سليمان الطَّارى إلى باب القنطرة ليمْلِكَهُ ويقف .

فلمّا طال وقوف ضرغام نادى : أريدُ أمير المؤمنين يكلّمنى لأسأله عمّا أفعل . فلم يجبه أحد . فصاح : يا مولانا كلِّمنى ، يا مولانا أرِنى وجهك الكريم يا مولانا بحرمة أجدادك على الله ؛ وهو يبكى فلم يُجبه أحد . وقَوِيت الشمس فصار إلى الظِّلّ حتى قَرُب الظُّهر ، فأمر بعض غلمانه أن يركُضَ فى قَصْبة[1] القاهرة ويقول بصَوْتٍ عالٍ : ما كانت إلاَّ مكيدة على الرِّجال ، قد قتل الترك أصحاب شاور الرِّيحانيّة . فما هو إلاَّ أنْ سمع النّاس ذلك - وكانوا قد صارُوا إلى بيوتهم - فأسرعوا إلى خيولهم وعادُوا من كلّ جانب مثل السّيل ، فرأَوْا ضرغاما على تلك الهيئة ، والطَّاق لم يُفْتَح له والخليفة لم يكلّمه ، فسُقِطَ فى أيديهم وقالوا ارْجعُوا فهى كناية والغلبة لشاور ؛ ورجعوا من حيث أتَوْا .

فوقف ضرغام إلى العَصْر ولمْ يبْقَ معه غير ثلاثين فارسًا ، ووردَتْ إليه رقعة فيها : خذ لنفسك وَانْجُ بها . فأَيِسَ من الظَّفَر .

وبعث شاور إلى الخليفة العاضد يستأذنه فى الدّخول إلى القاهرة ؛ فأَذِنَ له . فبعث شاور يأْمُرُ أبنه أنْ يدخل القاهرة ، وهو عند القنْطَرة ، فدخل وضربت أبواقُه ، وكانت من أبواق الترك التى لم تُعْهَدْ بمصر ، فما هو إلاَّ أنْ علِمَ به ضرغام ، فمرّ على وجهه إلى باب زويلة ، فتخطّف النَّاس مَنْ معه ، وعطعطوا عليه ولَعَنُوه . فأدْرَكَهُ بعض الشَّاميّين فى غلمان شاور وطعَنَهُ فأرْدَاهُ ، ونَزَل إليه واحتزّ رأسه بالقُرب من مشهد السَّيِّدة نفيسة ، وذلك قريبًا من الجسْرِ الأعظم ، فى يوم الجمعة الثَّامن والعشرين مِنْ جمادى الآخرة . وفرّ مُلْهم إلى مسجدتَبَر[2] ، فقُتِل هناك وتُرِك مطروحًا ، وأُتِى برأسه إلى عند شاور . وقُتِل ناصر الدِّين

---

(١) بسكون الصاد : القصر أو جوفه ، والمدينة أو معظمها ؛ والقصاب ككتاب ، الديار واحدتها قصبة بفتح الصاد . القاموس المحيط .

(٢) يقع هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق ، قريبا من المطرية ، وكان يسمى مسجد التبن ، ويقال إنه بنى على رأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على . ويعرف أيضا بمسجد البئر والجميز . وتبر هذا كان أحد الأمراء

أخو ضرغام عند بركة الفيل[1] ؛ وقتل فارس المسلمين . وبقى جسد ضرغام مُلْقًى يومين ثم حمِل إلى القرافة فَدُفِن بها .

وكان من الاتفاق العجيب أنّ ابْن شاور قُتِل فى يوم الجمعة حادى عِشْرِى رمضان سنة ثمانٍ وخمسين ، فقتل ضرغام يوم الجمعة ثامن عشرى جمادى الآخرة سنة تسعٍ[2] ؛ وقتل مع ابن شاور حسّان ابن عمتّه فقتل مع ضرغام . .   [3]وكانت وزارة شاور الأُولى تسعة أشهر ووزارة ضرغام بعده تسعة أشهر .

وكان من أعيان الأمراء وأحلى الفرسان ، يجيد اللعب بالكرة والرّمْى بالسّهام ، ويكتب كتابة ابن مُقلة ، وينظم الموشحات الجيّدة ، كريما[4] عاقلا ، يحبّ العلماء والأدباء ويقرّبهم ، إلاّ أنّه سريع الاسْتِمَالَةِ يميلُ مع مَنْ يسْتميلُه ولا يكذب خبرًا عن عدُوّ بل يعاقب سريعًا[5] .

الإخشيديين الذين عاصروا كافور الاخشيدى ، وقد اضطر جوهر الصقلى إلى حربه حربا طويلة انتهت بفراره إلى مدينة صور بالشام حيث قبض عليه وأدخل القاهرة ، وضرب بالسياط وحبس حتى مرض ومات ، فسلخ جلده وصلب . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٤١٣ .

(١) كانت تقع بين مصر والقاهرة وهى كبيرة جدا ولم يكن بها مبان ، وعندما أنشأ جوهر القاهرة كانت تجاهها ، ثم أنشئت حارة السودان وغيرها خارج باب زويلة ، ثم عمر الناس ما بين حارة اليانسية (درب الإنسية حاليا) وبين بركة الفيل بعد الستمائة حتى صارت مساكنها أجل مساكن مصر . وكان السلطان ورجاله يركبون فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم فيكون لها منظر عجيب يصفه الشاعر فى قوله :

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت ... بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها ... كواكب قد أداروها على القمر

وقد رآها نفس الشاعر فى ضوء النهار فقال :

انظر إلى بركة الفيل التى نحرت ... لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك محفوفا ببهجتها ... تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) فى النكت العصرية أن على بن شاور قتل فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان ، وأدرك ثأره فى الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع . وفى التوفيقات الإلهامية أن رمضان هذا بدأ يوم السبت ، حسابا ؛ فلو فرضنا أنه بدأ يوم الجمعة رؤية ، أو بقرار من الخليفة كما كانت عادة الفاطميين ، كان تحديد عمارة فى النكت العصرية أقرب إلى الصحة أما تحديد المقريزى هنا فبعيد عن الدقة فى الحالين .

(٣) بياض بالأصل يتسع لكلمة واحدة .

(٤ ، ٥) ما بين هذين الرقمين مستدرك بهامش الأصل .

ولمّا جيء برأسه إلى شاور رُفِعت على قناة وطيف بها ؛ فقال الفقيه عمارة[1] :

أرى حَنَكَ الوزارة صار سَيْفًا   يحد بحـــدِّه صِيدَ الرِّقـاب
كأنَّك رائـدُ البلوى ، وإلاَّ   بشيرٌ بالمنيَّـــة والمصَـــاب

فكان كما قال عمارة .

وأقام شاور وشيركوه بعد قتل ضرغام فى مُخيَّمِهِمَا بناحية المقس يومى السبت والأحد . فلمّا كان يوم الاثنين طلع الوزارة في ثالث شهر رجب ، وخرج الكامل بن شاور مِنْ دار ملْهم ، أخى ضرغام ، وكان معتقلاً بها ؛ وخرج معه القاضى الفاضل ، وكان معه فى الاعتقال[2] ، وقد تـأكّدت بينهما مودّة ، فأدْخَله إلى أبيه ومَدَحَهُ عنده وأثنى عليه ، فسمّاه حينئذ بالقاضى الفاضل وكان قبل ذلك يُنْعَت بالقاضى الأسعد .

وفرح العاضد بدخول شاور . ولمّا خُلِع عليه سار من القصر إلى باب زويلة ، وخرج منه إلى باب القنطرة فنزل بدار الوزارة[3] . وركب شيركوه إلى مصر ورآها ، وقصد الفقهاء مثل الكيزانى[4] وابن حطيه ، واجتمع بالشيخ أبى عمْرو بن مرزوق [١٥٥ ب] وأخبره

---

(١) فى النكت العصرية : ٧٧ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٣ . قال عمارة فى التقديم لهذين البيتين : « ولمـا جازوا برأسه على الخليج ، وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة ، قلت ارتجالا » : . . البيتين . وكان عمارة قد مدح ضرغام بقصائد اقتبس أبو شامة ثلاثة أبيات من إحداها تقول :

وأحق من وزر الخلافة من نشا   فى حضرة الإكـرام والإجـلال
واختص بالخلفاء ، وانكشفت له   أسرارها بقرائن الأحـوال
وتصرف الوزراء عن أفعـاله   كتصرف الأسماء بالأفعـــال

كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٣ ؛ النكت العصرية ٧٧ .

(٢) كان القاضى الفاضل يعمل بديوان الإنشاء والجيش فى الإسكندرية ، وقد استدعى إلى القاهرة فى عهد الخليفة الظافر . ويقول عمارة إن العادل رزيك بن طلائع هو الذى استقدمه من الإسكندرية واستخدمه بحضرته فى ديوان الجيش النكت : ٥٣ — ٥٤ . ويبدو أنه اعتقل منذ اعتقال رزيك حين قدم شاور القاهرة وتولى وزارتها . وبقى فى الاعتقال حتى أفرج عنه فى هذه المناسبة .

(٣) يعلق ابو شامة على هذا بقوله : ولم يغلب وزير لهم وعاد غير شاور » كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٤ .

(٤) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرح الأنصارى المصرى الواعظ الشافعى ، أهم شاعر صوفى ظهر بمصر قبل ابن الفارض . يذكر ابن خلكان أنه لم يقف من شعره إلا على بيت واحد هو :

وإذا لاق بالمحب غــــرام   فكذا الوصل بالحبيب يليقُ

والكيزانى نسبة إلى عمل الكيزان وبيعها ، وكان بعض أجداده يصنع ذلك . توفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة ودفن قريبا من مدفن الشافعى ثم نقل إلى سفح المقطم بقرب الحوض الذى كان يعرف بحوض أم مودود حيث زاره ابن خلكان الذى قال إن

كما أخبر ابن نجا أنّه يملك الدّيار المصريّة ويزيل هذه الدّولة ، لكنّه لا يملكها إلاّ بعْدَ أنْ يرجع إلى الشّام ويأتيها ثانيا ، ثم يرجع ويعود إليها ثالث مرّة وحينئذ يملكها . وسأله عن بيت المقدس فقال : لا يكون فتحُه على يدك وإنّما يكون فتحُه على يد بعض مَنْ فى خدمتك من أقاربك . وهكذا جرى ؛ فإن شيركوه لم يملكِ مصر إلاّ فى مجيئه إلى القاهرة المرّة الثّالثة ، ولم يُفتح بيتُ المقدس إلاّ على يد صلاح الدّين يوسف بن أخى شيركوه .

وفى رابع رجب قُرِئَ سجلّ شاور بالوزارة[1] .

واستمرّ شيركوه فى مخيمّه ويُخْرَجُ إليه فى كلّ يوم عشرون طبقا من سائر الأطعمة ومائتا قنطار خبزًا ومائتا إردبّ شعيرًا . وأعَدَّ له العاضد ملبُوسًا وسريرًا مرصّعًا بالجوهر له قيمةٌ عظيمة كان الآمر قد عمله ، وأمَرَهُ بالدّخول ليخلع عليه ، فامتنع . وأرسل إلى شاور يقول : « قدْ طال مقامنا فى الخيم وضجر العسكر من الحرّ والغبار » ؛ ويستنجز منه ما وعد به السّلطان نور الدّين . فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار وقال : ترحلُ الآن فى أمْن الله وحفظه . فبعث يقول له : إنّ الملك العادل نور الدّين أوْصانى عند انْفِصَالى عنه « إذا ملك شاور تكون مقيمًا عنده ، ويكون لك ثلث مُغَلّ البلاد ، والثّلث الآخر لشاور والعسكر ، والثلث الثالث

قبره هناك مشهور يزار . ويقول العماد الأصفهانى إنه كان من العلماء المبرزين إلا أنه ابتدع مقالة ضل بها اعتقاده إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة ، وكان لهذه البدعة تأثير فى جماعة اعتنقوها بمصر وعرفوا بالطائفة الكيزانية . وقد ترجم له العماد ترجمة مطولة . انظر وفيات الأعيان : ٢ : ١٨ ؛ خريدة القصر قسم شعراءمصر : ٢ : ١٨ — ٤٠ . ومن شعره :

شريفنا يمضى ومشروفنا ... وإنما يفتقــد الخـير
كالجو لا يوجد إظلامــه ... إلا إذا ما عــدم النير

(١) كتب هذا السجل الموفق ابن الخلال ، صاحب ديوان الإنشاء عند العاضد ومطلعه : « من عبد الله ووليه عبد الله أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، سلطان الجيوش ، ناصر الإسلام ، سيف الإمام ، شرف الأنام ، عمدة الدين . . . . » وقد جاء فيه : « أما بعد ، فالحمد لله مانح الرغائب ومنيلها ، وكاشف المصاعب ومزيلها ، ومذل كل عصبة كلفت بالغدر والشقاق ومزيلها ، ناصر من بغى عليه ، وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه ، وراد الحقوق إلى أربابها ، ومرتجع المراتب إلى من هو أجدر برقيها وأولى بها ، . . .. ، ومدنى نابى الحظ بعد نفوره واغترابه ، ومطلع الشمس بعد المغيب ، ومتدارك الخطب إذا أعضل بالفرج القريب . . » وفيه : « وإن أمير المؤمنين يمدك فى ذلك بدعائه ، ويمدك لتدبير دولته وقمع أعدائه ، ورآك وإن أبعدتك الضرورات عن بابه ، وأنأتك الحادثات عن جنابه ، أنك وزيره المكين ، وخالصته القوى الأمين ، الذى لا ينزع عنه شمس وزارته ، ولا يؤثر له غير سلطانه ومملكته » . وتجد النص الكامل لهذا السجل فى صبح الأعشى : ١٠ : ٣١٠ — ٣١٨ .

وفى هذه المناسبة أيضا قرئ سجل بتعيين أحد أبناء شاور نائبا عن أبيه فى الوزارة وبتفويض أمورها إليه . ونصه الكامل فى نفس المصدر : ٣١٨ — ٣٢٥ .

لِصاحب القصر يصرفه فى مصالحه » . فأنكر شاور ذلك وقال : إنما طلبت نجدة وإذًا انقضى شغلى عادوا ؛ وقد سيَّرتُ إليكم نفقة فخذوها وانصِرِفُوا وأنا أُرْضِى نورَ الدّين . فقال شيركوه : لا يمكننى مخالفة نور الدّين ولا أنْصَرِف إلاّ بإمضاء أمره .

فأخذ شاور عند ذلك يستعدّ لمحاربة شيركوه ، واستعدّ أيضا شيركوه ، وبعث بابن أخيه صلاح الدّين بطائفة من الجيش يجمع الغِلال والأتبان وغير ذلك ببلبيس . فغلق شاور أبواب القاهرة ، وتغلّب صلاح الدين على الحوف[1] ، وبثّ خيله ، وحاز الأموال والغلال . وتقدّم إلى جزيرة قويسنا[2] ، فخرج ثلاثة من الأستاذين بأمر الخليفة إلى استنفار النّاس من الصّعيد ؛ وثار ابن شاس ، والى جزيرة قويسنا ، على الترك وقاتلهم حتّى هزمهم وغرق منهم جماعة . فعاد صلاح الدّين إلى عمّه شيركوه ، فتجهّز ونزل بحرىّ التّاج .

وأخرج شاور خِيَمَهُ وضربها فى أرض الطّبالة[3] . فلمّا كان يوم الأربعاء الثالث والعشرون من شعبان التقى شاور وشيركوه فى كوم الرّيش[4]، فانكسر شاور إلى باب القنطرة ونُهِبت خِيمُه ، وأسر أخوه صبح وجوهر المأمونى ؛ ودخل القاهرة فرُمِى بحَجَرٍ من باب القنطرة

---

(١) هما منطقتان : الحوف الغربى ، ويقع غربى فرع رشيد ويشمل محافظة البحيرة ، والحوف الشرقى وكان يشمل معظم محافظة الدقهلية أو محافظتى الشرقية والقليوبية وهو المقصود هنا يؤكد هذا عبارة أبى شامة : « وحكم على البلاد الشرقية كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٥ .

(٢) وهى أيضا جزيرة قوسينا ، وقويسنا من محافظة الغربية بمركز الجعفرية غربى ترعة الخضراوية بمسافة ثمانمائة متر ، وفى الشمال الشرقى لناحية بجيرم على بعد نحو ألف وستمائة متر ، وفى شمال شبرى ريس على بعد ألف وخمسمائة متر بتقديرات على مبارك . الخطط التوفيقية : ١٤ : ١٤١ — ١٤٢ ؛ انظر أيضا معجم البلدان : ٣ : ١٠٣ ؛ قوانين الدواوين : ٨٩ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٤٣ .

(٣) فى هذا الموضع بهامش الأصل عبارة نصها « بخطه . لما نزل شاور بالقاهرة وترك دار الوزارة وفسد ما بينه وبين شيركوه أنفذ ظهير الدين بدران إلى الفرنج ليستنجدهم ، فلما تحقق شيركوه ذلك رحل من أرض الطبالة » . اه .

(٤) بلدة بين أرض البعل ومنية الشيرج ، كان النيل يمر بغربيها بعد مروره بغربى أرض البعل ، وكانت من أجل متنزهات القاهرة يرغب أعيان الناس فى سكناها للتنزه بها . وفى سنة ست وثمانمائة زاد النيل وخرب الدرب الذى كان يصل بينها وبين أرض الطبالة فتوالت بعد ذلك المحن وخربتها . وفى ذلك قال المقريزى :

قفـرا كأن لم تك تلهو بهـا   فى نعمـة وأوانس أتـراب

المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٣٠ .

فدخل الكافورى[1] مغشيًا عليه .

وفى ذلك اليوم أحرق صفّ الخليج ، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة ؛ وبقى الحصار إلى يوم الخميس تاسع رمضان . وورد الخبر إلى شاور بأن الفرنج قَارَبُوا مدينةَ بلبيس يوم السّبت حادى عشر رمضان فأقام عليها وشيركوه بها . ولمّا كان فى خامس عشر ذى الحجّة تقرّر الحال مع شيركوه على أنْ يدفع إليه شاور خمسين ألف دينار ورهائن عَلَى صُبح ، أخى شاور ، وعاد إلى دمشق . ورجع الفرنج .

وقدم شاور إلى القاهرة فى سادس عشر ذى الحجّة . فكان مقامُه على بلبيس نيّفًا وتسعين يومًا[2] .

وأخرج شاور العساكر والحشود ممّا يلى البستان الكبير خارج باب الفتوح ، وزحف شاور ، فخرج إليه شيركوه وحاربه ، فخرج أكثر عسكر شاور وغورت أعينهم ، ووقعت نشّابة فى عين الطّارى ، ابن شاور ، اليُمْنَى ، فبقى معه التّصل مدّة إلى أنْ قُلِعت وخرج منها بكلفة . فانهزم شاور ودخل القاهرة وأغلق أبوابها ، وحاصره شيركوه طول النّهار .

---

(١) أنشأ البستان الكافورى محمد بن طغج الإخشيد ، وأنشأ بجانبه ميدانا لركوب الخيل ، فلما قدم جوهر الصقلى أدخل البستان ضمن حدود القاهرة وعرف بالبستان الكافورى ، ثم اختط مساكن بعد سنة إحدى وخمسين وستمائة وأزيلت أشجاره . ويعلق ابن عبد الظاهر على هذا بقوله كان خرابة بحق فإنه عرف بالحشيشة التى كان يتناولها الفقراء ؛ وفيها قال شاعرهم أبو الحسن على ابن عبد الله الينبعى :

رب ليـــل قطعتــه ونديمى ··· شاهدى ، وهو مسمعى وسميرى
مجلسى مسجد وشــربى مــن ··· خضراء تزهو بحسن لون نضـير
قال لى صاحبى وقــد فاح منها ··· نشرهـا مزريا بنشر العبـير
أمن المسك ؟ قلت ليست من المسـ ··· ـك ولكنها مــن الكافـورى

المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٥ – ٢٦ . وحارة الكافورى تحد بشوارع أمير الجيوش الجوانى والخليج المصرى والخردجية وبين القصرين والنحاسين وشارع جوهر القائد . النجوم الزاهرة : ٤ : ٤٨ .

(٢) سيتحدث المقريزى فيما يلى عن دور آخر من أدوار النزاع العسكرى بين شيركوه وشاور ، يؤكد هذا فى أثناء الحديث كلامه عن حريق آخر عند الخليج (ناحية باب سعادة وعند الخليج كله) عن فدية أخرى قيمتها ثلاثون ألف دينار...الخ ولولا هذه التأكيدات التى تدل على تعدد الحدث لاعتقد القارئ أنه حدث واحد ورد موجزا أولا ومفصلا ثانيا . وهذا موضع لتساؤل إذ الثابت أن شيركوه عندما خرج من بلبيس فى ذى الحجة اتجه إلى الشام مباشرة بينما يبدأ الدور الثانى من القتال – كما ذكر المقريزى هنا – فى ذى الحجة بعد اتفاق بلبيس . قارن كتاب الروضتين فى أحداث سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وكذلك الكامل : ١١ : ؛ والنجوم الزاهرة : ٥ فى هذه السنة ؛ والباهر فى أتابكة الموصل ؛ نهاية الأرب ، ٢٨ ، وكذلك : The Crusaders in the East: Saladin

فلمّا كان الليل أحرق من باب سعادة إلى ناحية اللّؤلؤة[1] ، كما فعل أوّلا ، واشتدّ الأمر ، وصار كلّ من يخرج من عسكر مصر يقتل . فركب شاور وخرج ثمّ عاد وقد ازدَحَم النّاس على السّور لتنظر إلى الحرب ، فسقطت شُرفَةٌ من شرفات السّور على ابن شاور وغشى عليه ؛ ودخلوا به إلى الكافورىّ وقد أُيِسَ منه ؛ فجاء رئيس الأطباء وعَصَر فى أذنه حصرما فأفَاق . وأتاه الشّراب من عند الخليفة فشربه وركب إلى داره وقد وَرِمَ وجْهُه .

واشتدّ قتال شيركوه [١٥٦ ا] على باب القنطرة وأحرق وجه الخليج جميعه ، واحترقت الدّور التى بجانبه من حارة زويلة . وانضمّ إليه بَنُو كنانة وكثير من عسكر المصرّيين . وبعث طائفة إلى حارة الريحانيّة وفتحوا ثغرة ، فكان هناك قتال شديد . فجلس العاضد على باب الذهب وأمر بالخروج ، فتسارع الصّبيان وغيرُهم إلى الثّغرة وقاتلوا الترك والكنانيّة حتى أوصَلوهم إلى منازلهم ، وسدّوا الثّغرة .

وكان ضرغام عند قُدوم شاور وشيركوه أرسل إلى الفرنج يستنجدُ بهم ويعدُهم بزيادة القطيعة الّتى لهمُ ، فامتنع ملكُهُم[2] وقال لا يأتى إلاّ بأمر الخليفة وأمّا من الوزراء فلايقبل . فلمّا تحقّق شاور أنّه لا قِبَلَ له بشيركوه كتب إلى مُرى ملك الفرنج بالسّاحل يستنجدُه ويخوّفه مِنْ تمكّنِ عسكر نور الدّين من مصر ، ويقول له متى استقرّوا فى البلاد قلعُوك كما يريدُون أن يفعلوا ؛ وضمن له مالاً وعلفًا ، ويُقال إنه جعل له عن كلّ مرحلة يَسِيرُها ألف دينار ؛ وسيّر إليه بذلك مع ظهير الدّين بدران . فسُرّ الفرنج بذلك وطمعوا فى ملك مصر[3] .

---

(١) عرف بسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله لأنه لمـا جاء من المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر للقائه فلما رأى سعادة جوهر ترجل وسار إلى القاهرة ودخل من هذا الباب فسمى به . توفى سعادة سنة اثنتين وستين وثلثمائة بالقاهرة . ويقع هذا الباب قرب باب القنطرة الذى يقع بجوار منظرة اللؤلؤة المطلة على الخليج والتى بناها العزيز بالله الفاطمى مشرفة من شرقيها على البستان الكافورى ومن غربيها على الخليج من غربيه ولم يكن فيه إذ ذاك شئ من البنيان وإنما كان بساتين عظيمة تعرف ببطن البقرة . المواعظ والاعتبار : ١ : ٣٨٣ ، ٤٦٧ – ٤٦٩ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٤ .

(٢) تسميه المصادر العربية : مرى ، أمورى ، عمورى وهو Amalric I ، حكم بيت المقدس بين سنتى ٥٥٧ – ٥٦٩ (١١٦٢ – ١١٧٤) ، بعد وفاة Baldwin III ، وكان فى السابعة والعشرين عند اعتلائه العرش .

(٣) يذكر أبو شامه ، اقتباسا من الباهر فى تاريخ الأتابكة ، أن الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها (مصر) نور الدين ، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج شيركوه من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته ، وطمعوا فى ملك مصر . قارن كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٥ ؛ الكامل ١١ : ١١٢ – ١١٣ .

وخرج مُرى من عسقلان بجُمُوعه فقبض عن مسيره سبعة وعشرين ألف دينار .

فلمّا بلغ ذلك شيركوه ارْتَحل عن القاهرة إلى بلبيس وبها ما أعَدّ له ابنُ أخيه من الغِلال وغيرها ، وانضمّ معه الكنانيّة ، فخرج شاور فى عسكر مصر ، فاجتمع بالفرنج وخيمّ على بلبيس وأحاط بها ، فكانوا يُغَادُون القتال ويُراوحُونه ثلاثة أشهر . وانقطعت الأخبار عن نور الدّين ، وبلغه سير الفرنج إلى مصر .

وسار ملك القدس بجمعٍ كثير ممن وصل لزيارة القدس مُسْتعينًا بهم . فَبَيْنَا الفرنج فى محاصرة شيركوه إذ وَرَدَ عليهم أخذ نور الدّين لحارم(1) ومسيرُه إلى بانياس(2) ، فسُقِطَ فى أيديهم وعوّلوا على الرُّجوع إلى بلادهم . فراسلُوا شيركوه فى طلب الصُّلح وعَوْدِه إلى الشّام وتَسْليم ما بيده إلى المصريّين . فأجاب إلى ذلك . وندب شاور الأمير شمس الخلافة محمّد ابن مختار إلى شيركوه ، فقرر معه الصُّلح على ثلاثين ألفاً أخرى فحملها إليه . وكانت الأقوات قد قلّت عنده ، وقُتِل من أصحابه جماعة . وأبطأت نجدة نور الدّين فلم يأتِهِ منه أحد . وخرج من بلبيس أوّل ذى الحجة(3) .

---

(1) حصن تجاه أنطاكية . معجم البلدان : ٣ : ١٩٩ . وفى هذه المعركة أسر نور الدين بعض أمراء الفرنج وفيهم Bohemond III صاحب أنطاكية و Raymond III صاحب طرابلس . وبهذا أصبحت أنطاكية تحت التّهديد المباشر من رجال نور الدين . راجع كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٩ ؛ الكامل : ١١ : ١١٣ – ١١٤ ؛ وانظر كذلك : The Crusaders in the East pp. 188-198 وكتاب : Saladin; pp. 83-84 . ويقول أبو شامة بعد تفصيل الحديث عن انتصار حارم إن أصحاب نور الدين أشاروا عليه بالمسير إلى أنطاكية يملكها لخلوها من يحميها ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التى لها فهى منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه . « ومجاورة بيموند أحب إلى من مجاورة ملك الروم » . راجع كتاب الروضتين : ١ : ٣٤٢ فى المتن وفى الحاشية : ٢ .

(2) حصن فى الجنوب الغربى لدمشق فى سفح الجبل . السلوك : ١ : ٦٧ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٦ ، ٣٥٦ . وكانت بيد الفرنج منذ سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة ، تسع وخمسين وخمسمائة . الكامل : ١١ : ١١٤ .

(3) فى خروجه من بلبيس يروى ابن الأثير عن شاهد عيان قوله : رأيته وقد أخرج أصحابه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم ، فأتاه فرنجى وقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء وقد أحاطوا بك وبأصحابك ؟ فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا !! كنت ترى ما لم تر مثله ، كنت والله أضع سيفى فلا أقتل حتى أقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم فيملك بلادهم ويفنى من بقى منهم . كتاب الروضتين : ١ : ٣٣٦ (نقلا عن كتاب الباهر) ؛ الكامل : ١١ : ١١٢ – ١١٣ . واللت بفتح اللام وتشديد التاء لفظ فارسى الأصل معناه الفأس الكبيرة أو القدوم ، وكانت من آلات الحرب فى تلك الفترة ، ومثلها الفأس الشهيرة التى كان يحارب بها ريتشارد قلب الأسد .

وممّن قُتِل معه من أصحابه على بلبيس سيف الدين محمد بن برجوان ، صاحب صرخد ، بسَهْمٍ أصابه ، فأنشد وهو يَجُود بنفسه :

يا مصرُ ، ما كُنتِ فى بالى ولا خَلَدِى ولا خَطـرْتِ بأوهـامى وأفكارى
لكن إذا قـالت الأقـدار كان لهـا قُـوًى تؤلف بين المـاء والنّـار

وقُتِل من الكنانيّة عالم عظيم . وحَصَل للفرنج من شاور أموالٌ جمّة ، فإنّه كان يعطيهم عن كلّ يوم ألف دينار .

وأقام شيركوه بظاهر بلبيس ثلاثة أيام وسار إلى دمشق ، فدخَلَها يوم الأربعاء ثالث عِشْرِى ذى الحجّة[1] .

فيها عَزَل شاور أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمّد بن أبى كامل ، المعروف بالقاضى المفضّل ضياء الدّين بن كامل الصُّورى ، عن قضاء القضاة ، وولّى مكانه القاضى الأعز أبا محمّد الحسن بن علىّ بن سلامة ، المعروف بالعوريس[2] .

---

(١) « وعاد شاور إلى القاهرة ومعه طائفة من الفرنج يتقوى بهم ، وكان قد بذل لهم على نصرته أربعمائة ألف دينار ، وهادنهم خمس سنين » نهاية الأرب ٢٨ .

(٢) بهامش الأصل مقابل هذ الموضع : بياض صفحة .

سنة ستين وخمسمائة (١) :

فيها ركب البرنس أرناط[٢] ، صاحب الكَرَك والشَّوبك ، البحر إلى عسقلان وخرج منها إلى الكرك ، وجمع عسكره وأقام ينتظر شيركوه ؛ فعلم بذلك شيركوه ، فمرّ من خلف الموضع الّذى فيه أرناط ، فلم يعلم به ونجا وأمن منه . ووصل إلى دمشق فضَعّف أمر عسكر مصر عند نور الدّين وهوّن عليه أمرهم ، وحرّضه على قصدهم ، وأكثر من التحدث فى أمر مصر .

وفيها عاد شاور إلى القاهرة ؛ وخرج يحيى بن الخيّاط على شاور وحشد ونزل الجيزة يوم الأربعاء بعد أن حاصر الكامل بن شاور فى طنبدى[٣] ، ورحل عن الجيزة ، فكُسِرُوا يوم السبت سابع عشر صفر . وقبض شاور على [٤]ابن فحل [٤]ابن أبى كامل وقُتِلا ليلة الاثنين تاسع عشره . وتتبّعَ من كان يكاتب شيركوه أو يوادُّه ؛ وتشدّد فى طلب أصحاب ضرغام . وكان قد استَفْسَدَ جماعةً من أصحاب شيركوه ، [١٥٦ ب] منهم خشترين الكردى فأقطعه شَطْنَوفْ[٥] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن عشر من نوفبر سنة ١١٦٤ .

(٢) هو Le Prince Arnauld وكان يسمى قبل ذلك Renaud de Châtillon وقد تأول يمينه التى حلفها لأسد الدين وقال « أنا حلفت أنى ما ألحق أسد الدين ولا عسكره فى البر ، وأنا أريد ألحقه فى البحر » . وركب البحر إلى عسقلان فى يوم واحد ثم وصل برا إلى الكرك . وعلم شيركوه فشق طريقه إلى الغور وخرج من البلقاء ، وسلمه الله تعالى . كتاب الروضتين : ١ : ٤٢٣ — ٤٢٤ . وقيل إن شاور أشار على أملريك بتتبع أسد الدين شيركوه بعد خروجه من بلبيس ومهاجمته واعتقاله ، فرفض أملريك وأبى إلا الوفاء بيمينه لشيركوه . نهاية لأرب : ٢٨ .

(٣) وهى أيضا طنبدة وطنبذة بضم الطاء والباء : قرية بالصعيد الأدنى غربى النيل إلى جوار إشنين (والعامة يقولون إشْنى) ، وتسميان معا العروسين لحسنهما وخصبهما ، وهما من كورة البهنسا . معجم البلدان : ١ : ٢٦٣ .

(٤) فى هذين الموضعين بالأصل بياض يتسع لكلمة .

(٥) يقول ياقوت إنها كانت من إقليم الغربية يتفرع النيل عندها فرعين فى اتجاهى تنيس ورشيد ، وكانت على فرسخين من القاهرة ، ثم يقول وهى على يوم واحد منها . معجم البلدان : ٥ : ٢٦٦ — ٢٦٧ . والواقع أنها كانت تعد من أعمال المنوفية كما يظهر من قوانين الدواوين : ١٥٦ . ويقول على مبارك إنها من أعمال محافظة المنوفية بمركز منوف موقعها على الرياح المنوفى وبينهما نحو خمسمائة متر . الخطط التوفيقية : ١٢ : ١٣٢ .

وفيها فرّ الشريف   المحنّك[1] من شاور ولحق بنور الدّين . وذلك أنّه كان بَعَثَهُ ضرغام إلى نور الدّين فى صرف رأيه عن نجدة شاور فوجد نور الدّين مائلاً معه لأمور، منها : أنّه تقرب إليه بذمّ مذهب الفاطميّين، ووعده ملك مصر ، وعرض له الأموال الكثيرة ؛ فبالغ الشريف فى الحطّ على شاور مع نور الدّين ، فأنفذه إليه . فلمّا اجتمعا عتبه شاور على ما كان منه ، وقال له : أنت تعلم أيّها الشّريف أن سبب قيامى على آل رُزّيك إنّما كان لأجل ضرغام وإخوته من الأمراء واتّبعت غرضهم فيما نقموه على ابن الصّالح ؛ ولمّا حصلتُ بالقاهرة رفعتُ من أقدارهم وزدتُ فى أرزاقهم ، وبلّغتهم أمانيهم ، فلم يكن لهم إلاّ إزالتى ثم قتلُهُم أولادى ونهبُ أموالى وتشتُّتُ جماعتى ، وما زال السّيف فى خاصّتى وغلمانى ؛ فهل تعلم لى ذنبًا إليهم ؟ فقال له الشريف : أنت تعلم أيّها الأمير أن ابنك طيًّا كان قد تعدّى طوره وتجاوز حدّه حتى تعاظم عليك ونفذ أمرُه دُونَ أمرك ؛ وأنّه بعد قتل رزّيك بن الصالح أطلق لسانه فى الأمراء ومدّ يده إلى أموالهم ونسائهم ، وبهتهم فى المجالس ، وصاح عليهم فى المواكب حتى حقدوا عليه ، وشكوه إليك فلم تشكهم ؛ وعامل أصحابك وغلمانك النّاس بكلّ قبيح فمالت عنك قلوب الخاصّة والعامّة . فسكتَ عنه ، وما زال فى نفسه منه حتّى تمكّن من البلاد فأخذ يتطلّبه ، ففرّ منه[2] .

---

(١) بياض يتسع لكلمة .

(٢) بهامش الأصل : بياض سطرين .

سنة احدى وستين وخمسمائة (١) :

فى أول المحرّم مات الأمير هَوْشَات . وفى ثالثه مات القاضى الجليس عبد العزيز ابن الحباب(٢) .

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع من نوفمبر بسنة ١١٦٥ .

(٢) بهامش الأصل : بياض صفحة . والقاضى الجليس : أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى ، وكان عند وفاته قد أناف على السبعين. وقد تقدم شىء من التعريف به . انظر أيضا : خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٩ — ٢٠٠ ؛ النكت العصرية فى مواضع ؛ فوات الوفيات : ١ : ٣٥٤ — ٣٥٦ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٢٩٩ .

سنة اثنتين وستين وخمسمائة (1) :

فيها جهّز الملكُ العادل نورُ الدّين الأميرَ أسدَ الدّين شيركوه من دمشق لقَصْدِ ديار مصر فى جيشٍ قوىّ ، ومعه جماعةٌ من الأُمراء ، وكان كارهًا لمسير شيركوه لكثرة ما رأى مِنْ حرصه على السّفر(2) . فرحل يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأوّل ، وشيّعه السلطان إلى أطراف البلاد خوفًا من مَضَرّة الفرنج ، فسار على ميمنة بلاد الفرنج . وبعث مُرى ملك الفرنج إلى شاور يخبره بمسير شيركوه بالعسكر إلى مصرَ ، فأجابه يلتمسُ منه نجدته ، وأنّ المقررّ من المال يُحْمَل إليه على ما كان يُحْمَلُ فى السّنة الماضية .

فسار مرى بعساكره ، وقد طمع فى البلاد ، على السّاحل حتى نزل بِلْبيس ، فخرج إليه شاور ، وأقاموا فى انتظار شيركوه . فَبَلَغَهُ ذلك ، فنكب عن الطّريق وهبط فى يوم السبت خامس ربيع الآخر من وادى الغزلان(3) إلى أَسْكَر(4) ، وخرج إلى إطفيح قبلىّ مصر فشنّ الغارة هناك .

واتّصل الخبر بشاور ، فرحل هو والفرنج يريدُونه . ونزل شاور والفرنج بركة الحبش

---

(1) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١١٦٦ .

(2) يقول ابنُ الأثير : وكان شيركوه بعد عوده من مصر فى المرة الماضية لا يزال يتحدث بها وبقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير . وقال أيضا : وكان نور الدين كارها لذلك لكن لما رأى جد شيركوه لم يمكنه إلا أن يرسل معه جمعا من الأمراء فى جيش قوى بلغت عدته ألفين ! ! وذلك خوفا من حادث يتجدد فيضعف الإسلام. الكامل : ١١ - ١٢١ . ويحسن أن نلاحظ أن ابن الأثير كان يدين بولائه - شأنه فى ذلك شأن والده وبقية أفراد أسرته - لأسرة زنكى ، وأنه لهذا كان لا يميل إلى الأيوبيين الذين خلفوا أسرة زنكى فى الشام بعد وفاة نور الدين ببضع سنين . ومن ثم يحسن الحذر فى الاعتماد على ابن الأثير فى مثل هذه الإشارات . والواقع أن نجاح الفرنج فى الاستيلاء على مصر كان سيؤدى إلى انهيار حكم نور الدين بالشام ، فالحكمة تقتضى أن يتجه نور الدين بجهوده الحاسمة نحو مصر حتى لا تسقط فى أيدى الفرنج ، وهذا هو الذى أدى إلى إنهاء حكم الفاطميين فى مصر .

(3) ويعرف اليوم بوادى شراش بالجبل الشرق تجاه ناحية القبابات بمركز الصف شمالى وادى إطفيح . النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٨٨ : حاشية : ١ . ويقول أبو شامة : وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبيس فنكب عن طريقهم وأم الجبل وخرج على إطفيح ، وهى الجنوب من مصر ، وشن الغارة هناك : كتاب الروضتين : ١ : ٤٢٤ .

(4) من أعمال الإطفيحية ، والضبط من قوانين الدواوين ، بينها وبين الفسطاط يومان ؛ وكان عبد العزيز بن مروان يكثر الخروج إليها والمقام بها للنزهة وبها مات . قوانين الدواوين : ١٠٢ ؛ معجم البلدان : ١ : ٢٣٤ .

فى يوم الأحد سادس جمادى الآخرة ، وتوجّه فى يوم الثلاثاء منه إلى دير الجميزة[1] ، فاندفع سائرًا فى بلاد الصّعيد حتىّ بلغ شرونه[2] ، وعدّى منها إلى البرّ الغربى . وأدْرك شاور سَاقَتَهُ فأوقع بهم ، وعدّى بعساكره وجموع الفرنج . ونزل شيركوه بالجيزة فى يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة تجاه مدينة مصر وأقام بها بضعًا وخمسين يومًا . وبعث الشريف أبا عبد الله الملقّب بالرّضىّ ، ابن الشريف المحنّك إلى الطّلحيّين والقرشيّين يستفزُّهُم ويدعوهم إليه ، وكان قد بلغه أن شاورًا أساء إليهم ، فأتوه مسرعين .

وبعث إلى شاور بأنّى أحلفُ لكِ أنّى لا أُقيم ببلاد مصر ولا يؤذيك أحدٌ من أصحابى ، وأكون أنا وأنت على الفرنج وننتهز فيهم فُرصَةً قد أمْكَنت وما أظنّ أن يتّفق للإسلام مثلُها كثيرًا . فأبى شاور من قبول ذلك . والتجأ شيركوه إلى دَلْجَة[3] ، ونزل شاور فى اللُّوق والمقس ظاهر القاهرة ، وأنشأ الجسر بين الجيزة والجزيرة ، وشحن المراكب والرّجال لتسير من خلف عسكر شيركوه .

وكتب شيركوه إلى الإسكندرية يستنجدُ بها على الفرنج وشاور ، فقاموا معه وأمّروا عليهم رجلاً يُعرف بنجم الدّين بن مصال ، من ولد الوزير ؛ فكتبوا إليه أنهم يمدُّونه بالسّلاح والحديد ، وجهّزُوا إليه خزانة [١٥٧ ا] من السّلاح مع ابن أُخت الفقيه ابن عوف . فأتاه الخبر بقرب شاور فلم يثبت ، وترك خيامه وأثقاله ، وسار سيرًا حثيثًا ونزل قَدْرَ ما أطعم دوابّه ، ورحل من اللّيل فسار غير بعيد ، ثم نادى فى عسكره بالرّجوع ، فعاد إلى دَلْجَة .

وسار شاور والفرنج فى طلب شيركوه ، فنزلوا الأشمونين وتبعوا شيركوه ، فأمر شيركوه أصحابَهُ بالتّعبئة . فما طلع ضوء الصّباح حتىّ أشرفت عساكرُ شاور وجُموع الفرنج فى عدد كبير ، فقدّم شاور طائفة فحملت على أصحاب شيركوه ، وانهزم منها عز الدّين

(١) من أعمال الإطفيحية أيضا . قوانين الدواوين : ١٣٨ .

(٢) يعرفها ياقوت بأنها فى الصعيد الأدنى شرق النيل ؛ ويذكر ابن مماتى أنها من أعمال كورة البهنسا ؛ ويقول على مبارك إنها من محافظة المنيا وتتبع مركز بنى مزار ، وتبعد شمالا عن الجرابيع بنحو خمسة كيلو مترات . معجم البلدان : ٥ : ٢٥٩ ؛ قوانين الدواوين : ١٥٨ ؛ الخطط التوفيقية : ١٢ : ١٢٩ .

(٣) من أعمال الأشمونين : قوانين الدواوين : ١٤٠ ؛ معجم البلدان : ٤ : ٦٧ .

الجاولى من أصحابه فلم ينزل إلاَّ بالإسكندرية ، وتفرّق منهم عدد ؛ فولّى شيركوه وقد قُتِل من أصحابه جماعة وقتل من أهل الإسكندرية كثير .

وكان سبب الخلل فى عسكر شيركوه أنه فرّق أصحابه فرقتين ، فرقة معه وفرقة مع ابن أخيه صلاح الدّين يوسف .

ثم إنهم تجمّعوا وقت الظُّهر ووَطَّنُوا أنفسهم على الموت ، وحملوا على شاور ومَن معه فقتلُوا منهم مقتلَةً عظيمة ، وأبلى يومئذ صلاح الدّين يوسف بلاءً حسنا وحمل حملات فرّق بها الجموع وبدّد شملها . وحمل شاور على عسكر شيركوه فكسر القلب ، فتلاحقت الميْمَنةُ بمَنْ كان فى القلب ؛ واستمرّ القتال حتّى حال بين الفريقين اللّيل ، فانهزم كثير من الفرنج وقتل منهم كثير ، وكاد ملكهم أن يؤخذ ، ووقع فى قبضة شيركوه وأصحابه نحو السّبعين أسيرًا[1] .

وبات الفريقان وقد تبيّن الْوَهنُ فى الفرنج ، فسار شاور بمَنْ معه إلى منية بنى خصيب .

وكانت هذه الواقعة فى موضع يعرف بالبابين[2] ، بالقرب من الأشمونين ، فى يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة .

ثم إنّ شيركوه سار بأصحابه على طريق الفيّوم إلى الإسكندرية وانتهب البحيرة ، وأخذ عسكرُه غِلَالَها ومواشيها ؛ فخدمه ابن الزُّبير ، متولّى ديوان الإسكندرية ، وحمل إليه الأموال وقوّاه بالسّلاح ؛ وأقام متخوّفًا من مسير شاور إليه ، فترك بالإسكندريّة صلاحَ الدّين يوسف وخرج إلى الصّعيد وجَبَى أموال البلاد . فخرج شاور ونزل على الإسكندرية وحاصرها أشدّ حصار مدة ثلاثة أشهر ، ومنع عنها الميرة ، فقَلّت بها الأقْوات . هذا وشيركوه فى جباية أموال الصّعيد وأخْذِ غلاله .

---

(١) قبيل بدء هذه المعركة استشار أسد الدين أمراء جيشه إذ أنه خاف أن تضعف نفوسهم لقلة عددهم ، فكلهم أشار بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى بلاد الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا — وهو الذى لا شك فيه — فإلى أين نلتجىء وكل من فى هذه البلاد عدو لنا ويودون لو شربوا من دمائنا . فلما قالوا ذلك قام أحد مماليك نور الدين ، واسمه شرف الدين بزغش ، وقال : من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحا أو مع النساء فى بيته . والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير بلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ! ! فوافق أكثر الموجودين على القتال . كتاب الروضتين : ١ : ٣٦٤ — ٣٦٥ . وبه وصف كامل للمعركة ، وكذلك فى : الكامل : ١١ : ١٢٢ .

(٢) قرية جنوب مدينة المنيا ، وكانت تعتبر من كورة الأشمونين .

ودخل عليه شهر رمضان ، فلمّا أتمَّهُ وأَهَلَّ شوّال بلَغَهُ ما نزل بالإسكندرية وأهلها من البلاء وقلّة الأقوات ، وأنها قد قاربت أنْ تُؤْخذ ، فسار من قوص ونزل على مصر يوم الخميس ثامن شوّال . فبلغ شاور أن شيركوه حَاصَرَ مصر ، فرحل من الإسكندرية ، وأرسل شيركوه إلى صلاح الدّين يأْمُره بتقرير الصّلح ؛ ورحل عن مصر إلى الشام[1] . فبعث إلى ملك الفرنج يلتمسُ منه ذلك ، فأجابه إليه ، وقرّرَ مع شاور أنّه يحمل إلى شيركوه جميع ما غرِمَ فى هذه السَّفْرة ، ويعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار ، ويعود كل منهم إلى بلاده . ووقع الحلف بالأيمان المؤكّدة على ذلك .

فلمّا تقرّر الصّلح أرسل صلاح الدّين إلى ملك الفرنج يقول إنَّ لى أصحابًا منهم القوىّ ومنهم الضّعيف ، فأمّا القوىّ فإنّه يتبعنا فى البرّ ، وأمّا الضّعيف فإنّه يسير فى البحر فَنُرِيدُ لهم مراكب . فأنفذ إليه عدّة مراكب خرج فيها أصحابه .

وخرج صلاح الدّين من الإسكندريّة واجتمع بعمّه أسد الدّين شيركوه . ودخل شاور البلد ، وجاءه مشايخ البلد للسّلام عليه ، ومُرِى ملك الفرنج جالسٌ معه ، فلم ينظر شاور إلى الجماعة ولا أكرمهم ،ولا أذِنَ لهم فى الجلوس ، لأنّهم كانوا قاتلوه قتالاً شديدًا،فنقم عليهم ذلك . فقال له مُرِى : أكرم قُسُسَك . فأذن لهم فى الجلوس وعاتبهُمْ على ما فعلوا من القتال وإظهار المخالفة . فسكتوا . وكان فيهم الفقيه شمس الإسلام أبو القاسم مخلوف بن على

---

(١) لم أجد فى أى مرجع ما يؤيد ما قاله المقريزى هنا من أن أسد الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح ورحل هو إلى الشام . بل إن شيركوه – كما تجمع المصادر – أسرع عائدا من الصعيد لنجدة الإسكندرية ، وبها صلاح الدين ، بعد أن اشتد حصار الفرنج وشاور عليها حتى قلت بها الأقوات ، وهناك وصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح ، ووعدوه ، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة . فتم الصلح وتسلم المصريون الإسكندرية فى « منتصف شوال » وعاد شيركوه إلى دمشق « ثامن عشر ذى القعدة » . قارن – على سبيل المثال – كتاب الروضتين : ١ : ٣٦٦ ؛ الكامل : ١١ : ١٢٢ ؛ مفرج الكروب : ١ : ١٥٢ ، وكذلك Saladin; pp. 89-90 . ويزيد النويرى الأمر وضوحا فيقول إن أهل الإسكندرية قاوموا الحصار بنحو أربعة وعشرين ألف قوس زنبورك وما يناسبها من الآلات ، فطلب شاور منهم تسليم صلاح الدين وفى مقابل ذلك يضع عنهم المكوس ويعطيهم الأخماس فقالوا : « معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية » . ولما علم شاور بقرب شيركوه خافه وراسله فى طلب الصلح . . فتم طبقا لما سبق . نهاية الأرب : ٢٨. وسيذكر المقريزى بعد أسطر أن صلاح الدين خرج من الإسكندرية – بعد تقرير الصلح – واجتمع بعمه أسد الدين .

المالكى ، المعروف بابن جاره ، شيخ الصّاحب صفىّ الدّين عبد الله بن علىّ بن شكر[1] ، فقال له : نحن نقاتل كلّ من جاء تحت الصّليب كائنًا من كان . فقال له مُرى : وحقّ دينى لقد صَدَقك هذا الشّيخ [١٥٧ ب] . فسكت شاور وأكرمهم بعد ذلك اليوم .

وفرّ نجم الدّين بن مصال والى الثغر إلى الشّام ، وقبض شاور على الأشرف بن الحباب قاضى الثّغر وعاقبَه ، وأخذ مِنْهُ مالاً جزيلاً ؛ ولم يقنع بالرّشيد ابن الزّين النّاظر فولّى القاضى الأشرف أبا القاسم عبد الرّحمن بن منصور بن نجا النّظر عوضه ؛ فبعث شاور وقبض على جميع مَنْ كان مع صلاح الدّين من أهل مصر ، وعلى ابن مصال . فشقّ ذلك على صلاح الدّين ، واجتمع بملك الفرنج فى ذلك ، فأرسل إلى شاور ومازال به حتى أفرج عنهم . فخافوا من شاور وعزموا على الرّحيل إلى الشّام ، فخرج إليهم شاور بنفسه وجمع وجُوهَهم وطمأنهم ، وحلف لهم أنّه يضاعف لهم الإحسان ولا يتعرّض لهم بسوء . فمنهم من اطمأن وأقام ، ومنهم من رحل إلى الشام .

ووصل الّذين سَاروا من ضِعَاف أصحاب صلاح الدّين فى المراكب إلى عكّا ، وأحاط بهم الفرنج واعتقلوهم بمعصرة القصب حتى (عاد) ملك الفرنج فأطلقهم .

وتسلّم شاور الإسكندرية فى نصف شوّال . وسار شيركوه ومَنْ معه وقد استَمال شاور منهم جماعةً ومعه مرى ملك الفرنج حتّى نزل الجيزة وعدّى إلى القاهرة من المقس . فأقام مرى أيّامًا ورحل عائدًا إلى بلاده ، فخرج شاور يودّعه إلى بلبيس وعاد إلى القاهرة أوّل ذى القعدة ، فخرج إليه العاضد يتلقّاه إلى الطّابية ، وخلع عليه .

---

(١) عبد الله بن على بن الحسين المعروف بالصاحب صفى الدين بن شكر المصرى الزهيرى المالكى . ولد سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقيل سنة أربعين ، وتوفى سنة اثنتين وعشرين وستمائة . ولد بالدميرة بين مصر والإسكندرية ودفن بتربته التى أنشأها بجوار مدرسته بالقاهرة . يقول ابن شاكر الكتبى : وكان حلو اللسان حسن الهيئة وفيه هوج وخبث وحقد لا تخبو ناره ، لا يقبل معذرة ، وجعل الرؤساء كلهم أعداءه . كان من أصحاب العادل بن أيوب المقربين وتولى وزارة ابنه الكامل ، وكانت له أموال كثيرة بمصر والشام ، وعمى فى أواخر أيامه . وله مع هذا أعمال حسنة : بلط الجامع الأموى وعمر جامع المزة وجامع خرستان بدمشق وأنشأ مدرسة بالقاهرة . فوات الوفيات : ١ : ٢٨٠ - ٢٨٢ ؛ الذيل على الروضتين : ١١٤ — ١١٥ ، ١٤٧ .

واستقرّ الأمر بينه وبين الفرنج أن يكون لهم بالقاهرة شحنة[1] ، وأن تكون أسوارُها[2] بِيَدِ فرسانهم ليمتنع نور الدّين من إرسال عسكرٍ إليها ، وأن يكون لهم من دَخْل ديار مصر فى كلّ سنة مائة ألف دينار . قرّر لهم شاور ذلك من غير عِلْمِ العاضد ولا مشاورته ، فإنه كان ممنوعًا من التصرّف وشاور يستبدّ بأمور الدّولة . فرحل الفرنج إلى بلادهم وتركُوا بالقاهرة عدّةً من مشاهير فرسانهم ، ورتّبوا بها ابن بارزانى واليًا .

ووصل شيركوه إلى دمشق فى ثامن عشرذى القعدة وفى نفسه من مصر مَالاَ ينفصل ، لأنّه خَبرَ متحصِّلَها ، وعرف بلادها واستخفّ بأَهْلِها .

واستقرّ شحنة الفرنج أوّلاً بالقاهرة فى الموضع المعروف اليوم بقصر بيسرى من الخرنشف[3] . وبعث الكامل شجاع بن شاور إلى نُور الدّين مع بعض الأُمراء يُنْهِى محبّته وولاءه ، ويسأل الدُّخول فى طاعته ، وضَمِنَ له عن نفسه أنّه يفعل هذا ويجمع الكلمة على طاعته ، وبذل له ما لاً يحملُه إليه كلّ سنة ، فأجابه ، وحمل إلى نور الدين مالاً جزيلاً .

وأخذ شاور بعد عَوْدِه من الإسكندرية فى الإكْثَار من سفك الدّماء بغير حقّ ، فكان يأْمر بضَرْبِ الرّقاب بين يديه فى قاعة البستان من دار الوزارة ثمّ تُسْحب القَتْلى إلى خارج الدّار[4] . واشتدّ ظُلْمُ إخوته وأولاده وغِلْمَانه وَمَنْ يَلُوذُ به ، وكثر تضرُّر النّاس بهم . فكان

---

(١) الشحنة فى الأصل ما يقدم للدواب من العلف الذى يكفيها يومها وليلتها ، ثم صارت رمزا لما يوضع فى البلد من رجال الأمن لضبطها وحمايتها ، ومن ثم كانت كلمة الشحنكية اصطلاحا يطلق على رئاسة الشرطة ، أى لتولى قيادتها ، ويسمى متوليها صاحب الشحنة . القاموس المحيط ، وكذلك : Dozy; Supp, Dict. ar. . والمقصود هنا جماعة الفرنج التى تقرر بين شاور ومرى أن تحمى مصر خوف عود شيركوه ورجال نور الدين إليها .

(٢) فى كتاب الروضتين : ١ : ٣٦٦ ؛ وكذلك فى الكامل : ١١ : ١٢٢ : وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم .

(٣) وبيسرى هذا هو الأمير شمس الدين الصالحي النجمى أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب . ترقى فى الخدمة حتى صار من كبار قادة الظاهر بيبرس ، وكانت الدار البيسرية بخط بين القصرين من القاهرة فى أواخر عهد الفاطميين ، وخصصت حينئذ لمن يجلس فيها من الفرنج لقبض الأموال عندما تقرر الأمر معهم على أن يحمل نصف ما يتحصل من مال البلد إليهم . ولما كانت أيام الظاهر بيبرس عمر مملوكه بيسرى هذه الدار وبالغ فى الصرف عليها ، فلامه بيبرس لذلك ، فقال : إنما فعلت ذلك ليصل خبرها إلى العدو ويقال بعض مماليك السلطان غرم عليها مالا عظيما . فاستحسن ذلك منه . وخط الخرنشف بين حارة برجوان والبستان الكافورى ، ويتوصل إليه من بين القصرين من قبو يعرف بقبو الخرنشف ، وهو موقع باب التبانين قديما . وإنما سمى الخرنشف لأن المعز كان أول من بنى به الإصطبلات بالخرنشف وهو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات وغيرها . المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٧ — ٢٨ ، ٦٩ — ٧٠ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٢

(٤) النكت العصرية : ٨٧ — ٨٨ . وفى ذلك يقول عمارة : فسألنى الجماعة أن أعمل قصيدة فى هذا المعنى فقلت :

ألا إن حد السيف لم يبق خاطرا   من الناس إلا حائرا يتردد =

مَنْ تأمّل أحوال الوزارء فإنّه يجدُ الصّالح بنْ رزّيك زَيّن رجالَ الدّولة ، وجاء الضّرغام فأفناهم ، ثم جاء شاور فأتلَفَ أموال مصر وأطمعَ الغُزّ فى البلاد وجرّأ الفرنج عليها حتى كان ما كان مما يأتى ذكره إن شاء الله[1] .

وفيها أحضر القاضى رشيد الدّين أبو الحسين أحمدُ بن القاضى رشيد الدّين أبى الحسن على بن إبراهيم بن محمّد بن الحسين بن الزّبير الأسوانى[2] ، وقدْ فرّ إلى قريبْ برْقة فدُخل على حالة سيّئة ، فأمر به شاور فضُربَت عُنقُه ، وصُلِب عند مسجد الزينى على الخليج ، بالقرب من قبو الكرمانى ، فى يوم الأربعاء العشرين من ذى العقدة .

= ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح ... على نفسه أضعاف ما خاف مفسد
فأغمد شفار المشرفى وعد بنا ... إلى عادة الإحسان وهى التغمد
فإن بروق الماضيات وصوتها ... رواعد منهن الفرائص ترعد
تجاوز ، وإلا فالمقطم خيفة ... يلوب وماء النيل لا شك يجمد

فقال شاور : فقد كان من القتل ما كان ، وإن تجدد شىء لم يكن فى الدار لأن القضاة وأرباب الخرق قلوبهم ضعيفة عن رؤية السيف .

(١) نفس المصدر : ٨٠ .

(٢) تتفق المراجع على أن شاورا قتل الرشيد ظلما ؛ ويذكر بعضها سببا لذلك ميل الرشيد إلى أسد الدين شيركوه عندما كان بالإسكندرية ، ويذكر غيرها أنه ذهب فى رسالة إلى اليمن فمدح ملوكها ومنهم على بن حاتم الهمدانى إذ قال فيه :

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا ... فلست أنال القحط فى أرض قحطان
ومذ كفلت لى مأرب بمآربى ... فلست على أسوان يوما بأسوان
وإن جهلت حقى زعانف خندف ... فقد عرفت فضلى غطاريف همدان

فوصل داعى الإسماعيلية باليمن هذا إلى مصر فصودرت أموال الرشيد ثم قتله شاور . وقد ولى الرشيد ديوان النظر بالإسكندرية سنة تسع وخمسين وخمسمائة عن غير رغبة وقتل فى أواخر هذه السنة (٥٦٢) وقيل فى أوائل المحرم سنة ٥٦٣ . وكان شاعرا فقيها نحويا لغويا عروضيا مؤرخا منطقيا مهندسا عارفا بالطب والنجوم والموسيقا متفننا . ولأخيه المهذب أبى محمد الحسن شعر ، منه :

ومالى إلى ماء سوى النيل غلة ... ولو أنه — أستغفر الله — زمزم

وفيات الأعيان : ١ : ٥١ — ٥٢ ؛ شذرات الذهب : ٤ : ١٩٧ ؛ خريدة القصر قسم شعراء مصر : ١ : ٢٠٠ — ٢٠٢ ؛ معجم الأدباء : ٤ : ٥١ — ٦٦ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٣٧٥ — ٣٧٦ .

سنة ثلاث وستين وخمسمائة (1) :

فيها بعث شاور إلى نور الدين رسالةً مع شهاب الدين محمود ، خال[٢] صلاح الدين يوسف ، تتضمّن أنّه يحمل إليه مالاً فى كلّ سنة من مصر مُصَانَعةً ليصرف عنه أسد الدّين شيركوه . فأجاب نور الدّين إلى ذلك ، وأعطى شيركوه مدينة حمص وأعمالَها زيادةً على ماكان بيده ، وذلك فى شعبان ، وأمره بترك ذكر مصر . فأرسل شاور إليه كتاباً يشكر صنيعه .

وفيها قَتَل شاور القاضى الرّشيد أبا الحسين أحمد بن علىّ بن إبراهيم بن محمّد بن الحسين بن الزبير الغسّانى الأسوانى[٣] ،صاحب كتاب الجنان ورياض الأذهان ؛ وكان من أهل العلم [١١٥٨] والأدب ؛ وله رِسَالةٌ أوْدَعها من كلّ علم مشكلة ومن كلّ فنٍّ أفضله . وسار إلى اليمن رسولاً ـ وكان أسود ـ فى أيام الحافظ ، وتلقب بعلم المهتدين ؛ فقال فيه شاعر من أهل اليمن من قصيدة بعث بها إلى الحافظ :

بعثتَ لنا[٤] عَلَمَ المهتدين ولكنّه علمٌ أسود

ووَلِىَ نظر الإسكندريّة . فقتله شاور فى المحرّم ، بسبب أنه دَاخَل شيركوه وصلاح الدين وخدمهما ، بعد أنْ عذّبه عذابا شديداً ، ثم ضرب عنقه .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من أكتوبر سنة ١١٦٧ .

(٢) فى الأصل : عم . والتصحيح من كتاب الروضتين : ١ : ٤٠٦ ؛ الباهر فى تاريخ أتابكة الوصل : ٢٥٦ ؛ مفرج الكروب : ١ : ١٦٨ ؛ نهاية الأرب : ٢٨ ؛ وغيرها . وقد جاء فى الروضتين أن الذى كاتب نور الدين هو الكامل بن شاور وأنه سأله أن يجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الإسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك . كتاب الروضتين : ١ : ٣٦٦ .

(٣) سبق ذكر هذا الخبر ضمن أحداث السنة السابقة . ويذكره ابن خلكان أيضاً فى أخبار هذه السنة قائلا : إنه قتل فى المحرم منها ، كما سيرد هنا فى المتن بعد أسطر قليلة .

(٤) فى الأصل : إلينا . وهو خطأ عروضى . وقد كتب هذا البيت هنالك فى صورة نثرية .

فيها خرج يحيي بن الخيّاط يريدُ الوزارة[1] ، فبعث إليه شاور عسكراً هزموه حتّى لحق بالفرنج .

وفيها وَلِيَ خَطابة الجامع العتيق بمصر نتاج الشّرف حسن بن أبي الفتوح ناصر ابن إسماعيل الحسَنى بعد موت أبيه يوم عيد الفطر .

(١) وكان من رجال الدولة منذ أيام الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وقد خرج ثائراً على شاور الذى تمكن من إخضاع ثورته . انظر النكت العصرية فى مواضع مختلفة .

سنة اربع وستين وخمسمائة (١) :

فيها تمكن الفرنج من ديار مصر وحكَمُوا فيها حكمًا جائراً ، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم وقد تيقّنُوا أنّه لا حاميَ للبلاد ، وتبيّن لهم ضعفُ الدّولة وانكشفت لهم عورات النّاس . فجمع مُرى جموعه واستَشَارهم فى قَصْدِ ديار مصر ، فقَوَّوْا عزْمَهُ على المسير إليها فأجمع (أمره) على الرّحيل واستدعى وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه ، ففرّق قُراها عليهم بعد ما كتب جميع قُراها وارتفاعَ كل ناحية ؛ واستنْجدَ عسكراً قوّى به جنده .

فورد الخبر إلى شاور بمسير الفرنج إلى مصر فى نصف المحرّم ، فبعث إلى ملكِ الفرنج الأمير ظهير الدّين بدران وقيس بن طيّ بن شاور .

وكان نور الدّين بحلب[٢] ، فأسرع مُرى إلى المجيء إلى مصر ظنًّا أنَّ نور الدّين بعيدٌ منه وعساكره متفرقة عنه . فبلغ ذلك نور الدّين ، فأخذ فى جَمْع عساكره[٣] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس من أكتوبر سنة ١١٦٨ .

(٢) فى أعقاب فتح قلعة جعبر صلحا بعد أن تبين تعذر أخذها بالحصار ، وقد عوض نور الدين صاحبها شهاب الدين مالك بن على العقيلى من بنى المسيب الذين كانوا أصحابها من أيام السلطان ملكشاه والذين عجز عماد الدين زنكى عن أخذها منهم وقتل عندها فى أثناء حصاره إياها سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وكان من بين ما تسلمه مالك عوضا عنهـا : سروج من ديار مضر ، والملاحة والباب وبزاعة من أعمال حلب . ولهذا كان نور الدين بحلب لينظم إدارة هذه الأعمـال فى أعقاب الصلح . وفى هذه المناسبة يقول أبو شامة على لسان الفرنج : « نور الدين فى البلاد الشمالية والجهة الفراتية ، وعسكر الشـام متفرق كل فى بلـده ، حافظ لمـا فى يده ، ونحن ننهض إلى مصر ، ولا نطيل بها الحصر ، فـإنه ليس لها معقل ، ولا لأهلها منا موئل » . كتاب الروضتين : ١ : ٣٨٦ — ٣٨٧ ، ٣٨٩ .

(٣) يذكر ستيفنسون أن أملريك طمع فعلا فى الاستيلاء على مصر لنفسه غير قانع بالجزية التى كان يدفعها شاور ، وقد راسل أملريك إمبراطور الروم ، مانويل ، يطلب منه عونا عسكرياً فوعده بذلك ، وطلب من فرسان المعبد معاونته فى الحملة فرفضوا ذلك ، كما رفض غيرهم ليقينهم بأن هذا الاتجاه سيلقى —دون جدال— بمصر فى أحضان نور الدين » لكن أملريك تقدم إلى مصر برغم هذه المعارضة ، ولم ينتظر المدد الذى وعده به الإمبراطور .The Crusaders in the East; p. 193
ويذكر لين — بول أن أملريك تقدم إلى مصر مدفوعاً برأى رجاله الذين ألحوا عليه فى ذلك وبعد فشله فى إقناعهم بأن الحفاظ على المورد المـالى الثابت الذى يصلهم من مصر والاحتفاظ بصداقة رجالها أفضل من القيام بهذه الحملة ، كما أن النشاط العسكرى — فى نظره — يجب أن يوجه ضد دمشق لخطورة نور الدين وإصراره على مضايقة الفرنج . انظر :Saladin; p. 92.
لكنّ ما يقوله لين — بول نفسه عن معركة بلبيس (فى نفس الموضع) من أن أملريك أقام مذبحة هائلة بين أهلها لم يفرق فيها بين كبير وصغير ، ذكر وأنثى — يؤكد إصرار أملريك على القيـام بعمل حاسم ضد مصر .

ووصل مُرى إلى الدّارُوم[1] . فبلغ شاوراً فارْتَاع وبعث أميراً يعرف بَبَدْرَان لكشف الخبر ، فلمّا اجتمع بمُرى خدعَهُ ووعده بعدَّةٍ من قرى مصر ، نحو الثلاث عشرة قرية ، وأمره أن يُخبِرَ شاور أنّهم إنّما قصدُوا البلد لخدمة . فلمّا عاد إلى شاور جهَّز إلى مُرى شمس الخلافة محمّد بن مُخْتار ، فعندما دخل عليه قال له : مَرْحباً بشمس الخلافة . فقال : فمرحباً بالملك الغدّار ، وإلا ما أقدمك إلينا ؟ قال : اتَّصل بنا أنَّ الفقيه عيسى[2] وصل إليكم ليزوّج أُخْتاً للكامل بن شاور بصلاح الدّين يوسف ويتزوّج الكامل بأُخت صلاح الدّين ، فحسِبْنا أنَّ هذا عمل علينا . فقال مالهذا صحّة ، ولو فُعِلَ لما كان ناقضاً للهدنة . فقال : الصّحيح أنَّ قوماً من وراء البحر انتهَوْا إلينا وغلَبُوا على رأينا وخرجوا طامعين فى بلادكم ؛ فخفنا من ذلك ، فخرجت لتَوَسُّط الأمر بينهم وبينكم . فقال له : فكم تريد أن يكون مبلغ القطيعة التى نقوم بها ؟ قال : ألفى ألف دينار . فقال : حتى أعودَ إلى شاور بهذا الخبر وأرْجع إليكم بالجواب، فلا تبرحُوا من مكانكم . فقال مُرى : بل ننزل على بلبيس حتّى تعود .

وكان قد كتب إلى شاور : إنّى قد قصدت الخدمة على ماقرّرته لى من العطاء فى كلّ عام ، فكتب إليه شاور : إنَّ الذى قرّرتُه إنما جعلته لك متى احْتَجْتُ إلى نجدتك أو إذا قدم علىَّ عدوّ ، فأمّا مع خلُو بالى من الأعداء فلا حاجة لى إليك ولالَكَ عندى مقرّر . فأجابه : لابدّ من حضورى وأخْذِى المقرّر . فعلم شاور أنّه قد غَدَر وخان الأيمان ، ونقض العهود ، وطمع فى البلاد . فجمع الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة ؛ وسيّر إلى بلبيس حفنة من العسكر ، ونقل إليها ماتحتاج إليه من الأقْوات والغلاّت .

فنزل مُرى على بلبيس أوّل يومٍ من صفر ، وكتب عدّةٌ من أعيان المصريّين كُتباً إلى مُرى يعدُونه المساعدة ، لكراهتهم فى شاور ، منهم علم الملك ابن النّحّاس ، ويحي

---

(١) حصن صغير جنوبى فلسطين ، بينها وبين البحر فرسخ ، حصنه أملريك الأول ، قريبا من غزة بينها وبين مصر ، وأقام به فرسان الداوية أو المعبد ، وتسمى أيضا الدارون ، وهى فى موقع دير البلح الحالية . انظر Saladin; p. 106 وكذلك : The Crusaders in the East; p. 199 ؛ معجم البلدان : ٤ : ١٣ .

(٢) أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد الهكارى . وسيكون له دور كبير فى تجميع الكلمة حول صلاح الدين عند توليه وزارة مصر بعد شيركوه ، كما سيأتى . توفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة بعد حياة حافلة بالكفاح الحربى والعلمى إلى جانب صلاح الدين فى مصر والشام .

ابن الخيّاط ، وابن قَرْجَلَة ، وجماعة ؛ فقَوِى الفرنج . وعندما قدم مرى إلى بلبيس أرسل إلى طىّ بن شاور ، وكان ببلبيس ، أين ينزل ؟ فقال لرسوله : قل له يَنْزل على أسنَّة الرّماح . فغضب من هذا وجعله سبباً لنقْضِ ما قرّره مع شمس الخلافة ، وحاصر البلد حتى افتتحها قهراً بالسيف يوم الثلاثاء ثانى صفر ، وأخذ الطّارى والناصر ، ابنى شاور [١٥٨ ب] أسيرين ، وقتل جميع مَنْ كان فيها وأسَرَهم وسَبَاهُم ، ونهب سائر ما تحتوى عليه ؛ وأسر المعظم سليمان بن شاور وقيس بن طىّ بن شاور .

وأرسل إلى شاور يقول له : إنَّ ابنك قال أيحسب مرى أنَّ بلبيس جُبنةٌ يأكلها ! نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة[1] . فصعد شاور إلى العاضد وسأله مكاتبةَ نور الدّين وطلب معُونتِهِ فإنَّ الفرنج قد ملكوا بلبيس والمسلمون يضعفُون عن وَقْفِهم ، وأنه متى حصل التَّقاعُدُ أُخِذت مصر وأسر الفرنج مَنْ فيها من المسلمين ؛ ويحثّه على إرسال من يتدارك هذا الأمر[2] . فكتب العاضد إلى نور الدّين برأى شمس الخلافة ، فإنّه اجتمع بالكامل ابن شاور وقال له : عندى أمرٌ لا يمكننى أن أُفضِى به إليك إلاَّ بعد أن تحلف لى أنّك لا تُطْلِعُ أباك عليه . فلمّا حلف له قال : إنَّ أباك قد وَطَّن نفسه على المصابرة ، وآخرُ أمرِهِ يُسلّمُ البلد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدّين ؛ وهذا عينُ الفساد ؛ فاصعَدْ أنْت إلى العاضد وألْزِمْه أن يكتب إلى نور الدّين فليس لهذا الأمر غيرُه . فصعد الكامل إلى الخليفة العاضد وكتبا الكتاب وأرسلاهُ إلى نور الدّين . فقيل للعاضد لِمَ لا أَطْلَعْت وزيرك على ذلك ؛ فقال أعرف أنّه لا يوافقنى عليه لكراهته فى الغُزّ وأنا أعلم من أىّ باب أدخل عليه .

---

(١) قارن كتاب الروضتين : ١ : ٤٣١ نقلا عن ابن أبى طى فى كتاب السيرة الصالحية .

(٢) يتناقض هذا الخبر الذى يقرر أن شاورا طلب من العاضد أن يكتب إلى نور الدين مع ما يأتى بعده مباشرة من أن العاضد كتب إلى نور الدين بتحريض الكامل ابن شاور برأى شمس الخلافة مما أدى إلى اعتراض شاور على هذا التصرف . ويذكر أبو شامة أن شاورا عجل لملك الفرنج بمائة ألف دينار صلحا خديعة له ، وواصل كتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفرا ، « وعامل الفرنج بالمطـــال ، ينقدهم فى كل حين مالا ، ويطلب منهم إمهالا ، وما زال يعطيهم ويستمهلهم حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين » . كتاب الروضتين : ١ : ٣٩١ – ٣٩٢ . وقد يبدو من الجهود التى بذلها شاور فى محاولة تحصين الفسطاط ثم فى إحراقها حتى لا تصلح لمقام الفرنج بها – وسيرد تفصيل هذا – أن شاورا هو الذى أخذ المبادرة انطلاقا من السياسة التى اتبعها والتى تتمثل فى محاولة ضرب قوة نور الدين بقوة الفرنج حتى يظل الطرفان فى شغل عن مصر ويظـــل هو فى وزارتها . راجع أيضاً كتاب الروضتين : ١ : ٤٣٢ حيث يروى أبو شامة نقلا عن ابن أبى طى عن والده أن الكامل ابن شاور هو الذى صعد إلى العاضد بتحريض شمس الخلافة محمـــد بن مختار ليحمله على الكتابة إلى نور الدين .

وأرسل إلى شاور يقول أَيْنَ استدعائى الغُزّ من المسلمين لنُصرة الإسلام من استدعائك الفرنج للإعَانة على المسلمين . فقال للرّسول : قل لمولانا عنّى أنت مغرور بالغزّ والله لئِنْ يَثبُت لهم رجل بديلر مصر لأ كانت عاقبتُه وخيمةً إلاّ عليك . فلمّا بلغَهُ ذلك قال : رضيتُ أنْ تكون إسْلاميّة وأكون فداء المسلمين .

فوافت كتب العاضد وكتُبُ جماعة من الأعيان إلى نور الدين بحلب ، فانزعج لذلك وجمع الأُمراء للمشورة فأشارُوا بإرسال أسد الدّين شيركوه . وكان بحمص وقد وصلت إليه الكتب من مصر باسْتِدْعَائِه لإنجازهم وإنقاذهم مما نزل بهم ، فخرج منها يريد السّلطان بحلب ، وخرج رسول السّلطان من حلب بطلبه ، فتلاقَيَا بباب مدينة حلب ، وعَادَا . فلمّا رآه السّلطان عَجِبَ من سرعة مجيئه ، فأعلمه بمُوَافاةِ الكُتُب إليه تَسْتَدعيه إلى مصر ؛ فسُرّ بذلك وتفاءل به ، وأعطاه مائتى ألف دينار وثياباً وسلاحاً ودَوَابّ ، وحكّمَه فى العسكر فاختار أَلْفَىْ فارس وجمع فسار فى ستّة آلاف فارس .

وخرج معه نور الدّين إلى دمشق ، فوصل إليها فى سلخ صفر ، وجهّز أسد الدين وأعطى نورُ الدّين كلّ فارس ممّن معه عشرين ديناراً مصريّة[1] غير محسوبة عليه من جامكيّتِه[2] وأضاف إليه جماعة من الأمراء ، منهم عز الدّين جُرْديك ، وغرس الدين قِلِج ، وشرف الدّين بزغش ، وعين الدولة الياروقى ، وقطب الدّين ينال المنبجى ، وصلاح الدّين يوسف بن أيّوب . وكان صلاح الدّين كارهاً مسيره إلى مصر كأنّما يساقُ

---

(١) كان التعامل بالدنانير المصرية يجرى وزنا ، على نظام العيار الذهبى ، والعبرة فى وزنها بالمثاقيل ، وضابطها أن كل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم ، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطا ، وقدربثنتين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط . ولمـا كانت وحدة التعامل هى الدينار الذهبى صار من الطبيعى أن تقوم به أسعار الحاجيات وأجور المستخدمين والعمـال فتأكدت بذلك العلاقة الوثيقة بين الأسعار والرواتب والنقد الذهبى . أما الدنانير غير المصرية ، والتى يؤتى بها من البلاد الإفرنجية وبلاد الروم ، وهى دنانير معلومة الأوزان كل دينار منها بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصرى ، واعتباره بصنج الفضة المصرية ، وهذه الدنانير مشخصة عليها صور الملك الذى تضرب فى زمانه وصور بعض القديسين — فكان التعامل بها عددا لا وزنا . وتسمى هذه الدنانير الأجنبية بالدنانير الأفرنتية ، أى الفرنسية ، ويعبر عن بعضها بالدوكات وهذه كانت تضرب بالبندقية . صبح الأعشى :٣: ٤٤٠ — ٤٤٣ ؛ حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين : ٣٠٠ — ٣٠٧. ومن هذا يتبين أن الدنانير المصرية التى أعطاها نور الدين لرجاله فى هذه الحملة كانت من عوامل التشجيع عـلى تأدية المهمة التى كانوا مقدمين على تأديتها .

(٢) الجامكية رواتب الجند ، نقداً أو عينا . قوانين الدواوين : ٣٥٥ ، ٤٥٣ ؛ Dozy; Supp. Dict. Ar. .

إلى الموت فأخرجه نور الدين كَرْهاً ليَحقّ قول الله سبحانه إذ يقول : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ »[1] . فإنَّ نورَ الدّين أحبَّ مسير صلاح الدّين إلى مصر فكان مسيرُه إليها لخروج الملك عن أولاده ، وكره صلاح الدّين مسيره إلى مصر فكان فى مسيره إليها تملُّكه إيّاها وغيرَها من الأقاليم[2] .

وسار شيركوه من دمشق فى ثانى عشر ربيع الأوّل وتقدّم الفقيه عيسى الهكارى إلى العاضد سرًّا وخفية من شاور ليحلّفَه على أشياء .

وأمّا مُرى فإنّه كثرت أمراءُ الفرنج عنده لقصد سَبْى بلبيس ، فغزاها برجاله ، وأمر بإخراج الأسرى من أهل بلبيس إلى ظاهر البلد ، وركب وقد اعتقل رمحه[3] وحمل على الأَسْرى حتى فرقهم فرقتين ، فجعل لنفسه الفرقة التى وقعت عن يمينِه ، وأنعم بالفرقة اليسرى على أهل عسكره ، وقال لمن صار إليه من الأَسْرَى : قد أطلقتكم شكراً لله على ما أَوْلانى من فتح مصر فإنى ملكتها بلا شكٍّ . ومازال واقفاً [١٥٩ ا] حتى عدّى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل[4] ، وأخذ عسكره أسراهم فاقْتَسَمُوهم ، فبقُوا فى أيدى الفرنج بعد ذلك نحو الأربعين سنة وهلك كثيرٌ منهم هنالك ، وأفلت بعضهم .

وكان شمس الخلافة قد صار إلى مُرى قبل أخذه مدينة بلبيس بإجابته إلى القطيعة التى طلبها ، فعاقه عنده حتى أخذ بلبيس ، كما تقدّم ذكرُه ثم أَذِنَ له فى الانصراف إلى القاهرة ، واعتذر بأنّه بلغه عن (قيس)[5] بن طىٍّ أشياء أَمَضَّتْهُ حتى فعل ما فعل ،

---

(١) سورة البقرة : آية : ٢١٦ .

(٢) إشارة إلى تطورات الأحداث بعد ذلك من وفاة شيركوه بعد شهرين من توليه وزارة العاضد الفاطمى ليخلفه بعد ذلك صلاح الدين ، ابن أخيه ، الذى استقرت أحواله بإسقاط الفاطميين ثم باستيلائه على الشام بعد وفاة نور الدين محمود ؛ فكان استقرار ملك صلاح الدين نذيرا بتدهور سلطان أسرة زنكى . و يروى أبو شامة أن شيركوه قال ليوسف بن أخيه فى هذه المناسبة : تجهز يا يوسف ؛ فأحس صلاح الدين كأنما ضربوا قلبه بسكين ، وقال لعمه : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبدا . . . فلما أمره نور الدين بالتحرك وجهزه قال صلاح الدين : فسرت وكأنما أساق إلى الموت . كتاب الروضتين : ١ : ٣٩٤ .

(٣) اعتقل رمحه جعله بين ساقيه وركابه . القاموس المحيط .

(٤) بفتح الحاء والميم : قرية تابعة لمركز بلبيس بمحافظة الشرقية على مسافة نحو ربع ساعة غربى خط السكة الحديدية للوصلة إلى بلبيس ، وتبعد عن بلبيس غرباً بنحو ساعة ، وفى جنوب منية ربيعة . الخطط التوفيقية : ١٦ : ٦٢ .

(٥) ما بين القوسين للتوضيح استعانة بما سبق .

وأنّه باقٍ على ما تقرّر معه ببقاء شمس الخلافة وأشار على شاور بالاحتراز وقال إنّ الرّجل مخَاتل . وأُنفذت الكتب إلى نور الدّين .

وكان شاور قدْ شرع فى بناء سُور على مدينة مصر واستَعْمَل فيه النّاس فلم يَبْق أحدٌ من المصريّين إلاّ وعمل فيه ؛ وحفر مِنْ ورائه خندقاً ، فلم يكمل من ناحية النّيل . وعمل فى السور ثمانية أبواب أحدها بدار النّحاس على ساحل البحر ، هدم فى سنة[1] وخمسين وستّمائة وآخر بجانب كوم البوّاصين ، وثالث على سكّة سوق وَرْدَان سقط سنة إحدى وستّين وستّمائة ، وباب فى طريق زين العابدين ، وبابٌ عرف بباب الصّفاء ، وباب بحرى مُصلّى الأموات سقط قُبيْل سنة خمسين وستّمائة ، وباب عند أقْمِنَة الجير مما يلى درب السريّة ، وباب لقنطرة بنى وائل وتحته قنطرة بنى وائل التى تصبّ فى بركة الشُّعيبيّة[2] ، التى كانت قديماً بستان الأمير تميم بن المعزّ ، وكان الماء يدخل إليها من خليج مصر .

وسار مُرى بعقيب مسير شمس الخلافة عنه يريد منازلة القاهرة بعد ما أقام ببلبيس خمسة أيام ، فَداخَلَ النّاس منه رعب شديد وخوف عظيم ، فاجتمعُوا بالقاهرة ووطّنُوا أنْفُسَهم على الموت . وكان هذا من لطف الله فإنه لو قُدّر أن الفرنج أحسنوا السّيرة فى أهل بلبيس لكان النّاس لا يدافِعُونهم عن القاهرة ألبتّةَ لما فى قلوبهم من كراهة شاور . فما هو إلّا (أنْ) قَصَد مرى القاهرة وإذا بشاور قد قام فى حريق مصر ، وأمر شاور النّاس بالانتقال مِنْها إلى القاهرة ، وحَثّهُم على الخروج منها . فتركُوا أموالهم وأثقَالَهُم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وحُرَمِهم ؛ وقَدْ ماجَ الناس واضْطَرَبُوا اضطراباً عظيماً .

---

(١) بياض بالأصل يتسع لكلمة لم أهتد إلى ما يكمله .

(٢) كانت تجاور بركة الحبش – من بحريها – بين الجسر الذى كان يعرف باسم جسر الأفرم والجرف الذى أقيم عليه الرصد . كان الماء يدخل إليها من النيل ، ولها خليجان ، أحدهما قبليها بجوار قنطرة الصاحب المعروفة باسم قنطرة المعشوق ، والثانى من بحريها ويقال له خليج بنى وائل ، وعنده القنطرة التى نسب إليها باب القنطرة ، قنطرة بنى وائل . ومساحتها أربعة وخمسون فدانا . (والأفرم هو عز الدين أيبك خازندار الصالحى النجمى الذى بنى جامع الرصد وأنشأ بجانبه رباط الأفرم للصوفية بسفح الرصد المشرف على بركة الحبش فى سنة ثلاث وستين وستّمائة . وهو الذى أنشأ جامع الشعيبية بظاهر مصر أيضاً) . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٥٨ – ١٥٩ ، ٤٣٠ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٣٤١ – ٣٤٢ . وفى صبح الأعشى تعريف بباب القنطرة من أبواب القاهرة جاء فيه أنه منسوب إلى القنطرة التى أمامه وهى من بناء القائد جوهر بناها عند خوفه من القرامطة ليجوز عليها إلى المقس . صبح الأعشى : ٣ : ٣٥٠ .

ووقعت النّار فى الأسطول فخرج العبيد إلى مصر وقد انطلقت النار فى مساكنها فانتهبوا سائر ما كان بمصر. وبلغ بالنّاس الحال أنْ كانت الدّابّة تُكْرَى من مِصْر إلى القاهرة ببضعَة عشر ديناراً والجمل بثلاثين ديناراً . ونزلوا بمساجد القاهرة وحمّامَاتها ، وملأُوا جميع الشوارع والأزقّة ، وصارُوا مَطْرُوحين بعيالهم وأولادهم على الطّرُق وقد ذهبت أمْوَالهم وسُلِبَتْ عامّة أحْوَالهم ؛ وهم مع ذلك ينتظرون هجومَ الفرنج على القاهرة وقَتْل رجالها وسَبْىَ من بها من الحريم والصّبيان .

وكان ابتداء الحريق بمصر فى يوم (الثلاثاء)[1] التاسع من صفر الموافق له ثامن عشر هاتور ؛ واستمرّت النارفى المساكن أربعة وخمسين يوماً ، والنّهّابة تهدّ ما هنالك وتحفر لطلب الخبايا .

ونزل مُرى بعساكره على بركة الحبَش فى يوم (الأربعاء)[2] العاشر من صفر ، فخرج إليه شمسُ الخلافة . فلمّا دخل إليه سأله أن يَخْرُجَ معه إلى باب الخيمة ، فخرج ؛ فأرَاهُ شمسُ الخلافة جهة مصر وقال له أترى دُخاناً فى السّماء ؟ قال : نعم . قال : هذا دخان مصر ما أتيتُك إلاّ وقد احترقت بعشرين ألف قارُورة نفط وفرّق فيها عشرةُ آلاف مشعل ، وما بقِى فيها ما يؤمّل بقاؤُه ونَفْعُه ؛ فَخَلِّ الآن عنك . فقال مُرى : لابدّ من النّزول على القاهرة ومعى فرنج من هذا البحر قد طمعوا فى أخذها .

ثمّ رحل فنزل على القاهرة فى عاشر صفر ممّا يلى باب البرقيّة نُزُولاً قَارَب به البلد حتّى صارت سهامُ الجرخ[3] تقع فى خيمه[4]. وقاتل أهل القاهرة قتَالاً شديداً وحفظوها

---

(١) بياض بالأصل . وفى التوفيقات الإلهامية أن أول صفر من هذه السنة يوافق الاثنين الثامن من هاتور لسنة خمس وثمانين وثمانمائة ، حسابا ، فيكون التاسع من صفر موافقا لليوم السابع عشر من هاتور ، مع أنّ المقريزى يذكر فى المتن أن تاسع صفر يوافق اليوم الثامن عشر من هاتور ، ولذلك افترضنا أن أول صفر رؤية لا حسابا ، وافق يوم الثلاثاء ، وهذا ما أضيف بالمتن بين قوسين .

(٢) بياض بالأصل ، وتحديده بالأربعاء إضافة انطلاقا من الملحوظة السابقة .

(٣) الجرخ وجمعه الجروخ : آلة حربية تستعمل لرمى السهام والحجارة والنفط المشتعل ، ويسمى القائم على تشغيلها : الجرخى. Dozy; Supp. Dict. ar.

(٤) يوجد بهامش الأصل فى هذا الموضوع عبارة نصها : « بخط المصنف . ومن طريف ما وقع فى هذه النوبة أن شيخا من أجناد مصر يقال له الأمير الصادق ، عرف بذلك لكثرة كذبه ، كان مقدما على طوائف من الجند ، وكان يثير الفتن على السلاطين ، وهو الذى كان أبدايقول لجند صيحوا على السلطان : لا لا وإذا كان لقاء فى الحرب تحيز بطائفته على كوم أو موضع =

وبذلُوا جهدهم . واشتد الفرنج فى محاصرة القاهرة وضيّقوا على أهلها حتى تَزَلْزَل النّاس زِلْزَالاً شديداً وضعُفت قواهُم ، وشاور هو القائم بتدبير الأُمور ، فتبيّن له العجز عن مقاومة الفرنج وأنّه يضعف عن ردّهم . وخاف من غَلَبَتِهَم فرجع عن مقاومتهم إلى مخادعتهم وإعْمَالِ الحيلة ؛ فأرسل شمس الخلافة إلى مُرى يطلبُ منه الصُّلح على أن يحمل إليه أربعمائة ألف دينار معجلة .فأجاب إلى ذلك . [١٥٩ب] ويقال إنّه خوّفه من نور الدّين واعتذر بأنّه لولا الخوفُ من العاضد ومَنْ معه من المسلمين وإلاّ سَلّمه البلد ؛ وإنّه تقدّم له بألف ألف دينار. فتقرّر الصّلح .

على أنّ مُرى قال لا أسمع من كلام شاور فإنّه غدّار ، ولابدّ من كلام الخليفة العاضد. فمشى أبو الفتح عبد الجبّار بن عبد الجبّار بن إسماعيل بن عبد القوىّ ، المعروف بالجليس قاضى القضاة وداعى الدّعاة ، ومعَهُ الأُستاذ صنيعة الملك جوهر ، بَيْن الفرنج وبين النّاس حتّى تقرّر الأمر على تعجيل مائة ألف دينار وحَمْلِ الباقى بعد ذلك مع القطيعة المقرّرة كلّ سنة ، وزيادة عشرة آلاف دينار وعشرة آلاف إردب غَلّة على ما يُقْتَرح من أصنافها . فأرسل العاضدُ القاضىَ الفاضل عبد الرّحيم إلى الشيخ الموفّق ابن الخلال كاتب الدّست ، وكان مريضاً والفاضل ينوب عنه بتعيين الكامل بن شاور ، وقال له : استَشِرْهُ فى هذا الأمر . فمضى الفاضل إليه ، وعَرَض ما تقرّر عليه ، وبلّغه عن العاضد ما أشار به مِنْ أَخْذِ رأيه فى ذلك . فقال : قَبِّل الأرض عنى لمولانا وقُلْ له عن مملوكه إنْ وعَدَ المشترى وصَبَرَ البائع فليْسَتْ بغَالِية ، وبين قِيلَ وقَالَ يتصرّم الوقت .

وشرع شاور فى حَمْل المال ، فلم يَجِدْ فى حاصل الخبَايَا بالقصر سوَى مائتى ألف دينار مدفونة فى أحد كُمّى المجلس مِنْ ذخائر الحافظ ، أطْلَعهم عليها أُستاذٌ من أستاذى القصر ؛ فأُخْرِجت وحمل إلى الفرنج منها على يد ابن عبد القوى مائة ألف دينار ، فأخذوها بعد امتناع . وَوَقع الطّلب من أهل القَاهرة ومصر ، فلم يتحصّل من النّاس إلاّ نحو الخمسة

= مرتفع فإذا رأى العدو قد أقبل نزل هاربا وهو يقول لجند : أرحلكم والطريق ، فينكسر الجيش بحركته . فلما كانت هذه الحادثة سلم إليه برج من أبراج سور القاهرة ، وهو برج البرقية ، كما سلم لغيره من مقدمى الأجناد بقية أبراج السور . وكان هذ المقدم لا ينزل من السور ولا يفارقه قدر شبر لفزعه من الفرنج ، فإذا حمل الفرنج على المصاف الذى قدام البرج الذى هو فيه يقول : الأوباش الذين أمرتهم » . أهـ .

آلافَ دينار ، لِفَقْر أهل مصر وسُوء حَالِهم وذهاب أموالهم فى الحرْق والنَّهب بحيث صارُوا لا يجدُونَ القُوتَ عجْزاً عنه ، ولأنَّ أهل القاهرة أكثرهُم الجندُ وأهل الدّولة وأتباعهم فقال الفقيه عُمارة[1] :

يارَبِّ إنِّى أرَى مصراً قــد انتبهت	لهــا عيونُ اللَّيالى[2] بعــد رَقْدتها
فاجْعَلْ بها[3] ملَّة الإسلام باقيـــةً	واحْرُس عُقود الهُدَى[4] من حلّ عُقْدتها
وهَبْ لنا منك عوناً نستجِيرُ بـــه	من فتنة يَتلظَّى جَمْرُ وَقْدَتِها

فبينَمَا الفرنج فى استِحْثَاثِ أهل القاهرة فى حَمْل المـال إذْ وصل إليهم فى مستَهلِّ ربيع الآخر خبرُ قدوم أسد الدّين بالعساكر فأزعجهم ذلك ورحلوا عن القاهرة يوم السّبت ، ثالث ربيع الآخر ، ومعهم من الأسْرَى اثنا عشر ألفًا ما بين رجل وصبيٍّ وامرأة . فنزلوا على بلبيس ، وساروا منها إلى فاقوس .

ونزل أسد الدّين بالمقس إلى اللّوق خارج القاهرة يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر ، فخرج إليه العاضد وتلقَّاه .

وكان شاور لمّا بلغه وصول شيركوه إلى صَدْر[5] أخرج شمس الخلافة إلى مُرى وقال له : قد وقف المال علينا ، وقد جئت إليك أستَوْهِبُ منك بَعْضَ ما قَطَعْت علينا . فقال مُرى : اطلُبْ ما شئت . قال : تهبُ لى من الألْفَى ألفٍ ألفَ ألفٍ . قال : قد فعلتُ فقال شمس الخلافة : ما بلغنى أنَّ ملكًا وهب مثل هذا لقومٍ هم فى مثل حالنا . فقال مُرى : أنا أعلم أنك رجل عاقل وأنَّ شاورًا ملك ، وأنّكما ما سألتُمانِى أن أهَبَ لكما هذا المال العظيم إلّا لأمرٍ قد حدث . فقال : صدقت ؛ هذا أسد الدّين قد وصل إلى صدر نُصْرَةً لنا وما بقِىَ لك مقام ؛ وشاور يقول لك أرى أنْ ترحَلَ ونحن باقون على الهُدْنة فإنّه أوْفَقُ لنا ولك ،

---

(١) فى النكت العصرية : ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) فى النكت : عيون الأعادى .

(٣) فى الأصل : واجعل لها . والتصحيح من النكت العصرية .

(٤) فى الأصل : واحرس عقود العدا . والتصحيح من النكت العصرية .

(٥) يذكر ياقوت أنها كانت — على زمنه — قلعة خرابا بين القاهرة وأيلة . ويحدد أبو شامة ، نقلا عن ابن أبى طى ، بعدها عن القاهرة بيومين . معجم البلدان : ٥ : ٣٤٤ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٤١٩ .

وإذا حصل هذا الرّجل عندنا أَرْضَيْناه من هذه الألف أَلف بشيء وحَمَلْنا الباق إليك متى قدرْنا، وإنْ نحن أخرجنا فى رضاهم أَكثرَ من هذا المال عُدْنا عليك بما يبقى علينا من المقدار .
فقال مُرى : أنا راضٍ بذلك . فقال : وأَنْ تُطْلِق ابنَ طيّ بن شاور وجميع مَنْ فى عسكرك من الأَسارى ، ولا تأخذ مِنْ بلبيس بعد انصرافك شيئا . فأَجاب إلى ذلك ، وأطلق ابن شاور وَرَحل .

ولمّا قارب شيركوه القاهرة خرج شاور إلى لقائه وقابله بالاحترام والإكرام ، وأشار عليه باتّباع الفرنج . فلمْ يرَ ذلك واعتذر بما هُمْ فيه من التّعب .

ونزل أسد الدّين بظاهر القاهرة ، ودخل على العاضد فخلع عليه فى تاسعة بالإيوان ، وعاد إلى [١٦٠ ا] مخيّمهِ ، وقد فَرِحَ النّاس بقُدُومه . وأُجْرِيَتْ عليه وعلى عساكره الجراياتِ الكبيرة والإقامات الوافرة . وثَقُل ذلك على شاور ولم يقدر على عمل شيء لما عرفه من مَيْل العاضد إلى شيركوه ؛ وشرع يُمَاطِل بما تقرّر لشيركوه ولنور الدّين وهو يركب كلّ يوم إليه ويسير معه ، ويَعِدُه ويمنّيه .

وعزم على أن يعمل دعوةً ويُحْضِرَ شيركوه وجميع أمرائه ، فإذا صارُوا إليه قبض عليهم واستخدم مَنْ معهم مِن الجند يمنع بهم الفرنج . فنهاهُ ابنُه شجاع عن ذلك وقال : والله لئن عزمت على هذا لأُعَرِّفنَّ شيركوه . فقال : يا بنيّ ، والله لئن لم نفعَلْ هذا لنُقْتلَنَّ جميعًا .
قال : صدقت ؛ ولأَنْ نُقْتَل ونحنُ مسلمون خير من أن نُقْتل وقد ملكها الفرنج ؛ فإنّه ليس بينك وبين عَوْد الفرنج إلّا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدّين لم يُرسِلْ معه فارسًا واحدًا . فترك شاور ما عزم عليه .

ولمّا طال مِطَال شاور على الغزّ اتّفق صلاح الدين يوسف وعز الدّين جُرْديك على قتل شاور .

واتّفق أنّ شاورًا رأى فى منامه كأنّه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يدَيْه دواتُه وهو يوقّع ، والحاجبُ بين يدَيْه يتناوَلُ منه التوقيع ؛ فقال : مَنْ هذا الذى جلس فى مجلسى ووقع من دواتى ، فقيل له : هذا محمّد رسولُ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ؛ فقال : وما يصْنَع محمّد عندى ؛ أما كان له فى مملكة غيرى مصنع . ثم إنّه قام إليه وضربه

بسيفه حتّى قتله وألقاه بظاهر الدّار . فلما استيقظ هَالَه ما رآه ، واستدعى أبا الحسن على بن نصر الأرتاحى العابد ، وكان نادرًا فى علمه ، وقصّ عليه ما رأى . فقال له : هؤلاء الّذين فى القصر من نَسْل رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ويكون هلاكهم على يدك . فأمره بكتمانه ؛ فلم يظهر حتّى قُتل شاور .

ويُقال إنّ العاضد خرج متنكّرًا إلى شيركوه وأمره بقتل شاور ؛ فركب على عادته إلى شيركوه ومعه الطّبل والبُوق وخرج من باب القنطرة . فلمّا صار فى مخيّم الغزّ تلقّاه صلاح الدّين وجُرديك فى جماعتهم وأَعْلَمُوه أنّ أسد الدّين توجّه إلى القرافة ، فقال نمضى إليه . فسارُوا جميعًا وصلاح الدّين وجُرديك عَنْ يمينه وشماله ، وكان اليوم كثير الضّباب ، فتناول صلاح الدّين شاور على غِرّة هو وجرديك وألقياه عن فرسه إلى الأرض ، وأحاط أصحابهُما بمن مع شاور فانتهبوهم وفرّوا عنه . وأُخِذ أسيرًا إلى المخيّم ، وأرسلوا إلى شيركوه ، فحضر . وبلغ ذلك العاضد فأنفذ فى الحال إلى شيركوه أحد الأستاذين بسيف وقال : هذا غلامُنا ولا خير فيه لك ولا لنا ، فأَمْضِ حكم الله فيه . فقتل فى يوم السّبت السابع عشر من ربيع الآخر ، وحُمِلت رأسُه إلى العاضد[1] .

وفرّ الكامل شجاع بن شاور هو وأولاد أخيه إلى القصر ، فكان آخِرَ العهد بهم ، وأُحْضِرت رءُوسُهم يوم الاثنين رابع جمادى الأُولى . وبعث شيركوه يطلبهم ، فأرسل إليه العاضد طبقًا من فضّة مغطًّى ؛ فلمّا كشف عنه وجد فيه رأس شجاع ورءُوسَ أولادِ أخيه ، فتأسّف على قتل شجاع لِمَا كان يبلغه عنه من مَنْعِهِ أباه مِنْ عَزْمه على الفتك بهم .

وكانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع والنّوازل فإنّه أَطْمعَ الغزّ والفرنج فى البلاد وجَرّهم إليها ؛ فأحرق مصر وأزال نِعَمَ أهلها وأَذْهَبَ أموالهم ؛ وكان السّببَ فى إزالة الدّولة الفاطمية من ديار مصر وتملُّكِ الغزّ لها .

وكان مع ذلك مُنقَادًا لولده الكامل قد أطلقه وسلّم الأمر إليه بحيث إنّه كان يأتى

---

(١) يروى أبو شامة عن العماد الأصفهانى الكاتب ، وزير صلاح الدين ، أن أسد الدين « أنفذ الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراز ، وقال له : أخشى عليك من عندى من الناس . فلم يكترث بمقاله ، وركب على سبيل انبساطه واسترساله ، فاعترضه صلاح الدين فى الأمراء النورية ، وهو راكب على عادته فى هيبته الوزيرية ، فبغته وشحته ، وقبضه وأثبته ، ووكل به فى خيمة ضربها له وحاول إمهاله ، فجاء من القصر من يطلب رأسه ، ويعجل من العمر يأسه ، وجاء الرسول بعد الرسول ، وأبوا أن يرجعوا إلا بنجح السول ، فحم حمامه ، وحمل إلى القصر هامه » . كتاب الروضتين : ١ : ٣٩٨ .

إلى داره فيحتجب عنه . وكان ضيق العطن ، لا يصبر على شيء ممّا يُنقل إليه من الأخبار . وكان إذا سئل وهو فى الخدمة لا يردّ سائلا فى شىء . وكان شديد النّكال إذا عاقب ، فتكشّفَتْ فى وزارته الثّانية التى قُتِل فيها صفحاته ، وأحْرَقت كافّةَ أهل مصر لفحاته ، وأغرقتهم نفحاته فغصّه الدّهر وعضّه ، وأوْجعه الثّكل وأمضّه . وكان عاقبة أمره القتل والعار ، وسوءُ المنقلب والدّمار .

ثمّ إنّ أسد الدّين ركب بعد قتل شاور بجموعه ودخل [١٦٠ ب] إلى القاهرة فى يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر يريد لقاء الخليفة العاضد ، فهَالَه ما رأى من كثرة اجتماع النّاس وتخوّف منْهُم ، فأراد أن يُفرّقهم ، فقال لهم: إنّ أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ؛ فتسارَعُوا إليها وانتهبُوا سائر ما كان فيها . فصعد شيركوه إلى القصر ، وخلعَ عليه العاضد خلع الوزارة ولقّبه بالملك المنصُور أمير الجيوش . ونزل إلى دار الوزارة[1] حيث كان ينْزل شاور ومَنْ قَبْله من الوزراء ، فلم يجِدْ ما يجلسُ عليه لما شملها من النّهْب . فجلس للهناء وغلب على الأمر .

وخرج إليه التّوقيع بخطّ القاضى الفاضل وإنشائه ، فقرأه الجليس ابن عبد القوى قاضى القضاة ، على رءُوس الأشهاد ، وفى أعلاه بخط العاضد : « هذا عهدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله ، وتقليد طوْق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهْلا بحمله ؛ والحجّة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سُبُله . فخُذْ كتاب أمير المؤمنين بقوّة ، واسحَبْ ذَيْلَ الفخار بأنّ خدمتك اعتزّتْ بأن اعتزَتْ إلى بنوّة النبوّة ؛ واتّخِذْ أمير المؤمنين للفوز سبيلا ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا[2] » . وهو توقيع كبير[3] .

---

(١) أنشأها الأفضل بن بدر الجمالى ، أمير الجيوش ، تجاه رحبة باب العيد من أبواب القصر الشرق الكبير ، وعرفت باسم الدار الأفضلية نسبة إلى منشئها ، وأصبحت من بعد الأفضل مقراً لكل من تولى الوزارة . وقيل إن منشئها أمير الجيوش بدر الجمالى ، وينفى المقريزى هذا استنادا إلى كتب ابتياعات الأملاك القديمة . ويضيف إلى هذا أن الدار التى بناها بدر كانت بحارة برجوان ، وهى الدار التى عرفت باسم دار المظفر . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٣٨ — ٤٣٩ .

(٢) يختلف نص هذا التوقيع عن النص الذى ورد فى كتاب الروضتين : ١ : ٤٠٢ وهو هناك : « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله ، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله . فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة ، واتخذه للفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » . ويتفق النص الذى أورده القلقشندى مع نص كتاب الروضتين . صبح الأعشى : ٩ : ٤٠٦ ، وكذلك النص الذى أورده النويرى فى نهاية الأرب : ٢٨ .

(٣) جاء منه فى كتاب الروضتين : ١ : ٤٠٢ — ٤٠٣ : ونسخة المنشور « من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ،=

وكتب القاضى الفاضل إلى نور الدّين محمود بن زنكى كتابًا بأنْ يُقِرَّ شيركوه عنده بمصر وأنّه فوّض إليه الوزارة وأمْرَ الجيوش ، تاريخه سابع عِشْرِى ربيع الآخر ، وكتب العاضد علامته بين سَطْريْه الأوّلَيْن بخطّه « الله ربّى » ؛ فعاد الجواب بالامتثال[1] .

وسلك أسد الدّين مع العاضد مسالك الأدب حتّى أعْجِب به ، ومال إليه . وركب إلى مصر فرآها مشوّهةً بالحريق وقد تَلِفَتْ فيها أماكن وسلمت أماكن ، وتَشَعّثَ الجامع ؛ فشقّ عليه ، وعاد . وقد حضر إليه الأمير ابن ممّاتى والقاضى الفاضل ، فأمر بإحضار أعيان المصرّيين الذين جَلَوْا عن مصر فى الفتنة وصارُوا بالقاهرة ، فتغمّمّ لما نزل بهم وسفّه رَأْىَ شاور فيما فعله ، وأمرهم بالعَوْد إلى مصر . فشكوا ما حلّ بهم من الفقر وذهاب الأحوال وخراب المنازل ، وقالوا : إلى أىّ موضع نرجع وفى أىّ مكان نأوى . فقال : لا تقولوا هذا ، وعلىّ بإذن الله حراستكم وإعادتها إليكم بما كانت عليه وأحسن ؛ فاستَدْعُوا منّى كل مالكم فيه راحة ، فهى بلدى وربمّا أسكن فيها بينكم . فشكروا له ودَعَوْا .

وأمر فنودى على النّاس بالرُّجوع إلى مصر ، فتراجعُوا إليها شيئًا بعد شىء .

وجعل أسد الدّين اجتماعه بالخليفة العاضد فى الشبّاك على العادة . فأوّل ما اجتمع به قال له الأستاذ صنيعة الملك جوهر ، وكان أكبر الأستاذ ين وأفصحهم لسانًا ، وهو قائم على رأس العاضد : يقول لك مولانا لقد كنّا نؤثر مقامك عندنا أوّل طُرُوقك بلادنا ، ولكن أنت تعلم الموانع عنه ؛ ولقد تَيقّنّا أنّ الله عزّ وجلّ ادّخرك لنا نصرة على أعدائنا . فقال أسد الدّين شيركوه : يامولانا – بإمالة اللاّم – والله لأنْصَحَنّك فى الخدمة ولأجْعَلَنّ

= وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحارث شيركوه العاضدى ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته . سلام عليك ، فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين ، ويسلّم تسليما » . وتجد النص الكامل لمنشور تولية أسد الدين شيركوه الوزارة ، وهو من إنشاء القاضى الفاضل ، فى صبح الأعشى : ١٠ : ٨٠ – ٩٠ .

(١) يذكر أبو شامة أنه كثيراً ما كان يوجد فى كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين ، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال . فمن بعض مكاتباته : « وقد افتقر العبد إلى بعثته ، وأعوز عسكره يمن نقيبته ، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته ، لأنه ما يزال يرمى شياطين الضلال بشهابه الثاقب ، ويصمى معقل الشرك بسهمه النافذ الصائب » . كتاب الروضتين : ١ : ٤٣٧ . وسيرد بعد قليل ذكر شىء من ذلك . ويعلق أبو شامة على موقف نور الدين يقول : « لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه كون أسد الدين وزر للعاضد فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم ، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب . هذا إن صح ما نقله ابن أبى طى . والله أعلم » . نفس المصدر.

دولتك بعوْن الله قاهرة . فقال الأستاذ : يقول لك مولانا الأَمل فيك هذا وأكثر . ثمّ جُدّدت له الخلع وأُفِيضت عليه ، ونزل إلى داره .

وحسن عنده موقع الجليس ابن عبد القوى ، قاضى القضاة وداعى الدّعاة ، وأثنى عليه وشكره ، وقال لولا مذهبه ! فقال: إنه ولد بالمغرب وله دالّةٌ على الخليفة ، ولولا ضَبْطُه حواصِلَ القصر لخرجت كلّها لكرم العاضد ؛ لكنه يحترمه ويقبل مشورته . فازدادت مكانته عند أسد الدّين وأقرّه على حاله .

واستبدّ أسد الدّين بأمور المملكة ، وغلب على الدّولة ، واستعمل أصحابَه وثقاته على الأَعمال ، وأقطع البلاد لعساكره . ولما أكبّ النّاس عليه بالتّواقيع قَلِقَ من كثرة ما يوقّع وقال : أظنُّ مولانا استخدمنى كاتبا .

فى رابع جمادى الأولى قتل الكامل شجاع بن شاور ، والمعظم سليمان بن شاور ، وركن الإسلام نجم أخو شاور ، وأحضِرت رءوسهم إلى أسد الدّين شيركوه .

ولمّا بلغ نور الدّين وزارة شيركوه للعاضد واستبداده بالأَمر كره ذلك وأَمَضّه ، وظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وأخذ يتحدث فى ذلك ، وأفضى به إلى الأَمير مجد الدّين ابن الدّاية[1] . وأخذ يُعْمل الحيلة فى [١٦١ ا] إفساد أَمْر أسد الدّين وابن أخيه صلاح الدّين ، وكاتبَ العاضد فى ذلك غير مرّة ، ويلتمس منه أنْ يبعث إليه أسد الدّين، يريدُ بذلك إخراجَه عَنْ مصر . فلم يسمح العاضد بإرساله لأنه دبّر الأمور وقام بِحَمْلِ أعباء المملكة من غير أنْ يغيّر على أصحاب العاضد شيئا من أحوالهم ، ولا أنْكرَ عليهم أمرًا من أمورهم ، بل أقرّهم على عوائِدِهم سوى أنه أقْطَع البلاد لأصحابه .

وتوَلّىَ عنه التّدبير ابنُ أخيه صلاح الدّين وقام بمباشرتها ، فصار إليه الأَمر والنّهى حتّى مات أسد الدّين ، بعد أن استقرّ فى الوزارة ثلاثة وستّين يوما ، يوم الأَحد الثالث

---

(١) مجد الدين أبو بكر ، ابن الداية، من مقدمى أمراء نور الدين محمود الذين كان يعتمد عليهم فى إدارة شئون دولته ، وكان ينوب عنه فى حلب فى بعض المناسبات ، وخاصة فى أثناء غيبة أسد الدين شيركوه ، وبعد وفاته ووزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بمصر . توفى ابن الداية سنة خمس وستين وخمسمائة بينما كان نور الدين يحاصر الكرك .

والعشرين من جمادى الآخرة بخنّاق تولّد له من إكثاره أكل اللّحوم الغليظة ، ودفن فى الدّار فلم تخرج له جنازة .

وكان شجَاعا قويًّا ، جلدًا عفيفًا ، متألّهاً ، يحبّ أهل الخير ، وله إيثار ، وفيه ضبطٌ وإمساك . وأصله من دَوِين[1] ، بليدة من عمل أذْرَبيجان[2] من جهة أرّان[3] وبلاد الكرج ، وهو من قبيل الرّوّاديّة إحدى بطون الهذبانية من قبائل الأكراد . وقدم هو وأخوه نجم الدّين أيوب ، وكان أسَنَّ منه ، إلى بغداد واتّصلا بخدمة مجاهد الدين بهْرُوز[4] شحنة العراق من قِبَلِ السّلطان مسعود بن محمدّ بن مَلِكْشَاه السّلجوقى[5] ولازَمَاه . فبعث بأيّوب إلى تكريت[6] ، وكانت إقطاعه ، فأقرّه فيها دُزْدَارًا ؛ ومعناه حافظ القلعة ، فإن « دز » بالفارسى القلعة ، « ودار » الحافظ . فأقام بها ومعه أخوه شيركوه ، وله به إقطاع ،

---

(١) بفتح الدال وضمها ، يحدد ياقوت موقعها بأنها فى آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس . وتفليس هـذه من بلاد أران (الآتى ذكرها) ، بها عيون حارة عمل عليها حمام ، بدأ فتحها زمن عثمان بن عفان ضمن فتـوح أرمينية وتوقف الفتح بتوقيع صلح بين الجانبين ، وظلت فى أيدى المسلمين حتى أغار عليها نصارى الكرج سنة خمس عشرة وخمسمائة — وهم من الأرمن — فملكوها ، ثم استردها جلال الدين منكبرتى بن خوارزم شاه سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، ولم يلبث الكرج أن أغاروا عليها وأحرقوها فى السنة التالية . معجم البلدان : ٢ : ٣٩٦ — ٣٩٨ ، ٤ : ١١٢ .

(٢) يضبطها ياقوت بفتح الهمزة والراء وسكون الذال بينهما وكسر الباء ، وبفتح الهمزة والذال وسكون الراء ، وبمد الهمزة وفتح الذال والباء وسكون الراء بينهما . ويقول إن النسبة إليها أذرى بفتح الهمزة والذال ، أو بسكون الذالْ ، وأذربى بفتح الأولين وسكون الراء ؛ وهى إقليم متسع من أشهر مدائنه تبريز عاصمته ، يغلب عليها الطابع الجبلى ، وبه قلاع كثيرة ، وفاكهته وبساتينه عظيمة غزيرة المياه والعيون ؛ بدأ فتحها أيام عمر بن الخطاب وتوقف لصلح عقد بين أهلهـا والمسلمين ، وتجدد الغزو أيام عثمان وتجدد الصلح كذلك . معجم البلدان : ١ : ١٥٩ — ١٦١ .

(٣) بينها وبين أذربيجان نهر الرس فكل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال فهو من أران ، ومن جهة المشرق فهو من أذربيجان . وأران إقليم من أقاليم أرمينية . وهناك قلعة بنواحى قزوين تعرف بهذا الاسم أيضا . نفس المصدر : ١ : ١٧٠ .

(٤) تولى شحنة بغداد للسلطان السلجوقى مسعود ، حتى توفى فى سنة أربعين وخمسمائة ، والشحنة رئاسة قوات الأمن ، أى الشرطة ، وفلان شحنة أى متولى رئاسة الشرطة . وأصل الكلمة من شحن البلد بالخيل : ملأه ، وبالبلد شحنة من الخيل أى رابطة . لسان العرب (الذى يؤكد أن استعماله بمعنى الشرطة خطأ ، لكن هذا الحكم لا يمنع أنه هو المعنى الذى كان مستخدما فيه فعلا) ، انظر كذلك : Dozy; Supp. Dict ar.

(٥) أبو الفتح غياث الدين ، رابع سلاجقة العراق ، حكم بين سنتى ٥٢٧ — ٥٤٧ (١١٣٣ — ١١٥٢) وتوفى بهمدان . معجم الأنساب وكذلك Mohammadan Dynasties

(٦) بفتح التاء والعامة يكسرونها كما يقول ياقوت ، تقع بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ، وبينهما ثلاثون فرسخا ، ولها قلعة حصينة فى طرفها الأعلى راكبة على دجلة فى غربيها . افتتحها المسلمون سنة ست عشرة أيام عمر بن الخطاب ، وقيل فى سنة عشرين . معجم البلدان : ٢ : ٣٩٩ — ٤٠١ .

إلى أن انهزم عماد الدين زنكى من العراق[1] من قراجا الساق ووصل إلى تكريت ، فأمكنه أيّوب من قلْعتها ورفعه إليها بالحبال ، وخَدمَه هو وأخوه شيركوه ، فاعْتَدّها يدًا لهما . ثم أقام له السُّفن حتّى عبر دجلة ؛ وتبعه أصحابُه فأحسن إليهم وسيّرهم إليه .

فبلغ ذلك الأمير مجاهد الدّين بهروز فأنكر عليه وأخرجه من قلعة تكريت ، فسار هو وشيركوه إلى عماد الدّين زنكى ، وهو يومئذٍ صاحب الموصل ، فأكرمهما وأقطعهما إقطاعاً ، وتقدّما عنده . فلمّا ملك بعلبك[2] جعل نجم الدّين دُزْدَارَها ، فأقام بها إلى أنْ قُتِل عمادُ الدّين زنكى[3] وحصر عسكرُ دمشق بعلبك لأَخْذِها لصاحب دمشق ، مجير الدّين أبق بن محمدّ بن بُورى بن ظهير الدّين طغتكين الأتابك . فبعث إلى سيف الدّين غازى بن عماد الدّين زنكى بالموصل يعرّفه ويطلب منه عسكرا فلم يُجِبْه[4] ؛ فسلّم بعلبك لصاحب دمشق على إقطاع ، وصار أحد أمراء دمشق .

وأما شيركوه فإنه لمّا خدم عماد الدّين زنكى تمكّن منه ، بواسطة الوزير جمال الدّين الأصفهانى[5] ، إلى أن قُتِل ، فتعلّق بخدمة ابنه نور الدّين محمود بن زنكى وتخصّص

---

(١) فى سنة ست وعشرين وخمسمائة فى حرب بينه وبين الخليفة العباسى المسترشد بالله ، وكان يعاون زنكى فى هذه الحرب دبيس بن صدقة وهما بدورهما كانا مؤيدين للسلطان السلجوقى سنجر معز الدين أبى الحارث ضد السلطان مسعـود صاحب العراق .

(٢) فى ذى الحجة من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وكانت من أعمال دمشق التى قتل صاحبها شهاب الدين محمود ابن بورى بأيدى ثلاثة من خدامه فى شوال من هذه السنة وتولى أمرها من بعده أخوه جمال الدين محمد بن بورى ، واستغاثت أم السلطان بزنكى ليثأر من قتلة ابنها شهاب الدين فتقدم فى اتجاه بعلبك واستولى عليها لنفسه . ذيل تاريخ دمشق : ٢٦٧ — ٢٧٠ ؛ الكامل : ١١ : ٢٦ — ٢٧ .

(٣) فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وهو على حصار قلعة جعبر ، قتله بعض خدمه فى فراشه .

(٤) كانت بعلبك داخلة فى نطاق أعمال نور الد ن محمود أخى سيف الدين غازى صاحب الموصل ، ولهذا لم يتقدم غازى لمعونة نجم الدين أيوب ، ولم ينجد نور الدين محمود بعلبك لأن سياسته عندئذ كانت تقضى بمحاولة التعاون مع دمشق على مواجهة الفرنج ، ولهذا رأى التضحية ببعلبك لتكون عربونا لهذا التعاون .

(٥) يفرد أبوشامة فصلا فى كتابه لحديث عن « وزير الموصل جمال الدين ، الجواد الممدح » . واسمه جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور تلقّى ثقافته الأولى على يدى العزيز عم العماد الكاتب ، وترقى بمعونته فى الخدمة فاتصل بالسلطان السلجوقى محمود بن ملكشاه ، ثم اتصل بعماد الدين زنكى الذى استعان به فى أعماله وجعله مشرفا على ديوانه ، ثم قام مقام الوزير لابنه سيف الدين غازى الذى تولى الموصل بعد مقتل أبيه ، وعرف جمال الدين بالكرم وحب الخير والقناعة ، واتصل به كثير من الشعراء ومدحوه ومنهم عماد الدين الأصفهانى ، وأبو الفوارس سعد بن محمد الصفى المعروف بحيص بيص ، وأحمد بن منير الطرابلسى ، والعرقلة الدمشقى ، وأبو المجد القسيم الحموى . توفى جمال الدين سنة تسع وخمسين

به ، حتى عَظُمتْ منزلتُه عنده . وصار معه إلى حلب فأقطعَهُ وأنْعَم عليه ، ثم أعطاه مدينة الرّحبة وتدمر إلى أن جهّزه إلى مصر وعاد منها وهو كثير الذّكر لها ، فخافهُ نور الدّين وصرفه عنه وأعطاه مدينة حمص[1] ، وجعله مقدّم عسكره إلى أن قدِم مصر وملكها — كما تقدّم — إلى أن مات ؛ فدفن بالقاهرة ، ثم نُقِل منها إلى المدينة النبويّة بعد مدّة[2].

ولمّا احتُضِر قال : مَنْ ههنا ؟ فقال الطّواشى بهاء الدّين قراقوش : عَبْدُك قراقوش . فقال : بارك الله فيك ، الحمد لله الّذى بلغنا من هذه الدّيار ما أردْنا ، ومتْنا وأهلها راضون عنّا . أوصيكم لاتفارقوا سُور القاهرة حتّى تطيرَ رُءوسُكُم ، واحْذَرُوا من التّفْريط فى الأسطول .

ولمّا توفى أسد الدّين افترق أهل القصر وحواشى الخليفة العاضد من الأستاذين وغيرهم فرقتين . فأمّا إحداهما — وكبيرهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر[3] — فإنهم قالوا قدْ مات أسد الدّين المهدّد به فى الشرق والغرب ولم يحدُث إلا خيرٌ ، ومن الرأى أن نمسك مُخَلّفتَه ونضيف إليها من جياد فرسان الغزّ ما تكون جملته ثلاثة آلاف فارس ، ونقدّم عليهم بهاء الدّين قراقواش ، وننزلهم بالشرقية ، ونجعَلها بأجمعها إقطاعاً لهم يسكنون بها ، فيصيرون بيْننا وبين [١٦١ ب] الفرنج الذين طمعوا فى البلاد، يقاتلون عن حرمهم

وخمسمائة ، ودفن بالموصل سنة ، ثم نقل إلى المدينة المنورة حيث دفن بها كرغبته فى رباط أنشأه بها ، بينه و بين مسجد الرّسول صلوات الله وسلامه عليه ، خمس عشرة ذراعا . وفى أثناء نقل تابوته إلى المدينة المنورة مر به فى مدينة الحلة فإذا شاب قد ارتفع على موضع عال وأنشد :

سرى نعشه فوق الرقاب ، وطالما — سرى بره فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى ، فتثنى رماله — عليه ، وفى النادى فتبكى أرامله

كتاب الروضتين : ١ : ٣٤٣ — ٣٥٦ .

(١) فى الأصل : مصر

(٢) ودفن مع جمال الدين وزير الموصل (انظر الحاشية الأخيرة فى الصفحة السابقة) باتفاق تم بينهما ؛ وعن هذا يتحدث جمال الدين فيقول : «إن بينى وبين أسد الدين شيركوه عهدا : من مات منا قبل صاحبه حمله الحى إلى المدينة النبوية» . وقد نفذ أسد الدين تعهده ، فنقل جمال الدين من الموصل إلى المدينة ، ثم نقل هو إلى المدينة بعد أن دفن فى داره بالقاهرة مدة . كتاب الروضتين : ١ : ٣٤٩ ؛ وفيات الأعيان : ١ : ٢٢٧ — ٢٢٨ . واختلف فى سبب وفاته ، فقيل إنه مات فجأة وقيل بعلة الخوانيق (بسبب ابتلاعه قطعة من اللحم الذى كان يحبه كثيرا) ، وقيل بل دس له السم . نهاية الأرب : ٨ ٢.

(٣) وهو خصى من الأستاذين المحتكين بالقصر الفاطمى ، وكان يتولى زمام القصر وإليه الإشراف الكامل عليه . وقد برهن مؤتمن الخلافة هذا بسلوكه فيما بعد على إصراره على تحقيق هدفه فى التخلص من صلاح الدين والجيش النورى بأجمعه . وسيرد تفصيل ذلك فى موضعه .

وإقطاعاتهم . ويرتّب مولانا من أجْناد الدّيار المصريّة من ينتفع به ، ولا يقيم وزيرًا تثقل وطأتُه ويشارك الخليفة فى أمره ، بل يجعل صاحب وساطة بين النّاس وبين الخليفة .

وقالت[1] الطائفة الأخرى لا وحَقِّ الله، ما يكون وزيرُ مولانا إلا ابن أخى وزيره الّذى هو منه وإلَيْه ، يعنون صلاح الدّين ، وإذا بقى المذكورُ أقام معه قراقوش وغيره من المعْتَبَرين .

وكذلك وقع فى عسكر أسد الدّين ، فإن شهاب الدّين محمود الحارمى ، خالَ صلاح الدّين ، والأمير عبد الدّولة ياروق الياروقى وأخاه الأمير بهاء الدّولة والأمير قطب الدّين خسرو بن تليل ، والأمير سيف الدّين على بن أحمد الهكّارى[2] المشطوب طلَبَ كلٌ منهم الوزارة لنفسه وجمع أصحابه ليُغَالِبَ عليها .

واجتمع مماليك أسد الدّين ، وهم خمسمائة ، على صلاح الدّين وطلبوا وزارته ؛ وتحدّثوا بأنَّ أسد الدّين أوْصى إليه ، فبعث العاضد إليهم وسأل الأمراء من يصلح للوزارة ؛ فسار إليه شهاب الدّين محمود الحارمى وأرشدهُ إلى تولية صلاح الدّين[3] . وكان العاضدُ قد مال إليه وقال لأصحابه من الأستَاذين وغَيرهم لما اختلفوا ، كما تقدّم ذكرُه ، والله إنّى لأستَحِى من تسريح صلاح الدّين وما بلغتُ غرضًا فى حقّه لقرب عهد مقام عمّه . فأرسل إليه وخَلَعَ عليه خِلَعَ الوزارة بالعقد والجوهر، وحنّكَه، ونعته بالملك النّاصر، وذلك فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة[4] .

---

(١) فى الأصل : وكانت . وهى لا تناسب السياق .

(٢) نسبة إلى قلاع الهكارية ، وهى بلدة و ناحية وقرى فوق الموصل فى بلدة جزيرة ابن عمر . والهكارية جماعة من الأكراد سكنوا هذه المنطقة فعرفت باسمهم . معجم البلدان : ٨ : ٤٦٩ .

(٣) يقول ابن أبى طى: « وكان الحارمى أولا قد رغب فى الوزارة وتحدث فيها، وحصل ما يحتاجه ، فلما رأى مزاحمة عين الدولة ابن ياروق وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته ، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به لأنها إذا كانت فى ابن اخته كانت فى بيته » . كتاب الروضتين : ١ : ٤٣٨ — ٤٣٩ .

(٤) جاء فى نهاية الأرب للنويرى أن جماعة من خواص العاضد أشاروا عليه أن يولى صلاح الدين الوزارة ، وقالوا إنه أصغر الجماعة سنا ولا يخرج من تحت أمر أمير المؤمنين ، فإذا استقر وضعنا على العساكر من يستميلهم إلينا ، فيبقى عندنا من الجند من نتقوى به ، ثم نأخذ يوسف بعد ذلك أو نخرجه ، فإن أمره أسهل من غيره . ويذكر صاحب النجوم مثل هذا القول ويضيف : « فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان فى ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يقدر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر من يستميلهم ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين ، وعنده (عند الخليفة) من العساكر الكتامية من يحميها (مصر) من الفرنج ونور الدين » . النجوم الزاهرة : ٦ : ١٧ .

وصفةُ الخِلْعَة ثوب أبيض دبيقى بطرازين ذهبا ، وطيلسان مقوّر بطراز ذهب دقيق ، وعمامة بيضاء مذهبة ، وفى عنقه العقد الجوهر وقيمته عشرة آلاف دينار ؛ وقد تقلّد سيف الوزارة وقيمته خمسة آلاف دينار . وركب (فرسا)[1] حجرَةً صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، وعليها سرفسار ذهب مجوهر ، وأعلاقها من سبتة ، وفى عنقها مشدّة بيضاء برأسها مائتا حبّة جوهرًا وفى أربع قوائمها أربعة عقود من جوهر ، وعلى رأسه قصبة ذهب فى رأسها طلعة مجوهرة ومِشَدَّة بيضاء بأعلام ذهب. وحُمِل بين يديه عدّة بقج فيها أنواعٌ من الثياب ، وَقِيدَ معَهُ أيضا عدّة خيول ؛ ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض بخطِّ القَاضى الفاضل ومن إنشائه ؛ وقرأه الجليس ابن عبد القوى . وهو كبير جدًّا وعلى رأسه بخطِّ العاضد[2] : « هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله سبحانه عليك[3] ؛ فأَوْفِ بعهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضا[4] بيمينك ، ولمن مضى بجدنا رسول الله[5] أحسن أسوة ، ولمن بقى (بقربنا)[6] أعظم سلوة . «تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[7] . فكان آخر منشور كُتِب عن العاضد[8] .

ولمّا نزل صلاح الدّين إلى دَار الوزارة لم يطعْهُ أحدٌ من الأُمراء النوريّة ولا خَدَمُوه ، فسعى الفقيه عيسى الهكَّارِى فى الإصلاح بينه وبينهم ، وبدأ بالمشطوب فقال له : هذا الأَمر لا يَصِلْ إليك مع (وجود)[9] عين الدّولة والحارمى (وابن تليل)[9] . ثم قصد الحارمى

---

(١) الإضافة من الروضتين : ١ : ٤٣٩ . وفى القاموس المحيط : أحجار الخيل ما اتخذ منها للنسل لا يكادون يفردون الواحد . ا هـ . ويبدو أن المفرد بتاء كما جاء فى المتن .

(٢) ورد هذا فى صبح الأعشى : ٩ : ٤٠٧ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٤٠٩ .

(٣) هكذا فى الروضتين أيضا . وفى صبح الأعشى : وحجته عند الله تعالى عليك .

(٤) ساقطة من نص صبح الأعشى ، ومن الروضتين .

(٥) فى صبح الأعشى وفى الروضتين زيادة التصلية : صلى الله عليه وسلم.

(٦) الزيادة من صبح الأعشى . وفى الروضتين : ولمن تبقّى بثقتنا به أعظم سلوة .

(٧) سورة القصص : آية : ٨٣ .

(٨) وتجد نصه الكامل فى صبح الأعشى : ١٠ : ٩١ – ٩٨ . وهو من إنشاء القاضى الفاضل .

(٩) الزيادة فى الموضعين من الروضتين : ١ : ٤٠٧ .

وقال له : هذا صلاح الدّين ابنُ أُختك ، وعزُّه وملكه لك ، وقد استقام له الأمر ، فلا تكنْ أوّلَ من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك . وما زال بهم حتّى مالُوا إليه وأطاعُوا بأجمعهم إلاَّ عيْن الدّولة فإنه قال لا أخدم يوسف أبداً . وخرج من القاهرة بجماعةٍ وصار إلى نور الدّين بالشّام(١) .

فلمّا بلغ نورَ الدّين استيلاء صلاح الدّين أقام ثلاثة أيّام لا يقدر أحدٌ أن يراه من شِدّة ما عظم عليه ذلك وأغضبه .

واستمال صلاح الدّين قلوب النّاس، وَسَاسَ الأُمور وكاتب الأطراف ، وأقبل على الجدّ ، وتاب عن الخمر ، وأعرض عن اللّهو ، وتقرّب إلى الخليفة العاضد بما يُرضيه فأحبّه وأدْنَاه حتّى كان يُدخلُه إليه القصر راكباً ويقيم عنده بالقصر عدّة أيام . وعَظُم في الدّولة حتّى حسَدَهُ الأُمراء وبَايَنَهُ جماعة منهم وتوجّهوا إلى الشّام . وشرع في استمالة قلوب النّاس إليه فبذل فيهم المال وأخرج ما كان في خزائن عمّه أسد الدّين ؛ واستَدْعَى من العاضد فأمدّهُ بشيء كثير من المال ، فكان أمره في زيادة وقوّة وأمر [١٦٢ ا] العامّة في نقص وضعف .

وركب العاضد ومعه الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف في غرّة شهر رمضان ، وحمل العادل أبو بكر السّيف . ثم ركب أيضا جمعتين في شهر رمضان إلى الجامع الأزهر والجامع الأنور(٢) على العادة ، وركب في عيد الفطر .

وأرسل إلى نور الدّين يسألهُ في إرسال أبيه وأخيه فلم يجبه إلى ذلك(٣) .

---

(١) ويزيد أبو شامة : « فأنكر عليهم فراقه » . نفس المصدر .

(٢) هوجامع الحاكم .

(٣) يذكر ابن الأثير ، وهو معروف بميله عن صلاح الدين وأسرته ، أن صلاح الدين أرسل « يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله ، فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته » . ويقيد أبو شامة هذا الرفض بقوله : « فلم يجبه (نور الدين) إلى ذلك وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد » . ثم يعقب بأن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى دمياط فأرسل نور الدين العساكر إلى مصر وفيهم إخوة صلاح الدين « منهم شمس الدولة تورانشاه ، وهو أكبر من صلاح الدين ، وقال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » . الكامل : ١١ : ١٢٩ ؛ كتاب الروضتين : ١ : ٤٠٨ ؛ مفرج الكروب ؛ ١ : ١٧٤ .

وصارت الخطبة بديار مصر للعاضد ومِنْ بعده للملك العادل نور الدّين ، وهو فى الظّاهر ملك الدّيار المصريّة وصلاح الدين لا يتصرّف إلا عن أمره كالنّائب فى الأمر عنه ؛ ونور الدّين لا يُفردُه بكتاب ، بل يَكْتُب: الأمير الأسْفِهْلار[1] صلاح الدّين وكافّة الأمراء بالدّيار المصريّة يفعلون كذا ؛ ويجعل علامته على رأس الكتاب تعظيمًا لنفسه وترفّعاً عن أن يكتب اسمه .

وعندما بلغه وفاة أسد الدّين شقّ عليه استيلاء صلاح الدّين ، وتتبّعَ أصحابه وأصحاب أسد الدّين ، وأخذ إقطاع صلاح الدّين وإقطاع أسد الدّين ، ومنع نوّابه من التصرّف فى حمص ، وأبْعَد أهاليهم واسْتَثْقَلَهُم وطردهم عنه . وكتب إلى الأُمراء بمصر بمفارقته وتَرْكِهِ بمصر وحيداً ليُوهِن أمره . وشرع يَذمُّه ويُذكرُهُ بالسّوء ويُعْنِتُه فى الطّلب بحمل الأموال إليه ، وصار كثيراً ما يقول : ملك ابن أيوب ويستعظم ذلك احتقارًا له[2] .

وثَقُل ذلك على أهل الدّولة وحواشى الخليفة العاضد ، فإنه أقْطع أصحابه أجلّ البلاد وآواهم ، وأبعد أهل مصر وأضعفهم ، واستبدّ بجميع الأُمور ومنع العاضدَ من التّصرُّف ؛ فَفَطِنَ العاضدُ لما يريدُ من إزالة الدّولة . فثار الأُستاذ مؤتمن الخلافة ، وهو يومئذٍ من أكابر خدّام القصر ، وبعث بمكاتبةٍ إلى الفرنْج يستنجد بهم على الغزّ ، ويحثُّهم على قصْد البلاد ليخرج إليهم صلاح الدّين بعساكره فيثور عند ذلك بصعيد مصر وطوائف العسكر ،

---

(١) اصطلاح عسكرى مركب من : أسفه بمعنى مقدم ، وهى فارسية ، وسلار بمعنى عسكر ، وهى تركية ، فمعناه مقدم العسكر . يقول القلقشندى : وهو زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ، وفى خدمته تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٩ .

(٢) هذا هو موقف ابن الأثير من صلاح الدين . وينقل أبو شامة مثل هذا عن ابن أبى طى أيضا من كتابه : السيرة الصلاحية ويعلق عليه بقوله : « والذى أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين فى تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشورته . هذا مع أن ابن أبى طى متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به ، فإن نور الدين ، رحمه الله ، كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل شعارهم ، وقوى أهل السنة ، وكان والد ابن أبى طى من رءوس الشيعة فنفاه من حلب ، فهو لذلك كثير الحمل على نور الدين ، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به . والله أعلم » . ثم يقول : « وقد وقفت على كتاب بخط نور الدين يشكر فيه صلاح الدين ، وذلك ضد ما قاله ابن أبى طى » ، ويسوق نص الكتاب وهو موجه إلى شرف الدين ابن أبى عصرون بتوليته قضاء مصر ، وفى نهايته : « وقد كتبت هذا بخطى حتى لا يبقى على حجة . تصل أنت وولدك عندى حتى أسيركم (كذا) إلى مصر ، والسلام . بموافقة صاحبى واتفاق منه ، صلاح الدين ، وفقه الله ، فأنا منه شاكر كثير كثير ، جزاه الله خيرا وأبقاه » . كتاب الروضتين : ١ : ٤٤١ – ٤٤٣ .

ويصير صلاح الدّين محصورًا بين الفرنج وبينهم فيأخذُونه ويُتْلِفُون مَنْ معه . ووافقه على ذلك جماعة .

وبعث رجلاً بالكتاب إلى الفرنج بعد ما جعله فى نَعْلٍ كي لا يُعْثر عليه . فلمّا وصل الرّجُل إلى البئر البيضاء[1] قريباً من بلبيس ، ظفر به بعضُ أصحاب صلاح الدّين ومعه نعلان جديدان فى يده ، فارتاب لِمَا رآه من سوء حاله وحُسْن النّعْلَيْن ، وعلم أنّهما لا يليقان به ، ولَوْ كانا مِنْ ملابسه لكان تبيّن فيهما أثرُ الاستعمال . فأخذهما منه وفتحهُما فوجد فيهما الكُتُب إلى الفرنج ، فتقرّب بذلك إلى صلاح الدّين ، وحضر بالرّجل والكُتب إليه ؛ فكتم ذلك ، وتتبّعَ مَنْ كتب الكتُب حتى أُحْضِر إليه برجل يهوديّ ، فلمّا خاف منه أسلم وأخبره الخبرُ .

فبلغ ذلك مؤتَمَن الخلافة وخشى على نفسه ، فلزم القصر وامتنع من الخروج مدّة وصلاح الدّين لا يلتفت إليه ، فاغترّ بإعراضه عنه وخرج إلى منظرةٍ له على النّيل ، بستانٍ بناحية الخرقانيّة قريبًا من قليوب . فأرسل إليه صلاح الدّين بجماعةٍ من أصحابه هاجموه وقتلوه ، وصارُوا إليه برأسه ، وذلك فى يوم الأربعاء لخمسٍ بَقِينَ من ذى القعدة ؛ وجعل زمام القصور عوضه الطّواشى بهاء الدين قراقوش الأسدىّ. فغضب لقتله السّودان وحرّك منهم ما كانوا يتكتّمونه ؛ فاجتمعوا لحرب صلاح الدّين فى سادس عشريه ، صَبيحَةَ قَتْل مؤتمن الخلافة ، وقد صارُوا فى جمعٍ كثيرٍ من الأمراء المصريّين وعَوَامّ البلد يزيد على الخمسين ألفًا ، وزحَفُوا إلى دار الوزارة .

فبدر إليهم فخر الدّين شمس الدّولة توران شاه ، وركب صلاح الدّين بعساكره وقد تجمّعت الرّيحَانية والجيوشية والفرجيّة ومن انْضاف إليها فى بَيْنَ القصرين ، وخرجت إليهم الأرْمَن ؛ فوقع بين الفريقين قتالٌ عظيم استظهر فيهالعبيد على الغزّ ، والعاضد

---

(١) قريبة من بلبيس ، بينها وبين الخانكة ، وعلى الطريق بين القاهرة وغزة ، ومكانها اليوم عزبة أبى حبيب بناحية الزوامل فى حوض يعرف إلى الآن باسم حوض البيضاء . وفى معجم البلدان : البيضاء اسم لأربع قرى فى مصر ، الأولى من كورة الشرقية (وهى المقصودة هنا) ، والثانية غربى النيل بين مصر والإسكندرية ، والثالثة من ضواحى الإسكندرية والرابعة قرب المحلة . معجم البلدان : ٢ : ٣٣٦ ؛ النجوم الزاهرة : ٨ : ٤٤ : حاشية : ٢ ؛ مفرج الكروب : ١ : ١٧٥ : حاشية : ٤ ؛ صبح الأعشى : ١٤ : ٣٧٦ .

فى المنظرة يشرف على الوقعة . فلمّا تبيّن الغَلَبُ للعبيد وكادوا أن يهزمُوا الغزّ رمى أهلُ القصر بالنّشّاب والحجارة حتّى امتنعوا عن مقاتلة العبيد ، فنادى شمس الدّولة النّفّاطين وأمرهم بإحراق المنظرة التى فيها العاضد فطيّب قارورة وصوّب على المنظرة بها ، فإذا بباب الطّاق قد فتح وخرج منه زعيم [١٦٢ ب] الخلافة ، أحد الأُستاذين الخواصّ ، وقال : أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدّولة ويقول دُونَكُم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم . فلمّا سمع العبيد ذلك ، وكان قد قتل أحد مُقدّميهم ، وبعث صلاح الدين فى أثناء محاربته لهم إلى حارة السّودان خارج باب زويلة ، المعروفة بالمنصورة[1] ، فأحرقها وتَلِفَتْ أموالُهم وهلكت أولادُهم وحُرَمُهم ؛ ضعُفَت لهذه الأُمور أنفسُ العبيد ، وانهزمُوا بعد ما ثبتوا يومين ، وتعيّن لهم الفَلّ. فركب الغزّ أقفيتَهم يقتلون ويأسرون ، إلى أنْ وصوا إلى السيُوفيّة وثبتوا هنالك ، فألقى شمس الدّولة النّيران فى المواضع الّتى امتنعُوا بها .

وأحرق أيضًا دار الأرمن التى كانت بين القصرين ، وكان بها خلقٌ كثير من الأرمن، كلُّهم رُمَاة لَهُم جارٍ ، وكانوا فى هذه الحروب قد أنكوا الغزّ بشدة رميهم ومنعوهم أن يتجاوزوا من موضعهم إلى محاربة العبيد ، فلمّا احترقت عليهم الدّار لم يكد يفلت منهم أحد . فالتجأ العبيد إلى عدّة أماكن ، وكلّما امتنعوا بموضع ألقى فيه الغزّ النّار وقاتلوهم ، حتى صاروا إلى باب زويلة وأخذت عليهم أفواهُ السكك وقد وَهَنوا ولم يجدوا لهم ملجأ . فصاحوا وطلبوا الأمان ، فأُمّنوا على ألا يبقى منهم أحدٌ بالقاهرة ؛ فخرجوا بأجمعهم إلى الجيزة . ومال الغزّ على أموالهم وديارهم واستباحوا جميع ما فيها ؛ وذلك يوم السبت لِلَيْلَتَيْن بَقِيَتَا من ذى القعدة . فما هو إلاّ أنْ صارُوا بالجيزة حتّى عدّى إليهم شمس الدّولة بالعسكر فأبادهُم حصداً بالسّيف ، ولم ينْجُ منهم إلا الشريد . وأمر صلاح الدّين بتخريب المنصورة وصيرها بستانا ؛ فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر[2] .

---

(١) كانت تقع على يمنة من سلك فى الشارع خارجا من باب زويلة إلى جانب الباب الجديد الذى عرف باسم باب القوس ، عند رأس حارة المنتجبية فيما بينها وبين الهلالية ، بعضها من جهة بركة الفيل بجوار بستان سيف الإسلام المواجه لحارة البندقدارية من صليبة جامع ابن طولون . وكانت حارة متسعة جدا فيها مساكن السودانيين . خربها الأمير خطاب ابن موسى المعروف بصارم الدين بأمر صلاح الدين بعد هذه الموقعة وصيرها بستانا . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٩ – ٢٠ .

(٢) ويعلق النويرى على التخلص من مؤتمن الخلافة جوهر بقوله : فكان جوهر هذا سبب زوال ملك الدولة العبيدية ، وجوهر القائد سبب ملك المعز للبلاد ، فشتان بين الجوهرين .

وقَوِىَ صلاح الدّين ، وتلاشى العاضد وانْحلّ أمره ، ولم يبق له سوى إقامة ذكره فى الخطبة . ووالَى صلاح الدّين الطَّلَب من العاضد فى كلّ يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرّقيق وغير ذلك ، حتى انّ العاضد كان فى بعض الأيّام بالبستان الكافورىّ وإذا بقَاصد صلاح الدّين قد وَافَاهُ يطلب منه فرسًا وهو راكب ، فقال ما عندى إلا الفرس الّذى أنا راكبُه ، ونزل عنه ، وشقّ خُفَّيْه ورمى بهما وسلّم إلى القاصد الفرس وعاد إلى قصره ماشيًا ، فلزم مجلسه ولم يعُدْ بعدها يركب حتى مات .

وأخرج صلاح الدّين خاله الأمير شهاب الدّين الحارمى إلى الصّعيد يتبع مَنْ فرّ من العبيد فأفناهم ، ولم يبق منهم بديار مصر إلا مَنْ اختفى ، بعد أن كانت البلاد كلّها لا تخلو مدينةٌ ولا محلةٌ من أن يكون فيها مكانٌ مُعدٌّ للعبيد ، مَحْمِىٌّ لا يدخلُه والٍ ولا غيره . وكان منهم ضررٌ على النّاس .

وأخذ صلاح الدّين فى القبض على دُورِ العبيد والأَزْمَن والأمراء ، وأسكن فيها أصحابه معه بالقاهرة .

وكان قاع النيل فى هذه السنة ستّ أذرع وثمانى أصابع ، وبلغ ثمان عشرة ذراعا[1] .

---

(١) فى النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٨٢ : الماء القديم ست أذرع وثمانى أصابع . مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا واثنتا عشرة إصبعا . ا .هـ . وبهامش الأصل فى هذا الموضع : بياض صفحة .

سنة خمس وستين وخمسمائة (١) :

فيها قدم من الشّام إخوة صلاح الدّين يوسف وعيالُه ؛ وقيل كان قُدُومُهم فى سنة أربع .

فيها تحرّك الفرنج لغَزْوِ ديار مصر خوفاً من صلاح الدّين ونور الدّين عندما بلغهم تمكنُّه من ديار مصر وقطْعُ آثار جند المصريّين . فكاتَبُوا فرنج صقلية وغيرهم واستنجدوا بهم ، فأمدُّوهم بالمال والسّلاح والرّجال ، وسارُوا بالدَّبّابات(٢) والمنجنيقات إلى دمياط ، فنزلوا عليها فى مستهلّ صفر بألفٍ ومائة مركب ، ما بين شينى ومسطح وشلندى وطريدة(٣) ، وأحاطُوا بها برًّا وبحراً .

فبعث صلاح الدّين بالأمير تقىّ الدّين (عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ابن أخى صلاح الدين) ، وأتْبَعه بالأمير شهاب الدّين الحارمى ، فى عساكر إلى دمياط ، وأمدّهم بالمال والميرة والسّلاح(٤) .

وألَحّ الفرنج على أهل دمياط وضايقوهم(٥) ، والنّاس فيها صابرون فى محاربتهم . وبعث صلاح الدّين إلى نور الدّين يستنجدُه ويُعْلِمُ أنّه لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفاً من قيام المصريّين عليه ؛ فجهّز إليه نور الدّين العساكر شيئاً بعد شئ ، وخرج بنفسه إلى بلاد الفرنج بالسّاحل وأغار عليها واستباحها(٦)

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٦٩ .

(٢) الدبابة وجمعها الدبابات : شبه برج متحرك ، يتكون أحيانا من أربع طبقات من الخشب والرصاص والحديد والنحاس ، يتحرك على عجلات ، ويستقر الجنود داخله فى طبقاته لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار . وتتكون الدبابة فى أبسط صورها من الخشب المكسو بالجلد المنقوع فى الخل لوقايتها من الاحتراق . السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٨ .

(٣) المسطح فى معنى الشلندى الذى هو مركب مسقف يقاتل الجنود على ظهره وتحتهم الجدافون يقومون بعملهم ، ويستخدم كذلك لنقل البضائع والأمتعة . أما الطريدة فتستخدم فى نقل الخيل ، أكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا . قوانين الدواوين : ٣٣٩ - ٣٤٠ ، ٤٥٦ .

(٤) وأرسل كذلك عسكرا ثقيلا مقدمة الأمير قطب الدين خسرو الهدبانى فوصل فى النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع . كتاب الروضتين : ١ : ٤٥٩ .

(٥) فى الأصل : وضايقوا عليهم .

(٦) يقول أبو شامة : وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاء فى جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : أنى لأستحيى من الله تعالى أن يرانى متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج . كتاب الروضتين : ١ : ٤٥٩ .

واستمر [١١٦٣] الفرنج على دمياط أحداً وخمسين يوما ، ثم رحلوا عنها فى الحادى والعشرين ، وقيل فى الثالث والعشرين ، من ربيع الآخر ، خوفاً على بلادهم من نور الدّين ولِفَنَاءٍ وقع فيهم ؛ وغرق من مراكبهم نحو الثلثمائة مركب . فأحرقوا ما ثقُل عليهم حملُهُ من المنجنيقات وغيرها .

وبلغت النّفقة من صلاح الدّين على هذه النّوبة ألف ألف دينار مصرية . وكان يقول ما رأيت أكرم من العاضد ؛ أَرْسَلَ إلىّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها .

وورد كتاب نور الدّين إلى العاضد يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط ، وكان صلاح الدّين سيّر إليه يبشّرُه برحيلهم ، وسيّر إليه العاضد يَسْتَقِيلُهُ من الأتراك خوفاً منهم ويطلب الاقتصار على الملك النّاصر صلاح الدّين ، فتضمّن كتابه مَدْحَ الأتراك والثّناء عليهم[1] .

وفيها أرسل صلاح الدّين يطلب من نور الدّين أَنْ يبعث إليه بأبيه نجم الدّين أيّوب ابن شاذى ، فأرسله إليه فى عسكر ، وسار معه كثير من التّجار مّمن له هوًى فى مصر وغرضٌ فى صلاح الدّين . فخرج ابنُه صلاح الدّين إلى لقائه ومعه الخليفة العاضد إلى صحراء الإهليلج[2] خارج باب الفتوح ولقيه هناك ؛ ولم تَجْرِ العادةُ بخروج الخليفة إلى لقاء أحد ؛ وذلك فى رابع عشر شهر رجب . ولقّبه العاضد بالملك الأوحد ، وزينت القاهرة ومصر لقُدُومه فكان من الأيام المذكورة ؛ وبالغ العاضد فى احترامه والإقبال عليه . ونزل اللُّؤلؤة .

وكان سبب تجهيز الملك العادل نور الدّين لنجم الدّين أيوب كثرة وُرُود مكاتبة الخليفة المستنجد بالله العبّاسى عليه من بغداد يعاتبُه على تأخير إقامة الخطبة العبّاسية بمصر ، فوَالَى نور الدّين كتابة الملاطفات إلى صلاح الدّين يأمرُه بذلك ، وهو يعتذر إليه

---

(١) وكان مما جاء فيه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية . نفس المصدر : ٤٦٠ .

(٢) فى الأصل : المليج والتصحيح من الروضتين ومفرج الكروب ونهاية الأرب . والإهليلج شجر له ثمر أصفر ، وأسود وهو النضيج ، ينفع فى الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع . وصحراء الإهليلج المذكورة هنا كانت تقع خارج باب الفتوح شرق الخندق ، إليها كانت تنتهى عمارة خط الحسينية بالقاهرة من جهة باب الفتوح ، وكان بها شجر الإهليلج الذى فعرفت به . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٣٨ .

عن تَرْكِ الخطبة بما يخافُه من المصريّين . فوردت رُسُل المستنجد إلى دمشق بالاستحْثَاث والعزم على إقامة الخطبة بمصر ولابُدّ ؛ فرأى نور الدّين أنّ مثل هذا المهمّ لايقوم به إلاّ نجم الدّين أيّوب ، وكان يتولّى قلعة بعلبك ، فأرْسل إليه وقرّر معه الأمر وسيّره[1] .

وكان وصولُه إلى القاهرة لستٍّ بقين من رجب ، وقيل فى جمادى الآخرة ، فقرّرت له ولايةُ الإسكندريّة وولاية دمياط والبحيرة[2] . وأُقْطِعَ الأمير فخر الدّين شمس الدّولة تُوران شاه ، ابن والد الملوك الملك الأفضل نجم الدّين أيوب ، قوص وأسوان وعيذاب ، وكانت عبرتها يومئذ فى تلك السّنة مائتى ألف دينار وستّة وستّين ألف دينار ؛ فاستناب عنه فى قوص الأمير شمس الخلافة محمّد بن مختار .

فيها ثار الأمير عبّاس بن شاذى بمرج بنى هميم[3] ، من أعمال قوص ، ومنع رسلان دعمش المتوجّه لجباية خراج قوص من التوجّه ، واستباح عسكره .

وفيها أبطل صلاح الدّين الأذان بحىّ على خير العمل محمّد وعلىّ خير البشر ، فكانت أوّل وصمة دخلت على الدّولة . ثمّ أمر أنْ يُذكر فى الخطبة يومَ الجمعة الخلفاء الرّاشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثمّ علىّ ، وذلك يوم الجمعة لعشرٍ مضيْن من ذى الحجّة .

---

(١) وجاء فى الرسالة التى حملها نجم الدين معه من نور الدين إلى صلاح الدين بهذا الصدد : « وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت ، وحضور الفوت ، لا سيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته ، وهو عنده من أهم أمنيته » . كتاب الروضتين : ١ : ٤٦٦ ، نقلا عن ابن أبى طى . وإمام الوقت أبو المظفر يوسف المستنجد بالله ابن أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله . تولى خلافة العباسيين بين سنتى ٥٥٥ — ٥٦٦ ه(١١٦٠ — ١١٧٠) .

(٢) مدح عمارة اليمنى صلاح الدين بمناسبة وصول والده وإخوته من الشام ، فقال من قصيدة :

صحت به مصر ، وكانت قبلـــه ... تشكو سقاما لمن يعن بطبيـــب
عجبا لمعجزة أتت فى عهـــده ... والدهـــر ولاد لـكل عجيب !
رد الإله بـــه قضية يوسف ... نسقا على ضرب من التقريـــب
جاءته إخــــوته ووالده إلى ... مصر على التدريـــج والترتيب
فاسعد بأكرم قـــادم ، وبدولة ... قـــد ساعدتك رياحها بهبـــوب

كتاب الروضتين : ١ : ٤٦٣ . وقد قام نور الدين بنشاط عسكرى بالشام قصد به تأمين قافلة نجم الدين أيوب وأهله ومن معه فى رحيلهم إلى مصر، وتجد تفصيل هذا النشاط فى كتاب الروضتين : ١ : ٤٦٤ — ٤٦٦ . وسيرد فى أخبار سنة ست وستين وخمسمائة نبأ تحرك هذه القافلة ، ويرد كذلك فى الروضتين مرة أخرى : ١ : ٤٨٦

(٣) بلدة شرق النيل من أعمال الصعيد يسكنها عرب من بلى (بتشديد الياء) معجم البلدان : ٨ : ١٧ ،

ثم أمر أنْ يُذْكرَ العاضد فى الخطبة بكلامٍ يحتمل التلْبِيس على الشيعة ، فكان الخطيبُ يقول : اللّهم أصْلِح العاضد لِدينك . لاغير .

. وفى يوم الاثنين ، بعد طلوع الشمس ، الثّانى عشر من شوّال حدثت زلزلة عظيمة مهُولَة بدمشق سقط منها بعض شُرف الجامع الأموى وتشقّق رأسا المنارَتَيْن الشّرقية والغربية ، وكانت المنارة الشماليّة تهتز اهتزاز السّعَفَة فى الرّيح العاصفة . ثمّ جاءت زلزلة أُخرى بعد ساعة ، ثم جاءت زلزلة ثالثة بعد العصر . وأثرت هذه الزّلزلة آثاراً شنيعة بحلب وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وكفر طاب وتل بارين والمعرّة وتل باشر وعزاز وأفامية وأبو قبيس والمنيطرة وحصون الباطنيّة بأسرها . وامتدّت إلى الجزيرة والموصل ونصيبين وسنجار ودنيسر ومارِدِين والرّها وحرّان ورأس العَين والرّقّة وقلعة جعبر وقلعة نجم وبالِس ومنبج وبُزَاعَا وعين تاب وحَارِم وأنطاكية وما خلفها من الثغور وبيروت [١٦٣ب] وأطْرابلُس وعرقة وطرسوس وجبلة والمرقب واللاذقيّة وعكّا وصور وغيرها ؛ فمنها ما دُمّر بأسْرِه ومنها ما ذهب أكثره ومنها ما ذهب بعضه ومنها ما تشعّث . وهلك بحلب عددٌ كثير من النّاس وببعلبك ، ولم يهلك بدمشق غير واحد أصابتْهُ قطعة من حجر فسقط على درج جيرون فمات . وجاءت بدمشق زلازل فى عدّة ليالى وأيّام إلى يوم الجمعة عاشر ذى القعدة[١] .

فيها وَلِىَ القاضى المفضّل أبو القاسم هبة الله بن كامل قضاء القضاة فى ذى الحجة ؛ فَرتّب صلاح الدّين الفقيه عيسى الهكّارى بحكم[٢] القاهرة وابن كامل بحكم مصر .

---

(١) وأزعجت هذه الزلازل نور الدين الذى كان يخشى من تحرك الفرنج انتهازا لخراب الذى شمل البلاد ، فقام بحركة تفتيشية سريعة زار فيها مواقع الدمار وأمر بالتعمير وحصن مواقع الخطر وشحنها بالمقاتلة . وقد أصاب الفرنج مثل ما أصاب المسلمين . يقول أبوشامة : وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى ، فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا ، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم . فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر . الكامل : ١١ : ١٣٢ – ١٣٣ ؛ كتاب الروضتين ١ : ٤٦٧ – ٤٦٨ .

(٢) يعنى قضاء القاهرة وقضاء مصر .

سنة ست وستين وخمسمائة (١) :

فيها رفع صلاح الدّين جميع المكوس بديار مصر وأبْطلها .

وفيها أمر بَهْدم المعونة بمصر[٢] فهُدِمت ، وعمرها مدرسة للشّافعيّة ؛ ولم يكن قبل ذلك بديار مصر مدرسةٌ لأحدٍ من الفقهاء فإنّ الدّولة كانت إسماعيلية . وهذه المدرسة بجوار جامع عمرو بن العاص وعرفت أخيراً بالمدرسة الشريفيّة ؛ وهى أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العِلْم . وأنشأ دارَ الغزل به مدرسةً للمالكية بجوار الجامع أيضا ، وتعرف اليوم هذه المدرسة بالقمْحِيّة[٣] .

وفيها عزل صلاح الدّين قضاء مصر من الشّيعة ، ووَلّى قاضى القضاة صدْرَ الدّين عبد الملك بن دِرباس الهدبانى الشافعى[٤] ، وجعل إليه الحكم فى جميع بلاد مصر بعدما أحضره من المحلّة ، وخلع عليه فى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة ؛ فعزل مَنْ كان بها من القضاة واستَنَاب عنه قضاةً شافعيّة . ومن حينئذٍ اشتُهِر مذهب الشافعىّ ومذهب مالك بديار

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع عشر من سبتمبر سنة ١١٧٠ .

(٢) كان فى مصر داران بهذا الاسم ، وعرفتا أيضا باسم حبس المعونة . إحداهما بالفسطاط جنوب مسجد عمرو ابن العاص والأخرى بالقاهرة ، واسم الأولى مأخوذ من ظروف إنشائها ، إذ أنها بنيت بمعونة المسلمين وإسهامهم لينزلها ولاتهم إذ لم يكن لهؤلاء الولاة قبل ذلك دار رسمية ينزلون فيها ، ثم جعلت دارا للشرطة ، ثم حولت على زمن العزيز بالله إلى سجن عرف باسم حبس المعونة ، وحوله صلاح الدين بعد ذلك إلى مدرسة للشافعية ، عرفت باسم المدرسة الناصرية ولما كملت وقف عليها الصاغة وكانت بجوارها ، وعرفت أيضا باسم الشريفية نسبة إلى الشريف القاضى شمس الدين أبى عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الحنفى قاضى العسكر وكان رابع من تولى التدريس بها . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٣ ، ٢ : ١٨٧ – ١٨٨ ، ٣٦٣ – ٣٦٤ .

(٣) وكانت تعرف أيام صلاح الدين أيضا بالمدرسة القمحية لأن القمح كان يوزع على فقائها من ضيعة بالفيوم عرفت بالحنبوشية أوقفها صلاح الدين عليها . وكان فى موقعها قبل ذلك قيسارية (سوق) عرفت بقيسارية الغزل بجوار الجامع العتيق بمصر ، ووقف عليها صلاح الدين أيضا قيسارية الوراقين وعلوها بمصر ، وكانت أجل مدرسة للمالكية . وفى سنة خمس وعشرين وثمانمائة أخرج السلطان الأشرف برسباى ناحيتى الأعلام والحنبوشية من وقفها وجعلهما إقطاعين لمملوكين له . نفس المصدر : ٢ : ٣٦٤ .

(٤) صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماردانى . وقد استمر فى منصبه حتى نهاية عصر صلاح الدين

مصر وتظاهر الناس بهما[1] ، واختفى مذهب الشّيعة من الإماميّة والإسماعيلية . وبطل من حينئذ مجلس الدّعوة بالجامع الأزهر وغيره .

وفيها ابتدأ صلاح الدّين فى غزو الفرنج ، فجمع الجنود والعساكر ، وخرج فى أحْسَن زىّ إلى بلاد عسقلان والرّملة فشنّ الغارات عليها ، وهجم رَبَض مدينة غزّة ، وواقع ملك الفرنج على الدّاروم فَفَلّ جمعَهُ وقتل منه كثيراً من الفرنج ، ونجا ملكهم بحشاشته . وعاد صلاح الدّين مظفّراً غانماً .

ثمّ خرج فى النّصف من ربيع الأوّل ومعه مراكب مفصّلة على الجِمال ، فسار إلى أَيْلة ، وكان بها قلعةٌ منيعة قد ملكها الفرنج ، فألْقى المراكب المحمُولة معَهُ بعد إقامتها وإصلاحها فى البحر ، وشحنها بالرّجال والسّلاح ، وضايق قلعة أيلة فى البرّ والبحر حتى افتتحَها فى العشرين من ربيع الآخر ، وقتل مَنْ بها من الفرنج ، وسلّمها لثقاتٍ من أصحابه أقامهم فيها وقوّاهم بالسّلاح والميرة ونحو ذلك .

وَوَرَدْت عليه قافلة أهله فسار بهم إلى القاهرة ودخل فى سادس عِشْرِى جمادى الأُولى . ثمّ سار إلى الإسكندرية لِمُشَاهَدة سورها وترتيب أمورها ، فدخلها وأمر بإصْلاح السّور والأبراج ، فعمر ما تهدّم منه .

وفيها اشترى الملك المظفّر تقىّ الدّين عمر بن شاهنشاه بن أيوب[2] منازل العزّ بمصر[3] ، فى النّصف من شعبان ، وجعلها مدرسة للشافعيّة ، وأوقَف عليها عدّة أماكن ، منها الرّوضة تجاه مصر .

---

(١) فى الأصل : به . وهو خطأ .

(٢) صاحب حماة ، من رجال صلاح الدين الذين اعتمد عليهم فى حروب الوحدة بين مصر والشام عقب وفاة نور الدين محمود ، ثم فى تحرير فلسطين ، وناب عنه فى مصر فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وحدث خلاف بينه وبين صلاح الدين فحاول السير إلى المغرب فترضّاه السلطان وولاه حماة . وكان قبل هذا صاحب إقطاع الفيوم حيث أنشأ مدرستين للشافعية والمالكية .

(٣) منظرة بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله ، ولم يكن بمصر أحسن منها كما يقول المقريزى ، وكانت مطلة على النيل لا يحجبها عنه شئ ، وكان بجوارها حمام يصل بينهما باب . وعرفت بعد تحويلها إلى مدرسة باسم المدرسة التقوية . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٨٤ — ٤٨٥ .

وفيها خرج الأمير شمس الدّولة توران شاه إلى بلاد الصّعيد ، وأوقع بالعربان ، وغنم منها غنائم تَجِلُّ عن الوصف ، وعاد إلى القاهرة .

وفيها ابتدأ صلاح الدّين بعمارة السُّور الجديد على القاهرة[1] .

وفيها كثُر بمِصْرَ عسكر صلاح الدّين وأقاربُه وأصحابُه ، وانكَفَّتْ أمراء المصريّين عن التّصرُّف ومُنِعوا من كلّ شئ ، فبَسَطُوا ألسنتهم بالقول ضدّ ما عليه صلاح الدّين وأصحابه من الفعل فى مَحْوِ آثار الدّولة الفاطمية وإزالة رسومها ، وخَلْع العاضد وقَتْلِه . والدّعاء للخليفة العبّاسى . فلمّا رأى أمْرَه قد قَوِىَ وأوْتادَ دولته قد تمكّنت من البلاد عزم على إظهار ما يُخفيه ، فوَاعد أمراء النّشابين على أن يَمضُوا إلى بيوت الأمراء المصريّين فى اللّيل ، ويقف كل أميرٍ منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر ، فإذا خرج للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذها لنفسه .

فأصبحوا واقفين على منازل الأمراء المصريّين بأجنادهم ، فما هو إلا أنْ يخرج الأميرُ من منزله ليصير إلى الخدمة على عادته فإذا بالأمير الشّامىّ [١٦٤ ا] الّذى قد عُيّن له وقد قبض عليه وأوْثَقَه ، وهجم بمَنْ معه على داره فملكها بجميع ما تحتوى عليه ، وما يتعلّق بصاحبها ويُنسب إليه من أهلٍ ومالٍ وخيولٍ وعبيدٍ وجَوار ، وماله من إقطاع . فلم ينتشر الضّوء حتّى عَلَتْ الأصوات وارتفعت الضّجّات وثار الصّياح من كلّ جانب ، وصار الأمراء الشاميّون فى سائر نِعَم أمراء مصر ، وأصبح الأمراء المصريّون أسرى مُعْتَقلين فى أيدى أعاديهم . فالَ أمرُهم إلى أن صار الأمير منهم بوّاباً على الدّار التى كان يسكنها ، وصار آخَرُ منهم سَائِسَ فرسٍ كان يركبها ، وصار آخرُ وكيلَ القبض فى بلدٍ كانت إقطاعاً له ، ونحو ذلك من أنواع الهَوان .

وبلغ ذلك العاضدَ فشقَّ عليه وأرسل إلى صلاح الدّين يسأله عن سبب القبض على الأمراء، فبعث إليه بأنَّ هؤلاء الأمراء كانوا عصاةً لأمرك والمصلحة قتلُهم وإقامة غيرهم ممّن يمتثل أمرك . فسكت .

---

(١) « لأنه كان قد تهدم أكثر وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا » . كتاب الروضتين : : ١ : ٤٨٨ ، نقلا عن ابن أبى طى .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

وتقوّى صلاح الدّين وعظُم أمرُه ، وذهب مَنْ كان يخشاه ويخافه ، وأخرج أكثر إقطاعات الأجناد بمصر ، وزاد الأمير شمسَ الدّولة على إقطاعه ناحية بُوش[1] ودهشور[2] والمنوفيّة وغير ذلك . وانحَلّ أمرُ العاضد .

فيها قبض صلاح الدّين على جميع بلاد العاضد ومنع عنه سائر موادّه ، بحيث لم يُبْقِ له شيئًا ؛ وقبض على القصور وسَلَّمها إلى الطّواشى بهاء الدّين قراقوش الأسدى[3] ، وهو يومئذ زمامُ القُصور من بَعْدِ قتل مؤتمن الخلافة ، وصار له فى القصر موضع ، فلايدخل شئٌ من الأشياء إلى القصر ولا يخرج منه إلا بَمَرْأى منه ومَسْمَع . وضيّق على أهل القصر حتى قبض فى هذه الأيّام على جميع ما فيها ، وصار العاضد مُعتقلاً تحت أيديهم .

وفيها أمر صلاح الدّين بتغيير شعار الفاطميّين ، وأبطل ذكر العاضد من الخطبة . وكان الخطيب يدعو للإمام أبى محمدّ ، فَتَخَالُه العامّة والرّوافض العاضد وهو يريد أبا محمد الحسن المسْتَضِئ بِأَمْر الله أمير المؤمنين الخليفة[4] . ثم أعلن بالعزم على إقامة الخطبة العبّاسية .

وفيها مات الشيخ الموفّق يوسف بن محمد أبوالحجاج ، ابن الخلاّل ، كاتب الدّست[5]

---

(١) بالصعيد غربى النيل بعيدة عنه وتتبع محافظة بنى سويف ، وتقع فى الجهة البحرية منها على بعد ساعة ونصف ساعة . معجم البلدان : ٢ : ٣٠٤ ؛ الخطط التوفيقية : ١٠ : ٥ – ٦ .

(٢) قرية قديمة تابعة لقسم الجيزة على الشاطئ الغربى ، بينها وبين الجبل الغربى أربعمائة قصبة بتقدير على مبارك . معجم البلدان : ٤ : ١١٤ ؛ الخطط التوفيقية : ١١ : ٦٧ . وفى كتاب الروضتين : وازداد على إقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها . كتاب الروضتين : ١ : ٤٨٨ .

(٣) أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى ، نسب إلى أسد الدين شيركوه ، لأنه كان من مماليكه . خدم صلاح الدين وتولى زمام القصر الفاطمى بعد مقتل مؤتمن الخلافة جوهر ، أشرف على بناء السور بالقلعة وقناطر الجيزة ، ولما فتحت عكا تولاها وسورها ، ثم أسره الفرنج فافتك نفسه بعشرة آلاف دينار . توفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ودفن بسفح المقطم . وقراقوش لفظ تركى يعنى العقاب الطائر . كتاب الروضتين : ١ : ٤٨٨ : حاشية : ٣ .

(٤) الخليفة الثالث والثلاثون من أسرة العباسيين حكم بين سنة ٥٦٦ ، فى أواخرها ، ٥٧٥ (١١٧١ – ١١٨٠) .

(٥) أى كاتب الإنشاء . آخر رؤساء ديوان الإنشاء فى العصر الفاطمى قبل وزارة شيركوه ، تولى الديوان بعده القاضى الفاضل ، وفى عصره انتقل النفوذ إلى شيركوه ثم صلاح الدين فأصبح اليد اليمنى لهما فى إدارة شئون دولتيهما . ومن شعر ابن الخلال :

يا أخا الغرة : حسب الدهر من   غفلة المغرور ما أصبح يبدى
تؤثر الدنيا . فهل نلت بها   لحظة تخلص من هم وكد !

وفى يوم الجمعة سلخ ذى الحجة عزم صلاح الدّين على الإعلان بالأمر وكشف الغطاء فأحجم الخطباء عن ذلك تقيّةً وحذرًا ، فانتُدب لذلك رجلٌ من أهل المغرب يقال له اليَسع ابن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقى الأندلسى ، فقصد المنبر مستعدًّا من الحديد بما يدفع عن نفسه إن أراده أحد بسوء ؛ فخطب ودعا للخليفة أبى محمدّ الحسن المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، وذكر نسبه إلى العبّاس . وقيل بل كان ذلك فى السنة الآتية[1] .

---

(١) بهامش الأصل : بياض صفحة ونصف .

سنة سبع وستين وخمسمائة (١) :

فى أوّل المحرّم نُسخ منشور بنقل السّنة الخراجيّة إلى السّنة الهلاليّة لخلوّ هذه السّنة من نوروز . ومنذ نقلت السّنة فى أيّام الأفضل أمير الجيوش ، كما تقدم ذكره ، لم تُنقل ، وانسحب الأمر حتّى تداخلت السُّنون ، وصار التّفاوت بين العربيّة والقبطيّة سنتين .

وفى رابعه جَلَسَ العاضد بعد الإرْجافِ بأنّه أثخن فى رمضه ، فشُوهد على ما حقّق الإرْجاف من ضَعْفِ القوى وتَخاذُلِ الأعضاء وظهور الحمّى ؛ وقيل إنّها تفشّت بأعضائه .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من سبتمبر سنة ١١٧١ .

(٢) الأصل فى هذا أن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار من حيث إن الخراج يؤخذ من متحصل ذلك ، والزروع والثمار مرتبطةبالشهور والسنين الشمسية إذ أن كل نوع منها يظهر فى وقت من أوقاتها لا يتحول عند لزوم كل شهر منها وقتا بعينه من صيف أو شتاء أو ربيع أو خريف . واستخراج الخراج فى الإسلام مرتبط بتاريخ الهجرة وشهوره تنتقل من وقت إلى وقت ، فربما كان استحقاق الخراج فى أول سنة من السنين العربية ثم يترك الحال إلى أن يصير فى أواخرها ثم فى السنة التالية فيصير الخراج منسوبا للسنة السابقة واستحقاقه فى السنة اللاحقة ، فيحتاج حينئذ إلى تحويل السنة الخراجية السابقة إلى التى بعدها . وقد ورد فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة : كتب القاضى الفاضل ، ونقل المقريزى من خطه : « مستهل المحرم . نسخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية والمطابقة بين اسميهما لموافقة الشهور العربية للشهور القبطية وخلو سنة سبع من نوروز ، فنقلت سنة خمس وستين الخراجية إلى هذه السنة ، وكان آخر نقل نقلته هذه السنة فى الأيام الأفضلية (يعنى أيام الأفضل بن بدر الجمالى) فإن سنة ثمان وتسعين وأربعمائة وسنة تسع وتسعين الخراجيتين نقلتا إلى سنة إحدى وخمسمائة . وسبب هذا الانفراج بينهما زيادة عدد السنة الشمسية على السنة الهلالية أحد عشر يوما وإغفال النقل فى سنة ثلاث وثلاثين فى أيام الوزير الأفضل رضوان بن ولخشى ، وانسحب ذيل هذه الزيادة وتداخل السنين بعضها إلى بعض إلى أن صار التفاوت بينها سنتين فى هذه السنة ، فنقلت . وهو انتقال لا يتعدى التسمية ولا يتجاوز اللفظ ولا ينقص مالا لديوان ولا لمقطع . وإنما يقصد به إزالة الإلتباس ، وحل الإشكال » اهـ . المواعظ والأعتبار : ١ : ٢٨١ – ٢٨٢ . ونقل السنة الخراجية إلى التى تليها يحدث مرة كل ثلاث وثلاثين سنة ذلك أنه إذا اتفق أن يكون أول الهلالية موافقا لمدخل السنة الخراجية (مع يوم النيروز) ، وكانت نسبتهما واحدة استمر اتفاق التسمية فيهما وبقى ذلك جاريا عليهما ، ثم يحدث التداخل حتّى تنقضى ثلاث وثلاثون سنة فيطل التداخل وتخلو السنة الهلالية من نوروز ويكون التفاوت سنة واحدة،فيحتاج الأمر إلى نقل السنة الشمسية إلى التى تليها . وفائدة النقل ألا تخلو السنة الهلالية من مال خاص ينسب إلى السنة الموافقة لها لأن واجبات العسكر وأرزاق المرتزقة جارية على السنة الهلالية . نفس المصدر : ٢٨٠ – ٢٨١ . راجع الدراسة التفصيلية لهذا منسوبة إلى جذورها التاريخية فى نفس المصدر : ٢٧٣ – ٢٨٥ ؛ صبح الأعشى : ١٣ : ٥٤ – ٦٢ .

وأمسك طبيبُه المعروف بابن السّديد[1] عن الحضور إليه ، وامتنع من مداواته[2] ، وخذَلَه مساعدةً عليه للزّمان ، ومَيْلا مع الأيّام .

وفيها نزل نجم الدّين أيّوب بجماعة معه إلى الجامع وأمر الخطيب ألّا يذكر العاضد ، وقال إن ذكرتَه ضربتُ عنقك . فقال لِمَنْ أخطب ؟ فقال للخليفة المستضىء بأمر الله العبّاسى . فلمّا خطب لم يذكر العاضد ولا غيره ، بل دعا للأئمة المهديّين والملك النّاصر . فقيل له فى ذلك ، فقال : ما علمتُ اسمَ المستضىء ولا نُعوتَه ، وفى الجمُعَة الثّانية أفعلُ ما يجبُ فعلُه وأذكرُه . فلمّا بلغ العاضِدَ ذلك قال فى الجمعة الأُخرى يعيِّنون اسم الرّجل المخطوب له . فلمّا كانت الجمعة الثانية ، وهى سابعُه[3] ، خُطب باسم الخليفة المستضىء بأمر الله أبى محمّد الحسن بن [١٦٤ ب] المستنجد بالله أبى المظفّر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمّد ابن المستظهر بالله . وقُطِعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعُدْ بعدها إلى اليوم الخطبةُ للفاطميّين .

وذلك أنه لمّا ثبتت قدم صلاح الدّين بالدّيار المصريّة وأزَالَ المخالفين له ، وضعُفَ أمر الخليفة العاضد بقَتْلِ رجاله وذهاب أمواله ، وصار الحَكَم على قصره قراقوش ، طواشى أسَد الدّين ، نيابة عن صلاح الدّين ، وتمكّنت عساكر نور الدّين من مصر — طمع فى أخذها . وكتب إلى صلاح الدّين — وفى ظنّه وظَنِّ جميع عساكره أنّ صلاح الدّين إنمّا هو نائب عنه فى مصر متى أراد سَحْبَه بإذنه لا يمتنعُ عليه — يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للمستضىء العبّاسى . فاعتذر بالخوْف من قيام المصريّين عليه وعلى مَنْ معه لِمَيْلِهم — كان — إلى الفاطميّين ، ولأنّه خاف من قطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء[4] أن يسير

---

(١) القاضى الأجل السديد أبو المنصور عبد الله بن الشيخ السديد أبى الحسن على ، كان رئيس أطباء مصر فى عصره ، وكان أبوه أيضا طبيبا الفاطميين ، سكن فى القاهرة دارا اعتنى بزينتها عند باب زويلة — توفى سنة ٥٩٢ . النجوم الزاهرة . ٥ : ٣٥٧ ، حاشية : ١ .

(٢) فى الأصل : من مكافأته . والتصحيح من النجوم الزاهرة .

(٣) بدأ المحرم من هذه السنة يوم السبت . التوفيقات الإلهامية : ٢٨٤. وبهذا تكون هذه هى الجمعة الأولى منه .

(٤) فى الأصل المستنجد ، وهو لا يتفق مع ما ذكر قبل ذلك بسطرين ولا مع ما سيرد بعد سطور قليلة من حديث مساعدة الأقدار بمرض العاضد مرض الموت . هذا إلى أن المستنجد بالله توفى فى ربيع الثانى من سنة ست وستين وخمسمائة ، أى قبل إقامة الخطبة للعباسيين بثمانية أشهر .

نور الدّين إلى مصر وينزعه منها . فلم يقبل منه نور الدّين وألحّ عليه وألزمه إلزامًا لم يجد مندوحة عن مخالفته ، وساعدته الأقدار بمَرَضِ العاضد المَرَضَ الّذى غلب على الظّنّ أنّه لا يعيش منه . فجمع صلاح الدّين أصحابه إليه واستشارهم فى ذلك ، فاختلفوا ، فمنهم من أشار بقطع خطبة العاضد ، ومنهم لم يشر بها .

وكان قد دخل إلى مصر رجل عجمىٌّ يعرف بالأمير العالم ، يزعم أنّه عبّاسى فاطمىّ من أيّام الصّالح بن رزّيك ، ومازال ينتقل فى قوالب الانتساب وأساليب الاكتساب . فلمّا رأى ما هم فيه من الإحجام وأنّ أحدًا لا يتجاسر ويخطب للمستضىء قال : أنا أبتدئ الخطبة له . فصعد يوم الجمعةُ المنبر بالجامع العتيق وخطب للمستضىء قبل الخطيب ، فلم ينكر أحدٌ عليه ولا تحرّك له . فتيقّن حينئذ صلاح الدّين ذهاب قوّة القوم من والٍ يغريهم . فتقدّم إلى جميع الخطباء بأن يخطبوا فى الجمعة الآتية للمستضىء ، وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر . فكان الذى ابتدأ بالخطبة للمستضىء فى الجامع العتيق بمصر أبو عبد الله محمّد ابن الحسن بن الحسين بن أبى المضاء الدمشقى(1) . وكان قَدِمَ به أبوه إلى مصر فنشأ بها وقرأ الأدب ، ورحل إلى دمشق وبغداد وتفقّه ، وعاد إلى مصر ، واتّصل بخدمة السّلطان صلاح الدّين فولاّه الخطابة بمصر ثم بعثه رسولا إلى بغداد ، فمات بدمشق . وولى الخطابة بعده الشيخ أبو إسحاق العراقى .

فكتم أهل العاضد ذلك عنه لشدّة مابه من المرض . وكان ذلك مِنْ أعْجَب ما يؤرّخ ، فإنّ الخطبة بديار مصر أوّل ما خَطَب بها للمعزّ لدين الله ، أول خلائف الفاطميّين بمصر ،

(1) تقدم فى آخر أنباء سنة ست وستين أن الذى قام بالخطبة فى الجامع العتيق — بعد أن أحجم الخطباء عن ذلك — رجل من أهل المغرب يسمى اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع ، الغافقى الأندلسى . ويذكر النويرى أن صلاح الدين أحضر الفقيه اليسع بن يحيى بن اليسع وعرفه برغبة نور الدين ، فصعد اليسع المنبر قبل صعود الخطيب ودعا للمستضىء بنور الله فلم ينكر عليه أحد . ويذكر أبو المحاسن أن الروايات اختلفت فيمن أقدم على هذه الخطبة العباسية فقيل إنه رجل من الأعاجم يسمى الأمير العالم . وقيل رجل من أهل بعلبك يسمى محمد بن المحسن بن أبى المضاء البعلبكى ، وقيل إنه كان شريفا عجميا ورد من العراق أيام الصالح طلائع بن رزيك . قارن نهاية الأرب : ٢٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٥٥ — ٣٥٦ .

عمر بن عبد السّميع العبّاسى الخطيب بجامع عمرو ، كما تقدم ذكره[1] ، وكان الذى قطع خطبة العاضد ، آخر خلائفهم ، رجل عبّاسىّ . ومثله فى الغرابة أن الفاطميّين لم يتمكّنوا من الدّيار المصريّة حتّى قصدوها بعساكرهم مرتين مع القائم بن المهدى ولم يفتح ، وفتحوها فى الثالثة على يد جوهر ؛ وكذا حصل فى زوالهم من مصر فإن شيركوه قصد مصر مرّتين ورجع ، ثم قصدها المرّة الثّالثة واستقرّ بها حتّى أزالت عساكره الدّولة .

فى ثامنه أمر صلاح الدّين بركوب عساكره كلّها قديمها وجديدها ، بعد أن تكامل سلاحهم وخيولهم ، وخرج لِعَرْضهم ، وهى تمرّ عليه موكبًا بعد موكب وطُلْبًا بعد طُلْب . والطُّلْب بلغة الغزّ هو الأمير المقدّم الّذى له عَلَمٌ معقود وبُوقٌ مضروب وعدّة من الجند ما بين مائتى فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا . واستمرّ طول النّهار فى عرضهم . وكانت العدّة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طُلْبًا والغائب منها عشرون طُلْبًا ، وتقدير العدة أربعة عشر ألف فارس .

فى يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرّم ، عشيّة يوم عاشوراء ، نفذ حكم الله المقدُور ، وقضاؤه الذى يستوى فيه الآمرُ والمأمور ، فى العاضد لدين الله ، فى الثُّلُث الأوّل من ليلة الاثنين يوم عاشوراء ، وقامت عليه الواعية[2] ، وعظُمت ضوضاء الأصوات النّادبة ، حتّى كأن القيامة قد قامت . وكان بين وَضْع اسمه من أعْواد المنابر ورفع جسمه على أعواد النّعش ثلاثة أيّام . فاعتنى به [١٦٥ ا] صلاح الدّين عن أن يُبْتَذَل أو يهان بعد الموت ، وكان من معه من الأمراء يريدون ذلك ؛ وأمر بكفّ الأيدى واعْتِقَال الألسنة عن التعرّض إليه بسوء ؛ وركب مُعَزّيًا لأهل القصر . وأمر بتجهيزه وقد أظهر الكآبة والحزن وأجرى دمعه ، ووَعَدَ أهله بحُسْنِ الخلافة على أيتام العاضد وهم ثلاثة عشر ولدًا : أبو الحسن ، وأبو سليمان داود ، وأبو الحجّاج يوسف ، وأبو الفتوح ، وأبو إسحاق إبراهيم ، وأبو الفضل

---

(١) فى الجزء الأول من هذا الكتاب : ١١٤ . حيث تجد الخبر يخالف ماورد هنا بعض الشىء إذ قال : « ولما كان يوم الجمعة لعشرة بقين من شعبان نزل جوهر فى عسكر إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة وخطب بهم هبة الله بن أحمد – خليفة عبد السميع بن عمر العباسى – ببياض » . وذكر النويرى مثل هذا أيضا . فالخطيب هبة الله بن أحمد نائب خطيب المسجد ، واسم هذا الأخير عبد السميع عمر لا عمر بن عبد السميع . وذكر أبو المحاسن مثل ذلك . نهاية الأرب : ٢٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٣٥٦ .

(٢) وعبه كوعده أخذه أجمع كأوعبه واستوعبه ، وأوعب جمع ، والجذع استأصله . القاموس المحيط .

جعفر ، وأبو داود موسى ، وأبو زكريّا يحيى ، وعبد القوى ، وعبد الكريم ، وعبد الصّمد ، وأبو اليسر ، وأبو القاسم عيسى[1] .

وأمر بإنشاء الكُتب إلى البلاد بِذِكْرِ وفاة العاضد وأنّ الخطبة استقرّت للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين العبّاسى ، وألّا يخوضَ أحد فى شأن العاضد ولا يطعن فى سلطان . وكتب إلى نور الدّين بموت العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء كما أشار به مع ابن (أبى) عَصْرون[2] .

وفى حادى عشره عمل الباقى بالإيوان ، وحضر السلطان صلاح الدّين ، وكان محفلا حافلا وجمعًا حاشدًا ، فيه خلقٌ من الزّوايا وأهل التّصوّف وغيرهم . واهتمّ بما يُحمل من أطعمة العزاء.

وكانت النّفوس متطلّعةً إلى إقامة خليفة بعد العاضد من أهله يُشَار إليه بالأمر ، فلم يَرْضَ ذلك صلاح الدّين .

ومات العاضد وعمره إحدى وعشرون سنة غير عشرة أيّام ، منها فى الخلافة إلى أن أُعيدت دولة بنى العبّاس فى مستهلّ المحرّم سنة سبع وستّين وخمسمائة إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يومًا . وكان كريمًا سمْحًا لطيفًا ، ليّن الجانب ، يغلب عليه الخير وينقادُ إليه . وكان أسْمَرَ حُلو السُّمرة كبير العينين أزَجَّ الحاجبين[3] ، فى أنفه حلس[4] وفى منخريه انتشار ، وفى شفتيه غِلَظ .

---

(١) يقول أبو شامة : « أخبرنى الأمير أبو الفتوح بن العاضد ، وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر ، أن أباه فى مرضه استدعى صلاح الدين ، فحضر ، قال وأحضرنا ، يعنى أولاده ، وهم جماعة صغار ، فأوصاه بنا ، فالتزم إكرامنا واحترامنا ، رحمه الله » . كتاب الروضتين : ١ : ٤٩٤ .

(٢) بهامش الأصل : بياض أسطر . وشرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن على بن المطهر أبى عصرون ، الإمام التميمى الموصلى قاضى قضاة دمشق ، ولد سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقيل سنة ثلاث وتسعين ، وتوفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة . وولى قضاء سنجار ونصيبين وحران ، وقدم حلب سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، ودخل دمشق مع نور الدين عند فتحها سنة تسع وأربعين ، وتولى عدة مناصب فيها وفى غيرها . وتولى منصب قاضى القضاة بدمشق سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، بنى له نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك وبنى هو لنفسه مدرستين بدمشق وحلب ، وكف بصره قبل وفاته بعشر سنين . ومن شعره :

أؤمل أن أحيا وفى كل ساعة ... تمر بى الموتى تهز نعوشها
وما أنا إلا منهم غير أن لى ... بقايا ليال فى الزمان أعيشها

(٣) الزجج : دقة الحاجبين فى طول ، والنعت أزج وزجاء ، وزججه دققه وطوله ، القاموس المحيط .

(٤) الحلس ، بكسر الحاء ، كساء يوضع على ظهر البعير تحت البرذعة ، وبفتحتين أن يكون موضع الحلس من البعير يخالف لون البعير ، والحلساء شاة شعر ظهرها أسود وتختلط به شعرة حمراء ، وأحلست الأرض صار النبات عليها كالحلس كثرة وأحلس النبت غطى الأرض بكثرته ، واحلس (بتشديد السين) احلساسا صار أحلس ، وهو بين السواد والحمرة . القاموس المحيط..

وترك العاضد من الولد الأمير داود، والأمير عليًّا ويقال أبو عليّ ، والأمير عبد الكريم ، وتميمًا ، وموسى ، وعبد القوى ، وجعفر ، وعبد الصّمد ، وأبا الفتوح ، وحيدرة ، وإبراهيم، ويحيى ، وجبريل ، وعيسى ، وسليمان ، ويوسف[1] . غير أنّ أيّامه كانت ذات مخاوف وتهديدات ، وقاسى شاورًا وتلوّناته ومخايلاته ، ثم محاصرة الفرنج ومضايقته . وفى أيّامه احترقت مصر وذهبت أموال أهلها وزالت نعمتهم بالحريق والنّهب . وكان متغاليًا فى مذهبه شديدًا على مَنْ خالفه . ولم يكن فيمن وَلِىَ من أبائه مَنْ أبوه غير خليفة سواه ومِنْ قبله الحافظ ،وما عداهما فلم يَلِ منهم أحدٌ الخلافة إلّا من كان أبوه خليفة .

وقال ابن خلّكان : سمعتُ جماعة من المصريّين يقولون إنّ هؤلاء القوم فى أوائل دَوْلتهم قالُوا لبعض العلماء اكتُب لنا ورقة تذكر فيها ألقابًا تصلحُ للخلفاء حتّى إذا تولّى واحد لقّبوه ببعض تلك الألقاب ، فكتب لهم ألقابًا كثيرةً ، وآخر ما كتب فى الورقة العاضد ، فاتّفق أنّ آخر من وَلِى منهم تلقّب بالعاضد ؛ وهذا من عجيب الاتّفاق[2] .

قال : وأخبرنى أحدُ علماء المصريّين أيضا أنّ العاضد رأى فى آخر دولته فى منامه كأنّه بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقربٌ من مسجدٍ معروفٍ بها فلدغته ، فلمّا استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعضَ معبّرى الرؤيا وقصّ عليه المنام ، فقال ينالك مكروه من شخصٍ هو مقيمٌ فى هذا المسجد ، فطلب والى مصر وأمره يكْشِفُ عمّن هو مقيم فى المسجد المذكور ، وكان العاضد يعرفه . فمضى الوالى إلى المسجد فرأى فيه رجلا صوفيًا ، فأخذه ودخل به على العاضد ، فلمّا رآه سأله من أين هو ، ومتى قَدِمِ البلاد ، وفى أىّ شىء قدم ، وهو يجاوبُه عن كلّ سؤال . فلمّا ظهر له منه ضعفُ الحال والصّدق والعجزُ عن إيصّال المكروه إليه أعطاهُ شيئًا وقال له : يا شيخ ادْعُ لنا ، وأَطْلَق سَبِيلَه ؛ فنهض مِنْ عِنْدِهِ وعاد إلى المسجد . فلما استولى صلاح الدّين وعزم على القبْضِ على العاضد واستَفْتَى الفقهاء أفْتَوْه بجواز ذلك

---

(١) سبق قبل أسطر ذكر عدة أولاد العاضد وأسمائهم ، وهم ثلاثة عشر اتفق النويرى مع المقريزى على أسمائهم . أما من ذكرهم هنا فعدتهم ستة عشر ولدا من بينهم تميم ، وحيدرة ، وجبريل ، وسليمان ، وسقط هنا من ورد ذكرهم أولا اسم أبى اليسر .

(٢) وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٩ — ٢٧٠ .

لما كان عليه العاضد وأشياعهُ [١٦٥ ب] من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثْرةِ الوقوع فى الصّحابة ، وكان أكثرهم مبالغة فى الفُتْيَا الصّوفى المقيم فى المسجد – وهو نجم الدّين الخبوشانى[١] – فإنه عدّد مساوئ القوم وسَلَب عنهُم الإيمان ، وأطال الكلام فى ذلك ؛ فصّحتْ بذلك رؤيا العاضد .

وحكى الشّريف الجليس أنّ العاضد طلبه يومًا،فلمّا دخل عليه رأى عنده مملوكَيْن من التّرك عليهما أقبية ، فسأله عنهما ، فقال له : هذه هيئة الّذين يملكون ديارنا ويأخذُون أموالنا ؛ فلمّا دخل الغزّ كانت هيئتهم كهيئة هذين المملوكين[٢] .

ومن العجيب أنّه لم يمُت بالقصر منهم إلّا المعزّ أولهم بمصر والعاضد آخرهم ، وعدّتهُم أربعة عشر دفنوا كُلُّهم بالتّربة فى المجلس ؛ فلو اتّفق أنّه مات آخَر لم يُوجَدْ له عندهم مكانٌ يُدفَن فيه لامْتِلائِه بقبُور الأربعة عشر ، وهذا أيضًا من عجيب أمرهم

ولمّا مات العاضد استولى صلاح الدّين على جميع ما كان فى القصر ، فإنّ قراقوش قام بحفظه ، فلم يجد فيه كثير مالٍ ، لكنّه وجد فيه من الفرش والسّلاح والذّخائر والتّحف ما يخرج عن الإحصاء ، ووجد فيه من الأَعْلَاق النّفيسة والأشياء الغريبة ما تخلوُ الدّنيا من مثله ، ومن الجواهر ما لا يُوجد عند غيرهم مثله . منها حبل ياقوت زنته سبعة عشر درهمًا أو سبعة عشر مثقالا ، ونصاب زمرد طوله أربعة أصابع فى عرض كبير[٣] ، ولؤلؤ كثير ،

---

(١) أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن الحسن بن عبد الله الخبوشانى ، نجم الدين ، الفقيه الشافعى ؛ لمـا استقل صلاح الدين بمصر قربه منه وأكرمه لاعتقاده فى علمه ودينه وفوض إليه تدريس المدرسة المجاورة لقبر الإمام الشافعى . ولد سنة ٥١٠ وتوفى سنة ٥٨٧ ، ودفن فى قبة تحت رجل الإمام الشافعى ، وعاش ولم يأكل من وقف المدرسة لقمة ، وكفن فى كسائه الذى أحضره من خبوشان . وخبوشان ، بفتح الخاء أو ضمها وضم الباء ، من أعمال نيسابور . معجم البلدان : ٣ : ٣٩٨ ؛ وفيات الأعيان : ١ : ٤٧١ – ٤٧٢ ؛ طبقات الشافعية : ٤ : ١٩٠ – ١٩٥ ؛ شذرات الذهب : ٤ : ٢٨٨ .

(٢) فى الأصل : كهيئة تلك المملوكين .

(٣) يقول أبو شامة ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر ، قطعة واحدة ، وكان سمك حجره قدر الإبهام ... وقد أحضر السلطان صانعا ليقطعه ، فأبى ، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع ، وفرقه على نسائه . كتاب الروضتين : ١ : ٥٠٦ .

وإبريق من حجر مانع يَسَعُ مائه رطل ماء[1] ، وسبعمائة يتيمة بَزَهر[2] ، والطَّبل الذى صُنِع لإزالة القولنج، وكان بالقرب من موضع العاضد ، فلمّا احتاطوا بالقصر ظنّوه عُمِل لِلَّعب فَسخِرُوا من العاضد ، وضرب عليه إنسانٌ فضرط فتضاحك مَنْ حضر منهم ، ثم ضرب عليه آخر فضرط ، ثم آخر من بعدُ فضرط ، حتى كثُر ذلك فألقاه من يده فتكسّر ؛ وقيل للسُّلطان عليه وأنّه عُمِل للقولنج فندم على كسره .

ووُجِد من الكتب النَّفيسة مالا يُعدّ ؛ ويقال إنها كانت ألف ألف وستمائة ألف كتاب ، منها مائة ألف مجلّد بخطٍّ منسوب[3] ، وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطَّبرى ؛ فباع السلطان جميع ذلك ، وقام البيع فيها عشر سنين[4] .

ونُقل أهلُ العاضد وأقاربه إلى مكان بالقصر ووُكل بهم مَنْ يحفظُهم . وأخْرجَ سائر مَا فى القصر من العبيد والإماء فباع بعضَهُمْ وأعتق بعضهم ووَهَبَ منهم . وخلا القصر من ساكنه كأن لم يَغْنَ بالأمس .

وكانت مدّة الدّولة الفاطميّة بالمغرب ومصر منذُ دُعِى للمهدىّ عبيد الله بِرَقَّادَة من القيروان إلى حين قُطِعت من ديار مصر مائتى سنة وتسعًا وستّين سنة وسبعة أشهر وأيّامًا ، أوّلُها لإحْدَى عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين وآخرها سلخ ذى الحجّة سنة ستٍّ وستّين وخمسمائة . منها بالمغرب إلى حين قدوم القائد جوهر إلى مصر أحَدٌ وستُّون سنة وشهران وأيّام ؛ ومنها بالقاهرة ومصر مائتا سنة وثمانى سنين . وما أعجب قول المهدى ابن الزّبير فى مدح العاضد :

---

(١) أرسله السلطان إلى بغداد . نفس المصدر .

(٢) لعله البادزهر الذى يعرف به القلقشندى قائلا إنه حجر خفيف هش ، وأصل تكونه فى الحيوان المعروف بالأيل (بتشديد الياء) بتخوم الصين الذى يأكل الحيات فينتج هذا الحجر فى الدموع التى تسقط من عينيه ويتربى الحجر حتى يكبر ويحتك فيسقط . وقيل يكون فى قلبه ، وقيل فى مرارته ؛ ويصاد هذا الحيوان لأجله . صبح الأعشى : ٢ : ١١٦ — ١١٨ .

(٣) أى بخط كبار الكتاب المعروفين من أمثال ابن البواب وابن مقلة .

(٤) و « حصل للقاضى الفاضل قدر كبير منها حيث شغف بحبها ، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها ، فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه فى بركة كانت هناك ، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التى ألقاها فى البركة على أنها مخرومات ، ثم جمعها بعد ذلك » . كتاب الرضتين : ١ : ٥٠٧ . ويقول ابن واصل : « فحمل من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال ، وترك الباق ، فبيع بعضه ، وأطلق البعض لمن يختص به » . مفرج الكروب : ١ : ٢٠٣ .

بل عاد للدُّنيا الجمالُ　　وبدا على الدِّين الجلالُ
أصبحْتَ فى الخلفاء رَا　　بعَ عَشْرِهم ، وهو الكمالُ

فإن الشَّىء إذا كمل بدأ نقصه ، وبالعاضد تمَّ ملك الفاطميين وزال بموته .

قال ابن سعيد : ولم يُسْمَع فيما بُكيت به دولةٌ بعد انقراضها أحسن من قصيدة عمارة ابن على اليمنى الذى قتله صلاح الدّين ، وهى[1] :

رمَيْتَ يا دهرُ كفَّ المجد بالشَّلل　　وجِيدَهُ بعد حُسْنِ الْحَلْي[2] بالعَطَل
سعيَت فى منهج الرأى العثُور ، فإن　　قدرتَ من عثَراتِ الدّهر[3] فاستقِل
جَدَعْت مَارِنَك الأقْنى ، فأنْفُك لا　　ينفكُّ مابين قرع السّنّ والحجل[4]
[١٦٧ا] هدمت قاعدة المعروف عن عجل　　سُقِيتَ مُهْلا ، أما تمشى على مَهَل !
لَهْفى ولَهْفَ بنى الآمال قاطبةً　　على فجيعتنا[5] فى أكرم الدُّوَل
نَدِمْتُ مصر ، فأولتنى خلائفها　　من المكارم ما أرْبَى على الأَمَل
قومٌ عرفتُهم كَسْبَ الأُلُوف ، ومِنْ　　كمالِها أنّها جاءت، ولم أسَلِ
وكنت من وزراء الدَّست حين سما[6]　　رأْس الحصانِ بِهَادِيهِ على الكَفَل
ونِلْتُ من عظماء الجيش مكرمةً　　وخلَّةً حرست من عارض الخلل
يا عاذِلى فى هَوَى أبْناء فاطمة　　لك الملامة إنْ قصّرت فى عذلى
بالله زُرْ ساحة القصْرَين ، وَابْكِ معى　　عليهما ، لا على صِفِّين والجمل
وقل لأهلهما : والله ما الْتَحمَتْ　　فيكم جراحى ، ولا قرحى بمُنْدَمِل[7]

---

(١) وردت فى كتاب الروضتين : ١ : ٥٧٠ - ٥٧١ ؛ وفى مفرج الكروب : ١ : ٢١٢ - ٢١٦ ؛ وفى صبح الأعشى : ٣ : ٥٢٦ - ٥٢٨ .

(٢) فى الروضتين : بعد حلى الحسن .

(٣) فى الروضتين : من عثرات البغى .

(٤) فى الروضتين : ينفك ما بين نقص الشين والخجل . وفى مفرج الكروب وصبح الأعشى : ما بين أمر الشين والخجل .

(٥) فى الأصل وفى مفرج الكروب : فجيعتها ، والتصحيح من الروضتين ، وهو أكثر مناسبة .

(٦) فى مفرج الكروب : حيث سما .

(٧) فى الروضتين : فيكم قروحى ، ولا جرحى بمندمل . وفى مفرج الكروب وفى صبح الأعشى : فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل .

ماذا عسى[1] كانت الإفرنجُ فاعلةً ... فى نَسْلِ آلِ أمير المؤمنين عَلى
هل كان فى الأمْرِ شىءٌ غير قِسْمة ما ... ملكتم بين حكم السّبْى والنَّفل
وقد حصلتُم عليها ، واسمُ جدّكمُ ... محمّد ، وأبوكم غير منتقل
مررتُ بالقصر والأركانُ خالية ... من الوفود ، وكانت قبلة القبل
فملتُ عنها بوجْهى خَوْفَ مُنْتقِد ... من الأعادى ، ووجهُ الودّ لم يَمِل
أسْبَلتُ من أسفٍ دمْعِى غَداةَ خَلَت ... رحابُكُمْ وغدَتْ مهجُورَةَ السُّبُل
أبْكى على مأثُراتٍ من مكارمكم ... حال الزّمان عليها وهْى لم تَحُل
دارُ الضّيافة كانت أُنْسَ وافدكم ... واليَوْمَ أوحشُ من رَسْمٍ ومن طلل
وفِطْرَةُ الصّوْم إنْ أضْحَت[2] مكارمكم ... تشكو من الدّهر ضيماً[3] غير محتمل
وكسوةُ النّاس فى الفصلين قدْ دَرَسَتْ ... ورَثٌّ منها جديدٌ عندهم وبَلى
وموسم كان فى يوم الخليج[4] لكمْ ... يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأوّل العام والعيدين كم لكمُ ... فِيهنّ من وَبْلِ جُودٍ ليس بالوَشَل
والأرض تهتزُّ فى يوم الغدير كما[5] ... يهتزُّ ما بين قَصْريكمْ من الأسل
والخيل تعرض فى وشىٍ وفى شِيَةٍ ... مثل الطّواويس فى حَلْىٍ وفى حُلَل[6]
ولا حملتُم قِرَى الأضياف من سعة الـ ... أطْباقِ إلا على الأكتاف[7] والعَجَل
وما خَصَصْتُم بِبِرٍّ أهل ملّتِكُم ... حتّى عممتُمْ به الأقصى من المِلل
كانت رواتبكُم للذّمّتين[8] وللضّـ[ـم] يف المقيم ، ولِلطّارى من الرُّسُل

(١) فى الروضتين وفى مفرج الكروب وصبح الأعشى : ماذا ترى .
(٢) فى الروضتين : إن أصبحت ، وكذلك فى مفرج الكروب .
(٣) فى الروضتين : حيفا .
(٤) فى الروضتين : فى كسر الخليج .
(٥) فى الروضتين : فى عيد الغدير لما .
(٦) فى الروضتين ... من وشى ومن وشية .. مثل العرائس .. وفى مفرج الكروب .... فى شى وفى وشية .. مثل العرائس .
(٧) فى الروضتين : على الأعناق .
(٨) فى مفرج الكروب : للوافدين ، وكذلك فى صبح الأعشى .

ثم الطّراز بتنّيس الذى عظُمَت — منهُ الصِّلاتُ لأهل الأرض والدّول[1]
وللجوامِع من أحباسِكُم[2] نِعَمٌ — لمن تصدّر فى علمٍ وفى عَمَل
وربمّا عادت الدّنيا لمعقلها — منكُمْ فأضحت بكم محلولة العقل
[١٦٧ب]والله لافَازَ يومَ الحشر مبغضُكُمْ — ولا نَجَا من عذاب الله غير وَلِى[3]
ولا سُقِى الماء من حَرٍّ ومن ظمإ — من كَفِّ خير البرايا خَاتَم الرُّسُل
ولا رأى جنة الله التى خلقت — مَنْ خان عهدَ الإمامِ العاضد بن عَلِى
أئمتى ، وهُدَاتى ، والذّخيرة لى — إذا ارتهنتُ بما قدّمتُ من عَمَلى
تالله لم أوفِهِمْ فى المدح حَقَّهمُ — لأنَّ فضلهمُ كالوابِلِ الهَطِل
ولو تضاعفت الأقوالُ واستَبَقَتْ — ما كنتُ فيهم - بحمد الله - بالخَجِل
باب النّجاة همُ ، دُنيَا وآخرةً — وحبّهم فهو أصل الدّين والعمل
نورالهدى ،ومصابيح الدّجا ، ومحلّ [م] الغيث إن وَنَت الأنواءُ فى المحل
أئمةٌ خُلِقُوا نورًا ، فنورُهم — من نُور خالص نور الله لم يَفُل[4]
والله لازُلْتُ عن حُبّى لهم أبدًا — ما أخّر الله لى فى مدّه الأجل
[عمارة قالها المسكين ، وهو عَلَى — خوفٍ من القتل ، لاخوف من الزّلل][5]

ووجد على بعض جدران القصر مكتوبًا :

يا هذه الدنيا عجبتُ لِموُلَع — بِكِ كيف أضحى فى هواكِ يُقادُ
ما صحّ منكِ لآل أحمد موعد — فكيف مِنْكِ لغيرهم ميعاد[6]
أمّا نعيمُك فهو ظلٌّ زائل — وصلاح ما تأتيه فهو فساد

---

(١) هذا البيت ساقط من الروضتين .

(٢) فى صبح الأعشى : من أخماسكم .

(٣) هذا البيت وما يتلوه إلى آخر القصيدة غير موجود فى الروضتين . وهى موجودة فى مفرج الكروب . وفى صبح الأعشى ورد هذا البيت . . ولو نجا من عذاب النار . .

(٤) من الفعل : أفل وفى مفرج الكروب : لم يغل . وفى صبح الأعشى أدمج هذا البيت مع البيت الذى سبقه فى بيت واحد يقول :

نور الدجى ، ومصابيح الهدى ، وهم — من نور خالص نور الله لم يفل

(٥) هذا البيت ساقط من الأصل . وقد أضيف من مفرج الكروب .

(٦) فى الأصل : فكيف يصح منك لغيرهم ميعاد . وبه ينكسر البيت .

ذكر طرف من ترتيب الدّولة الفاطميّة

اعْلَمْ أنَّ الدّولة كانت إذا خَلَتْ من وزير صاحب سيفٍ[1] يتغلّب عليها فإنّه يجلس صاحبُ الباب[2] فى باب القصر المعروف بباب الذّهب ، وهو أحد أبواب القصر ، ويقفُ بين يَدَيْه الحجّاب والنّقباء ، وينادى منادٍ : يا أَرْبَاب الظُّلامات ؛ فيحضر إليه أرباب الحوائج. فمن كان أمرهُ مّما يشاقة به نظر فى أمره بمن يتعلّق من القضاة أو الولاة ، فيسيرٌ إلى ذلك كتابًا بكشف ظُلاَمته . فإن كان مع المتظلّم قصّة أخذها منه الحاجب ، فإذا اجتمع معه عدّةٌ دفعها إلى الموقّع بالقلم بالقلم الدّقيق[3] فيوقّع عليها ، ثمّ تُحْمَل منه إلى الموقّع بالقلم الجليل[4] ليبسط ما أشار إليه الموقّع بالقلم الدّقيق . فإذا تكامَلَتْ حُمِلت فى خريطة إلى الخليفة فوقّع عليها ، ثمّ أُخْرِجَت فى الخريطة إلى الحاجب فيقف بها على باب القصر ويسلّم لِكلّ أحد توقيعه.

فإن كان فى الدّولة وزيرٌ صاحب سيف فإنه يجلس يومين فى كلّ أسبوع فى مكانٍ مُعدّ له فى القصر ، ويجلس قبالته قاضى القضاة وعن جانبيه شاهدان مُعْتبران ، ويجلس فى جانب الوزير الموقّع بالقلم الدّقيق ويليه صاحب ديوان المال ، وبين يديه صاحب المال وأَسْفِهسلار العساكر ، وبين أيديهما النّواب والحُجّاب على طبقاتهم

---

(١) كانت الوزارة أعلى الوظائف رتبة وشاغلها تارة من أرباب السيوف وتارة من أصحاب الأقلام ، وفى كلتا الحالتين كانت تعلو ويتسع نطاق تصرفها فتكون وزارة تفويض،ويعبر عنها حينئذ بالوزارة ، وقد تنحط عن ذلك ويضيق تصرف شاغلها فتسمى وساطة ، وإذا كان الوزير صاحب سيف كان فى مجلس الخليفة قائما فى جملة الأمراء القائمين ، وإذا كان صاحب قلم جلس كما يجلس أرباب الأقلام . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٢ — ٤٨٣ ، ١١ : ١٤٩ .

(٢) مرتبته تلى مرتبة الوزير وكانت وظيفته تسمى الوزارة الصغرى وينظر شاغلها فى المظالم إذا لم يكن ثم وزير صاحب سيف ، وإلا أصبح صاحب الباب ممن يقف فى خدمة الوزير . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٣ .

(٣) ولصاحب هذا المنصب طراحة ومسند وفراش يقدم إليه ما يوقع عليه ، وله موضع من ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن ، وهو يلى صاحب ديوان المكاتبات فى الرسوم والكسوات وغيرها ، ويكون صاحب هذا القلم الدقيق من الأستاذين المحنكين ، ويختص بالجلوس إلى الخليفة فى أكثر أيام الأسبوع فى خلوته ، وإذا جلس الوزير للمظالم جلس إلى جانبه يوقع بأمره . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٢ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٩١ .

(٤) ويقال لوظيفة التوقيع بالقلم الجليل الخدمة الصغرى ، ولها الطراحة والمسند بغير حاجب والفراش الذى يرتب لصاحبها ما يوقع عليه . نفس المصدرين السابقين .

وكان أجلّ الخدم صاحب الباب ، وهو من الأمراء المطوّقين ؛ ثم الأسفهسلار ، وهو زمام كلّ زمامٍ وإليه أمور الأجناد ، ثم حامل سيف الخليفة أيام الرّكوب[1] ؛ ثم زمام الحافظيّة والآمرية ، وهما أجلّ الأجناد .

وكانت ولاية الأعمال أجلّها ولاية عسقلان ، ثم ولاية قوص ، ثم ولاية الشرقيّة ، ثم ولاية الغربيّة ، ثم ولاية الإسكندريّة[2] .

وكان قاضى القضاة ينظر فى الأحكام الشرعية[3] ، فلمّا صارت الوزارة إلى أرباب السّيوف كان يقلد القضاة نيابة عنه . والقاضى أجلّ أرباب العمائم رتبة ؛ وتارة يكون داعيَ الدّعاة ، وتارة تفرد الدّعوة عنه . ويجلس فى يومى [١٦٧ ا] الثلاثاء والسبت بزيادة جامع عمرو بن العاص[4] ، وله طُرّاحَة ومسند حريرٌ والشّهود حوله ؛ وله خمسة من الحُجّاب اثنان منهما بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصومَ إليه . وله أربعةٌ من الموقّعين ، ودواتُه بين يديه على كرسى محلى بفضة يحمل إليه من الخزائن ولها حاملٌ بجارٍ سلطانى فى كل شهر . ويخرج إليه من إصطبل الخليفة بغلة شهباء ، وهى مختصّة به دون غيرها[5] ، ويكون عليها سرج محلّىً ثقيل وراويتان[6] من فضّة ، ومكان الجلد حرير .

(١) يسبق هذه الوظيفة فى الرتبة وظيفة حمل المظلة فى المواسم العظام كركوب رأس العام ونحوه ، وهى من الوظائف العظام وشاغلها أمير جليل له التقدم والرفعة . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٣ .

(٢) وكان يخلع على أصحاب هذه الولايات من خزانة الكسوة بالبدنة ، وهى النوع الذى يلبسه الخليفة فى فتح الخليج . ويقول القلقشندى : « لعل هذه الولايات ولايات الولاة التى تدخل تحت حكمها الولايات الصغار ، أو تكون هى التى استقرت فى آخر دولتهم ، وإلا فقد رأيت فى تذكرة أبى الفضل الصورى ، أحد كتاب الإنشاء أيام القاضى الفاضل ، سجلات كثيرة لولاة الوجهين القبلى والبحرى » . صبح الأعشى : ٣ : ٤٩٧ — ٤٩٨ . والبدنة ثوب حريرى مرقوم بالذهب لا يلبسه الخليفة فى غير يوم فتح الخليج . نفس المصدر : ٣ : ٥١٩ .

(٣) ودور الضرب والعيار ، وربما جمع قضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاض واحد وكتب له بها عهد واحد . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٦ .

(٤) بدأ هذه الزيادة مسلمة بن مخلد الأنصارى فى سنة ثلاث وخمسين من الهجرة وهو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية ابن أبى سفيان ، وكانت الزيادة التى زادها فى الجانب البحرى منه ، وزخرفه كذلك ، ثم توالت الزيادات فيه بعد ذلك . نفس المصدر : ٣ : ٣٤١ .

(٥) عبارة المقريزى فى المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٣ أكثر دقة من عبارته هنا . يقول فى المواعظ : ويقدم له من الإصطبلات برسم ركوبه على الدوام بغلة شهباء وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة .

(٦) فى صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٦ : برادفتين من فضة ، وفى المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٣ وراءه دفتر فضة . والمثبت هنا أصحها جميعا .

وتخلع عليه الخلع المذهبة ، فيسير من غير طبل ولا بُوق إلاّ أن يضاف إليه الدّعوة فإنّه يسير حينئذٍ بالطّبل والبوق ، فإنّ ذلك من رسوم الدّاعى مع البنود . فإن كان إنّما خُلع عليه لوظيفة القضاء فقط فإنّه يسير بالغُز أرجالاً حوله وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة ، أو الخليفة والوزير إن كان ثمّ وزيرٌ صاحب سيف ؛ ويركب معه يومئذ نوّاب الباب والحجّاب ولا يجلس أحد فوقه ألبتّة ، ولا يمكنه حضور جنازة ولا عقد نكاح إلاّ بإذن ، ولا يقوم لأحد من النّاس إذا كانَ فى مجلس الحكم ، ولا ينشئ عدالةً ألبتّة إلاّ بإذن[1] ، فلا تثبت إذا أذن له فى إنشائها لأحد حتى يزكّيه عشرون عدلاً من عُدُول البلد بين مصر والقاهرة ويرضاه الشهود كلّهم .

فإنْ كان فى الدّولة وزيرُ سيفٍ لا يخاطَب حينئذ من يتولى الحكم بقاضى القضاة فإنّه من نُعوت الوزير .

ويصعد القاضى إلى القصر فى يومى الخميس والاثنين بُكْرةً للسّلام على الخليفة ؛ وله النّواب ، وإليه النّظر فى دار الضرب لتحرير العيار . ولا يُصْرف القاضى إلاّ بُجْنحَة .

وكان فى الدّولة داعى الدّعاة ، ورُتْبتُه تَلِى رتبةَ قاضى القضاة ، ويتزيّا بزيّه ، ولا بدّ أن يكون عالمًا بمذاهب أهل البيت ، عليهم السّلام ، وله أَخْذُ العهد على من ينتقل إلى مذهبه ؛ وبين يديه اثنا عشر نقيبًا ؛ وله نوّاب فى سائر البلاد . ويحضر إليه فقهاء الشيعة بدار العلم ويَتَفقّون على دفتر يُقالُ له مجلس الحكمة يقرأ فى كلّ يوم اثنين وخميس بعد أن تحضر مبيضته إلى داعى الدّعاة ويتصفّحُه ويدخل به إلى الخليفة فيتلوه عليه إن أمكن ، ويأخذ خطّه عليه فى ظاهره . ثمّ يخرج فيجلس على كرسى الدّعوة بالإيوان من القصر ، فيقرؤه على الرجال ؛ ثم يخرج ليقرأه على النّساء . وله أَخْذُ النّجْوى من المؤمنين بالأعمال كلّها ، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث ، فيحملها إلى الخليفة[2] .

كان متولى ديوان الإنشاء يخاطب بالأجلّ ، ويقال له كاتب الدّست ، وهو الذى يتسلّم

---

(١) فى المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٤ : « ولا يعدل شاهد إلا بأمره » . وتتفق عبارة صبح الأعشى فى معناها مع العبارة المذكورة هنا بالمتن . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٧ .

(٢) انظر فى هذا : المواعظ والاعتبار : ١ : ٣٩١ .

الكتب الواردة ويعرضها على الخليفة من يده ثم يأمر بتنزيلها والجواب عنها . والخليفة يستشيرُه فى أكثر أمُوره ولا يُحجب عنه شيء متى جاء ، وهذا أمرٌ لا يصلُ إليه غيرُه ، وربّما باتَ عنده . وجَارِيه فى كلّ شهر مائة وعشرُون دينارًا ، مع الكسوة والرُّسُوم ؛ ولا يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكُتّابه إلاّ الخواصّ ، وله حاجبٌ من الأمراء وفرّاشون ومرتبة هائلة ، ومخادّ ومسند ، ودواة بغير كرسيّ وهي من أنْفَس الدُّوِىّ ، ولها أستاذ من خدام الخليفة برسم حملها .

ولابدّ للخليفة من جليس يُذاكِرهُ ما يحتاج إلى علمه من كتابات وتجويد الخطّ ومعرفة الأحاديث وسِيرَ الخلفاء ونحو ذلك ، يجتمع به أكثر أيّام الأسبوع ، وبرسمه أستاذ محنَّك يحضر فيكون ثالثهما ، فيقرأ ملخَّص السِّير ويكررّ عليه ذكر مكارم الأخلاق . ورتبته عظيمة تلحق برتبة كاتب الدّست ، ويكون صحبته دواة محلاّة . فإذا فرغ من المجالسة ألقى فى الدّواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاسًا فيه ثلاثة مثاقِيل ندّ مثلث خاصّ ليتبخرّ به عند دخوله على الخليفة (ثانى مرة)[1] . وله منصب التوقيع بالقلم الدّقيق ، كما تقدّم ، ويجلس حال التّوقيع على طُرّاحة ومسند ، وله فرّاشون من فرّاشى الخاصّ تقدّم له ما يوقّع عليه . ويختصّ به موضع من ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحدٌ إلاّ بإذن .

ورأس أصحاب دواوين المال من يلى النّظر على الدّواوين وله العزل والولاية ، وهو الّذى يعرض الأوراق على الخليفة أو الوزير[2] ، ويعتقل من شاء بكلّ [١٦٧ ب] مكانٍ ؛ ويجلس بالمرتبة والمسند وبين يديه حاجبٌ من أمراء الدّولة ، وتخرج له الدّواة بغير كرسىّ ويندب مَن يطلب الحساب ، ويحثّ فى طلب المال ومطالبة أرباب الضّمانات .

وكان لهم ديوانُ التّحقيق ، ومقتضاه المقابلة على الدّواوين ولمتولّيه الخلع والرتبة والحاجب ، ويُلْحق بِناظر الدّواوين .

وديوانُ المجلس ، وفيه علوم الدّولة ، وهو أصل الدّواوين ، وفيه عدّة كتّاب لكلٍّ منهم

(١) زيد ما بين القوسين من المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠٢ . وفى صبح الأعشى : ٣ : ٤٩١ : ثانى دفعة .
(٢) فى صبح الأعشى : ٣ : ٤٩٣ : وإليه عرض الأرزاق فى أوقات معروفة على الخليفة والوزير .

مجلسٌ معدٌّ ومعتاد . وصاحب هذا الدّيوان هو الّذى يتحدّث فى الإقطاعات ، ويخلع عليه ، وهو لاحق بديوان النّظر ، ويجلس بالمرتبة والمسند والدّواة والحاجب[1] .

والتّوقيع بالقلم الجليل يسمّى الخدمة الصّغرى ، ولمتولّيها الطّراحة والمسند بغير حاجب ، بل ويُندب له فراش لترتيب ما يوقّع عليه ، ولا يوقّع الخليفة عليه بيده إذا كان وزيره صاحب سيف إلاّ فى أربعة مواضع : إذا رفعت إليه قصّة وقّع عليها يعتمد ذلك إن شاء ، أو كتب بجانبها الأيمن يوقع بذلك ، فيخرج إلى صاحب ديوان المجلس دون غيره فيوقّع جليلا ، ويدخل بها إلى الخليفة ثانيا فيضع علامته عليها . وكانت علامتهم كلهم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم يخرج بها فتثبت فى الدّواوين . أو يوقّع فى مسامحة ، أو تسويغ ، أو تحبيس ما مِثالُه : قد أنعمنا بذلك ، أو قد أمضينا ذلك . فإذا أراد الخليفة الاطلاع على شىء وقّع ليخرج الحال فى ذلك ، فإذا خرج الحال عاد إليه ليعلّم عليه ، فإن كان الوزير صاحب سيف وقّع الخليفة بخطّه : وزيرنا السّيد الأجلّ ، واللّقب المعروف به ، أمتعنا الله ببقائه ، يتقدّم بإنْجاز ذلك إن شاء الله . فيكتب الوزير تحت خطّه . يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ثم يثبت فى الدّواوين .

ولديوان الجيش مُسْتَوْفٍ مسلم له غَيْرة ، ويجلس بطرّاحة لحركة العرض والحلى والشيات[2]. وفى هذا الدّيوان خازنان برسم رفع الشواهد ، فإذا عرض الجندى حُلِّىَ وذكرت صفات فرسه ، ولا يثبت له إلاّ الفرس الجيّد ، ولا يثبت له برذون ولا بغل ، ويقف بين يدى هذا المستوفى نقباء الأجناد لإنهاء أمور الأجناد ، وفُسِح للأجْناد فى آخر الدّولة أن يقابض بعضُهم بعضًا .

وديوان الرّواتب فيه أسماءُ كلّ مرتزقٍ فى الدّولة ضُمن له جارٍ وجراية ، وكاتبه يجلس بطرّاحة وتحت يده عشرة كتّاب ، وتردُ إليه التّعريفات من سائر الأعمال باستمرار ما هو مستمر ومباشرة من يستجدّ وموت من مات ليوجب استحقاقه .

---

(١) وكان يتولاه أحد كتاب الدولة ممن يكون مترشحا لأن يكون رأس الدواوين ، ويسمى استيماره دفتر المجلس . نفس المصدر : ٤٩٤ .

(٢) يقول القلقشندى : وإليه عرض الأجناد وذكر حلاهم وشيات خيولهم . نفس المصدر : ٤٩٢ .

وفى هذا الدّيوان عدة عروض . أوّلها : راتب الوزير وَهو فى الشّهر خمسة آلاف دينار ، ولكلٍّ من أولاده وإخوته من ثلثمائة دينار إلى مائتى دينار . وقُرّر لشجاع بن شاور خمسمائة دينار[1] ، ولكلٍّ من حواشى [2]من خمسمائة دينار إلى ثلثمائة ، وذلك سوى الإقطاعات .

وثانيها : حواشى الخليفة ، وأوّلهُم الأستاذون المحنّكون ؛ وهم : زمام القصر ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرسالة ، وصاحب الدّفتر ، وشادّ التّاج الشّريف ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس ؛ ولكلٍّ منهم مائة دينار فى الشّهر . ولمَن يلى هؤلاء يتناقص عشرة ، وهكذا إلى من يكون جَاريه عشرة دنانير . وعدة هؤلاء ألف فما فوقها ، وهم خصّيصُون ؛ وللطّبيب الخاصّ مائة دينار فى الشّهر ، ولعدّة من الأطبّاء برسم أهل القصر كلّ منهم عشرة دنانير .

ثالثها : أرباب الرّتب بحضرة الخليفة ، وأوّلهم كاتب الدّست الشّريف ، وجاريه فى الشهر مائة وخمسون دينارا ، ولكلٍّ من كتّابه ثلاثون دينارًا ؛ ولمتولّى مجالسة الخليفة والتّوقيع بالقلم الدّقيق فى المظالم مائة دينار ؛ ولصاحب الباب مائة وعشرون دينارًا ، ولكلّ من حامل السّيف وحاملَ الرّمح سبعون دينارا ؛ ولكلٍّ من أزمّة العساكر والسّودان مائتان وخمسون دينارا إلى أربعين دينارًا إلى ثلاثين دينارًا .

رابعها : قاضى القضاة ، وله فى الشّهر مائة دينار ؛ ولداعى الدّعاة مائة دينار ؛ وكلّ من قرأ الحضرة من عشرين دينارًا إلى خمسة عشر إلى عشرة دنانير ؛ ولكلٍّ من خطباء [١٦٨ ا] الجوامع من عشرين دينارًا إلى عشرة دنانير ؛ ولكلٍّ من الشعراء من عشرين دينارًا إلى عشرة دنانير .

خامسها : أرباب الدّواوين ، وأوّلهم متولّى ديوان النّظَر ، وله فى الشهر سبعون دينارًا ؛ ولمتولّى ديوان التّحقيق خمسون دينارًا ؛ ولمتولّى ديوان المجلس أربعون دينارًا ؛ ولصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون دينارًا ، ولكاتبه خمسة دنانير ؛ ولمتولّى ديوان الجيش أربعون

---

(١) ولم يقرر لولد وزير خمسمائة دينار سوى شجاع بن شاور المنعوت بالكامل . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٠١ .

(٢) بياض بالأصل . وفى المواعظ والاعتبار : ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من خمسمائة إلى أربعمائة إلى ثلثمائة خارجا عن الإقطاعات .

ديناراً ، وللموقِّع بالقلم الجليل ثلاثون ديناراً ؛ ولكلٍّ من أصحاب دواوين المعاملات عشرون ديناراً ؛ ولكلّ معين عشرة دنانير وفيهم مَنْ له سبعة وخمسة .

سادسها : المستخدمون بالقاهرة ومصر فى خدمة الواليَيْن ، لكلّ منهم خمسون ديناراً ؛ ولحُمَاةِ الأهراء[1] والمناخات[2] والجوالى[3] والبساتين[4] والأملاك لكلٍّ منهم من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة .

سابعها : الفرّاشون برسم خدمة القصور ؛ ومنهم برسم خدمة الخليفة خمسة عشر ، منهم صاحب المائدة وحامى المطابخ ؛ وجاريهم من ثلاثين ديناراً إلى ما حولها سوى الرّسوم ؛ ويليهم الرَّشّاشُون ونحوهم ، وعدّتهم ثلثمائة فراش مولاهم أستاذ ، وجارى كلّ منهم من عشرة دنانير إلى خمسة .

ثامنها : صبيان الرّكاب وهم ينيِّفون على ألفى رجل ، ولهم اثنا عشر مقدّماً أكبرهم مقدّمو الرّكاب ، ومقدّم المقدّمين منهم هو صاحب ركاب الخليفة الأيمن ؛ ولكلّ من المقدّمين فى الشّهر خمسون ديناراً . وصبيان الركاب أربع جوق ، جوقة لكلٍّ منهم فى الشّهر عشرون

---

(١) الأهراء : جمع هرى بضم الهاء وكسر الراء وتشديد الياء ، بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان وتخزن به الغلال والأتبان احتياطا للطوارئ ، وترد هذه الغلات من منفلوط والحبس الجيوشى وينفق منها مايوقع به عليها ، على الطواحين السلطانية والمناخات والجوامع والمساجد وجرايات رجال الأسطول وغير ذلك ، وربما حمل منها المبلغ اليسير إلى بيت المال فيثبت فيه ويصرف منه فى جملة مصاريف بيت المال . وكانت هذه الأهراء فى أماكن متعددة منها القاهرة والفسطاط والمقس . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٦٤ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٥٢ ، ٤٧٥ ؛ قوانين الدواوين : ٣٥٠ ، ٤٥٢ . انظر أيضا الحبس الجيوشى فى قوانين الدواوين : ٣٣٦ — ٣٣٩ .

(٢) المناخ فى معنى الأهراء من حيث اختصاصه بالسلطان ، وهو مكان معد للجمال السلطانية كالإسطبل للخيول ، وربما عمل فيه من الأسلحة الحربية (النفطية) ما يتعلق الحديث فيه بمستخدمى خزائن السلاح ؛ وكان له فى العصر الفاطمى معاملات وضرائب . قوانين الدواوين : ٣٥٣ ، ٤٥٨ ؛ صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٥ .

(٣) الجوالى : ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة عليهم فى كل سنة ، وكانت قسمين ، أحدهما بالعاصمة ويعين له ناظر يتبعه شادون وعمال وشهود يباشرونه ، وتحت يده حاشر للنصارى وآخر لليهود ، ويسجل فيه أسماء الأفراد الجدد فى كل عام ، فإن كانوا من الصبيان أطلق على الواحد منهم نشو (نشء) وإن كان من البلاد الخارجية عرف بالطارئ . وأما القسم الثانى فهو ما كان خارج العاصمة ، ويقع ضمن مقطعى تلك البلاد من أمراء أو غيرهم ، فإن كانت تلك البلد جارية فى بعض الدواوين السلطانية كان المتحصل من الجوالى جاريا فيها . صبح الأعشى : ٣ : ٤٥٨ — ٤٥٩ ؛ قوانين الدواوين : ٣١٧ — ٣١٩ .

(٤) انظر أنواع مزروعاتها وتفصيل مواقيت زراعتها فى قوانين الدواوين : ٢٧١ — ٢٧٢ .

دينارًا ، ويليهم مَنْ له خمسة عشر ثم عشرة ثم خمسة دنانير ، وهم يندبون إلى الأعمال ويحملون المخلّفات لركوب الخليفة فى الأعياد والمواسم .

وكان لنقيب الأشراف[1] اثنا عشر نقيبا ، ويخلع عليه فيسير بالطّبل والبوق والبنود مثل الأمراء ، وله ديوان ومشارف وعامل ونائبه ؛ وجاريه فى الشهر عشرون دينارا ، ولمشارف ديوانه عشرة دنانير ، ولنائبه فى النّقابة ثمانية دنانير ، وللعامل خمسة دنانير .

وللمحتسب عدّة نواب بالقاهرة ومصر وسائر الأعمال ، ويجلس بجامع القاهرة ومصر يوما بعد يوم ، وتطوف نوّابه على أرباب المعايش . ويخلع على المحتسب ويُقرأ سجلّه على منبر جامع عمرو بن العاص .

وكانت لهم خدمة يقال لها النّيابة ، ومتوليها يتلقّى الرّسل الواردين من الملوك[2] ؛ وكانت خدمة جليلة لمتولّيها نائب ، ومن خواصّه أنّه يُنْعت أبدًا كلّ من يليها بغذىّ الملك ، وله النظر فى دار الضّيافة ، ويعرف هذا اليوم[3] بالمهمندار . وكان له فى الشهر خمسون دينارًا وفى كلّ يوم نصف قنطار خبز مع بقية الرّسوم .

وللخدمة فى ديوان الصّعيد عدة كتاب ؛ ولأسفل الأرض ديوان ؛ وللثغور ديوان ؛ وللجوالى ديوان ، وللمواريث ديوان ، ولديوان الخراجىّ والهلالىّ عدّة دواوين ، منها ديوان الرّباع ، وديوان المكوس ، وديوان الصناعة ، وديوان الكراع وفيه معاملات الإصطبلات وما فيها ، وديوان الأهراء ، وديوان المناخات ، وديوان العمائر ومحلّه بصناعة مصر لإنشاء الأسطول ومراكب الغلاّت السلطانيّة والأحطاب ، وكانت تزيد على خمسين عشاريًا وعشرين

---

(١) نقابة الأشراف أو نقابة الطالبيين ، ولا يكون نقيبها إلا من شيوخ هذه الطائفة وأجلهم قدرا وله النظر فى أمورهم وحمايتهم من الأدعياء ، وعيادة مرضاهم والسير فى جنائزهم وقضاء حوائجهم ، ولا يقطع أمرا من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨١ – ٤٨٢ .

(٢) والمراد « بالنائب » نائب صاحب الباب الذى تقدم ذكره أول هذا الفصل ، ولا يتولى هذه النيابة إلا أعيان العدول وأرباب الأقلام ، ويستقبل الرسل وينزل كلا منهم فى المكان اللائق بهم ويرتب لهم ما يحتاجون إليه ، ويستأذن لهم على الخليفة أو الوزير ويتقدمهم فى الدخول . ويبدو أن هذا النائب يقابل فى اختصاصه كبير الأمناء وأعوانه فى أيامنا هذه . قارن صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٤ .

(٣) على زمنى المقريزى والقلقشندى .

دماسًا ، منها عشرة خاصّة برسم ركوب الخليفة أيام الخليج والبقيّة برسم ولاة الأعمال تجرّد إليهم وينفق عليها من الديوان ؛ وديوان الأحباس .

وكانت عادتهم إذا انقضى عيد النّحر عمل الاستيمار ويثبت فيه جميع ما يشتمل عليه مصروف تلك السنة من عَيْن ووَرِق وغلّة وغيرها مفصّلا بالأسماء ، وأوّلهم الوزير حتى ينتهى إلى أرباب الضّوء ، ثمّ يعمل فى ملف حريرى يُشَدّ له جوهر يشدّه ؛ وكان يبلغ فى السنة ما يزيد على مائة ألف دينار عينًا ومائتى ألف درهم فضّة وعشرة آلاف إردب غلّة ؛ ويعرض على الخليفة ، فيستَوْعبُه ، ويشطب على بعضه ويُنقص قومًا ويزيد قومًا ويستجدّ آخرين بحسب ما يعنّ له . فيحمل الأمر على الشطب . وعمل مرّة فى أيام المستنصر بالله ، فوقّع بظاهره : الفقر [١٦٨ ب] مرّ المذاق ، والحاجة تُذلّ الأعناق ، وحراسة النعم بإدْرَار الأرزاق ؛ فلْيُجرُوا على رسومهم فى الإطلاق . « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ باقٍ[1] » .

وكان من عادتهم إخراج الكسوة فى كلّ سنة لجميع أهل الدّولة من صغير وكبير فى أوقات معروفة ؛ فبلغت كسوة الصّيف والشتاء فى السّنة ستمائة ألف دينار ونيّف .

وكانوا يتأنّقون فى المآكل ، حتى إن الخادم والسائس من غلمانهم يُنْفِقُ فى كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين دينارًا لِسَعَة أحوالهم .

وكانوا يفرّقون فى أوّل كلّ سنة دنانير يسمّونها دنانير الغُرّة تبلغ خمسمائة دينار فى السّنة ، فيتبرّك بها من يأتيه منها برسوم مقرّرة لكلّ أحد .

وإذا أهلّ رمضان لا يبقى أميرٌ ولا مقدّم إلاّ ويأتيه طبقٌ لنفسه ، ولكلّ واحدٍ من أولاده ونسائه طبقٌ فيه أنواع الحلوى العجيبة الفاخرة .

وكانت خِلَعُهم ثمينةً جدًّا بحيث يبلغ طراز الخلعة خمسمائة دينار ذهبا ، ويختصّ الأمراء فى الخلع بالأطواق والأساورة الذّهب مع السّيوف المحلاّة ؛ ويتشرّف الوزير عوضًا عن الطّوق بعقد جوهر فكاكه خمسة آلاف دينار يحمل إليه ، ويختصّ بلبس الطّيلسان المقوّر .

---

(١) سورة النحل : آية : ٩٦ .

ولا يركب الخليفة إلاّ بمظلّة منسوجة بالذّهب مرصّعة بالجوهر .

وسيأتى من إيراد خَرِبات ترتيبهم وحكاية أمور دولتهم عند ذكر خطط القاهرة إن شاء الله ما يعرّفك مقدارَ ما كانوا فيه من أمور الدّنيا وحقارةَ من جاء بعدهم[1] . فلِله عاقبة الأمور .

---

(١) فى هذه الفقرة ما يدل على أن كتاب المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار قد ألف بعد هذا الكتاب .

ذِكرُ ما عِيبَ عَلَيْهِمْ

لا شكّ فى أنّ القوم كانوا شيعةً يروْن تفضيل علىّ بن أبى طالب على مَنْ عداهُ من الصّحابة ، وكانوا ينتحلونَ من مذاهب الشّيعة مذهب الإسماعيليّة وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصّادق وتَنقُّلِها فى أولاده الأئمة المستُورين إلى عبيد الله المهدىّ ، أوّل مَنْ قام منهم بالمغرب. وبقيّةُ الشّيعة لا يقولون بإمامة إسماعيل ، وينكرون عليهم ذلك أشدّ الإنكار .

وكانوا مع انتحالهم مذهب التشيّع غُلاةً فى الرفض ، إلاّ أنّ أوّلهم كانوا أكابرَ صانُوا أنفسهم عمّا تحرّف به آخرهم . ثمّ إنّ الحاكم بأمر الله أكثر من النظر فى العقائد ، وكان قليل الثبات سريع الاستمالة ، إذا مال إلى اعتقادِ شىء أظهره وحمل النّاس عليه ، ثم لا يلبث أن يرجع عنه إلى غيره فيُريدُ من النّاس تركَ ما كان قد أ َمهم به والمصيرَ إلى ما استحدثه ومال إليه . واقترن به رجل يعرف باللباد الزّوزنى فأظهر مذاهب الباطنيّة ، وقد كان عند أوّلِهِمْ منها طرف ، فأنكر النّاس هذا المذهب لما يشتمل عليه ممّا لم يُعرف عند سلف الأمّة وتابعيهم ولما فيه من مخالفة الشرائع .

فلمّا كانت أيام المستنصر وفَدَ إليه الحسن بن الصّباح ، فأشاع هذا المذهب فى الأقطار ودعا الكافّة إليه ، واستباح الدّماء بمخالفته ؛ فاشتدّ النكير ، وكثُر الصّائح عليهم من كل ناحيةٍ حتّى أخرجوهم عن الإسلام ونفوهم عن الملّة .

ووجَد بنُو العبّاس السّبيل إلى الغضّ منهم لما مكّنوا من البغض فيهم وقاسوه من الألم بأخْذِهم ما كان بأيديهم من ممالك القيروان وديار مصر والشام والحجاز واليمن وبغداد أيضا ، فنفوهم عن الانتساب إلى علىّ بن أبى طالب ، بل وقالوا إنّما هم من أوْلاد اليهود ؛ وتناولت الألسنة ذلك ، فملئوا به كتب الأخبار .

ثم لمّا اتصل بهم الغز ووزر لهم أسد الدّين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وهم من صنائع دولة بنى العبّاس الذين ربوا فى أبوابها وغلوا بنعمها ونشئوا على اعتقاد مُوَالاتها

ومعاداة أعدائها ، لم يزدهم قربُهم من الدّولة الفاطميّة إلاّ نفوراً ، ولا ملأمهم إحسانها إليهم إلاّ حقداً وعداوة لهـا ، حتى قوُوا بنعمتها على زوالها ، واقتدرُوا بها على محْوها .

وكانت أساسات دَوْلتهم راسخة فى التّخوم ، وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم ، وأتباعهم وأولياؤهم لا يحْصَى لهم عدد ، وأنصارهم وأعوانُهم قد ملئوا [١١٦٩] كلّ قُطر وبلد ؛ فأَحبُّوا طمْسَ أنوارهم ، وتغيير منارهم ، وإلْصَاق الفساد والقبيح بهم ، شأن العدوّ وعادته فى عدوّه .

فتفطَّنْ ، رحمك الله ، إلى أسرار الوجود ، وميِّز الأخبار كتمييزك الجيد من النقود ، تَعْثُرْ إن سلمت من الهوى بالصّواب . وممّا يدلُّك على كثرة الحمل عليهم أنّ الأخبار الشنيعة ، لاسيّما الّتى فيها إخراجُهم من ملّة الإسلام ، لاتكاد تجدها إلاّ فى كتب المشارقة من البغداديّين والشاميّين ، كالمنتظم لابن الجوزى ، والكامل لابن الأثير ، وتاريخ حلب لابن أبى طىّ ، وتاريخ العماد لابن كثير ، وكتاب ابن واصل الحموى ، وكتاب ابن شدّاد ، وكتاب العماد الأصفهانى ، ونحو هؤلاء . أمّا كتب المصريّين الّذين اعتنَوْا بتدوين أخبارها فلا تكاد تجد فى شىء منها ذلك ألْبتة . فحكِّم العقل ، واهزم جيوش الهوى ، وأعْطِ كلّ ذى حقٍّ حقه ، ترْشُد إن شاء الله تعالى .

ذكر ما صار إليه أولادهم

ولمّا مات العاضد غسله ابنُه داود وصلّى عليه ، وجلس على الشّدة[1] ، واستدعى صلاح الدّين ليبايعه ، فامتنع ، وبعث إليه : أنا نائبٌ عن أبيك فى الخلافة ولم يُوصِ بأنّك ولىٌّ عهده . وقبض عليه وعلى بقيّة أولاد العاضد وأقاربه فى سادس شعبان سنة تسعٍ وستّين وخمسمائة ، ونقله هو وجميع أقاربه وأهله إلى دار المظفّر[2] من حارة برجوان فى العشر الأخير من شهر رمضان ، ووكل عليهم وعلى جميع ذخائر القصر ، وفرّق بين الرّجال والنّساء حتى لا يحصل منهم نسْلٌ . وأُغلِقت القصور وتُمُلكت الأملاك التى كانت لهم ، وضربت الألواح على رباعهم وفرقت على خواص صلاح الدّين كثيرٌ منها وبيع بعضُها . وأعطى القصر الكبير لأُمرائه فسكنوا فيه . وأسكن أباه نجم الدّين أيّوب فى اللُّؤلؤة على الخليج ، وصار كلٌّ من استَحسَن من الغزّ دارًا أخرج صاحبها منها وسكنها .

ونُقِلوا إلى قلعة الجبل ، وهم ثلاثة وستُّون نفرًا ، فى يوم الخميس ثانى عِشْرِى رمضان سنة ثمانٍ وستّمائة ، فمَات منهم إلى ربيع الأول سنة أربع وعشرين وستّمائة ثلاثة وعشرون . وتولّى وضع القيود فى أرجلهم الأمير فخر الدّين الطبنا أبو شعرة بن الدّويك والى القاهرة .

قال المهدى أبو طالب محمّد بن على ، ابن الخيمى : وفى سنة ثلاث وعشرين وستّمائة عوقبت بالقلعة ، فوجدت بها من الأشراف أربعين شريفًا وهم : الأمير سليمان بن داود ابن العاضد ، وأبو الفتوح بن العاضد ، وخيدرة بن العاضد ، وجبريل بن العاضد ، وعلىّ بن

---

(١) ولقبوه : الحامد لله . وقد توفى فى زمن العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب فى الحبس ، فقيل إنها صارت من بعده لابنه سليمان بن داود بن العاضد ، وكانت أمه قد ولدته بالصعيد حتى لا يقع فى أيدى الأيوبيين ، فعلم الملك الكامل ابن العادل بخبره فظفر به وحبسه بقلعة الجبل ، وتوفى بها فى سنة خمس وأربعين وستمائة أيام الصالح نجم الدين بن الكامل . مفرج الكروب : ١ : ٢١٠ .

(٢) هى الدار التى أنشأها بدر الجمالى لتكون سكنا له ومقرا لوزارته ، فلما جاء من بعده ابنه الأفضل أنشأ دارا جديدة عرفت بدار الوزارة وظلت المقر الرسمى للوزارة إلى أواخر عهد الفاطميين .

العاضد ، وعبد القاهر بن حيدرة بن العاضد ، وإسماعيل بن عيسى بن العاضد ، وعبد الوهّاب ابن إبراهيم بن العاضد ، وأبو القاسم بن أبي الفتوح ابن العاضد ، وقمر بن على بن العاضد ، ويحيى بن جبريل بن الحافظ ، وسليمان بن يحيى المذكور ، وتميم بن يحيى المذكور ، وعبد الله ابن أبي الطّاهر بن جبريل ، وسليمان بن أبى الطاهر بن جبريل ، وأبو جعفر بن أبي الطّاهر ، وعبد الظّاهر بن أبي الفتوح بن جبريل ، وأبو الحسن بن أبى اليسر بن جبريل ، وأحمد ابن أبي اليسر بن جبريل ، وأبو الحسن بن أبي العبّاس حسن بن الحافظ ، وإبراهيم ابن عبد المحسن بن عبد الوهّاب بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر ، ويونس ابن سليمان بن عبد الخالق بن أبي الحسن بن أبي القاسم ، وأبو اليسر بشارة بن عبد المحسن ابن أبي محمّد بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر ، وجعفر بن موسى بن محسن ابن داود بن المستنصر ، وعلى بن سليمان بن أبي عبد الله بن داود بن المستنصر ، وأبو الفضل ابن عبد المجيد بن أبي الحسن بن جعفر بن المستنصر ، ويحيى بن صدقة بن شبل بن عبد المجيد بن أبي الحسن بن جعفر بن المستنصر ، وعبد الله كمال بن داود بن داود ابن يحيى بن أبي علىّ بن جعفر بن المستنصر ، وأبو علىّ بن عبد الرّحمن بن يحيى بن أبي علىّ بن جعفر بن المستنصر ، وسليمان بن عبد الصّمد بن أبي عبد الله بن عبد الكريم بن أبي اليسر بن جعفر بن المستنصر ، وأبو علىّ بن عبد الصّمد [١٦٩ب] ، أخوه ، وعبد الكريم ابن إبراهيم بن أبي الحسن بن عبد الله بن المستنصر ، وعبد الغنى بن أبي الرّضا بن أبي الحسن بن عبد الله بن المستنصر ، وعبد الصّمد بن سليمان بن محمّد بن حيدرة بن عقيل ابن المستنصر ، وإسماعيل بن صدقة بن أبي اليسر بن إسحاق بن المستنصر ، وأبو محمّد ابن موسى بن عبد القادر بن أبي الحسن بن إسحاق بن المستنصر ، وعبد الصّمد بن حسن ابن أبي الحسن من أولاد المستنصر .

ولم يزالوا معتقلين بقلعة الجبل إلى أن حُوِّلوا منها سنة إحدى وسبعين وستّمائة .

هذا آخر ما وجد بخط مؤلفه عفا الله عنه

آخر كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين
الخلفا للمقريزى .

من كتابة فقير رحمة الله محمد بن أحمد
الجيزى الأزهرى الشافعى ، لطف الله تعالى (به)
وغفر ذنوبه وستر عيوبه والمسلمين أجمعين .
فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة .

ملحقات

١ ــ الخلفاء الفاطميون
٢ ــ تواريخ مقــارنة
٣ ــ الفهــــارس
(أ) فهرس الأعلام
(ب) فهرس الأماكن
(جـ) فهرس الأمم والقبائل والأحــزاب والدول والشعوب والمذاهب .
(د) فهرس الألفاظ الاصطلاحية
(هـ) فهــرس الموضوعات

الخلفاء الفاطميون

١	المهدى عبيد الله	٢٩٦ — ٣٢٢ هـ	٩٠٩ — ٩٣٤ م
٢	القائم بأمر الله ابو القاسم محمد (وقيل عبد الرحمن) بن المهدى عبيد الله .	٣٢٢ — ٣٣٤ هـ	٩٣٤ — ٩٤٥ م
٣	المنصور بنصر الله ابو الطاهر اسماعيل ابن القائم بأمر الله .	٣٣٤ — ٣٤١ هـ	٩٤٥ — ٩٥٢ م
٤	المعز لدين الله ابو تميم معد بن المنصور بنصر الله ابى الطاهر اسماعيل	٣٤١ — ٣٦٥ هـ	٩٥٢ — ٩٧٥ م
٥	العزيز بالله ابو المنصور نزار بن المعز لدين الله ابى تميم معد	٣٦٥ — ٣٨٦ هـ	٩٧٥ — ٩٩٦ م
٦	الحاكم بأمر الله ابو على منصور ابن العزيز بالله ابى المنصور نزار	٣٨٦ — ٤١١ هـ	٩٩٦ — ١٠٢٠ م
٧	الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن على بن الحاكم بأمر الله ابى على منصور	٤١١ — ٤٢٧ هـ	١٠٢٠ — ١٠٣٥ م
٨	المستنصر بالله ابو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله ابى الحسن على	٤٢٧ — ٤٨٧ هـ	١٠٣٥ — ١٠٩٤ م
٩	المستعلى بالله ابو القاسم احمد ابن المستنصر بالله ابى تميم معد .	٤٨٧ — ٤٩٥ هـ	١٠٩٤ — ١١٠١ م
١٠	الآمر باحكام الله ابو على المنصور ابن المستعلى بالله ابى القاسم احمد	٤٩٥ — ٥٢٤ هـ	١١٠١ — ١١٣٠ م

١١ — * الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد ابن المستنصر بالله .	٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ١١٣٠ — ١١٤٩ م
١٢ — الظافر بأمر الله أبو المنصور اسماعيل ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد	٥٤٤ — ٥٤٩ هـ ١١٤٩ — ١١٥٤ م
١٣ — الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى ابن الظافر بأمر الله أبى المنصور اسماعيل	٥٤٩ — ٥٥٥ هـ ١١٥٤ — ١١٦٠ م
١٤ — * العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله	٥٥٥ — ٥٦٦ أ ، ٥٦٧ هـ ١١٦٠ — ١١٧١ م

(*) من بين الخلفاء الفاطميين جميعا لم يل الخلافة من لم يكن أبوه خليفة غير الخليفتين الحافظ عبد المجيد والعاضد عبد الله .

تواريخ مقارنة

تواريخ مقـــــارنة (١)

السنة الهجرية	تبدأ بالتـــاريخ الميلادى فى
٢٩١*	٢٤ نوفمبر ٩٠٣
٢٩٢	١٣ نوفمبر ٩٠٤
٢٩٣	٢ نوفمبر ٩٠٥
٢٩٤	٢٢ أكتوبر ٩٠٦
٢٩٥	١٢ أكتوبر ٩٠٧
٢٩٦	٣٠ سبتمبر ٩٠٨
٢٩٧	٢٠ سبتمبر ٩٠٩
٢٩٨	٩ سبتمبر ٩١٠
٢٩٩	٢٩ أغسطس ٩١١
٣٠٠	١٨ أغسطس ٩١٢
٣٠١	٧ أغسطس ٩١٣
٣٠٢	٢٧ يوليو ٩١٤
٣٠٣	١٧ يوليو ٩١٥
٣٠٤	٥ يوليو ٩١٦
٣٠٥	٢٤ يونيه ٩١٧
٣٠٦	١٤ يونيه ٩١٨
٣٠٧	٣ يونيه ٩١٩
٣٠٨	٢٣ مايو ٩٢٠
٣٠٩	١٢ مايو ٩٢١
٣١٠	١ مايو ٩٢٢
٣١١	٢١ إبريل ٩٢٣
٣١٢	٩ إبريل ٩٢٤
٣١٣	٢٩ مارس ٩٢٥
٣١٤	١٩ مارس ٩٢٦
٣١٥	٨ مارس ٩٢٧
٣١٦	٢٥ فبراير ٩٢٨
٣١٧	١٤ فبراير ٩٢٩
٣١٨	٣ فبراير ٩٣٠
٣١٩	٢٤ يناير ٩٣١
٣٢٠	١٣ يناير ٩٣٢
٣٢١	١ يناير ٩٣٣
٣٢٢	٢٢ ديسمبر ٩٣٣
٣٢٣	١١ ديسمبر ٩٣٤
٣٢٤	٣٠ نوفمبر ٩٣٥
٣٢٥	١٩ نوفمبر ٩٣٦
٣٢٦	٨ نوفمبر ٩٣٧
٣٢٧	٢٩ أكتوبر ٩٣٨
٣٢٨	١٨ أكتوبر ٩٣٩
٣٢٩	٦ أكتوبر ٩٤٠
٣٣٠	٢٦ سبتمبر ٩٤١
٣٣١	١٥ سبتمبر ٩٤٢
٣٣٢	٤ سبتمبر ٩٤٣
٣٣٣	٢٤ أغسطس ٩٤٤
٣٣٤	١٣ أغسطس ٩٤٥
٣٣٥	٢ أغسطس ٩٤٦
٣٣٦	٢٣ يوليو ٩٤٧
٣٣٧	١١ يوليو ٩٤٨
٣٣٨	١ يوليو ٩٤٩
٣٣٩	٢٠ يونيه ٩٥٠
٣٤٠	٩ يونيه ٩٥١
٣٤١	٢٩ مايو ٩٥٢
٣٤٢	١٨ مايو ٩٥٣
٣٤٣	٧ مايو ٩٥٤
٣٤٤	٢٧ إبريل ٩٥٥
٣٤٥	١٥ إبريل ٩٥٦
٣٤٦	٤ إبريل ٩٥٧
٣٤٧	٢٥ مارس ٩٥٨
٣٤٨	١٤ مارس ٩٥٩
٣٤٩	٣ مارس ٩٦٠
٣٥٠	٢٠ فبراير ٩٦١
٣٥١	٩ فبراير ٩٦٢
٣٥٢	٣٠ يناير ٩٦٣

(١) أعلن قيام الخلافة الفاطمية بشمالى افريقية فى ربيع الثانى سنة ٢٩٧ ، واسقط اسم العاضد ، آخر خلفائها من الخطبه ، فى آخر ذى الحجه سنه ٥٦٦ ، فى مصر .

تابع تواريخ مقارنة

السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادى فى
٣٥٣	١٩ يناير ٩٦٤
٣٥٤	٧ يناير ٩٦٥
٣٥٥	٢٨ ديسمبر ٩٦٥
٣٥٦	١٧ ديسمبر ٩٦٦
٣٥٧	٧ ديسمبر ٩٦٧
٣٥٨	٢٥ نوفمبر ٩٦٨
٣٥٩	١٤ نوفمبر ٩٦٩
٣٦٠	٢ نوفمبر ٩٧٠
٣٦١	٢٤ أكتوبر ٩٧١
٣٦٢	١٢ أكتوبر ٩٧٢
٣٦٣	٢ أكتوبر ٩٧٣
٣٦٤	٢١ سبتمبر ٩٧٤
٣٦٥	١٠ سبتمبر ٩٧٥
٣٦٦	٣٠ أغسطس ٩٧٦
٣٦٧	١٩ أغسطس ٩٧٧
٣٦٨	٩ أغسطس ٩٧٨
٣٦٩	٢٩ يوليو ٩٧٩
٣٧٠	١٧ يوليو ٩٨٠
٣٧١	٧ يوليو ٩٨١
٣٧٢	٢٦ يونيه ٩٨٢
٣٧٣	١٥ يونيه ٩٨٣
٣٧٤	٤ يونيه ٩٨٤
٣٧٥	٢٤ مايو ٩٨٥
٣٧٦	١٣ مايو ٩٨٦
٣٧٧	٣ مايو ٩٨٧
٣٧٨	٢١ إبريل ٩٨٨
٣٧٩	١١ إبريل ٩٨٩
٣٨٠	٣١ مارس ٩٩٠
٣٨١	٢٠ مارس ٩٩١
٣٨٢	٩ مارس ٩٩٢
٣٨٣	٢٦ فبراير ٩٩٣
٣٨٤	١٥ فبراير ٩٩٤
٣٨٥	٥ فبراير ٩٩٥
٣٨٦	٢٥ يناير ٩٩٦
٣٨٧	١٤ يناير ٩٩٧
٣٨٨	٣ يناير ٩٩٨
٣٨٩	٢٣ ديسمبر ٩٩٨
٣٩٠	١٣ ديسمبر ٩٩٩
٣٩١	١ ديسمبر ١٠٠٠
٣٩٢	٢٠ نوفمبر ١٠٠١
٣٩٣	١٠ نوفمبر ١٠٠٢
٣٩٤	٣٠ أكتوبر ١٠٠٣
٣٩٥	١٨ أكتوبر ١٠٠٤
٣٩٦	٨ أكتوبر ١٠٠٥
٣٩٧	٢٧ سبتمبر ١٠٠٦
٣٩٨	١٧ سبتمبر ١٠٠٧
٣٩٩	٥ سبتمبر ١٠٠٨
٤٠٠	٢٥ أغسطس ١٠٠٩
٤٠١	١٥ أغسطس ١٠١٠
٤٠٢	٢٤ أغسطس ١٠١١
٤٠٣	٢٣ يوليو ١٠١٢
٤٠٤	١٣ يوليو ١٠١٣
٤٠٥	٣ يوليو ١٠١٤
٤٠٦	٢١ يونيه ١٠١٥
٤٠٧	١٠ يونيه ١٠١٦
٤٠٨	٣٠ مايو ١٠١٧
٤٠٩	٢٠ مايو ١٠١٨
٤١٠	٩ مايو ١٠١٩
٤١١	٢٧ إبريل ١٠٢٠
٤١٢	١٧ إبريل ١٠٢١
٤١٣	٦ إبريل ١٠٢٢
٤١٤	٢٦ مارس ١٠٢٣
٤١٥	١٥ مارس ١٠٢٤
٤١٦	٤ مارس ١٠٢٥
٤١٧	٢٢ فبراير ١٠٢٦
٤١٨	١١ فبراير ١٠٢٧
٤١٩	٣١ يناير ١٠٢٨
٤٢٠	٢٠ يناير ١٠٢٩

تابـــع تواريخ مقـــارنة

السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادى فى
٤٢١	٩ يناير ١٠٣٠
٤٢٢	٢٩ ديسمبر ١٠٣٠
٤٢٣	١٩ ديسمبر ١٠٣١
٤٢٤	٧ ديسمبر ١٠٣٢
٤٢٥	٢٦ نوفبر ١٠٣٣
٤٢٦	١٦ نوفبر ١٠٣٤
٤٢٧	٥ نوفبر ١٠٣٥
٤٢٨	٢٥ أكتوبر ١٠٣٦
٤٢٩	١٤ أكتوبر ١٠٣٧
٤٣٠	٣ أكتوبر ١٠٣٨
٤٣١	٢٣ سبتمبر ١٠٣٩
٤٣٢	١١ سبتمبر ١٠٤٠
٤٣٣	٣١ أغسطس ١٠٤١
٤٣٤	٢١ أغسطس ١٠٤٢
٤٣٥	١٠ أغسطس ١٠٤٣
٤٣٦	٢٩ يوليو ١٠٤٤
٤٣٧	١٩ يوليو ١٠٤٥
٤٣٨	٨ يوليو ١٠٤٦
٤٣٩	٢٨ يونيه ١٠٤٧
٤٤٠	١٦ يونيه ١٠٤٨
٤٤١	٥ يونيه ١٠٤٩
٤٤٢	٢٦ مايو ١٠٥٠
٤٤٣	١٥ مايو ١٠٥١
٤٤٤	٣ مايو ١٠٥٢
٤٤٥	٢٣ إبريل ١٠٥٣
٤٤٦	١٢ إبريل ١٠٥٤
٤٤٧	٢ إبريل ١٠٥٥
٤٤٨	٢١ مارس ١٠٥٦
٤٤٩	١٠ مارس ١٠٥٧
٤٥٠	٢٨ فبراير ١٠٥٨
٤٥١	١٧ فبراير ١٠٥٩
٤٥٢	٦ فبراير ١٠٦٠
٤٥٣	٢٦ يناير ١٠٦١
٤٥٤	١٥ يناير ١٠٦٢

السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادى فى
٤٥٠	٤ يناير ١٠٦٣
٤٥٦	٢٥ ديسمبر ١٠٦٣
٤٥٧	١٣ ديسمبر ١٠٦٤
٤٥٨	٣ ديسمبر ١٠٦٥
٤٥٩	٢٢ نوفبر ١٠٦٦
٤٦٠	١١ نوفبر ١٠٦٧
٤٦١	٣١ أكتوبر ١٠٦٨
٤٦٢	٢٠ أكتوبر ١٠٦٩
٤٦٣	٩ أكتوبر ١٠٧٠
٤٦٤	٢٩ سبتمبر ١٠٧١
٤٦٥	١٧ سبتمبر ١٠٧٢
٤٦٦	٦ سبتمبر ١٠٧٣
٤٦٧	٢٧ أغسطس ١٠٧٤
٤٦٨	١٦ أغسطس ١٠٧٥
٤٦٩	٥ أغسطس ١٠٧٦
٤٧٠	٢٥ يوليو ١٠٧٧
٤٧١	١٤ يوليو ١٠٧٨
٤٧٢	٤ يوليو ١٠٧٩
٤٧٣	٢٢ يونيه ١٠٨٠
٤٧٤	١١ يونيه ١٠٨١
٤٧٥	١ يونيه ١٠٨٢
٤٧٦	٢١ مايو ١٠٨٣
٤٧٧	١٠ مايو ١٠٨٤
٤٧٨	٢٩ إبريل ١٠٨٥
٤٧٩	١٨ إبريل ١٠٨٦
٤٨٠	٨ إبريل ١٠٨٧
٤٨١	٢٧ مارس ١٠٨٨
٤٨٢	١٦ مارس ١٠٨٩
٤٨٣	٦ مارس ١٠٩٠
٤٨٤	٢٣ فبراير ١٠٩١
٤٨٥	١٢ فبراير ١٠٩٢
٤٨٦	١ فبراير ١٠٩٣
٤٨٧	٢١ يناير ١٠٩٤
٤٨٨	١١ يناير ١٠٩٥

تابـــع تواريخ مقـــارنة

السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادى فى	السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادى فى
٤٨٩	٣١ ديسمبر ١٠٩٥	٥٢٣	٢٥ ديسمبر ١١٢٨
٤٩٠	١٩ ديسمبر ١٠٩٦	٥٢٤	١٥ ديسمبر ١١٢٩
٤٩١	٩ ديسمبر ١٠٩٧	٥٢٥	٤ ديسمبر ١١٣٠
٤٩٢	٢٨ نوفبر ١٠٩٨	٥٢٦	٢٣ نوفبر ١١٣١
٤٩٣	١٧ نوفبر ١٠٩٩	٥٢٧	١٢ نوفبر ١١٣٢
٤٩٤	٦ نوفبر ١١٠٠	٥٢٨	١ نوفبر ١١٣٣
٤٩٥	٢٦ أكتوبر ١١٠١	٥٢٩	٢٢ أكتوبر ١١٣٤
٤٩٦	١٥ أكتوبر ١١٠٢	٥٣٠	١١ أكتوبر ١١٣٥
٤٩٧	٥ أكتوبر ١١٠٣	٥٣١	٢٩ سبتمبر ١١٣٦
٤٩٨	٢٣ سبتمبر ١١٠٤	٤٣٢	١٩ سبتمبر ١١٣٧
٤٩٩	١٣ سبتمبر ١١٠٥	٥٣٣	٨ سبتمبر ١١٣٨
٥٠٠	٢ سبتمبر ١١٠٦	٥٣٤	٢٨ أغسطس ١١٣٩
٥٠١	٢٢ أغسطس ١١٠٧	٥٣٥	١٧ أغسطس ١١٤٠
٥٠٢	١١ أغسطس ١١٠٨	٥٣٦	٦ أغسطس ١١٤١
٥٠٣	٣١ يوليو ١١٠٩	٥٣٧	٢٧ يوليو ١١٤٢
٥٠٤	٢٠ يوليو ١١١٠	٥٣٨	١٦ يوليو ١١٤٣
٥٠٥	١٠ يوليو ١١١١	٥٣٩	٤ يوليو ١١٤٤
٥٠٦	٢٨ يونيه ١١١٢	٥٤٠	٢٤ يونيه ١١٤٥
٥٠٧	١٨ يونيه ١١١٣	٥٤١	١٣ يونيه ١١٤٦
٥٠٨	٧ يوليه ١١١٤	٥٤٢	٢ يونيه ١١٤٧
٥٠٩	٢٧ مايو ١١١٥	٥٤٣	٢٢ مايو ١١٤٨
٥١٠	١٦ مايو ١١١٦	٥٤٤	١١ مايو ١١٤٩
٥١١	٥ مايو ١١١٧	٥٤٥	٣٠ إبريل ١١٥٠
٥١٢	٢٤ إبريل ١١١٨	٥٤٦	٢٠ إبريل ١١٥١
٥١٣	١٤ إبريل ١١١٩	٥٤٧	٨ إبريل ١١٥٢
٥١٤	٢ إبريل ١١٢٠	٥٤٨	٢٧ مارس ١١٥٣
٥١٥	٢٢ مارس ١١٢١	٥٤٩	١٨ مارس ١١٥٤
٥١٦	١٢ مارس ١١٢٢	٥٥٠	٧ مارس ١١٥٥
٥١٧	١ مارس ١١٢٣	٥٥١	٢٥ فبراير ١١٥٦
٥١٨	١٩ فبراير ١١٢٤	٥٥٢	١٣ فبراير ١١٥٧
٥١٩	٧ فبراير ١١٢٥	٥٥٣	٢ فبراير ١١٥٨
٥٢٠	٢٧ يناير ١١٢٦	٥٥٤	٢٣ يناير ١١٥٩
٥٢١	١٧ يناير ١١٢٧	٥٥٥	١٢ يناير ١١٦٠
٥٢٢	٦ يناير ١١٢٨	٥٥٦	٣١ ديسمبر ١١٦٠

تابـــع تواريخ مقـــارنة

السنة الهجرية	تبدأ بالتاريخ الميلادى فى
٥٥٧	٢١ ديسمبر ١١٦١
٥٥٨	١٠ ديسمبر ١١٦٢
٥٥٩	٣٠ نوفمبر ١١٦٣
٥٦٠	١٨ نوفمبر ١١٦٤
٥٦١	٧ نوفمبر ١١٦٥
٥٦٢	٢٨ أكتوبر ١١٦٦
٥٦٣	١٧ أكتوبر ١١٦٧
٥٦٤	٥ أكتوبر ١١٦٨
٥٦٥	٢٥ سبتمبر ١١٦٩
٥٦٦	١٤ سبتمبر ١١٧٠
٥٦٧	٤ سبتمبر ١١٧١
٥٦٨	٢٣ أغسطس ١١٧٢
٥٦٩	١٢ أغسطس ١١٧٣
٥٧٠	٢ أغسطس ١١٧٤

الفهارس

المرجو ملاحظة ما يأتى :

١ — روعى فى اعداد هذه الفهـارس صرف النظر عن اداة التعريف .

٢ — لا اعتداد بالكنية ولا باللقب . الا :

(أ) اذا كانت الكنية اسماً اصيلا ، مثل : ابو على بن عبد الصـمد بن ابى عبـد الله ابن عبد الكريم بن ابى اليسر بن جعفر بن المستنصر .

(ب) اذا لم يمكن العثور على اسم صاحب الكنية ، مثل : ابو محمـد بن ابى الحسـن ابن ابى اسامة .

(ج) اذا كان العلم المترجم له مشـتهرا بالكنيـة ، فعندئذ ترد الكنيـة فى موضعها مع الارشاد الى الاسم والاحالة الى مكانه ، مثل : ابو بكر المـادرائى .

٣ — الشخصيات المشتهرة بلقب بعينه وردت فى مجال شهرتها ، مثل : كل الخلفاء الفاطميين ، ومثل : القاضى الفاضل (فى حـرف القاف) ، الأفضل الجمالى (فى حرف الالف) .

٤ — وضع هذه العلامة * قبل اسـم من الأعلام دليل على ان هذه الشخصية قد ترجم لها فى التعليقات .

والله الموفق

(أ)
الأعــلام

حـــرف الألف

حـــرف البـــاء

حــرف التــاء

حـــرف الثـــاء

حـــرف الجيم

حــرف الحــاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حـرف الصـاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حـــرف العين

حــرف الغــين

حــرف الفــاء

حــرف القــاف

حرف الـــكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النــون

حرف الهـاء

حرف الــواو

حرف اليــاء

(ب)
الأماكن والبلدان

حرف البـاء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخـاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حـــرف الطـــاء

حـــرف العـــين

حـرف الغـين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

كنيسة بوشنوده (٢) : ٩٤ — ٩٥

حرف اللام

حرف الميم

فهـــرس
الأمم والقبائل والأحزاب والدول والشعوب والمذاهب . . .

حـــرف الألف

حرف الباء

حرف التـاء

حرف الثـاء

حرف الجيم

حرف الحـاء

حـــرف الزاى

حرف الســين

حرف الشـــين

حرف الصـــاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغـين

حرف الفـاء

حرف النـــون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

« د »

فهرس الألفاظ الاصطلاحية

حرف الألف

حـرف البـاء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حــرف الحــاء

حرف الخاء

حـرف الدال

حـــرف الذال

حـــرف الـــراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حـرف الصـاد

حـرف الضـاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اليـــاء

« هـ »

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
الظافر بأمر الله ابو المنصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله . .	١٩٣ — ٢١٠
سنة خمس واربعين وخمسمائة	٢٠١
سنة ست واربعين وخمسمائة	٢٠٢
سنة سبع واربعين وخمسمائة	٢٠٣
سنة ثمان واربعين وخمسمائة	٢٠٤
سنة تسع واربعين وخمسمائة	٢٠٨
الفائز بنصر الله ابو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله . . .	٢١١ — ٢٤٠
سنة خمسين وخمســمائة	٢٢٤
سنة احدى وخمسين وخمسمائة	٢٢٩
سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة	٢٣٠
سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة	٢٣٣
سنة أربع وخمسين وخمسمائة	٢٣٦
سنة خمس وخمسين وخمسمائة	٢٣٨
العاضد لدين الله ابو محمد عبد الله بن الأمـير يوسف . . .	٢٤١ — ٣٣٤
سنة ست وخمسين وخمسمائة	٢٤٦
سنة سبع وخمسين وخمسمائة	٢٥٦
سنة ثمان وخمسين وخمسمائة	٢٥٧
سنة تسع وخمسين وخمسمائة	٢٦٤
سنة ستين وخمسمائة	٢٧٩
سنة احدى وستين وخمسمائة	٢٨١
سنة اثنتين وستين وخمسمائة	٢٨٢
سنة ثلاث وستين وخمســمائة	٢٨٩
سنة أربع وستين وخمســمائة	٢٩١
سنة خمس وستين وخمسمائة	٣١٥
سنة ست وستين وخمســمائة	٣١٩
سنة سبع وستين وخمســمائة	٣٢٤
ذكر طرف من ترتيب الدولة الفاطميـــة	٣٣٥
ذكر ما عيب عليهـم	٣٤٥
ذكر ما صار اليه اولادهم	٣٤٧

حاز شرف طباعة وتجليد هذا الكتاب

مؤسسة الأهرام

بجمهورية مصر العربية

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

إبراهيم نافع

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

المدير العام

فتحي الشرقاوي